موسوعة الشرباصي في الخطب المنبرية

تأليف

الدكتور

أحمد الشرباصي

الجزء الثالث

دار الجيل - بيروت

الموسوعة الشرباصية
في
الخطب المنبرية

الموسوعة الشرباصية في الخطب المنبرية

تأليف

الدكتور أحمد الشرباصي

المجلد الثالث

دار الجيل
ص.ب ٨٧٣٧ - ت: ٢٦٦١٥٨
بيروت - لبنان

بسم الله الرحمن الرحيم

أحمد الله تبارك وتعالى ، وأصلي وأسلم على أنبيائه ورسله ، وعلى خاتمهم سيدنا محمد وعلى آله وصحابته ومن دعا بدعوته بإحسان إلى يوم الدين .

واستفتح بالذى هو خير « ربنا عليك توكلنا ، وإليك أنبنا ، وإليك المصير » . « ربنا هيء لنا من أمرنا رشداً » .

تقـــديم

إن خطبة الجمعة من شعائر الإسلام الكبرى ، ومعانيها تنساب إلى النفوس فى لحظات انعطاف إلى الله وتقبل لوصاياه .

ومن هنا كان موضوعها عظيم الأثر كبير الخطر ، والإمام الذى يدرس موضوعه ، ويجيد عرضه ، يقوم بنصيب كبير فى تثقيف الأمة ، وترشيد نهضتها ، ودعم كيانها المادى والأدبى ، ووصل غدها المأمول بماضيها المجيد .

وإدراكاً لمكانة الخطبة المنبرية فى المسجد ومحاولة للنهوض بها حتى تصل إلى مستواها اللائق . نقدم للقارئ الكريم الجزء الثالث من « الموسوعة الشرباصية فى الخطب المنبرية» مشتملا على مائة خطبة على المنهج الذى أخرجت عليه الأجزاء السابقة .

والله تعالى أسأل أن ينفع به وأن يجزى مؤلفه أستاذنا الدكتور أحمد الشرباصى عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء .

وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب .

دكتور عبد الستار حسين زموط
المدرس بكلية اللغة العربية
جامعة الأزهر بالقاهرة

من مظاهر القدرة الالهية(١)

الحمد لله ، يحذر من الغفلة والنسيان ، ويدعو إلى التذكر ويجعله برهان الإيمان : « إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً وعلى ربهم يتوكلون » . نشهد أن لا إله إلا أنت ، تضاعف لمن شكرك ، ولا تهمل من ذكرك : « فاذكرونى أذكركم واشكروا لى ولا تكفرون » . ونشهد أن سيدنا ومولانا محمدا عبدك ورسولك ، ما انقطع منك ولا شغل عنك ، فكان بفضلك أغنى الأغنياء وأسعد السعداء ، فصلواتك اللهم وسلامك عليه ، وعلى آله الواصلين ، وأصحابه المتقربين ، وأتباعه المنيبين « الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ، ويتفكرون فى خلق السموات والأرض ، ربنا ما خلقت هذا باطلا ، سبحانك ، فقنا عذاب النـــار » .

يا أتباع محمد عليه السلام . . .

إن منبر الجمعة فى الإسلام صوت يتردد بين المسلمين كل أسبوع ، ليهدى إلى الحق وإلى طريق مستقيم ، فيذكر بالدين كما يذكر بالدنيا ، ويصف أمراض المجتمع ، ويستمد لها الدواء من طب الرحمن وعلاج القرآن ؛ وطالما ترددت بيننا صيحات تذكر المسلمين بأمجادهم فى الأرض ، وتصور لهم رسالتهم بين العالمين ، وتحذرهم من حياة الضعف والهوان ؛ ولعل هذه الصيحات قد ربطتنا بعجلة الدنيا الصاخبة الطامعة أكثر من اللازم ، فمن الواجب علينا إذن أن نلتفت من حين لحين إلى مرآة الإيمان فى صدورنا ، نجلوها بالعبر ، ونطهرها بالذكر ، فإن تتابع العكوف على مطالب العيش

---

(١) ألقيت هـذه الخطبـة فى يـوم الجمعـة ١٩ جمـادى الأولى سنة ١٣٧١ هـ الموافق ١٥ فبراير سنة ١٩٥٢ م

وحدها يصيب هذه المرآة بالصدأ ثم الانطماس ، إذا لم يكن هناك ادكار يأتى عن طريق الرجوع إلى الله ، والدخول فى حماه ، والتدبر فى واسع قدرته وسلطانه ، ولعل هذا هو السر فى قوله تعالى : « واذكر ربك إذا نسيت ، وقل عسى أن يهدينى ربى لأقرب من هذا رشداً » . .

تعالوا بنا إذن نقم بجولة قصيرة فى زاوية من زوايا القدرة الإلهية ، لنرى من صنعها عجباً يحد من اغترارنا بأنفسنا ، ويقوى من إيماننا بخالقنا ، ويوثق صلاتنا بعقيدتنا ، وفى ذلك فلاح لنا ونجاح . . . انظروا مثلا إلى صنع الله فى خلق الإنسان ، كيف ابتدع عز شأنه الحياة من العدم ، والحركة من الجماد ، والعقل المدبر من الطين ، والقلب الشاعر من الحمأ المسنون ،وكيف أظهر فى خلق هذا الإنسان ألواناً من سلطانه وعظمته ، فخلق أول إنسان وهو آدم بلا أبوين ، من تراب مهين ، ليكون ذلك عنواناً على الإبداع الذى لم يسبقه مثال ، ثم خلق بعد ذلك ملايين الناس من أبوين ، ليكون ذلك مقابلا لخلق آدم عليه السلام ؛ ثم أرانا نوعاً ثالثاً من العظمة الربانية ، فخلق حواء بلا أم ، إذ أنشأها من آدم ، فكان لها كالأب ، ولم تكن لها والدة ، ثم أرانا نوعاً رابعاً من عظمته ، فخلق عيسى عليه السلام بلا والد ، إذ أرسل سفيره جبريل إلى مريم البتول العذراء فنفخ فى شق درعها من روحه فحملت بابنها آية لقومها من ربها ، والله بكل شىء محيط : « ومريم ابنة عمران التى أحصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا وصدقت بكلمات ربها وكتبه وكانت من القانتين » . وهكذا يكون اتساع القدرة فى الإيجاد والخلق ، فإنسان بلا أبوين وامرأة بلا أم ، وإنسان بلا أب ، وأناسى لهم آباء وأمهات . وصدق العلى الكبير : « إنما قولنا لشىء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون » ، « فسبحان الذى بيده ملكوت كل شىء وإليه ترجعون » .

وثمة ناحية أخرى ، نرى فيها للخالق اقتداراً كلياً واختياراً مطلقاً ،

ونزداد عندها إيماناً بأن للكون خالقاً سبحانه ، حكمته فوق حكمتنا ، وعلمه أوسع من علمنا ، وسلام الله على الخضر يوم ركب السفينة مع موسى ، فرأى عصفوراً يتناول بمنقاره قطرات من ماء النهر الكبير الواسع ، فقال لموسى : « ما مثل علمى وعلمك بالنسبة إلى علم الله إلا كمثل ما أخذ هذا العصفور بمنقاره إلى ما بقى فى النهر من ماء » . . .

هذه الناحية هى أن الله جعل الناس فيما يتعلق بالذرية أصنافاً وألواناً ، ففريق يوهبون الذرية ذكوراً وإناثاً ، وفريق لا يوهبون من ذلك شيئاً ، وفريق يوهبون الذكور فحسب ، وفريق يوهبون الإناث فحسب ، والله أعلم حيث يكون الخير والصواب ، وفوق تدبيرنا لله تدبير ، ولله الحمد والمنة على كل حال : « لله ملك السموات والأرض ، يخلق ما يشاء ، يهب لمن يشاء إناثاً ، ويهب لمن يشاء الذكور ، أو يزوجهم ذكراناً وإناثاً ، ويجعل من يشاء عقيماً ، إنه عليم قدير » .

أليس فى مثل هذا أى تذكير للغافلين المسرفين فى حرصهم ومطامعهم ، تذكير بأن الله هو مالك الملك ، يؤتيه من يشاء ، وينزعه ممن يشاء ، ويعز من يشاء ، ويذل من يشاء ، وأن الخير كله بيده ، وأنه على كل شىء قدير ، ولذلك يجمل بهم ، بل يجب عليهم ، أن يدخلوا زمرة الذاكرين التائبين ، حتى ينالوا التوفيق من الله رب العالمين : « والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ، ومن يغفر الذنوب إلا الله ، ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون ، أولئك جزاؤهم مغفرة من ربهم ، وجنات تجرى من تحتها الأنهار ، خالدين فيها ، ونعم أجر العاملين » . .

يا أتباع محمد عليه السلام . . .

قد يضل ضال فيقول : ما بال هذه العظة المألوفة المعروفة تكرر علينا

وتعاد ؟ . . ولكن هذا هو هدى ربكم ، فقد كررو أعاد ، ليسمع ويقنع ، وهذا هو هدى رسولكم فطالما كرر نصحه ، وأعاد إرشاده ، حتى يقول أصحابه : إنه لن يسكت . . . وقرآنكم بعد هذا يقول : « فذكر إن نفعت الذكرى ، سيذكر من يخشى ، ويتجنبها الأشقى ، الذي يصلى النار الكبرى ثم لا يموت فيها ولا يحيي » . فلنجعل الحياة كالصحراء القاسية التي تجذبنا إليها ، لنبحث فيها عن الذهب والفضة ، والمطامع والرغبات ، ثم لنجعل في هذه الصحراء واحات نلجأ إليها ، ونستريح عندها ونجدد قوانا وإيماننا بظلها وهدوئها ، وهذه الواحات هي لحظات الرجوع إلى الله ، والتفكر في علاه ، والتدبر لهداه ؛ « . . . إنها تذكرة ، فمن شاء ذكره » . « فستذكرون ما أقول لكم ، وأفوض أمرى إلى الله ، إن الله بصير بالعباد » . . واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون ، إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون . أقول قولى هذا ، وأستغفر الله لى ولكم . سلوا ربكم التوفيق يستجب لكم .

الايمان شعار العاملين[1]

الحمد لله عز وجل . هو الذى يحق الحق بكلماته ، ويمحق الباطل بقدرته وآياته : « وقل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا » أشهد أن لا إله إلا الله ، المؤمن الذى يؤيد المؤمنين المخلصين ، والمتكبر الذي يبطش بالمنافقين المخادعين : « إن ينصركم الله فلا غالب لكم ، وإن يخذلكم فمن ذا الذى ينصركم من بعده ، وعلى الله فليتوكل المؤمنون » . وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، اعتز بعزته ، واستجاب لكلمته ، فصلوات الله وسلامه عليه ، وعلى ذريته وآله ، وصحبه ورجاله ، « أولئك هم المتقون ، لهم ما يشاءون عند ربهم ، ذلك جزاء المحسنين » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . الناس أمام دعوة الحق أصناف ثلاثة : أولياء مؤمنون ، أو أعداء كافرون ، أو شياطين منافقون . فأما المؤمنون فهم الذين استجابوا لربهم ، وأيقنوا بدعوته ، فحفظوا عهدهم وأخلصوا جهدهم : « أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون » . وأما الأعداء الكافرون فخصوم ظاهرون مجاهرون ، استبد بهم الجحود والنكران فلا استجابة منهم ولا إيمان : « سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون » . وأما الشياطين المنافقون فأولئك شر الداء وأثقل البلاء ، فلا هم مؤمنون نثق بهم ونطمئن إليهم ، ولا هم مصارحون بالعداوة فنعاديهم ونحذر منهم ، بل تراهم مذبذبين بين ذلك ، « لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء ، ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلا » ، « وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزئون ، الله يستهزىء بهم ويمدهم فى طغيانهم يعمهون » .

ولقد صور القرآن الكريم خطر أولئك المخادعين الذين يتظاهرون بالصفاء

---

(١) الجمعة ١٧ من ذى الحجة سنة ١٣٨٢ هـ الموافق ١٢ من أبريل سنة ١٩٦٣ م

والوفاق ، وهم يضمرون الشقاق والنفاق ، فتحدث عنهم فى أوله فى طليعة سورة البقرة : « فى قلوبهم مرض فزادهم الله مرضاً ولهم عذاب أليم بما كانوا يكذبون » . كما تحدث عنهم فى أماكن كثيرة منه ، لافتاً الأبصار والبصائر إلى أنهم أخبث جرثومة وأخطر عدو ، ونزلت باسمهم سورة كاملة بدئت بوصفهم الوبيل ، وهو ترديدهم لكلمات الحق والعدل ، دون أن يكونوا بها مؤمنين : « إذا جاءك المنافقون قالوا نشهد إنك لرسول الله ، والله يعلم إنك لرسوله ، والله يشهد إن المنافقين لكاذبون » . ثم أعطتنا السورة ملامح لهم : ففيهم جسامة ووسامة ، ومنظر ومظهر ، وجهارة وصدارة ، ولسان وبيان ، ولكن القلوب هواء ، والنفوس هباء : « وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم ، وإن يقولوا تسمع لقولهم ، كأنهم خشب مسندة ، يحسبون كل صيحة عليهم ، هم العدو فاحذرهم ، قاتلهم الله أنى يؤفكون » . ويختم القرآن بسورة « الناس » فإذا فيها أيضاً تحذير من المنافقين المعوقين : أليس الوسواس الخناس الذى يوسوس فى صدور الناس أخطر من يعلم جنوده أصول النفاق ؟

ولو تدبرنا بواعث النفاق لوجدنا من أقواها الحقد والحسد ، فإن المنافق الرخيص النفس الخبيث المنبت يسوؤه أن تجرى النعمة على يد سواه ، أو أن يتم إصلاح بوساطة غيره ، فيمتلىء صدره الخسيس حقداً ، ويفيض قلبه الأثيم حسداً ، وكذلك كان شأن المجرمين من قبل . . . فقد تساءلوا بالأمس البعيد : أيهبط القرآن على محمد الضعيف ، ولا يهبط على سيد من سادات الحكام والأمراء والأغنياء ؟ « وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم » ؟ . . أيختص الله بالنبوة والرسالة هذا الشاب اليتيم الفقير ؟ ألم يجد أحداً من الزعماء أو الأغنياء ليرسله : « وإذا رأوك إن يتخذونك إلا هزوا ، أهذا الذى بعث الله رسولا » ؟ . . إن الذل على أيدى سادتنا وكبرائنا خير من العزة على أيدى من لا دور لهم ولا قصور ، وليس عندهم

عقار ولا نضار : « ولئن أطعتم بشرا مثلكم إنكم إذن لخاسرون » ! . وهكذا يمضى أولئك المجرمون لايدعون لوناً من ألوان التعويق والتفريق إلا اصطنعوه واقترفوه ، ولا يتركون إصلاحاً لغيرهم إلا شوهوه وحرفوه ، وصدق خير الأنام محمد عليه الصلاة والسلام حين قال : « إياكم والحسد، فإن الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب » .

ولقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أبرع الواصفين حين حـدد علامات النفاق فقال : «آية المنافق ثلاث : إذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا ائتمن خان » فإن المنافق يحرف الكلم عن مواضعه ، ويختلق الأنباء من عنده ، ويصور الباطل حقاً والحق باطلا ، وإذا اختلى بغافلين أو جاهلين استبد بعقولهم وعواطفهم ، فقدم إليهم أسوأ زاد من التضليل والبهتان . وإذا وعد المنافق أخلف ، فهو يعطى الكلمة ولا يحفظ حقها ، ويقدم الوعد ولا يصون حرمته ، ويرتبط بالعهد ولا يرعى كرامته : لله فى عنقه عهد فهو يضيعه ، وللوطن فى رقبته ميثاق فهو ينقضه ، ولإخوانه فى الوطن حقوق فهو لا يرعاها . وإذا ائتمن المنافق خان : يخون أمانة الله بالجحود والكفران ، ويخون أمانة البلاد بالمروق والبهتان ، ويخون أمانة العباد بالتضييع والخذلان ، ولذلك كان جزاؤه عند الله أسوأ الجزاء : « إن المنافقين فى الدرك الأسفل من النار ، ولن تجد لهم نصيراً » .

وأما المؤمن فهو الجندى الصالح لميادين العمل ، والمكافح الضامن لمكاسب المعركة ، لأن شيمة المؤمن أن يدرس أولا فيعرف ويفهم ، وإذا عرف الحق وأدركه آمن به ووثق فيه ، وما دامت عقيدته قد استقرت فى عقله على يقين ، وفى قلبه على حياة ، فإنه يعبر عن هذه العقيدة بلسانه ، ويترجم عنها ببيانه ، ويقر لها بشهادته وإسلامه ، ثم لا يكتفى بالكلام يعيده ويكرره ، بل هو يقرن القول بالعمل لتكون أعماله تصديقاً لأقواله ، فينفذ

ما آمن به ، ويطبق ماعبر عنه ، وهذا هو معنى قول الفقهاء فى الإسلام إن الإيمان تصديق بالجنان ، وإقرار باللسان ، وأداء للأركان . والمؤمن المخلص لمبادىء الحق والعدل لا يقصر نورها على نفسه ، ولا يحتكر خيرها لذاته ، بل هو يدعو سواه إلى ما اهتدى إليه من صراط ، وهو يحث غيره على اتباع ما عرف من حق ، لأن الدال على الخير كفاعله ، ولأن القرآن يقول : « ومن أحسن قولا ممن دعا إلى الله وعمل صالحاً وقال إننى من المسلمين » .
ومتى آمن الإنسان حقاً أخلص لتحقيق ما آمن به من مبادىء وتعاليم . فهو يعيش بها ويعيش عليها ، لا يرى لنفسه وجوداً دونها ، ولا يحس لدنياه قيمة من غيرها ، ولعل هذا مما يشير إليه الرسول : « لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به » وقوله : « ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان : أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله ، وأن يكره أن يعود إلى الكفر كما يكره أن يقذف فى النار » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . . إن الأمم حينما تبنى نفسها وتشيد مجدها تحتاج إلى المؤمنين المخلصين ، الذين لا يراءون ولا يخادعون ، بل يمضون على الطريق صادقين محقين ، وبمثل هؤلاء تتحقق الآمال وتتم جلائل الأعمال . فليحاول كل منا أن يتدثر بدثار الإيمان بما يقول وبما يعمل يكن من الفائزين . واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون ، إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون .

رجعة الى الله[١]

الحمد لله ، لا مفر من الرجوع إليه ، ولا مناص من الاعتماد عليه : « له مقاليد السموات والأرض ، والذين كفروا بآيات الله أولئك هم الخاسرون ، قل أفغير الله تأمرونى أعبد أيها الجاهلون » . نشهد أن لا إله إلا أنت ، تضل الأفهام ما تضل ثم تجد هداها عندك ، ويتبدل كل شىء أو يزول وأنت الدائم وحدك ، « أفغير دين الله يبغون وله أسلم من فى السموات والأرض طوعاً وكرها وإليه يرجعون » . ونشهد أن سيدنا ومولانا محمدا عبدك ورسولك أقبل عليك فما انصرف عنك ، ووثق بك فما يئس منك ، فصلواتك اللهم وسلامك عليه وعلى الطيبين من ذريته وآله ، والعاملين من صحابته وأتباعه ورجاله : « أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون » . . .

يا أتباع محمد عليه السلام . . .

قد يعرف الإنسان شخصاً من الناس ، تعجبه طباعه وتأسره أخلاقه ، فيألفه ويهواه ، ويؤثره بالمحبة والمودة على من عداه ، وربما جاءت عقارب الإجرام فدبت بين الصديقين بالعداوة والبغضاء ، والإفساد والشحناء ، فتقطع الروابط والأسباب ، وتغرى الإنسان بأن يتطاول بالشتائم والسباب على صديق الأمس وحبيب الأيام الخالية ؛ فإذا تبين للمرء بعد ذلك بالحجة والدليل والبرهان ، أنه كان خاطئاً فى تطاوله ، مخدوعاً فى سوء ظنه بصديقه ، فراجع نفسه وحاسب ذاته ، وعلم أن ذلك المظلوم أهل لكل تقدير ووفاء ، فإنه يعود إلى صداقته مخلصاً إلى الأبد فلا ينصرف عنها ، ويمتزج بها فلا ينفصل منها ، وقد تحاول عقارب السوء تمثيل الدور الأثيم من جديد فلا تفوز إلا بالخيبة والخسران . . .

---

(١) الجمعة ١٩ شوال سنة ١٣٧٠ هـ ١٣ يوليه سنة ١٩٥١ م .

هذا باختصار مثل تركيا فى موقفها من الإسلام الحنيف بالأمس واليوم .. لقد فتحت تركيا صدرها للاسلام على سعته ، فاعتزت به واستمدت منه وتعصبت له ، واستفاد الإسلام من جهودها وبنودها ، واستفادت هى أكثر وأكثر من ضيائه وخيرات أبنائه ، وكان لها فى عصورها الإسلامية شأن مذكور وتاريخ مشهور ، ثم شاء الله لحكمة يعلمها أن تسعى خلالها عقارب الفتنة والضلال ، حتى أوهمتها أنها مريضة هزيلة ، وأن السبب فى مرضها وهزالها هو هذا الدين الذى يصدها عن التسابق إلى ركب المدنية والحضارة ، ومع أن هذا الإيهام كان فرية بلقاء وعورة فى التفكير شوهاء ، فقد انخدعت به تركيا ، وساعد على انخداعها ما كان يحيط بها من مكايد السياسة وفخاخ الأعداء المتربصين بالمسلمين الدوائر فى كل مكان ، وقاد أمور تركيا يومذاك قوم ثارت فى رءوسهم زنابير الإلحاد ، وتحركت فى صدورهم شياطين الزندقة فأخرجوها عن دينها بغياً وكرهاً ، وحاربوا كل مظهر من المظاهر يتصل بالإسلام أو يذكر بدولته ، فاللغة العربية أزيلت ، والعمائم أبيدت ، والمساجد حولت إلى متاحف ، والخدور هتكت حرمتها ، والمسلمة المصونة أخرجت من دارها وحجابها ؛ وصاحب ذلك كله جانب من النصر المادى ، وبريق من النجاح المدنى ، وخطت تركيا فى حمى الثورة ونشوة الانقلاب خطوات هنا وهناك . . . فتشككت فى الإسلام نفوس ، وارتابت فى دين الله رءوس حتى رأينا كلاباً ينسبون إلى البشر يقولون إن الدين هو العقبة فى طريق الإصلاح الاجتماعى والنهوض الوطنى ، وصدق ذلك البهتان أغنام من العوام لا تفقه ما يقال ، ولا تفكر فيما يساق إليها من حديث ، وتعرضت جماعة المسلمين لمحنة قاسية بسبب فقدان أمة من جسم الوطن الإسلامى كان يعتز بها فى الأمس اعتزازاً كبيراً : « هنالك ابتلى المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديداً » . . .

ولكن الأيام مرت ، ونالت تركيا ما نالت ، فاغترفت من الحضارة

الأوربية ، ونهلت من الثقافة اللاتينية ، واستعانت بالبر والفاجر ، وأخذت من العدو والصديق ، وصارت لها الجامعات والمصانع والجيوش والأسلحة ، وخيل للكثيرين أنها سعدت وأنها بلغت ، وأنها حققت لنفسها ما تتمنى ؛ ولكن ما هذا ؟ . . إن همسات من القلق تتردد فى الأرجاء ، وإن عبارات من الضيق تتناثر فى الخفاء ، وإن الشعب التركى يحدث نفسه بأنه لم يسعد ولم يبلغ ، فلا يزال الاضطراب يساوره ، ولا يزال الشقاء يخاتله ويداوره . . وإن شيئاً جليلا كبيراً ينقصه لكى يجعل للحياة معنى وللجهاد لذة وللجماعة غاية ورسالة . . . وطال بالقوم التفكير والتدبير ، وأخيراً عرفوا أنهم يحتاجون إلى الدين ، أنهم يفتقرون كل الافتقار إلى الصديق الذى هجروه بالأمس وكسبوا عداوته العريضة الظاهرة ، بلا ذنب جناه أو تقصير أتاه ، ولكنه كيد الكائدين وإفساد المفسدين وسعى الشياطين : « إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدواً إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير » . . .

وأخذت تركيا أخيراً ترجع إلى الإسلام ، إلى الصديق الذى لا يخون ، والهادى الذى لا يضل ، والرائد الذى لا يكذب أهله ، وكان رجوعها إليه مشهوداً مذكوراً ، إذ كان سريعاً وسيعاً ، فهى تعيد الأذان ، وتسمح بالعمائم وترتيل القرآن ، وتفتح الكليات لتدريس الشريعة الغراء ، وتوفد البعثات إلى الأزهر الشريف ، بل ونرى الشعور الإسلامى يتدفق هداراً فى نفوس أبنائها ، فنرى فيها جماعات كثيرة تنهض لتحطيم التماثيل المنكرة التى تذكر بالوثنية وتؤله الأشخاص بين الناس ، وما من إله إلا إله واحد ، وتطالب بأن تعود الدولة رعاة ورعايا إلى أحضان الإسلام لتتخذ منه الشعار ، وتجعله أمامها المنار ، فتباغ به خير القرار ، فكان هذا الرجوع السافر من تركيا الملحدة بالأمس إلى رحاب الإسلام اليوم دليلا ليس بعده دليل على أن الدين من عند الله ، ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً ، وأن

الإنسان قد يدعوه غروره إلى أن يعتز بعلمه أو قدرته أو صناعته ، فينصرف عن ربه ويسرف فى غلوائه وذنبه ، ثم تأتيه الأيام بالقوارع واللواذع ، فيدرك أنه لا مفر من الله إلا إليه ، وأنه لا اتكال فى الواقع إلا عليه : « ومن يعتصم بالله فقد هدى إلى صراط مستقيم » . ففرحت بذلك الرجوع نفوس مؤمنة ، وتميزت من الغيظ به نفوس مجرمة ، وتمنى المسلمون أن تكمل تركيا توبتها ورجعتها ، وأن تخلص لله نيتها وخطوتها ، حتى يحقق الله لها نصرها وعزتها ، والله ولى العاملين المخلصين . .

يا أتباع محمد عليه السلام . . .

يحق لكم أن ترفعوا رءوسكم من جديد ، فقد لاح نور الأمل على الأفق من بعيد ، فهذه تركيا ترجع إلى الإسلام بعد أن جربت الإعراض عنه ، وهذه باكستان تولد وفى يدها كتاب الله تعتز به وتدعو إليه ، وهذه أندونيسيا تكتب فى سجل العزة الإسلامية الآن صفحات تعلم المتخاذل كيف يكون الإقدام ، وهذه إيران العازمة الحازمة ، وما أدراك ما إيران . . شعلة من الإيمان تتقد ، بعد أن انصهر فى بوتقة جهادها سلطانها وحكامها وعلماؤها وأبناؤها ، فعلموا ذئاب الاغتصاب كيف تسترد الأسلاب ، فإن يشأ الله لمصر مكاناً بين هؤلاء الناهضين فلينفر أبناؤها إلى الله خفافا وثقالا ليجاهدوا فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم ، فقد طال الرقاد على فراش الذلة والاستعباد ، واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون ، إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون . أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم . سلوا ربكم التوفيق يستجب لكم . . .

الله نور السموات والأرض[1]

الحمد لله عز وجل ، هو الذى أنشأ الأبصار وأضاءها بالأنوار ، وأبدع الأرواح وجملها بالحكم والأسرار : « وفى أنفسكم أفلا تبصرون » ، أشهد أن لا إله إلا الله ، بيده ملكوت كل شيء وهو على كل شيء قدير ، وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، فتح مغاليق القلوب بأضواء اليقين والإيمان ، فصلوات الله وسلامه عليه ، وعلى آله وصحبه ، وجنوده وحزبه ، « الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ، ألا بذكر الله تطمئن القلوب » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام :

منذ قليل سألنى سائل قائلا : ما رأيك فى سفينة الفضاء الروسية ذات الرجال الثلاثة ؟ . فأجبته : إنها خطوة من خطوات التقدم العلمى الذى لا يسعنا أن نقف فى وجهه ، وهذا التقدم بعض ما نفهمه من قول الله عز وجل : « علم الإنسان ما لم يعلم » . قال : ولكنا نخشى أن يعود هؤلاء فيقولوا كما قال أخ لهم من قبل متهكماً : لقد جبت الفضاء وبحثت عن الله لكى أراه ، ولكنى لم أجده ، فأجبته : هون عليك فإن رائداً آخر للفضاء متديناً رد على هذا الملحد بقوله : إن الإله الذى أومن به أعظم وأعلى من أن تراه عين ذلك الجاحد لأنه فوق العيون والأبصار . ثم تذكرت حادثة المدرس الملحد الذى قال لتلاميذه : هل ترون الله ؟ قالوا : لا . قال : إذن فالله غير موجود . وبهت التلاميذ ولكن واحداً ذكياً منهم استأذن فى الكلام وقال لزملائه : هل ترون عقل المدرس ؟ . قالوا : لا . فقال : إذن فعقل المدرس غـير موجود . واحمر وجه المدرس غيظاً وخجلا وخيبة ، وكان من ألزم اللوازم

(١) الجمعة ١٠ جمادى الآخرة سنة ١٣٨٤هـ ١٦ أكتوبر سنة ١٩٦٤م

أن يذوب خجلا ، وأن يتميز أسفاً ، لأنه أراد بعقله القاصر وفهمه الخاسر أن يرى ببصره الكليل وعقله الضئيل الله العلى الكبير الذى لا تدركه الأبصار ، وهو يدرك الأبصار ، وهو اللطيف الخبير ، والذى قال له نبيه موسى : « رب أرنى أنظر إليك ، قال : لن ترانى ولكن انظر إلى الجبل ، فإن استقر مكانه فسوف ترانى ، فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا ، وخر موسى صعقا ، فلما أفاق قال : سبحانك ، تبت إليك ، وأنا أول المؤمنين » .

إن الخالق البارىء المصور قد أودع عين الإنسان قوة الإبصار ، وآتاها من نور الحس ما تدرك به المحسوسات ، ولكنه وهب الروح نوراً آخر تبصر به المعانى والنفحات ، وأعطى العقل السليم ضوءاً فكرياً يسترشد به فيهتدى إلى الكثير من المدركات ، وشتان بين رؤية العين ورؤية العقل ، فالعين لا تنظر إلا ما قرب منها والعقل ينظر ما قرب وما بعد ، والعين لا ترى ما وراء ستار ولو كان قريباً ، والعقل لا تمنعه الأستار من الإدراك ، والعين تنظر الأشياء من خارجها وبظواهرها فقط ، والعقل يدرك ظواهرها وبواطنها والعين تدرك المحسوسات ولا تدرك المعنويات كالفرح والحزن ، والألم واللذة ، والعقل يدرك المحسوس والمعنوى معاً ، فكيف يفهم فاهم أو يتوهم واهم أن عينه تغنى أو تكفى فى إدراك الحقائق أو رؤية الخالق الذى ليس كمثله شيء وهو السميع البصير ؟

ومع أن نور العقل أقوى وأعلى من نور العين ، ومع أن العقل البشرى يستطيع أن يصول ويجول فيعرف الكثير ويدرك الكثير ، فإنه هو الآخر قاصر ، له حد يقف عنده ، وله درجة لا يستطيع مجاوزتها ، فهو لا يقدر على حل كل مشكلة ، ولا يمكنه التسيطر على كل معضلة ، فهو يحتاج إلى نور أكبر من نوره ، وضياء أوسع من ضيائه ، ولذلك قرر الحكماء البصراء أن العقل البشرى لابد له من منبه ومرشد ورائد ، يهديه إذا ضل ، ويعينه

إذا عجز ، وهذا المرشد الرائد هو النبي الرسول المعصوم الذى صنعه الله على عينه ، وأمده بوحيه وكلماته ، وآتاه ما لم يؤت عامة الناس ؛ ولعل هذا هو السر فى أن القرآن المجيد قد سمى سيدنا محمداً عليه الصلاة والسلام « سراجاً منيراً » . وهذا السراج المنير قد أيده ربه بأعظم رائد للعقل فى مجالاته النورانية ، وأسطع نور يكشف الظلمات ويحل المشكلات ، وهو كتاب الله العلى الأعلى الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، ولذلك وصف الله تبارك وتعالى كتابه بأنه نور ، فقال : « فآمنوا بالله ورسوله والنور الذى أنزلنا » وقال : « قد جاءكم برهان من ربكم وأنزلنا إليكم نوراً مبيناً » وقال : « قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم » . ونفهم من هذا أن النور فى الوجود مراتب ودرجات ، فهناك نور حسى يرشد العين ، فترى الأشياء ، فيوفقها ربها للنظر فيها والتدبر لها ، وهذا التفكر يؤدى إلى تألق نور العقل الذى يرقى بالإنسان ، ويهديه إلى فهم الكثير من الأمور ، وعلى رأسها أن هذا الكون لابد له من قوة عليا تدير شئونه وتدبر أموره ، وأن من حق هذه القوة العليا على الإنسان أن يمجدها ويخضع لها ويسلك إليها السبيل ، ولكن هذا العقل يحتاج فى ذلك إلى دليل يهديه سواء السبيل ، فيقبل نور الرسول ليؤدى واجبه الجليل ، هذا النور النبوى يحكم خطواته الكبرى بنور الهدى الربانى المتمثل فى دين الله وكتابه ، ويمضى الركب المؤمن المستضىء بهذه الأنوار كلها حتى يبلغ حمى الله عز وجل ، وإذا هناك نور الأنوار ، ومصدر الإشراق ، ومبدع الائتلاق ، وخالق الكون كله ، والنور الحق الحقيقى الذى تنبعث منه كل الأنوار ، وتخفت أمامه كل الأضواء : وصدق القرآن إذ يقول : « الله نور السموات والأرض » أى هو الذى ينير المسالك والشعاب لكل من فى السموات والأرض : « ومن لم يجعل الله له نوراً فما له

من نور » « من يهد الله فهو المهتد ، ومن يضلل فلن تجد له ولياً مرشداً » .

وإذا كان الأمر كذلك فكيف يجرؤ مأفون أو مخبول أن يقول إننى بحثت بنظرى أو بعينى عن الله فلم أجده ولم أره ؟ . وكيف يتأتى لنور ضئيل كضوء الفتيل أن يثبت أمام نور السموات والأرض ، ونحن نرى فى دنيانا الضيقة أن المصباح الصغير يتضاءل أمام المصباح الكبير ، فإذا ازداد المصباح الكبير ضخامة وقوة ازداد المصباح الصغير ضآلة وقلة حتى كأنه معدوم ، فأنى للعين الصغيرة التافهة أن تحيط بمصدر الأنوار كلها ، ومبعث الأضواء جميعها ، ونور السموات والأرض بمن فيهما وما فيهما وما بينهما ، وكيف نتصور هذا وسيد الأنام محمد عليه الصلاة والسلام يقول : « إن لله سبعين حجاباً من نور وظلمة ، وإنه لو كشفها لأحرقت سبحات وجهه كل من أدركه بصره » ؟ فالله القديم الباقى الجليل المتعالى ، اللطيف الخبير ، قد أحاط ذاته القدسية ومكانته العلية بحجب كثيرة تنزهه عن المكان والزمان ، وتنزهه عن مشابهة الحوادث والمخلوقات ، ولولا ذلك التشابه المخلوق والخلق ، وتماثل الحادث والقديم ، جل جلال ربنا العظيم ، وحسبنا أن نتذكر هنا ما جاء فى بعض الآثار القدسية من أن الله تعالى لم تسعه أرضه ولا سماؤه ، ولكن وسعه قلب عبده المؤمن وقد روى عن ابن عمر رضى الله عنهما قال : قيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم : أين الله ؟ فى الأرض أو فى السماء ؟ . قال : فى قلوب عباده المؤمنين . وفى الخبر قال الله تعالى : « لم يسعنى أرضى ولا سمائى ، ووسعنى قلب عبدي المؤمن ، اللين الوادع » وقال عمر : « رأى قلبى ربى » فهو سبحانه لا يتحيز فى مكان حتى تطمع العين أن تراه ، ولكنه وضع فى خلقه وآثار كونه مايهدى قلب المؤمن وعقله إلى معرفته والإيمان به : « سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق ، أو لم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام : الصنعة تدل على الصانع ، والمخلوق يدل على الخالق ، وفطرة الإنسان السليمة إذا لم تفسدها العوامل الدخيلة تهدى صاحبها إلى ربها فى وضوح وإشراق ، والذين يغترون بما أوتوا من قوة أو شدة ستأتيهم الساعة التى تريهم ما لم يروا من قبل ، والله من ورائهم محيط ، وسبحان من لو شاء لهدى الناس جميعاً إلى سواء السبيل ، واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون .

مواصلة التقوى[١]

الحمد لله عز وجل ، يراقب ويحاسب ، ويثيب ويعاقب ، يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور . أشهد أن لا إله إلا الله ، عزت النفوس بطاعته ، وخضعت الرقاب لعظمته « وعنت الوجوه للحى القيوم وقد خاب من حمل ظلماً » . وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، عبد ربه ، وخاف ذنبه ، وكان إمام الخاشعين المتقين ، فصلوات الله وسلامه عليه ، وعلى آله وصحبه ، وجنوده وحزبه ، أولئك حزب الله ، ألا إن حزب الله هم المفلحون . . .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

لقد شارف رمضان على الانتهاء وشوال على الإقبال وحينئذ بلغت الناس من قيود الصيام والقيام ، وانفلت بعضهم من الاعتصام بآداب الإسلام وتقاليده ولكن الأخيار الأحرار يظلون كما هم ، لأنهم لا يعبدون رمضان ، وإنما يعبدون الحى الذى لا يموت ولا يزول ، ورضوان الله على أبى بكر الصديق يوم وقف بين المسلمين عقب موت الرسول وصرخ فيهم : « من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات ، ومن كان يعبد الله فإن الله حى لا يموت ، ومامحمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل ، أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً ، وسيجزى الله الشاكرين » . فهؤلاء المؤمنون الأخيار لا يقبلون لأنفسهم أن يرتدوا على أعقابهم بعد أن عرفوا طريق الحق والهدى ، ولا أن ينطلقوا على وجوههم يرتعون فى المآثم والمناكر ، بعد أن ذاقت قلوبهم وأرواحهم لذه الطاعة وحلاوة التقوى ، وإذا كان الله تبارك وتعالى قد فرض عليهم صيام رمضان ، وسن النبى لهم قيامه ، ونهاهم

---

(١) ألقيت بمسجد الامام الرفاعى فى يوم الجمعة ٢ شوال سنة ١٣٧٨ هـ ١٠ أبريل سنة ١٩٥٩ م .

دينهم فيه عن اللغو والرفث والفسوق ، فإنهم سيحافظون بعده على التجمل بآدابهم والتحلى بأخلاقهم فى طواعية واختيار ، لأن الحر الكريم يحاسب نفسه قبل أن يحاسبه غيره ، ويقيد ذاته بقيود العفة والشرف بمحض رغبته وإرادته ، ورضوان الله على عمر يوم قال عن صهيب : « نعم العبد صهيب لو لم يخف الله لم يعصه » أى أنه يطيع ربه اختياراً وطواعية ، لا رهبة ولا خوفاً ، والفرق بين الحر الأصيل والفاسد العليل أن الأول كريم العنصر نبيل التصرف ، يسلك طرق الخير ، لأنه مؤمن بصلاحيتها راض بها ، والثانى لئيم يضل ويتعلل ، ولا يسيره إلا العقاب والرهبة ، وتراه عبداً لشهواته أسيراً لملذاته :

قيد الحر نفسه بهداه وأبى فى الحياة قيد سواه
وترى العبد راضياً كل قيد غير تقييد نفسه عن هواه

ولقد وضع الرسول صلى الله عليه وسلم هنا قانوناً للمسلم ، فيه دواء وضياء ، وفيه هداية ووقاية ، وهو قانون وجيز مختصر ، يحسن تذكره واستحضاره فى هذه الآونة التى تفصل بين شهر الطاعة والصيام والقيام وبين غيره من الأيام ، يقول مخاطباً المسلم : « اتق الله حيثما كنت ، وأتبع السيئة الحسنة تمحها ، وخالق الناس بخلق حسن » . والتقوى فى الأصل هى أن يجعل الإنسان بينه وبين ما يخافه ويحذره وقاية تقيه وحصانة تمنعه ، وهذا يتحقق بفعل الواجبات والطاعات وترك المحرمات والشبهات ويتعرض ابن مسعود لتحديد معنى التقوى الكاملة عند تفسير قوله تعالى « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون » فيقول : « حق تقاته أن يطاع فلا يعصى ، وأن يذكر فلا ينسى ، وأن يشكر فلا يكفر » . ويقول عمر بن عبد العزيز : « ليس تقوى الله بصيام النهار ولا بقيام الليل والتخليط فيما بين ذلك ، ولكن تقوى الله ترك ما حرم الله ، وأداء ما افترض الله ، فمن رزق

بعد ذلك خيراً فهو خير إلى خير » . ويقول طلق بن حبيب : « التقوى أن تعمل بطاعة الله على نور من الله ، ترجو ثواب الله ، وأن تترك معصية الله على نور من الله ، تخاف عقاب الله » ويجب على كل مسلم أن يدقق طويلا فى قول الرسول : « حيثما كنت » فإن معناه أن الإنسان مطالب بتحقيق التقوى فى كل مكان وعلى أى وضع كان ، فى سائر الأمكنة والأزمنة ، فى السر والعلانية ، فى الغيب والشهادة ، لأنه لا يتقى بشراً عاجزاً مثله ، ولا قوياً محدود القوة ، ولا عالماً ناقص العلم ، بل يتقى الذى بيده ملكوت كل شىء ، والقائم على كل نفس بما كسبت ، والعليم بالسر والنجوى ، وكثير من الناس يتجملون بمظهر التقوى والتعبد فى مواطن المشاهدة ومراءاة الخلق ، فإذا انفردوا عن الناس انقلبوا على وجوههم وفسقوا فى أعمالهم ، كأنهم يعبدون الناس ولا يعبدون الله ، مع أن الله يقول : « إن الله كان عليكم رقيباً » . ويقول : « وكان الله على كل شىء رقيباً » .

ولعل من الخير هنا أن نتذكر القصة التى تخبرنا بأن عمر مر ليلا على بيت فسمع بداخله امرأة تأمر بنتها بأن تخلط اللبن بالماء ليزيد ، فأخبرتها بنتها بأن أمير المؤمنين أمر مناديه فنهى عن ذلك ، فقالت لها أمها : قومى اخلطى اللبن بالماء ، فإنك فى مكان لا يراك فيه عمر ولا منادى عمر . . فأجابتها الفتاة : لا والله يا أماه . . . ما كنت لأطيعه فى الملا وأعصيه فى الخلا ؛ إن كان عمر لا يرى فرب عمر يرى ! . . وأعجب عمر بالفتاة ، فزوجها لابنه عاصم ، فولدت له بنتاً صارت أماً للخليفة الراشد ، والإمام الزاهد ، والحاكم العادل ، عمر بن عبد العزيز رضوان الله عليه . . .

ولكن الإنسان بشر ، وهو محدود الطاقة والعزم ، وليس بالكامل المبرأ من النقص ، فهو قد يحرص على التقوى ، ويستمسك بالهدى ، ومع ذلك

قد يهفو أو يذل » خطأ وضعفاً ، فيترك مأموراً به ، أو يرتكب منهياً عنه ، وهنا يقول له الرسول : « وأتبع السيئة الحسنة تمحها » . . أى إذا حدثت هفوة فعجل بمحوها وإزالتها بالتوبة والاستغفار ، واتباعها بالعمل الطيب النافع الماحى للسيئة ، فلا يكفى هنا القول ، بل يجعل وراءها ما يسترها ويزيلها ولنلاحظ فى تمعن كلمة « وأتبع » ففيها معنى المبادرة والمسارعة دون إبطاء أو تسويف. ولذلك يقول الحق جل جلاله : « إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون » . . . ولنلاحظ أيضاً قول الرسول « تمحها» . . . فكأن السيئة قذارة تحتاج إلى غسل وتطهير ونكتة سوداء تحتاج إلى محو وإزالة . . وأى عاقل يقبل أن يلطخ نفسه أو حسه بالأوساخ والأقذار اتكالا على أنها ستزول أو ستزال ؟ . .ومن هنا يتبين لنا خطأ الذين يحسبون أن هذا القول النبوى تسويغ لتكرار ارتكاب السيئات ما دام هناك عمل صالح يتلوها ، فعاذ الإسلام أن يأمر بذلك أو يرضى عنه وهو الذى وضع قانون الجزاء الدقيق : « فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذره شراً يره » . وإنما هذا التعليم النبوى إرشاد إلى تدارك الخطأ ، وفتح لباب التوبة أمام من زل وهفا ، وتطهير للسيئة التى بدرت بالحسنة التى تزيلها وتقطع الطريق على مثلها ، وأما أن يخدع الإنسان نفسه ، أو يخادع ربه ، فيأتى المنكرات عامداً مكرراً مصراً . ويتكل على أنه سيعمل بعدها حسنة فذلك ليس من هدى الإسلام الصحيح فى شىء : « يخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون « .

كما أن الفقهاء نصوا هنا على أن المراد بالسيئة التى تمحوها الحسنة هى السيئة المتعلقة بحق الله تعالى ، وأما السيئة المتعلقة بحق من حقوق العباد فلا يمحوها إلا التوبة والاستحلال من العباد واسترضاؤهم وإصلاح ما ترتب على هذه السيئة ما دام ممكناً ، لأن الكريم يعفو عن حقه ولا يعفو عن حقوق العباد . . .

ثم يقول الرسول : « وخالق الناسِ بخلق حسن » . والتخلق بالخلق الحسن داخل فى الواقع ضمن التقوى ، ولا تتم التقوى إلا به ، ولكن النبى صلوات الله عليه خصه بالذكر للحاجة إلى بيانه ، لأن كثيرين من الناس يظنون خطأ أن التقوى هى عبادة الله فقط ، دون القيام بحقوق عباده ، مع أن الرسول يقول : « الدين المعاملة » . ويقول : « خيركم أحسنكم أخلاقاً » ويقول : « أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً » ويقول : « ذهب حسن الخلق بخيرى الدنيا والآخرة » ويقول : « إنكم لن تسعوا الناس بأموالكم فسعوهم ببسط الوجه وحسن الخلق » . وأكاد أفهم أن معنى « خالق الناس بخلق حسن » هو عاملهم معاملة طيبة تؤدى إلى تبادل الحسنى بينكم ، فلا يكفى أن تكون حسن الخلق فى ذاتك ونفسك ، بل عليك أن تكون بارعاً فى معاملتك للناس ومحاسنتك لهم ، بحيث يدعوهم ذلك إلى حسن معاملتهم لك ، وبذلك تتحقق المخالقة بالحسنى بين الجميع . . .

ولنتذكر جيداً أن الرسول قد قال : « وخالق الناس » ولم يقل : وخالق المسلمين ، أو المواطنين ، أو المعارف والأصدقاء ، بل خالق الناس . . . ولفظ الناس يطلق على جميع البشر فكأن المسلم مطالب بأن يكون حسن الخلق مع سائر العالمين ، حتى يكون خير عنوان على هذا الدين ، والمؤمن إلف مألوف ، ولا خير فيمن لا يألف ولا يؤلف .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . . لقد انتهى رمضان وأقبل شوال ، فظلوا حيث أنتم من المرابطة والمجاهدة فى الله جل جلاله ، واعملوا فكل ميسر لما خلق له ، وتذكروا أن أحب الأعمال إلى الله أدومها وإن قل ، وليتردد فى سمع كل مسلم وخلده على الدوام قول الرسول عليه الصلاة والسلام : « اتق الله حيثما كنت ، وأتبع السيئة الحسنة تمحها ، وخالق الناس بخلق حسن » . والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم . . .

السيادة لله[1]

بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله سبحانه ، هو « الرحمن ، علم القرآن ، خلق الإنسان علمه البيان » . أحمده عز شأنه ، وأشهد أن لا إله إلا الله . منه المبدأ وإليه المعاد ، وهو القاهر فوق العباد والبلاد ، ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين ، وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، القائل لربه فى دعائه « إن لم يكن بك غضب علىّ فلا أبالى » فصلوات الله وسلامه عليه ، وعلى آله الغر الميامين وأصحابه المؤمنين الطاهرين وأتباعه المجاهدين الصابرين « ومن يعتصم بالله فقد هدى إلى صراط مستقيم » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام :

أخيراً وبعد انتظار طويل ، صدر دستور الباكستان الدولة التى تربطنا بها أقوى رابطة ، وهى رابطة الإسلام الذى يقول عنه رب العزة : « ورضيت لكم الإسلام ديناً » ويقول جل جلاله : « إنما المؤمنون إخوة » . ومما يوقظ الصدر ويحرك الفكر أن هذا الدستور قد نص فى صلبه وديباجته على أن السيادة لله ، وأن سلطات الشعب كلها تدور فى نطاق ما حدده الله ، وكأنهم قد استمدوا ذلك من قول المصطفى عليه الصلاة والسلام : « السيد الله » أى هو المالك الحقيقى ، والمسيطر الجامع ، الذى تحق له السيادة الشاملة لكل شىء ، إذ بيده ملكوت كل شىء وهو على كل شىء قدير . ونحن نتذكر الآن أنه منذ أكثر من ربع قرن قامت دولة « الباكستان » باسم الإسلام ، على أمل أن تكون دولة الطهارة والإيمان ، وأن تكون الدولة التى تؤسس منذ بدايتها على كلمة التقوى . ويومها فرحنا فرحاً كبيراً ، وكنا فى شباب العمر ، وخيل

---

(١) (ربيع الآخر سنة ١٣٩٣ هـ ١٨ مايو سنة ١٩٧٣ م) .

إلينا يومئذ كأن بعثاً جديداً قد تحقق للاسلام والمسلمين ، وأن قطعة من الأرض ستصير عنواناً لمجتمع إسلامى قديم يقوده الإسلام ، ويحكمه القرآن ، وتهديه سنة محمد عليه الصلاة والسلام ، ولكن الأمل كان أوسع من العمل ، وكان الخيال أكبر من الواقع ، فقد نبتت على طريق الباكستان الوليدة أعشاب وأوشاب حيث بقى هناك التأثر العميق برواسب الاستدمار الذى يسمونه « الاستعمار » ، حتى فى طرق الطعام والكلام والمعيشة والعادات ، وكانت هناك الخلافات الداخلية ، والمنازعات الطائفية ، والمطامح السياسية ، ووجود بعض الطوائف الدينية المنحرفة كالقاديانية ، ولعل ذلك كان سبباً فى أن تسرف الباكستان خلال الماضى فى سياسة المؤتمرات الإسلامية التى تطيل الكلام ولا تطيل العمل ، فاستنفد ذلك كثيراً من طاقة الدولة الوليدة ونشاطها ثم حدثت المأساة الأليمة بالحرب الأهلية بين شطرى باكستان ، واندست الأيادى الأجنبية الخبيثة القذرة من الشرق والغرب ، وقسمت الدولة الموحدة إلى دولتين : باكستان وبنجالاديش ، ولم يملك المسلمون أمام هذا المصاب غير سكب الدموع السخينة التى يملكون منها رصيداً لا ينتهى ولا يزول .

ونعود إلى النص الذى جاء فى دستور باكستان ، وهو أن السيادة لله عز وجل . إنها لحقيقة غراء واضحة ، وإنه لمبدأ عظيم جليل . ولكن — ولعنة الله على (لكن) هذه فى مثل هذا المقام — لكن هل يكفى النص بالكلام والكتابة فى الدستور أو غيره على أن السيادة لله على الجميع ؟ . كم من نصوص جميلة وضعت فى الدساتير وفى القوانين ، هنا وهناك وهنالك ، ولكن هذه النصوص لم تدركها روح التطبيق ، فكانت تخديراً للشعوب وتلهية للنفوس بلا ثمر أو حصاد ، مع أن كتاب الخالق جلّ جلاله يحذر من ذلك أشد التحذير ، فيقول : « يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون ، كبر مقتا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون » . ويقول فى شأن المنافقين : « يقولون

بأفواههم ما ليس فى قلوبهم والله أعلم بما يكتمون » ويقول فى شأن الكافرين المخادعين : « يرضونكم بأفواههم وتأبى قلوبهم ، وأكثرهم فاسقون » . ونحن لا نخص بهذا التعريض دولة دون دولة ، وإنما نسوقه تذكرة لكل الذين « يخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون » .

نعم إن السيادة يجب أن تكون دائماً وأبداً لله ، لأنه الخالق الرازق ، ولأنه المقتدر المدبر ، وهذا يقتضى أن يكون الله هو المعبود وحده دون سواه ، لأن القرآن يقول : « ألا لله الدين الخالص » ويقول : « قل الله ثم ذرهم فى خوضهم يلعبون » ويقول : « قل إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين ، لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين » . ولكن أين روح العبادة لله فى مجتمع الإسلام ؟ وكم عدد الذين يحافظون على شعائر الإسلام وأين تربية الإسلام بين أبناء الإسلام ؟ . وسيادة الله تستلزم أن لا تقبل أمة الله أن ترتكب ما يغضب الله ، وأن لا تحتكم إلا إلى شريعة الله ، وأن لا تستعين بمبادىء مستوردة ، أو مذاهب وافدة ، أو قوانين دخيلة ، فهل يستطيع شعب إسلامى فى الأرض اليوم أن يقول إن مجتمعه الذى يعيش فيه مجتمع متحصن بالإسلام قولا وعملا ، واعتقاداً وتشريعاً ، ومبدأ وسلوكاً ؟ . قد يخضع هذا الشعب أو ذاك الأمر الدين فى هذه الناحية أو تلك ، ثم يهمل فى غيرها من النواحى ، وقد يتجه شعب إلى الإسلام فى هذا المنحى أو ذاك ، لأن ظروفه تتطلب هذا الاتجاه ، ثم يهمل التقيد ببقية الأحكام والأوامر ، وكأن هذا تفريق بين بعض الدين وبعضه الآخر ، مع أن الدين كله دين الله ، والدين كله من عند الله ، والدين كله مفروض على عباده : « فماذا بعد الحق إلا الضلال » ؟ . والإسلام كل لا يتجزأ ، وهو إنما يحقق رسالته إذا التزمناه اعتقاداً وتطبيقاً ، فى العقائد والعبادات والمعاملات والسلوك ونظام الفرد والمجتمع : « صبغة الله ومن أحسن صبغة ونحن له عابدون » .

وتقرير السيادة لله يقتضى أن يسود كلامه كل كلام ، وأن يعلو صوت قرآنه على كل صوت ، فيكون هذا القرآن بداية التعليم وأساس الثقافة ، وعماد التشريع ، لأن الله جل جلاله هو القائل : « تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً » ، وهو القائل : « وكذلك أوصينا إليك من أمرنا ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الإيمان ، ولكن جعلناه نوراً نهدى به من نشاء من عبادنا ، وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم ، صراط الله الذى له ما فى السموات وما فى الأرض ، إلا إلى الله تصير الأمور » .

وإذا كان رسول الله صلوات الله وسلامه عليه هو أكرم شخص على الله بين الناس ، فإن الله جل جلاله قد أمره بأن يخضع لهذا القرآن ويتقيد به فلا يحيد عنه ، فقال له : « يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك ، وإن لم تفعل فما بلغت رسالته » ، وقال له : « قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلى أنما إلهكم إله واحد ، فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام :

قد يكون من حقنا أن نفسح دائرة الأمل ، ونطيل حبل الرجاء ، ونقول : من يدرى ، لعل الله يحدث بعد ذلك أمراً ، ولعل هذه الخطوة من الباكستان الشقيقة تكون بداية لاتجاه إسلامي صادق فى الحياة الفردية والعامة ، وتكون قدوة تحتذى من شعوب الإسلام فى الشرق والغرب ، ويؤمئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم . أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم .

ففروا الى الله !![1]

لك الحمد أيها العليم الذى لا يجهل ، الحليم الذى لا يعجل ، الكريم الذى لا يبخل ، سبحانك ، أنت المنيع الذى لا يرام ، المجير الذى لا يضام ، وأنت أرحم الراحمين ، نشهد أن لا إله إلا أنت ، خضعت لك قلوب العارفين ، وذلت لهيبتك رقاب الجبارين ، فتبارك الله رب العالمين ، ونشهد أن سيدنا ومولانا محمدا عبدك ورسولك ، الذى استعاذ بك من العين التى لا تدمع ، والقلب الذى لا يخشع ، والعلم الذى لا ينفع ، فكان سيد المرسلين وإمام المتقين ، فصلواتك اللهم وسلامك عليه ، وعلى آله وأغصان دوحته ، وأصحابه وجنود دعوته ، « الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل ، فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء ، واتبعوا رضوان الله . والله ذو فضل عظيم » .

يا أتباع محمد عليه السلام . . .

من عيوب المسلمين المعاصرين الذين قل اعتزازهم بدينهم ، وضعف يقينهم بربهم ، وخدعتهم بوارق من مدنية غيرهم ، أنهم لا يثقون ولا يؤمنون إلا إذا جاءتهم الشواهد من الخارج ، ووردت إليهم البراهين على صحة الدين من المثقفين المدنيين ، أو الناهلين من حضارة الأوربيين ، فلو سمعوا من الواعظ الدينى مائة خطبة يذكرهم فيها بالله ، ويدعوهم خلالها إلى حماه ، لما اتعظوا بها ، ولا استجابوا لها ، ولكنهم لو جاءتهم الموعظة من رجل مدنى ، أو من جو أوربى ، لسارعوا إليها مصدقين معجبين ، ومع ما فى هذا من مخالفة لقول الرسول الكريم عليه الصلاة والتسليم : « لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به » فنحن نريد أتباعاً للحكمة فى الدعوة ، واحتيالا فى التحذير من الضلالة ، أن نأتيهم بالشواهد التى يريدون .

---

(١) أول ذى الحجة سنة ١٣٦٨ هـ ٢٣ سبتمبر سنة ١٩٤٩ م .

هذا رجل شرقى عظيم ، له من بيئته وعمره وثقافته ما يجعله خبيراً بالمشكلات دارساً للحضارات ، يرحل إلى أوربا ويقضى فى أرجائها شهوراً ، ثم يعود فيقول لنا فى وضوح وتأكيد : إن أبناء الحضارة الحديثة قد آمنوا أخيراً وبعد طول المطاف بأنه لا سلام إلا بالله ، ولا سعادة إلا بالرجوع إلى الله ، ولا استقرار إلا بالثقة فى دين الله ، لأن الرجوع إلى الله واليقين به والاحتماء بلوائه هو الذى سيقضى على الحروب المهلكة والشيوعية البشعة ، وسيزيل الفقر الشائع والمرض الذائع من بين الأحياء ؛ ومعنى هذا أن عمالقة البشر فى العالم الحديث ، الذين هتكوا أسرار الطبيعة ، واستخدموا كل شىء تحت أيديهم ، واستمتعوا بكل لذة تريدها الأجساد ، لم ينعموا بذلك ولم يسعدوا ، فرجعوا نادمين ، وعادوا إلى ربهم تائبين ، وقرعوا بابه هاتفين : ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين ! . .

وهذا كاتب معاصر يزور فى الأيام الأخيرة «باريس» مدينة النور والفجور ، وموطن المواخير والخمور ، ومصدر كل لذة ، ومثيرة كل شهوة ، وصاحبة التاريخ الطويل الثقيل فى العبث والمجون ، فإذا بالكاتب يراها كما وصفها وقد صحت من غفوتها ، وأفاقت من غمرتها ، وتابت وأنابت ، فصار فيها من يعنى بأمر الأخلاق ، ومن يذكر بجلال البارىء الخلاق ، لأنهم عرفوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه ، وأعطتهم المحن المتلاحقة والنكبات المتلاصقة دروساً لا تنسى تعلموا منها أن الاعتماد على قوة الأرض ، والاغترار بسلطان الإنسان ، باطل وزور ، وأن الخير كل الخير فى الإيمان بالله الذى إليه تصير الأمور ! . . .

وهذا سباح مصرى عالمى ، وهو ضابط رياضى مثقف ، درس ورحل ، واختلط بهؤلاء وأولئك ، وخالط المدنية الحديثة والحضارة الغربية المعاصرة ، ولم ينشأ فى رحاب دينى أو وسط « سنى » ، وقد أراد أن يكسب لأمته فخراً يرفع رأسها بين الأمم فى ميدان الرياضة التى يدعو إليها الإسلام ، ويحرض

عليها لتكون إعداداً للجندية المجاهدة فى سبيل الله ، فعبر بحر « المانش » الرهيب الصاخب من الشاطىء الإنجليزى إلى الشاطىء الفرنسى ، وتعرض لأهوال البحر ومخاوف الغرق ، وطغيان الأمواج وتأثير الأملاح ، وذبذبات المد والجزر ، وبرودة الجو ووحوش الماء ، وكان كلما خارت منه القوى ، وأحدق به الخطر ، وداعبه اليأس والقنوط ، لا يلجأ إلى قوارب النجاة ولا يستعين بمن خلفه من مراقبين ، ولا يعلن فشله وإفلاسه ، بل كان يلجأ إلى سلاح أقوى وأعلى ، ويستمد العون والمد من مصدر أغنى وأسمى ، كان يستلهم النصرة والتأييد من ربه العزيز المجيد ، فكان كما أذاعت الأنباء يتلو القرآن الكريم وسط الأمواج بصوت مسموع ، ويناجى ربه بدعاء مرفوع ، وكان كما يقول كلما تلا آية أو ردد دعوة ، ازداد قوة وامتلأ همة ، وأيقن أنه سيصل وسينتصر بفضل الله ؛ وقد كان فوصل وانتصر ، وقرر أن الفضل فى الانتصار يرجع إلى عون العزيز القهار ، وكذلك تكون قوة الإيمان بالله فى الإنسان ، تقرب له البعيد ، وتيسر له العسير ، ولا عجب فقد وصل سببه برب الأسباب ، وألقى عبئه على أقدس جناب ، « ومن يتوكل على الله فهو حسبه ، إن الله بالغ أمره ، قد جعل الله لكل شىء قدراً » . . .

أليس فى هذه الأدلة والشواهد ما يكفى المعرض عن الله ، أو البعيد عن حماه ، لكى يرجع ويرتدع ، ويتوب ويثوب ويشاهد نور ربه فى كل مكان ، ويراقب جلاله فى كل زمان ، ويطيل التفكير فيما أراده الصوفى الحكيم حين قال : « الحق ليس بمحجوب عنك ، إنما المحجوب أنت عن النظر إليه ، إذ لو حجبه شىء لستره ما حجبه ، ولو كان له ساتر لكان لوجوده حاصر ، وكل حاصر لشىء فهو له قاهر ، وهو القاهر فوق عباده » بل ويهتف من الأعماق كما هتف الواصل الأول يناجى ربه قائلا :

ذكرتك لا أني نسيتك لمحة ... وأيسر ما فى الذكر ذكر لساني
وصرت بلا وجد أهيم من الهوى ... وهام على القلب بالخفقـــان
فلما أراني الوجد أنك حاضرى ... شهدتك موجوداً بكل مكان
فخاطبت موجوداً بغير تكلم ... وشاهدت موجوداً بغير عيان

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

حقيقة إن الفكرة الإسلامية قد حوربت بأيدى أعدائها ، بل وتطاول على جلالها بعض الطاغين الذين يعدون أنفسهم من المسلمين ، فهتكوا حرمة القرآن ، ونكلوا بأشبال الإيمان ، وتجرءوا على حمى الرحمن ، وهتكوا حرمات كانت بالأمس عزيزة مصونة ، وارتكبوا فى تنكيلهم بالمجاهدين فى سبيل الله الناشئين فى طاعة الله ، مآثم ومظالم تضج من هولها أرجاء السماء ، وقد زلزل كثير من الناس أمام هذا التنكيل الطاغى زلزالا شديداً ، وظنوا بالله الظنونا ، ولكن الثابتين على العهد ، الصادقين فى الوعد ، يؤمنون بأن الإسلام يقوى على المحن ، ويشتد رغم طغيان الزمن ، ولولا شهداء سقطوا فى سبيل الله ، ودماء زكية طاهرة سالت دفاعاً عن كلمة الله ، وغزوات ابتلى فيها صـــبر المسلمين أشد الابتلاء ، وأعداء من المشركين واليهود والنصارى والمنافقين والمخادعين ، يتربصون بالمسلمين الدوائر ؛ لولا هذه الظروف كلها لما ظهر نور الإسلام ساطعاً وضاء من خلال الظلمات ، فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم ، واعتصموا بحبل الله هو مولاكم ، فنعم المولى ، ونعم النصير ، واستعذبوا فى سبيله العناء والبلاء ، فإن الله لا يضيع أجر العاملين ، واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون ، إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون .

كان عليه الصلاة والسلام : يدعو فيقول : اللهم لك أسلمت ، وبك آمنت وعليك توكلت ، وإليك أنبت ، وبك خاصمت ، اللهم أعوذ بعزتك — لا إله إلا أنت أن تضلنى ، أنت الحى الذى لا يموت ، والجن والإنس يموتون.

معذرة الى ربكم (١)

الحمد لله عز وجل ، أحاط بعلمه ، وعدل فى حكمه : « ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئاً ، وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين » . أشهد أن لا إله إلا الله ، هو رب الأرباب ومالك الأسباب « ألا إلى الله تصير الأمور » وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، حفظ وعده ، وصان عهده ، فكان سيد الأوفياء ، فصلوات الله وسلامه عليه ، وعلى الآل والأصحاب ، والأتباع والأحباب « أولئك هم خير البرية » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام :

يموج الآن فى أمتنا الإسلامية طوفان من الضيق والقلق ، والتداعى والميل إلى اليأس ، فلا تلقى أحداً إلا وجدته ساخطاً شاكياً ، ناقداً قاسياً ، سابا ناعياً ، فهو يشكو إليك قلة الدين وضعف اليقين ، ويشكو إليك ضياع الفضيلة وشيوع الرذيلة ، ويشكو إليك ذيوع الرشوة وقلة الأسوة ، ويشكو إليك ضعف الأمين وقوة الخائن ، ويشكو إليك نتن البيئة وعفن المجتمع ، ويشكو إليك مرارة الحياة وتفسخ الأحياء .

والأمة حين تتحلل وتنفسخ تصبح ثلاثة أقسام : القسم الأول أكثرية منصرفة إلى غيها ، مصرة على بغيها ، غارقة فى فسادها ، والقسم الثانى جماعة تراودها عوامل اليأس والقنوط ، فتقول بلغتها : « خلاص ، انتهينا ، لا فائدة الأمة ضاعت ، الأمة باظت ، الأمة استيقظت » إلى آخره . والقسم الثالث قلة ترى من رسالتها أو واجبها أن تظل على طريقها ، تواصل العظة والنصح

---

(١) ٨ ذو الحجة سنة ١٣٩٢ هـ ١٢ يناير سنة ١٩٧٢ م .

والتحذير ، لعل الله يحدث بعد ذلك أمراً . والعجيب أن الله عز شأنه قد حدثنا عن بنى إسرائيل عند فسادهم وإجرامهم فقال : « وإذ قالت أمة منهم لم تعظون قوماً الله مهلكهم أو معذبهم عذاباً شديداً قالوا معذرة إلى ربكم ولعلهم يتقون . فلما نسوا ما ذكروا به أنجينا الذين ينهون عن السوء ، وأخذنا الذين ظلموا بعذاب بئيس بما كانوا يفسقون فلما عتوا عما نهوا عنه قلنا لهم كونوا قردة خاسئين » إن الله تعالى يعطينا صورة واضحة لأمة فسدت وخربت فتداعى بنيانها وتصدع كيانها ، وأخلد إلى الأرض أكثرها ، وهذه طائفة من الدعاة الواعظين فيها ، ينهونها عن الفساد والطغيان ، وينادونها إلى طريق الرحمن ، ويحذرونها عاقبة البغى والبهتان ، ويواصلون خطواتهم دون كلال أو ملال ، وإن ضعف تأثيرهم ، وقل المستجيبون لهم ، وثمة طائفة أخرى بلغوا من صنيعهم أنهم يثبطون همم أولئك الدعاة فيقولون لهم : ما الفائدة من وعظكم ؟ أريحوا أنفسكم ، لا ترهقوا حواسكم ، فالله قد قضى على هذه الأمة بالهلاك والاستئصال أو المحق والتدمير أو بالعذاب الشديد الأليم : « لم تعظون قوماً الله مهلكهم أو معذبهم عذاباً شديداً » . . وهؤلاء قد بلغوا من الإصرار على ارتكاب الذنوب حداً لا يكادون ينصرفون عنه ، فصار الوعظ عديم الفائدة عديم الأثر ، فمن العبث الاستمرار فيه أو الإصرار عليه .

وهنا يرد الدعاة عليهم قائلين لهم : « معذرة إلى ربكم » إننا نفعل ذلك ونستمر فيه لكى نقدم معذرة إلى ربنا ، ونقوم بواجب الاعتذار عن أنفسنا ، فقد أخذ علينا أن نأمر بالمعروف ونهى عن المنكر ، وإنا لفاعلون مستمرون ، ومن يدرى ، لعل هؤلاء الآثمين ينتفعون يوماً بهذا الوعظ فيتقوا الله ربهم ، ويقلعوا عن الإجرام وارتكاب الآثام ، وترجعوا إلى الله عز وجل نادمين تائبين ، فإذا صدقت توبتهم وصحت أوبتهم ، تاب الله عليهم ورحمهم ، فهو التواب الرحيم . ولكن هؤلاء المجرمين الآثمين لم ينتفعوا ولم يرتدعوا ،

ولم يستمعوا ولم يرجعوا ، بل ظلوا فى الضلال غارقين ، وعن الصراط منحرفين ، فماذا كانت النتيجة ؟ « فلما نسوا ما ذكروا به أنجينا الذين ينهون عن السوء ، وأخذنا الذين ظلموا بعذاب بئيس بما كانوا يفسقون » فلما أبى المجرمون الآثمون قبول النصيحة ، أو العمل بالعظة ،أقبل الله بفضله وبعدله، فأنجى أولئك الدعاة الذين نصحوا وأرشدوا ، وحذروا وأنذروا ، « ذلك الفضل من الله وكفى بالله عليماً » ، ثم أذاق أولئك المجرمين الظالمين عذاباً شديداً مريراً « ما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون » . ولكن النص الكريم سكت عن مصير أولئك الذين قالوا : لم تعظون قوماً الله مهلكهم أومعذبهم عذاباً شديداً . بعد أن أخبر بنجاة الناصحين ، وبعذاب المجرمين ، فما سر ذلك السكوت ؟ أيكون ذلك لأنهم كانوا سلبيين ، والجزاء من جنس العمل ، فهم لا يستحقون مدحاً فيمدحوا لأنهم لم يسهموا فى الواجب ، وهم لا يستحقون عذاباً لأنهم لم يشاركوا فى الإثم ؟ أم يكون ذلك استخفافاً بهم ، حتى كأنهم ليسوا فى العير ولا فى النفير ؟ ولهذا ذكر بعض المفسرين أن هؤلاء أيضاً ينالهم العذاب لأنهم لم يسهموا فى النصيحة والتحذير ، وهناك من قال إن هؤلاء الساكتين ناجون .

ولقد كان عبد الله بن عباس رضوان الله عليهما إذا قرأ هذه الآية بكى وقال : إن هؤلاء الذين سكتوا عن النهى عن المنكر هلكوا ، ونحن نرى أشياء ننكرها ثم نسكت عليها ولا نقول شيئاً . ثم يواصل البكاء رضوان الله عليه ، فإذا كان ابن عباس — وهو من هو — كان يفعل هذا فماذا نصنع نحن الحقراء الضعفاء ؟ .

إن الإنسان المسلم أمام هذا الطوفان من الإثم والبهتان — إذا لم يستطع الإسهام فى وقفه وإصلاحه فلا أقل من أن يتماسك ويبقى على نفسه ، وإذا لم يستطع أن ينهض بالتبعة الجماعية ، فلا أقل من نهوضه بتبعته الشخصية ،

فيستبقى روح الأمل والرجاء فى صدره ، ويحرص على إصلاحه نفسه متذكراً قول ربه : « عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم » وقوله عز من قائل : « بل الإنسان على نفسه بصيرة ، ولو ألقى معاذيره » . وليحذر أن يشارك الذي فسقوا عن أمره ربهم ، وحرفوا دينهم ، وبدلوا سنة نبيهم ، فقد قال عليه الصلاة والسلام : « أنا فرطكم على الحوض ، من مر على شرب ، ومن شرب لم يظمأ أبداً ، وليردن على أقوام أعرفهم ويعرفوننى ثم يحال بينى فأقول يارب إنهم منى ، فيقال : إنك لا تدرى ما أحدثوا بعدك ، فأقول سحقاً سحقاً لمن غير بعدى » .

وما أجدر أمتنا أن تستيقظ فقد طال بها الرقاد ، وأن ترجع إلى ربها فمنه المبدأ وإليه المعاد ، ولقد جاءنى فى الحديث الصحيح المتفق عليه ، قوله صلوات الله وسلامه عليه : « ويل للعرب من شر قد اقترب » . وذلك من دلائل نبوته صلى الله عليه وسلم ، فإن الأيام صدقت ما قال «سنريهم آياتنا فى الآفاق فى أنفسهم »

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام :

لا تقنطوا : « ومن يقنط من رحمة ربه إلا الضالون » .

لا تيأسوا : « إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون »

واصلو العمل : « وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون » .

فوضى الأخلاق[1]

الحمد لله ، جعل الحياء شعار المؤمنين ، ووسم بالوقاحة وجوه الفاسقين : « أفمن كان مؤمناً كمن كان فاسقاً ؟ لا يستوون » . . . نشهد أن لا إله إلا أنت ، لا تغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ، إن الله لا يهدى كيد الخائنين . ونشهد أن سيدنا ومولانا محمداً عبدك ورسولك ، كان فى حيائه كالفتاة العذراء وكان فى شدته كالصخرة الصماء ؛ لينه رحمة وصلاح ، وعنفه تأديب وإصلاح فصلواتك اللهم وسلامك عليه ، وعلى آله الغر الميامين ، وأصحابه السابقين المقربين ، وأتباعه الثابتين الصابرين « إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب » .

يا أتباع محمد عليه السلام . . .

عندما يقال فى مجالس الدعوة وحلقات الوعظ ودروس التهذيب إن عصرنا هذا كعصر الجاهلية المظلم ، تتورم من ذلك القول أنوف وتتألم قلوب ويقول الجاهلون : إن ذلك قسوة فى الحكم وإسراف فى الرأي ، ولكن يظهر أن عصرنا هذا قد أصبح أسوأ بمراحل من عصر الجاهلية ، وطالب البرهان على ذلك يجده فى سهولة وتيسير ؛ ولولا أن الله الحكيم العليم قد ختم الأنبياء والمرسلين بمحمد صلوات الله عليه ، فلا نبي بعده ويكفر من آمن بغير ذلك ، لقالت عقولنا القاصرة : ما أحوج هذا العصر إلى نبي يهدى ويؤدب . ولكن صوت القرآن وهدى الرسول لا يزالان قائمين خالدين ، وفيهما الكفاية والهداية لو استمع ضال وأجاب مدعو ؛ « وما أنت بمسمع من فى القبور » . .

خذوا أحد الأمثلة يا بنى آدم . . . كان البغاء وهو الدعارة والاتجار بالعرض معروفاً عند عرب الجاهلية ، وكانوا يملكون فتيات رقيقات يرغموهن على

---

(١) ٢٦ شوال سنة ١٣٧١ هـ ١٨ يوليه سنة ١٩٥٢ م .

ارتكاب الفاحشة الكبرى ، وكان يوجد عند اللعين رأس النفاق عبد الله ابن أبي ست فتيات إماء يكرهن على الفاحشة ، ويضرب عليهن الضرائب ، فذهبت اثنتان منهما إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وشكتا ذلك إليه ، فنزل قوله تعالى : « ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء إن أردن تحصناً ، لتبتغوا عرض الحياة الدنيا » .

كان هذا فى الجاهلية ، وهو كما ترون شنيع فظيع ، ولكن ماذا تقولون وأفظع منه يحدث فى ناديكم بالليل والنهار ؛ وآخر ما سمعناه أن رجلا فاضلا يسير مع زوجته فى الطريق ، ثم يتركها لمدة دقائق حتى يشترى بعض الأشياء، وتسير هى قليلا حتى يدركها ، فتقبل سيارة عليها وينزل من فيها ليرغموا الزوجة على الدخول فيها ، والقصد الخبيث من ذلك معروف غير مجهول ، وتصرخ المرأة ، وتنهر الكلاب القذرة فلا تنتهر ، ويقبل الزوج وينقذ الزوجة، وينتهى الأمر إلى التحقيق ، فأى فوصى بعد هذه الفوضى ؟ . . وأين الأخلاق يا بلد السوء ؟ . . وأين ما كانت تصنعه الجاهلية من هذا الإجرام الأثيم اليوم ؟ . . لقد كانوا يرغمون فتيات مملوكات لهم واليوم تريد الذئاب أن تكره الحرائر المخدرات ، وكان الفتيات لا يردن ذلك فى الجاهلية ، ويظهرن عدم الرضا عنه ، واليوم نرى حرة تقاتل عن عرضها وتدافع عن شرفها ، ومع ذلك يأبى الكلاب إلا الإكراه والإرغام ، فأين ضلال الجاهلية من ذلك الظلام ؟ .

وحدثونى بربكم ودلونى على الطريق . . . إنهم اليوم يطالبون بحقوق المرأة وحرياتها الواسعة ، وهذه الحريات تستلزم كما يأملون أن تخرج المرأة وحدها ، وأن تسافر وحدها ، وأن تقطع الطرقات الطويلة فى جوف الليل وجنح الظلام وحدها ، وأن تتريض على الشواطئ وفى الأماكن الخلوية وحدها ، فخبرونى بربكم ، كيف تتحرر المرأة فى مجتمع الذئاب ؟ وكيف

تسعى الهرة المسكينة وحدها بين الكلاب ؟ . وكيف الحالة هذه تعطون المرأة حقوقاً تخرجها من بيتها ، وهى لا تأمن على عرضها أو نفسها إن مشت وحدها خطوات ؟ . ومن الذى يأمن اليوم أن يترك أمه وأخته أو زوجته أو بنته تسير منفردة وقد رأى أن الأئمة الفاجرين خلعوا نقاب الحياة وأصبحوا كخسيس الحيوان ، لا يتورعون ولا يرتدعون ، حتى صدق فيهم قول الرسول : « إذا لم تستح فاصنع ما شئت » .

يا أتباع محمد عليه السلام . . .

إن المؤمن الغيور يمسك بيده كبده المحترق وقلبه المتقطع حسرة وأسفا ويتساءل : أين ذهب المجتمع الإسلامى الذى كان يعمره الحياء والخجل ؟ وأين الذين كانوا يتعاشرون بطباع الفضيلة وأخلاق الشمم والإباء ؟ . . وما المخرج من هذه الهاوية السحيقة التى انحدرنا إليها فأصابتنا بقذرها وخناها؟ . ألا إن المخرج دين يحفظ ويروع ، وحذر ينقذ وينفع ، وقانون يؤدب ويوجع وتواص بالحق والصبر ، وتعاونوا على البر والتقوى ، ولا تعاونوا على الإثم والعدوان ، وإن الله ليزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن . واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون ، إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون . أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم . سلوا ربكم التوفيق يستجب لكم .

نريد مصحات اخلاقية(١)

لله الحمد ، لا يظلم ولا يحب الظلم من العباد ، ويتوعد بالعذاب أولى البغي والفساد : « ولا تحسبن الله غافلا عما يعمل الظالمون إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار ، مهطعين مقنعي رءوسهم لا يرتد إليهم طرفهم وأفئدتهم هواء » . سبحانك سبحانك ، أمضيت فى الباغين المثلات فكانوا عبرة للمعتبرين وعظة للعاقلين : « ألم تر كيف فعل ربك بعاد ، إرم ذات العماد ، التى لم يخلق مثلها فى البلاد ، وثمود الذين جابوا الصخر بالواد ، وفرعون ذى الأوتاد ، الذين طغوا فى البلاد ، فأكثروا فيها الفساد ، فصب عليهم ربك سوط عذاب ، إن ربك لبالمرصاد » . . نشهد أن لا إله إلا أنت أصلحت النفوس بشرعة التأديب والتقويم ، ونشهد أن سيدنا ومولانا محمداً عبدك ورسولك ، جملته بالخلق العظيم والطبع السليم ، فصلواتك اللهم وسلامك عليه ، وعلى البدور الساطعة من آله ، والكواكب اللامعة من صحبه ورجاله ، والمهتدين فى حياتهم بأعماله وأقواله : « لهم دار السلام عند ربهم ، وهو وليهم بما كانوا يعملون » .

يا أتباع محمد عليه السلام . . .

من ضلال البشرية وخيبة الإنسانية أن تعرض عن نور السماء ، لتضل فى مسالك الغبراء ، وأن تترك قوانين العليم الخبير ، إلى قوانين العاجز القصير : « أفحكم الجاهلية يبغون ؟ ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون » ؟ . وليتهم بعد هذا التهاون والاستخفاف ، بهدي الحكيم ذى الرحمة والألطاف ، يحسنون وضع القوانين البشرية ، أو يخلصون فى تنفيذها ، أو يسوون بين الجميع عند تطبيقها ؛ ولكن الناس فى أغلب بقاع الأرض — وما نخص أمة دون

(١) بدون تاريخ محدد .

أمة — يضعون القوانين غالباً للرغبات والأهواء ، وقد يخرقونها أو يعطلونها عندما يشاءون بلا استحياء ، وقد يتخذونها مصائد أو مكائد للضعفاء ، بينما يستعلى عليهم فى الأرض أو يسىء استغلالها فى الكون المجرمون من الأقوياء كأنما العالم البئيس التعيس يعيش فى محيط وسيع تسبح فى أعماقه أسماك مختلفة الأشكال والأحجام ، والموت بينها للصغير الهزيل ، والبقاء للمقتدر القتال !.

لقد أخذ الناس مثلا فى مختلف الأمم بنظام السجون والمعتقلات ، والطبيعى أن تستقبل السجون كل معتد أثيم أو وغد لئيم ، ولكن الواقع الخفى يهتف من حين لحين قائلا : كم فى السجون من أبرياء ، وكم فى الكون من طلقاء كان أولى بهم غيابات السجون ، وحسب البشرية هو أنا أن يكون فيها ذلك الظلم الشنيع !.. وهذه هى المعتقلات والمنافى تفتحها الدول كلما اكفهر الجو أو تلبدت الغيوم فى سماء الأحداث الكبار ، فتملؤها هذه الدول غالباً بالمخالفين فى الرأى ولو كان بعضهم أطهاراً ، وبغير المرغوب فيهم ولو كان بعضهم أبراراً ، فلا يؤدى ذلك الاستغلال الذميم إلى إصلاح أو خير ، بل يثمر تمزق الأسباب واتساع الثغرات والأبواب وانتشار الفتنة والخراب ، وإذا كان مهرة الأطباء من المصلحين قد عجزوا حتى الساعة عن القضاء على داء الاعتقال مع سوء الاستغلال ، فلست أدرى لماذا لا يطالب المصلحون بفتح معازل جديدة من نوع آخر ، يراد به خير الداخلين إليه لا إضرراهم ، ويقصد منه العمل لله والناس ؟ !

هذا السكير مثلا ، الذى أفسدته الخمر ، فجعلته مجرماً بعد أن كان عظيما يشار إليه بالبنان ، وأهمل واجبات أسرته ووظيفته وشريعته ، وغدا كجرثومة الداء ومنبع البلاء ، وأصبح من إدمانه الخمر لا يطيق عنها صبرا ، ولا يجد من الوازع الجماعى قهراً ، لماذا لاتضعه الدولة — أى دولة كانت —

فى معزل بعيداً عن أم الخبائث لمدة شهور ، حتى يسترد عقله ووعيه ، ويستكمل عزيمته وهديه ، ويدرك مبلغ ما هناك من حق وحكمة فى قوله تبارك وتعالى : « يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون ، إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء فى الخمر والميسر ، ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم منتهون ، وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول واحذروا ، فإن توليتم فإنما على رسولنا البلاغ المبين » .

وهذا المترف المبطون الذى لا يشبع ، وهذا القارونى الذى يجمع ثم يجمع وفى الوقت نفسه يمنع ثم يوقع ، وهذا الكانز الذى أصابه سعار الكنز والامتلاك فلا يقف عند حد ، ولا يقنع بالكثير مهما امتد ، بل يطمع ويطمع ، ويقلد مأواه جهنم فى جشعها وطلبها مدداً بعد مدد من أمثاله المجرمين : « يوم نقول لجهنم : هل امتلأت ؟ وتقول : هل من مزيد » ؟ وهذا الذى تراه بارعا كل البراعة فى الجمع من حل ومن حرمة ، ولكنه فى الوقت نفسه لا يعرف شيئاً اسمه القسمة ، وهذا الذى لا يأكل كالمؤمن فى معى واحد ، بل يأكل كالكافر فى سبعة أمعاء ، وتفيض موائده بأصناف شتى من الطعام امتصها من دماء المظلومين أو المهضومين ، ويكاد يهلك من التخمة وتتمزق دنياه من الامتلاء . . . لماذا لا يوضع كل واحد من هؤلاء فى معزل ، ويحال بينه وبين جنون التجميع ، ويؤخذ بشىء من الخشونة والتجويع ، لا تشفيا منه وانتقاماً ، بل إصلاحاً له وإكراماً ، وتعويداً له على الجوع وسغب الحرمان ، ليألف الرحمة والإحسان ، ويدرك ما فى قول الجليل من إيجاع وتقريع : « كلا بل لا تكرمون اليتيم ، ولا تحاضون على طعام المسكين ، وتأكلون التراث أكلا لما ، وتحبون المال حباً جماً ، كلا إذا دكت الأرض دكاً دكاً ، وجاء ربك والملك صفا صفا ، وجىء يومئذ بجهنم يومئذ يتذكر الإنسان وأنى

له الذكرى ، يقول يا ليتنى قدمت لحياتى ، فيومئذ لا يعذب عذابه أحـــد ، ولا يوثق وثاقة أحد » وانظر أيها الغافل كيف جاءت الصورة المقابلة لهذا الموقف عقيبة ، فرسمت لنا مستقر النفس الهادئة المطمئنة ، القانعة المؤمنة ، التى عرفت حق ربها وحق نفسها وحق الناس : « يا أيتها النفس المطمئنة ، ارجعى إلى ربك راضية مرضية ، فادخلى فى عبادى وادخلى جنتى » ! . .

وهذه المخلوقة الضالة أياً كانت التى نوديت إلى الفضيلة فأبت ، ودعيت إلى صيانة البيت فتمردت ، ونصحت بحفظ ثدييها فتاجرت ، وأطلعت ساقيها للريح ، وألقت ثيابها لكل قادم والغ ، وأصابها كلب الشهوة وحمى الجنس ، فأصبحت عليلة بالداء الخبيث لا تطيق منه خلاصاً ؛ فلم لا يجب على الدولة أن تعتقلها فى خدرها ، أو فى معزل مأمون مصون من الريب والشبهات ، حتى تقضى شهوراً هناك ، تتعلم الصبر والعفة ، والوقار والرزينة ، وتفقه أن المرأة إذا ضاع تاج عفتها فقد انتهت حياتها وإن امتدت بها الأعمار ، وسقطت مكانتها وإن كانت من ذوات الحسب والنسب ، وصدق العلى الكبير : « ضرب الله مثلا للذين كفروا امرأة نوح وامرأة لوط كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين فخانتا هما فلم يغنيا عنهما من الله شيئاً وقيل ادخلا النـــار مع الداخلين ، وضرب الله مثلا للذين آمنوا امرأة فرعون إذ قالت رب ابن لى عندك بيتاً فى الجنة ، ونجنى من فرعون وعمله ونجنى من القوم الظالمين ، ومريم ابنة عمران التى أحصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا وصدقت بكلمات ربها وكتبه وكانت مل القانتين .

وهذا المستبد المتجبر فى بيته أو بيئته أو أمته ، الذى يبطش ويظلم كأنه فرعون ، وينهى ويأمر كأنه إله فى الكون ، ويتطاول متفحشاً على مرءوسيه ، ويتحيف حقوق أتباعه كأنهم قطع من قطع الشطرنج بين يديه يجب أن

تحتجزه الإنسانية فى مصحة أخلاقية ، حتى يحس بلوعة الخضوع وذلة الخشوع ، وحتى يدرك وهو خلف السدود والقيود ما يصيب البرى من ألم حين يظلمه سواه ، وحتى ينتفع بمثل ذلك الدرس البليغ الذى يرويه لنا التاريخ فيقول : كان للخليفة العباسى المتوكل ولد اسمه المعتز ، فاختار له مربياً هو الإمام ابن عبيد الكوفى ليعلمه ويهذبه ، فلما أراد المتوكل أن يجعل ابنه المعتز ولياً لعهده ، تعمد مؤدبه ابن عبيد أن يحط من مرتبته ، وأن يؤخر غداءه عن وقته ، وضربه من غير ذنب . . . فلما بلغ ذلك المتوكل غضب ، واستدعى ابن عبيد ، وسأله عن السبب فى ذلك ، فأجابه المؤدب العظيم :

« بلغنى ما عزم عليه أمير المؤمنين — أطال الله بقاءه — فدعوت المعتز وحططت منزلته ، ليعرف هذا المقدار من الحط فلا يعجل بزوال نعمة أحد ، وأخرت غداءه ليعرف هذا المقدار من الجوع ، فإذا اشتكى إليه الجوع عرف ذلك ، وضربته من غير ذنب ليعرف مقدار الظلم فلا يعجل بالظلم على أحد » ! . .

فلما سمع المتوكل ذلك منه سر به ، وأعطاه عشرة آلاف درهم ، ثم سمعت بذلك أم المعتز — وهى أم — فأرسلت إلى ابن عبيد عشرة آلاف أخرى . . .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام :

الواقع أن الإنسانية المصابة فى أخلاقها المئوفة فى مبادئها تحتاج أشد الاحتياج إلى معازل ومصحات ، لا نقول مصحات جسدية ، فعندها منها الكثير ، والسبيل إلى الزيادة فيها يسير ، ولا نقول معازل فكرية ، فإن المقيمين فى أبراجهم العاجية يحلمون ويتخيلون كثير ، ولكن المجتمع فى حاجة إلى معازل اجتماعية ومصحات أخلاقية ، يساق إليها — فى حزم المصلح ورفق الحكيم وقوة المؤدب — كل من تعالى على العباد ، وأظهر بالفساد ، أو طغى

فى البلاد ، وما قدمنا فى حديثنا الآن إلا جانباً قليلا من نماذج لا تحصى ، ولو فتشنا جوانب الحياة لوجدنا الكثيرين ممن يحتاجون إلى العزل والإبعاد . ولكن السؤال المحير الذى يتردد هنا وهناك هو : أيوجد فى الناس من يستحق الإشراف على تنفيذ ذلك الإصلاح ، أم أننا أصبحنا من سوء حالنا فى موجبات العزل سواء ، وأن الأمر كما قال العليم : « ظهر الفساد فى البر والبحر بما كسبت أيدى الناس » ؟ . .

ألا إن الطريق رغم ظلامه لم يفقد المصباح ، والقفل رغم تعقيده لم يستعص على المفتاح ، وبوادر الفشل رغم ذيوعها لم تغلب رجاء الفلاح : « إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون » . . . واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون ، إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون ، أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم ، سلوا ربكم التوفيق يستجب لكم .

بين الأهواء والأخطاء[1]

لله الحمد ، هو ولى الحمد فى الأولى والآخرة ، ومستحق الشكران من القلوب الذاكرة ، سبحانه أبدع الكون بقدرته ، ونظم الخلائق بحكمته ، وأقام أمورهم بتدبيره ، ووهب كلا من عطائه بتقديره ، وهو العلى الكبير ، نشهد أن لا إله إلا أنت ، استعليت بالقوة بينما ضعف من سواك ، واستغنيت بالكمال بينما احتاج إليك كل من عداك ، « يا أيها الناس أنتم الفقراء إلى الله ، والله هو الغنى الحميد » . ونشهد أن سيدنا ومولانا محمداً عبدك ورسولك ، وعد فوفى ، وقدر فعفا ، وعاهد فأوفى ، حتى اشتهر بلقب « الصادق الأمين » فصلواتك اللهم وسلامك عليه ، وعلى آله منابع الهدى والضياء ، وأصحابه الصابرين فى البأساء والضراء ، وأتباعه المجاهدين فى سبيل شرعته الغراء ؛ أولئك يرجون تجارة لن تبور .

يا أتباع محمد عليه السلام . . .

نحن شعب لئيم ! . . . وما نقولها والله تشفيا أو تحديا أو تطاولا ، ولكنا نقولها ونحن نحس لها فى ألسنتنا وقع المكواه الحامية الملتهبة ، ونجد من مرارتها ما يجده المرغم على أكل الزقوم أو تناول الحميم ، ونعلم أن رذاذها يشمل قائلها ، وأن الأمر كما قال الأول : فإذا رميت يصيبنى سهمى ! . ولعل الله المبدع الخلاق ، القادر على كل شىء ، والذى لا يعجزه فى الكون شىء ، والذى يفلق الحب والنوى ، ويحيى الأرض بعد موتها ، ويخرج الحى من الميت ، ويهدى من الظلمات إلى النور ، ويبعث من فى القبور ، لعل الله جل جلاله يخلق من اللؤم كرماً ، ومن الهوان عزما ، ومن الخسار غنماً ،

(١) الجمعة ٢١ جمادى الاولى سنة ١٣٦٩ هـ ١٠ مارس سنة ١٩٥٠ م .

فلا نضطر يومها إلى أن نكوى ألسنتنا الرقيقة الضعيفة بتلك الجمرات من نيران النقد والتمحيص ! . . .

نحن من لؤمنا مثلا نجيد الاعتراض ونحن على حافة الطريق ، وندعى مسرفين أننا نجيد السباحة ونحن على الشاطىء ، ونتهكم على الذين ألقوا بأنفسهم بين الأمواج بغية الإصلاح أو الإنقاذ ، ونصفهم بأنهم جهلة عاجزون ، لا يدرون من شئون البحر أو فنون السباحة قليلا أو كثيراً ، وتتفتح مآقينا عن دموع غزار كثار ، نرسلها كما ترسل التماسيح دموعها ، نوهم الناس بذلك أننا جد آسفين قلقين على أولئك الغرقى الذين يتلهفون على أسباب النجاة ، ونطالب فى رعونة وإلحاح أن تفسح أمامنا السبيل لكى نعجل باستخلاصهم مما هم فيه من حرج وضيق ، فإذا ما حملتنا الأقدار على اجتياز الامتحان ، لنكرم فيه أو نهان ، وألقينا يدها القوية الجبارة فى البحر ، لنثبت ما كنا ندعيه من سباحة بارعة وهمة فارعة ، ولننقذ الذين كنا بالأمس ونحن على الشاطىء نتحرق شوقاً إلى إنقاذهم ، ونطعن فى الموكل إليهم هذا الإنقاذ ، ضللنا وهوينا ونسينا عريض الادعاء ، وشغلتنا أصداف القاع وأسماك البحر عن الضحايا التى تردد صرخاتها فتذهب كالهباء فى أعاصير الهواء ! . . . وبذلك نكون قد كذبنا على أنفسنا وعلى الناس ، مع أن الرسول عليه صلوات ربه يقول : « إذا كذب العبد تباعد عنه الملك ميلا من نتن ما جاء به » . ونكون قد ناقضنا شرعة الإسلام، لأن نبيها الكريم يقول : « المسلمون عند شروطهم » . ونكون قد قد استوجبنا مقت الله الكبير لأنه يقول : « ياأيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون ؟ كبر مقتا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون » .

ونحن من لؤمنا واتضاع نشأتنا ، وانهدام عزتنا وضياع مقوماتنا نطعن مثلا على بعض الناس ، ونصمهم بكل شنار ما وجدنا إلى ذلك سبيلا ، ونؤكد للناس ، ونكرر فى الصباح والمساء ، وفى الإعلان والإخفاء ، وفى

الاجتماع والاختلاء ، إن هذه الأصنام المقدسة بهتاناً فى الأرض ، المعبودة ضلالا من دون الله ، هى فى شقاء الناس وبلائهم ، والعقبة فى سبيل رفعتهم وهناءهم ، والغول الرهيب الذى يمتص دماءهم من أعضاءهم ، وقد يكون فى ذلك الطعن نصيب كبير أو قليل من الصحة والواقع ، ولكننا من لؤمنا لا نعيب من نعيب عن طهارة وإخلاص ، بل نعيبهم وأسفاه لأنهم يقفون حجر عثرة فى طريق مطامحنا ومطامعنا ، أو يحرموننا مما نظن أنه حق حقوقنا أو ما أشبه ذلك من علل بعيدة عن جو النزاهة والبراءة فى الانتقاد ، فإذا حرضت الظروف أو المحن أو المخاوف أولئك المطعونين المنقودين على أن يخلو لنا الطريق ، أو يعطونا الزمام ، أو يردوا إلينا ما لنا من حقوق ، ولو على حساب حقوق الآخرين ، عدنا نسبح بحمد هؤلاء فى الليل والنهار ، والإظهار والإسرار ، ونضفر لهم أكاليل الغار ، عقود المحامد والمفاخر ، ونصفهم بأوصاف نغالط بها أنفسنا وتاريخنا وواقع دنيانا ، ونفسد بهذا الرياء الخبيث اللئيم ضمائر قوم من عامة الناس أحسنوا بنا الظن وأجملوا الاعتقاد ، وتوهموا أننا سفينة الإنقاذ ورسل الخلاص ، فإذا بالرياء الكاذب والتحول المفاجئ والخضوع الخانع يكشف عن جوانب من أشخاصنا وضيعة ونواح خداعة وطبائع لئيمة ، كل همنا أن تنتهز لتكتسب وتمتلئ ، فهى تغضب وتثور وتنقد وتهاجم حينما يحال بينها وبين ما تريد ، وهى تسكت وترضى وتتابع حينما يقال لها : هيا إلى المغانم ، وصدق العلى الكبير : « ومنهم من يلمزك فى الصدقات ، فإن أعطوا منها رضوا وإن لم يعطوا منها إذا هم يسخطون » . وقد عد الرسول من أهل النار أقواماً منهم الخائن الذى لا يظهر له طمع وإن دق إلا خانه ، ورجل لا يصبح ولا يمسى إلا وهو يخادعك عن أهلك ومالك ! .

ونحن نتحرق شوقاً إلى الإصلاح والتعمير ، والبناء والتشييد . حينما نكون

مجردين عزلاء ، وحيناً يحال بيننا وبين وسائل التطبيق والتنفيذ لسبب من الأسباب ، ونرانا وأنفسنا تتميز غيظاً ، وقلوبنا تنفطر حزناً وألماً ، وأجسامنا تتقطع إرباً إرباً ، حماساً لقضايا الإصلاح ومسائل التوجيه ، وغيرة على الحقوق المضيعة والمشروعات الراكدة والعبقريات المطمورة والكنوز المدفونة والثمرات المفقودة والخيرات المعطلة ، فلماذا لا يتم ذلك المشروع ، ولماذا لا تتحقق تلك الفكرة ، وكيف نسكت عن التقصير فى ذلك الميدان ، وهكذا نظل ندير ألسنتنا ونتعب حلاقيمنا ونشق حناجرنا من الهتاف بأمثال تلك الصيحات ، وقد لا نكتفى بالهتاف والصياح ، والكلام والحديث ، فنلجأ إلى الكتابة والتحرير ، نطالع الناس بمقالاتنا الحماسية النارية الفياضة فوق أنهار الصحف وصفحات المجلات ، ونكرر لهم ونعيد عما يجب للعباد والبلاد ، ونبهر عيونهم بالخطط المطولة والمشروعات المفصلة ، والأحلام الجميلة والوعود الجليلة ، ونستحثهم على أن يبذلوا من تأييدهم وتعضيدهم وجهودهم وأموالهم ما يفتحون به السبيل أمام أولئك المصلحين الأبرار الذين هبطوا على الكون كما تهبط الأملاك من السماء تنير الظلام وتحقق الأحلام . . .

ولا نكتفى بالحديث المتحمس أو الكتابة المسهبة ، بل نريق جانباً أو جوانب من ماء حياتنا وماء أخلاقنا فنخادع أولئك الناس ونرائيهم ، ونتزلف إليهم ونرجوهم ، ونلح عليهم فى الابتهال إليهم أن يمكنونا من مقاليد الأمور حتى يروا كيف سنحقق لهم ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ! . . . وتفعل هذه الأفاعيل السحرية الشيطانية العجيبة ما تفعل فى نفوس الناس ، وتتجمع أسباب من هنا وأسباب من هناك ، فإذا بالطريق ينفتح أمامنا ، وإذا بالمقاليد تلقى إلينا ، وإذا بالملايين تهتف لنا وتقبل علينا وتؤمل فينا وترجو منا ، وإذا بنا نفرح الفرحة الكبرى ، ونتقبل التهانى والتبريك ، وتنتهى ضجة البهجة ، وينتظر الناس منا ما ينتظرون ، ويتطلعون

إلى ما كانوا يتوقعون ، فنقدم إليهم بعض « المسكنات » ونعالج أملهم أو طموحهم ، أو جشعهم فى رأينا الجديد على الأصح ، بعلاجات وقتية فيها تخدير وتحذير ، وإذا بالناس بعد قليل يتحسرون ويضربون يداً بيد ، ويرددون قول الحق : « ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدقن ولنكونن من الصالحين ، فلما آتاهم من فضله بخلوا به وتولوا وهم معرضون ، فأعقبهم نفاقاً فى قلوبهم إلى يوم يلقونه بما أخلفوا الله ما وعدوه وبما كانوا يكذبون ، ألم يعلموا أن الله يعلم سرهم ونجواهم ، وأن الله علام الغيوب » ؟ !.

ونحن تضيق من حولنا الحلقات وتشتد بنا الأزمات ، ونتلمس النافذة التى نخرج بها من الضيق ، فنستعين بكل طريق ، نصافى الأعداء القدماء ، ونتدانى من النائين البعداء ، ونبسم فى وجوه من نضمر لهم العداوة والبغضاء ، ونتملق من بيدهم الإنقاذ والدواء ، ونعد فى وقت العسرة وإبان الأزمة مسرفين فى الوعود ، ونطوق أعناقنا وشرفنا — إن كان هناك شرف — بالعهود ، ونغلظ الأقسام ونؤكد الإيمان : لئن هبت الريح رخاء حققنا أملا ورجاء ، لنجزين الأنصار خير الجزاء ، ولنضاعفن للمهضومين المنح والعطاء ، ونظل نمتص جهود المستضعفين فى الأرض ، المخدوعين بوعودنا وآمالنا ، حتى نصل على كواهلهم ونبلغ بسواعدهم ، ونرتع ونشبع ونجمع ، ثم تأتى هذه الأيدى المعروفة ممدودة فى لهفة تطالب بحق الوفاء ، فلا تجد الصديق الوفى ، بل تجد السبع وقد كشر عن نابه ، وفتح جعبة حرابه ، وانقلب حمل الأمس الوديع إلى ذئب اليوم المفترس ، وربما هزىء الذئب الواصل بأنات الأشلاء التى وصل عليها ، فيشمت بها ويتفكه بأمرها ، ناسياً قصاص الحياة وتبدل الأحوال ، وأن الرسول يقول : « لا تظهر الشماتة لأخيك فيرحمه الله ويبتليك » فأين إذاً العهد الذى يقول عنه القرآن : « وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسئولا »

ذلك شيء لا يسأل عنه الذين لا يعرفون الإيمان إلا حين تشرف السفينة على الغرق فى قاع المحيط ! . .

يا أتباع محمد عليه السلام . . .

أنبئونى بربكم كيف يقوم مجتمع على أسس خاوية منهارة كتلك التى سبق عنها الحديث ؟ . . أو كيف ينهض شعب وفيه كل ذلك الضلال فى العقول والخبث فى النفوس والمرض فى الأخلاق ؟ . وأين بربكم نجد رائحة أو ظلا أو أثراً أو بقية للمسلم النقى الصادق الذى يقول الكلمة فتكون غلا فى عنقه حتى يفى بها ، ويؤمن بالمبدأ فلا يعرف سواه ، ولا يهدأ عن نصرته وتأييده ، ويعد الوعد فلا يتخلف ، ولو أدى حفظه إلى التضحية بالنفس أو النفيس ؟ . . ابحثوا معى أيها الناس ، فإن وجدنا فقد حق لنا أن نشعر بأننا أحياء ، وإن لم نجد فقد وجبت ساعة الفناء ، وليس من سنة الله أبداً أن تبقى أمة طويلا بمثل هذه العلل والأدواء ، ولن تجد لسنة الله تحويلا . . واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون ، إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون . أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم .

بختك هذا اليوم[1]

الحمد لله عز وجل ، هو عالم الغيب والشهادة ، وإرادته فوق كل إرادة : « ولله غيب السموات والأرض ، وإليه يرجع الأمر كله ، فاعبده وتوكل عليه ، وما ربك بغافل عما تعملون » أشهد أن لا إله إلا الله ، انفرد بسلطة القضاء ، وتوحد فى تنفيذ القدر ، والله يعلم وأنتم لا تعلمون ، وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، فوض الأمر كله إلى ربه الكبير المتعال ، فصلوات الله وسلامه عليه ، وعلى آله وأصحابه ، وأتباعه وأحبابه ، « الذين يخشون ربهم بالغيب وهم من الساعة مشفقون » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام :

وسائل الإعلام ملك للأمة ، هكذا يقول نظامنا الاجتماعى ، فيجب أن تسير هذا الوسائل طوعاً لإرادة الأمة : قولا وعملا ، وظاهراً وباطنا ، فلا تأتى ما يخالف عقيدة الأمة أو تعاليمها الروحية أو مبادئها الإيمانية ، ولقد دأبت بعض الصحف منذ حين على أن تنشر ما تسميه « بختك اليوم » أى نصيبك وما يصيبك من خير أو شر فى حاضرك أو قابلك ، وهى عادة سخيفة ، وتصرف ذميم يدل على السخرية بعقول الناس ، والاستخفاف بمعتقداتهم الكريمة ووجهاتهم السليمة ، ثم أقدمت إحدى إذاعاتنا على تقليد صحفنا فأخذت تذيع على الناس هنا وهناك وهنالك أبختهم وحظوظهم ، وتزعم لهم أنها تخبرهم بما سيأتيهم من سعادة أو شقاء ، مع أن كتاب الله العلى الأعلى يقول : « قل إنما الغيب لله » ويقول : « وما كان الله ليطلعكم على الغيب » ويقول ساخراً بالإنسان الضال : « أعنده علم الغيب فهو يرى » ؟ . والمضحك كل الإضحاك فى هذا الباب أن مذيعة أذاعت منذ أيام ما يسمونه « بختك

---

(١) الجمعة ١٤ أكتوبر سنة ١٩٦٦ م ٢٩ جمادى الآخرة سنة ١٣٨٦ هـ .

اليوم » ، فذكرت أحد أبراج النجوم ثم قالت « إن السعداء من أهل هـــذا البرج هم مواليد يوم ثلاثين من شهر فبراير » ، وشهر فبراير — مع الأسف المضحك — لا يكون ثلاثين يوماً مطلقاً ، وكأن الله تعالى أراد أن ينزلق لسانها إلى هذه الغلطة الشنيعة لتكون الفضيحة واسعة فظيعة ، وليتأكد صدق القول المأثور : كذب المنجمون ولو صدقوا ، فهم قد يوافقون فى أقوالهم ما يقع مصادفة واعتباطاً ، ولكنهم مع هذا كاذبون ، لأنهم يدعون معرفة ما لا يعلمون ، ويتجارءون على الغيب الذى استأثر الله بعلمه وهم عامدون : « وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو ، ويعلم ما فى البر والبحر » ، « إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما فى الأرحام ، وما تدرى نفس ماذا تكسب غداً ، وما تدري نفس بأي أرض تموت ، إن الله عليم خبير » .

ومن المؤسف أن كثيرين من أغرار القراء وسفهائهم ، أو من سذجهم وبسطائهم ، يقبلون على مطالعة هذا التنجيم — أو هذا التخليط والتوهيم — بدافع التسلية والتفكه ، دون اعتقاد فيه أو إيمان به فى أول الأمر ، ولكن التكرار يولد الاعتياد ، والعادة كما يقال طبيعة ثانية ، فلا يزالون يطالعون هذا الهراء ، ويتابعونه يوماً بعد يوم ، ويقارنون بين ما فيه وما يحدث لهم فى حياتهم من حوادث أو أمور ، ويربطون بين هذا وذاك ، وتتسرب إلى عقولهم وقلوبهم فى أثناء ذلك أوهام وظنون ، وإذا هم بعد حين يصبحون من مدمنى مطالعة هذا العبث ، وإذا هم وقد تأثروا ببعض المصادفات والاتفاقات العارضة الظاهرية بين ما قيل وما وقع يعتقدون أن المنجمين صادقون ، وهنا يكون من الضلال فى الاعتقاد ما يكون ، مما لا يسهل ولا يهون . ومن عجب أن بعض المخادعين يدافعون عن هذا الهراء بقولهم : إنه نوع من التبشير بالأخبار السارة ، ونوع من التحذير بالأخبار السيئة ، ولو أنصفوا لقالوا إن تلهية القراء بالوعود السارة فيها حث لهم على الاغترار والانتظار مع كسل وخمول ،

وإذا لم يحدث ما توقعوه أحسوا بلذعة الحرمان وخيبة الرجاء ، وإن تخويف الناس بأخبار سيئة على غير أساس يعودهم التخويف والتردد وتوقع الشر ، فلا يذوقون طعم الحياة التى يجب أن تقوم على أسس من العقل والفطنة ، والعمل والاجتهاد ، والتنظيم والتخطيط ، والانتفاع بثمرات العلوم والمعارف والتجارب ، والثقة بالله واهب الفكرة والقدرة ، ومدرك الخطرة والنظرة ، ومانح الإنسان نور الإدراك والعرفان : « وعلمك ما لم تكن تعلم ، وكان فضل الله عليك عظيماً » .

ولقد نهى الإسلام أهله عن ادعاء معرفة الحوادث المستقبلة ، كأخبار النجاح والسقوط ، وأنباء السعادة والشقاء ، سواء أكان ذلك بالتنجيم أم الكهانة أم بوسيلة أخرى ، ولقد قال سيد الخلق محمد عليه الصلاة والسلام : « من أتى عرافاً فسأله عن شيء فصدقه لم تقبل له صلاة أربعين يوماً » وقال أيضاً : « من صدق كاهناً أو عرافاً أو منجماً ، فقد كفر بما أنزل على محمد فإن الله تعالى يقول « عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً إلا من ارتضى من رسول » والعراف هو من يدعى معرفة الشيء الغائب ، كالذين يزعمون أنهم يعرفون أماكن الأشياء المسروقة ، والذين سرقوها ، وطرق إعادتها ، والكاهن هو الذى يدعى العلم بالأمور المستقبلة ومعرفة الأمور التى لم تقع بعد ، والمنجم هو من يزعم أنه يعرف الغيوب ومصائر الناس ومستقبلهم عن طريق دراسة الأفلاك والنظر فى النجوم . وبعض الضالين أو المخادعين يجادلون فى الحق بعد ما تبين فيقولون : إن الله تعالى يقول : « عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً إلا من ارتضى من رسول » فهو قد استثنى هنا ، وذكر أنه قد يطلع على غيبه من يرتضى ويختار من رسله ، فلا مانع إذن من أن يعلم بعض الناس الغيب . وأقرب الأجوبة على هذا الاعتراض أن يقال : ومتى كان المنجمون رسلا أوحى الله تعالى إليهم ، بعد أن اختارهم وارتضاهم ؟ إذن فليصل هؤلاء

الجلاء وليسلموا فى عماية وغواية على كذبه رسلهم ، أو على مردة شياطينهم بتعبير أدق . ثم إن المراد بالغيب الذى يظهره الله جل جلاله لمن ارتضى من رسله هو ما تعلق برسالاتهم ، وما يتعلق بعالم الآخرة فقد أظهرهم على أمر الحساب والجزاء ، وأطلعهم على عالم الملائكة ، وأوحى إليهم ما أوحى من أمور لم يكن الناس يعلمونها ، وهذا الوحى يكون بأمر الله وحده ،ومن عند الله وحده ، ولدى مواقيت يحددها الله وحده ، وبطريق الوحى إلى رسل الله وحدهم ، وليس لأحدهم أن يدعى لنفسه أمام ربه أى قدرة على علم ما غاب عنه من عواقب الأمور ومصائر الناس ، وها هوذا القرآن المجيد يردد على لسان نوح عليه السلام وهو يحاور قومه : « ولا أقول لكم عندى خزائن الله ، ولا أعلم الغيب ، ولا أقول إنى ملك » ، ويردد على لسان خاتم النبيين محمد صلوات الله وسلامه عليه : « ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسنى السوء ، إن أنا إلا نذير وبشير لقوم يؤمنون » ، وها هى ذى السيدة عائشة رضى الله عنها تقول فيما اتفق على رواية البخارى ومسلم : «من زعم أن محمداً صلى الله عليه وسلم يعلم ما يكون فى غد فقد أعظم على الله الفرية » أى فقد افترى على الله افتراء مبيناً : « ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام :

العقيدة إيمان بالله ويقين بالحق ، والإيمان بالله ثقة فيه واعتماد عليه ، والحياة علم وعمل ، والمؤمن ابن وقته ، والغد غيب محجب ، فلننل من العلم ما استطعنا ، ولنؤد من العمل ما قدرنا ، ولننتفع بما فى أيدينا ، ولنعمل لدنيانا كأننا نعيش أبدا ، ولنعمل لآخرتنا كأننا نمــوت غداً ، وعلى الله قصد السبيل ، واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون ، إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون .

ثورة الثقافة[1]

الحمد لله عز وجل ، هو بكل شيء محيط ، وبكل أمر عليم : « ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلماً » . أشهد أن لا إله إلا الله ، « يعلم ما يلج فى الأرض وما يخرج منها ، وما ينزل من السماء يعرج فيها وهو معكم أينما كنتم ، والله بما تعملون بصير » . وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، مؤدب العلماء وإمام الفقهاء ، فصلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وصحبه ، وجنوده وحزبه أولئك حزب الله ، ألا إن حزب الله هم المفلحون .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام :

منذ أيام احتفلت الدولة بعيد العلم ، ووزع رئيس الجمهورية الجوائز المختلفة على النابغين فى نواحى العلوم والآداب والفنون ، وخطب عن الثورة الثقافية ، وأنها أساس الثورتين السياسية والاجتماعية ، وأنها العماد الذى نعتمد عليه فى حفظ مغانمنا الوطنية ومكاسبنا القومية ، وأن هذه الثقافة يجب أن تكون للشعب كله ، لا يحال بينها وبين ضعيف أو فقير ، وأننا لا نضيق بالثقافة الأجنبية القويمة ، ولكننا لا نقبل الضار منها أو الخبيث فيها . وهذه الثورة الثقافية التى تحدث عنها ذلك الخطاب تذكرنا بموقف الإسلام الحنيف من الثقافة والعلم ، فالإسلام يؤيد شيوع الثقافة ، واشتراكية العلم ، وجعل المعرفة حقاً لكل فرد فى الأمة ، ولذلك قال الرسول عليه الصلاة والسلام : « طلب العلم فريضة على كل مسلم » بل إن الإسلام يفتح الباب أمام غير المسلم لكى ينال من العلم والمعرفة ما قد يكون سبباً لاهتدائه من ضلالة ، وإقلاعه عن كفره ، ودخوله فى دين الله قيوم السموات والأرض ، ولذلك يقول

---

(١) ٢١ رجب سنة ١٣٨١ هـ ٢٩ ديسمبر سنة ١٩٦١ م .

القرآن الكريم : « وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه ذلك بأنهم قوم لا يعلمون » .

ومعنى الآية الكريمة أن الله تعالى يقول لنبيه صلى الله عليه وسلم : إن طلب منك أحد من المشركين الأمان ليسمع كلام الله ليعلم حقيقة الإسلام ومبادئه وتعاليمه ، فيجب عليك أن تعطيه الأمان ، ثم عليك بعد سماعه القرآن أن تبلغه مأمنه ، وتمكنه من العودة إلى دار قومه سالماً آمناً ، بحيث يكون حراً فيما يختار بعد أن سمع وعلم وعرف ، وإنما أمرناك بذلك لأن هؤلاء تحركهم عصبية الجاهلية والجهل إلى العناد والمخالفة ، ولأنهم لا يعلمون علم اليقين والاستجابة ما فى القرآن من خير وحق ، فإذا بدا منهم استعداد للنظر والتدبر ، فأعنهم على ذلك ومكنهم منه . وليس وراء ذلك إتاحة لفرص التعلم والتثقف ، وليس وراء ذلك دليل على تقدير الإسلام للعلم وحرصه على نشر الثقافة .

والإسلام يرشدنا إلى أن الثقافة العامة الأصيلة تراث بشرى عام لا يخص طائفة ، ولا يلزم شعباً ، ولا تحتكره أمة ، وإنما العلم كالهواء الذى يشيع ويذيع ، وينشر هنا وهناك ، ولو حبسناه وضغطناه فى حيز ضيق لسبب انفجاراً أو تدميراً ، والإسلام يرشدنا إلى أن نأخذ الصحيح القويم من العلوم والثقافات من كل مكان ومن كل أمة ، ولذلك يقول الرسول : « الحكمة ضالة المؤمن يأخذها أنى وجدها » وفى رواية : « الحكمة ضالة المؤمن يأخذها من أى وعاء خرجت » وفى رواية : « الحكمة ضالة المؤمن فأنى وجدها فهو أحق بها » . ويقول الرسول : « اطلبوا العلم ولو بالصين » . وقد قال هـذا فى وقت لم تكن فيه سيارات ولا باخرات ولا قطارات ولا طائرات ولا نفاثات ولا وسيلة من وسائل النقل السريعة الحديثة ، وكانت الصين أبعد الأماكن فى أذهان العرب وتصورهم ، ومع ذلك حرضهم الرسول على أن يطلبوا العلم ، ولو كان فى هذا البلد النائى البعيد ، ولو كان هذا العلم عند أهلها الذين كانوا

مجهولين غير معروفين للعرب والمسلمين ، وإذا كان الإسلام قد حرض أبناءه على أن يطلبوا العلم من أي مكان ، فقد حرصهم في الوقت نفسه على أن ينشروا العلم في كل مكان ، حتى جاء في الحديث : « من كتم علماً علم الله إياه ألجمه الله بلجام من نار يوم القيامة » .

ولقد كرم الإسلام مكانة العلماء حتى ذكر الحديث أن مدار العلماء يوزن بدماء الشهداء يوم القيامة ، وأن الملائكة تضع أجنحتها لطالب العلم رضى بما يصنع ، وهذا تحريض على دفع الإنسان إلى الاتصال بالعلم والثقافة والمعرفة لينال هذا الشرف العظيم ، ولقد ركب زيد بن ثابت ذات يوم ، وهو من أئمة العلماء على عهد الرسول ، فجاء عبد الله بن عباس وأخذ بركابه ، أي سار بجانب ركابه تعظيماً له ، فقال له زيد : لا تفعل يا ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال ابن عباس : هكذا أمرنا أن نفعل بعلمائنا ، فقال زيد : أرنى يدك ، فأخرج إليه ابن عباس يده فأخذها زيد وقبلها وقال : وهكذا أمرنا أن نفعل بأهل بيت نبينا . وزيد هذا هو الذى قال فيه ابن عباس حينما مات : من سره أن يرى كيف يقبض العلم فهكذا يقبض ! . .

ونحن فى الواقع نريد ألواناً من الثقافة الصحيحة القويمة . . . نريد تعبئة ثقافية فى الدين ، لأن هذا هو توجيه الله رب العالمين لنا حيث يقول : « فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا فى الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون » والرسول يقول : « من يرد الله به خيراً يفقهه فى الدين » . ونحن نلاحظ مع شديد الأسى وعميق الأسف أن هناك كثيرين من شبابنا — بل ومن رجالنا ونسائنا — لا يعرفون شيئاً ذا بال عن تعاليم الدين ومبادىء الإسلام ، بل لقد سمعنا عن بعض الطلبة فى الجامعات لا يعرفون كيف يؤدون الصلاة . ونريد تعبئة ثقافية فيما يتعلق بتاريخنا الإسلامى والعربى لأن هذا التاريخ مجهول بتفاصيله ومواقفه ، وأبطاله ورجاله لكثير من الناس ،

مع أن هذا التاريخ يحوى من حوافز الخير ودوافع المجد وعناصر البطولة ما يكفى لتحريك الهمم وبعث العزائم وربط الأمة بمراقى العزة ومواطن الكرامة وهذه سيرة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وسير أصحابه رضوان الله عليهم أجمعين ، كانت بحوادثها ووقائعها تطبيقاً عملياً رائعاً لمبادىء الإسلام وتعاليم الملة الغراء ، فاجتمع لنا فى هذه السيرة جلال المبدأ وروعة التطبيق ،فالدارس لها يتنقل من موقف إلى موقف ، ومن مثل إلى مثل ، وفى ذلك عبر وعظات لأولى الألباب .

ونريد ثقافة عليمة بصيرة واعية ، يستطيع صاحبها أن يفرق بها بين الحق والباطل ، وبين الخير والشر ، وبين الفضيلة والرذيلة ، ويمتزج فيها العلم بالخلق بالوطنية بالإنسانية بالتسامى عن الدنية والهيام بالخصال الشريفة العلية ، وتحرض صاحبها دائماً على أن يرضى مطالب حسه ، ومطالب نفسه ، ومطالب روحه ، فليس هو بالحيوان الذى يعيش ليأكل دون مبادىء أو قيم أو مثل ، وليس هو بالسلبى الانعزالى المترهب المنصرف عن الدنيا بأسرها ، المعطل للحياة وأدوارها ، بل هو الرجل القوى البدن ، البصير العقل ، الطهور النفس ، ، الكريم الأخلاق ، يقبل على الحياة فيأخذ حظه الطيب منها ، ويقبل على واجبه نحو وطنه وقومه فيؤديه خير الأداء ، ثم يقبل على واجب ربه فيؤديه فى قنوت وخشوع وإخلاص : « وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله إليك ولا تبغ الفساد فى الأرض ، إن الله لا يحب المفسدين » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام : إذا كانت الثورة الثقافية هى أساس الثورة السياسية والاجتماعية ، فإن أساس الثورة الثقافية لابد أن يكون سليماً

قويماً نظيفاً شريفاً ، عماده إيمان ووطنية وإنسانية ، وبذلك تتميز ثقافة المؤمنين الملحدين والمتحللين الذين يفسدون أكثر مما يصلحون ، وإن الإسلام المعلم المثقف ليبارك كل خطوة نخطوها فى سبيل أن تتثقف عقولنا ، وتتزكى نفوسنا ، وتتعالى هممنا ، وتتسامى أخلاقنا ، وسبحان من لوشاء لهدى الناس جميعاً إلى سواء السبيل ، واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون .

الرحلة فى الاسلام [1]

الحمد لله عز وجل ، خلق الإنسان ، ومهد له الأرض ، وبث بين يديه الخير : « ولقد كرمنا بنى آدم ، وحملناهم فى البر والبحر ، ورزقناهم من الطيبات ، وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا » . أشهد أن لا إله إلا الله أمر بالنظر والاعتبار ، ودعا إلى التأمل والتفكر : « وفى الأرض آيات للموقنين » . وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، أخلص لربه دعوته وهجرته ، فكان سيد المجاهدين ، فصلوات الله وسلامه عليه ، وعلى ذريته وآله ، وصحبه ورجاله : « فأولئك لهم الدرجات العلى » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . .

نحن الآن فى عز الصيف ، والصيف موسم العطلات ، وفى العطلات تكثر الرحلات ، وهذا بمشيئة الله تذكرنا بشأن الرحلة فى تاريخ أمتنا ، فنحن أبناء أمة كانت مطبوعة على الرحلة والانتقال منذ أقدم العصور ، فى جاهليتها وإسلامها ، ففى الجاهلية كان العرب مولعين بالانتقال والارتحال طلباً للرعى والماء ، أو طلباً للصيد واللهو ، أو طلباً للغارة والقتال ، وجاء الإسلام العظيم مشرقاً بنوره الوضاء ، فزكى مبدأ الرحلة وقواه وسما به ، وامتن الله على قريش حين ذكرهم بأنه قد هيأ لهم أسباب رحلتين عظيمتين منتظمتين ، هما رحلتهم إلى اليمن فى الشتاء لأنها أدفأ ، ورحلتهم إلى الشام فى الصيف لأن الشام رقيق الهواء لطيف الجو « لإيلاف . . » وإذا المسلمون يجوبون الآفاق ، ويرحلون إلى المشارق والمغارب لينشروا دين الله فى مختلف الربوع ، وليستجيبوا لهدى ربهم الذى يقول : « هو الذى يسيركم فى البر والبحر » ويقول : « قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف بدأ الله الخلق » . واشتد

---

(١) ١٦ ربيع الآخر سنة ١٣٨٠ هـ ٧ أكتوبر سنة ١٩٦٠ م .

شغف هذه الأمة بالرحلة فى سبيل الخير من أجل الإصلاح والبر ، حتى كان أبناؤها يستسهلون المصاعب والشدائد ثمناً لما يحس أو يليق بالرجال ولو كان فى مظهره قليلا ، فقال الشعبي مثلا : « لو سافر رجل من الشام إلى أقصى اليمين فى سبيل كلمة تدله على هدى ، أو ترده عن ردى ، ما كان سفره ضائعاً » .

ولا شك أن الرحلة لها منافعها الكثيرة ، كما قد يكون فيها بعض المفاسد والمضار ، فهناك من يرحل مثلا للهو والعبث ، وهناك من يرحل للنساء والخمر ، وهناك من يرحل ليعبث فى الأرض فساداً ، وأمثال هؤلاء لا يفيدون بأسفارهم بل يضرون ويسيئون ، ولذلك أشار الإسلام إلى أن مكانة الرحلة تكون بحسن النية فيها ،وكريم القصد منها ، قال الرسول : « إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرىء ما نوى ، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله ، فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها ، أو امرأة يتزوجها ، فهجرته إلى ما هاجر إليه » . وقد شرع الإسلام الرحلة والسفر لمقاصد كثيرة شريفة ، فهناك الرحلة للحج والعمرة « وأذن فى الناس بالحج . . . » أو للجهاد والمرابطة « فإذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الأرض .. » « هو الذى خلقكم لكم ما فى الأرض جميعاً » وهناك الرحلة للاكتساب وطلب الرزق ، أو للفرار بالعقيدة والدفاع عن الحق ، « فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة » وهنـــاك الرحلة فى طلب المعرفة والعلم الذى يقول فيه الرسول : « من خرج من بيته فى طلب العلم فهو فى سبيل الله حتى يرجع » . وهناك الرحلة للنظر فى ملكوت السموات والأرض ، والوقوف أمام آيات الله الباهرة ، والاعتبار بما وقع للسابقين : « قد خلت من قبلكم سنن فسيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين » « الإحياء ج ٢ ص ٢١٧ عبارة عن فوائد السفر » .

كما أن السفر يسفر عن أخلاق الرجال ، ويكشف الستار عن مكنونات

طبائعهم ، والراحل يعرف الناس على حقيقتهم خلال السفر ، بل ويعرف في أثناء ذلك عيوب نفسه، ويتحسس الثغرات في شخصيته، فيعالجها ويصلحها إن كان من أهل الاستجابة والإنابة «الإحياء ج ٢ ص٢١٨»، وكم من أناس نحكم عليهم خلال إقامتهم واستقرارهم بأحكام قريبة أو بعيدة ، فإذا خالطناهم في السفر تكشفت لنا منهم أشياء وأشياء ، ولقد زكى رجل رجلا عند عمر ابن الخطاب رضى الله عنه ، فقال عمر للمزكى : هل صحبته في السفر الذي يستدل به على مكارم الأخلاق ؟ فقال : لا . فقال عمر : ما أراك تعرفه . (الإحياء ج ٢ ص ٢٢٣) .

والإسلام الحنيف يجعل السير في الأرض لكريم الأغراض ونبيل المقاصد أمراً مطلوباً يتحقق به إيمان وعمران ، وتنشأ عنه خيرات وبركات ، ولذلك يمتن الله على عباده بذكر نعمته في تمهيد الأرض ، وتزويدها بالأنهار والعيون والأشجار والثمار ، والسبل والمسالك ، والمنافع الأخرى ، ويحرضهم على أن يسافروا إلى أقطارها وأرجائها ومنافذها ليحققوا الأهداف الشريفة المشروعة ، فيقول الله تبارك وتعالى : « وهو الذي جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور » . . كما شرع الإسلام الهجرة للفرار بالدين من أرض الفتنة ، أو لطلب العلم والتفقه في الدين ، أو النصرة فريق مظلوم يحتاج إلى النصرة والمعونة ، فقال تعالى : « ومن يهاجر في سبيل الله يجد في الأرض مراغماً كثيراً [أي متحولا ومتسعاً ينفسح له] وسعة ، ومن يخرج من بيته مهاجراً إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله ، وكان الله غفوراً رحيماً » « إن الذين توفاهم الملائكة . . » والأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم قد هاجروا وارتحلوا ، وكافحوا وجاهدوا ، ودافعوا عن دين ربهم وحقوق عباده ، وقاوموا الجبارين في الأرض ، وبذلوا جهودهم المخلصة الرائعة لنشر السلام ، وتثبيت أركان الأمن والاطمئنان

بين الناس ، وهذا محمد إمام الأنبياء وشيخ المرسلين ، يتعدد ارتحاله وانتقاله خلال حياته الطيبة المباركة ، ففى طفولته رحل إلى البادية ليرضع فى بنى سعد ، وفى فتوته رحل مع عمه إلى الشام متأملا معتبراً وفى شبيبته ارتحل هنا وهناك متاجراً فى مال السيدة خديجة ، ثم رحل رحلة الهجرة الكبرى التى مجدها القرآن وخلدها الزمان ، ثم رحل فى غزواته الكثيرة التى شيدت دعائم الحق ، وقوضت بنيان الباطل « وقل جاء الحق وزهق الباطل ، إن الباطل كان زهوقاً » .

وإن مما ينفطر له الفؤاد حزناً وأسى أن يرى الإنسان بعض المنتسبين إلى الإسلام يرحلون من بلادهم هنا أو هناك فلا ينطقون بالحق ، ولا يدعون إلى الخير ، ولا يجاهدون المنكر ، ولا يطالبون بالإصلاح ، بل ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ، ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ، ويفرقون الكلمة الواحدة ، ويمزقون الشمل المجتمع ، وقد كان الأولى بهؤلاء أن يذكروا قول ربهم جل جلاله : « وإن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون » وأن يذكروا أن ما بين الأمة المؤمنة من خلاف أو نزاع يجب أن تعالجه الأيدى المؤمنة فيما بينها بالحكمة والموعظة الحسنة والتأديب الرادع ، لأن هذا هو هدى القرآن : « وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما ، فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التى تبغى حتى تفىء إلى أمر الله ، فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل ، وأقسطوا إن الله يحب المقسطين » وقد كان جديراً بالذين يختلفون من أبناء هذه الأمة حتى ينزغ الشيطان بينهم ، أن يفيئوا إلى صراط ربهم ، وأن يمسحوا بيد الإصلاح والتوفيق ما أفسده الشيطان بيد الإجرام والتمزيق ، وأن يتذكروا أن شاعراً عربياً قد قال فى مثل هذه الحال :

شواجر أرماح تقطع بينهم شواجر أرحام ملوم قطوعها
إذا ضربت يوماً ففاضت دماؤها تذكرت القربى ففاضت دموعها

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . . إن للمسلم فى هذه الحياة رسالة ، هى أن يكون مؤمناً بربه ، صالحاً فى نفسه ، مصلحاً لغيره ، نافعاً لقومه ووطنه ، ساعياً فى الخير جهده ، مقاوماً الباطل وجنده : « من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها وما ربك بظلام للعبيد » واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون إن الذين اتقوا والذين هم محسنون .

كفيف يابى الابصار بعين مجرم [١]

الحمد لله ، يرفع الطاهرين إلى ذرا الخير ومنابر الإحسان ، ويركس الآثمين فى مهاوى الضلال والبهتان : « سيصيب الذين أجرموا صغار عند الله وعذاب شديد بما كانوا يمكرون » . نشهد أن لا إله إلا أنت تؤيد المتقين وتخذل المبطلين ، وما الله بغافل عما يعملون ، ونشهد أن سيدنا ومولانا محمداً عبدك ورسولك ، أحب فيك وأبغض لك ، فقرب من أطاعك ، وخاصم من أعرض عنك ؛ فصلواتك اللهم وسلامك عليه ، وعلى آله وأحبابه ، وشيعته وأصحابه ، والمهتدين بضياء آدابه ، « فأولئك لهم الدرجات العلى » .

يا أتباع محمد عليه السلام . . .

لو أن كل فرد منا دقق النظرة وأطال الفكرة فيما يبدو له أو ينقل إليه أو يتلى عليه ، لتفجرت ينابيع الحكمة والفهم ، ولاستطاع المرء أن يستنتج الكثير من الشىء القليل ، وذلك شأن الحكماء والعقلاء ، قد تشغلهم ذرة أو قطرة ، فيخرجون من بحثها بألف فائدة وفكرة ، وهذا خبر صغير يأتينا من الخارج مغموراً بغيره من أنباء العالم الكبرى ، ولكنه على الرغم من ذلك كبير مثير ، يستحق العناية والالتفات ، لما فيه لذوى الألباب من تهذيب : « إن فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد » .

نشرت بعض الصحف أنه قد أنشىء فى عاصمة فرنسا « بنك » مهمته أن يساعد فى تحويل العميان إلى مبصرين[٢] ، بما يقدم إليه من تبرع بالعيون ،

---

(١) ألقيت فى مسجد الشامية بالقاهرة يوم الجمعة ١٢ جمادى الأولى ١٣٧١ هـ ٨ فبراير سنة ١٩٥٢ م .

(٢) كتب الأستاذ أحمد الصاوى صاحب « ما قل ودل » فى جريدة الأهرام بتاريخ ٢٩ مارس سنة ١٩٥٥ هذه السطور :

« السيد اللواء أركان الحرب محمد شكرى يكتب الينا متأثرا بذلك النبأ الصغير الكبير الذى نشرته الأهرام من أيام عن ذلك الطفل الخالد =

وأن هذا «البنك » قد عرض على رجل ضرير أن توضع له عينان من رجل محكوم عليه بالإعدام ، لارتكابه جريمتين من جرائم القتل ، فأبى الرجل الضرير ذلك فى عزم وإصرار ، وقال : « إننى لا أقبل أبداً أن أبصر بعينى رجل قاتل » ! ! . . فترجم بذلك عن نفوره من الجريمة واحتقاره للمجرم وإبائه الشديد أن تكون له أية صلة بالمجرمين . . .

نحن لا تعنينا الناحية الطبية كثيراً فى هذا النبأ ، فقد تكون تلك الناحيـــة عبارة عن محاولات لم يتقرر مصيرها بصفة نهائية بعد ، وقد يكون هذا من باب قوله تعالى : «علم الإنسان ما لم يعلم» ولكن يعنينا أكثر من ذلك أن الخبر قد اشتمل على شطرين ، الشطر الأول هو الاهتمام بشأن العميان ، والشطر الثانى هو رفض ذلك الكفيف أن يبصر عن طريق عينى قاتل . . . أما العميان فأولئك قوم حرمتهم الأقدار نعمة الإبصار ، فأصبحوا سجناء الظلام القاتم ، وحيل بينهم وبين ما يشتهون من التجول فى الأرض ، والتطلع إلى آيات الله فى الكون ، وحرموا كثيرا مما يتمتع به المبصرون، وليت الأمر وقف عنـــد هذا الحد ، بل جاء أكثر أولئك المبصرين فأساءوا الحكم والتصرف مع

= الشيهد «جريجورى ماسترز» الذى رأى منذ شهرين فى برنامج تليفزيونى بنيويورك عملية نقل العيون ، فقال لأمه : « عندما أموت لن تكون عيناى ذات فائدة لى ، ولهذا أود نقلهما بعد موتى الى طفل صغير لا يبصر » .

وكأنما كان هذا الطفل وهو فى السادسة من عمره يحس قرب المنية ، فقد صدمته من أيام سيارة وهو يلعب أمام منزله فقضى نحبه ونفذ والداه وصيته وقدما « عينيه » الى بنك العيون فى بافالو هــذا هو النبأ الذى تأثر به اللواء محمد شكرى فكتب الينا يقول : « لفت نظرى « بالأهرام » خبر صغير فى كلماته كبير فى مغزاه ، ذلك هو تبرع طفل بعينيه بعد وفاته لطفل ضرير يرى بهما الحياة ، فأكبرت هذا الطفل الشهم رحمة الله عليه ، وتمنيت لو جعلنا منه قدوة نتبعها ، ونعمل على انشاء بنك للعيون فى كل بلد كبير بالجمهورية المصرية لتنير منه الحياة لمن حرموا نعمة الأبصار » .

ومثل هذه الدروس هى التى يجب ياسيدى أن تلقن فى مدارســنا حتى يشب الجيل على مثل هذه المثل العليا » .

هؤلاء المكفوفين ، إذا اتخذوهم لعبة وملهاة ، فتطاولوا عليهم وسخروا منهم ، وتهكموا بهم وأهملوا حقوقهم ، ومع أننا أكثر بلاد الله عمياناً بفضل الفقر الشائع والمرض الذائع والقذارة الفاشية والإهمال البادى الذريع ، فإننا أيضاً أكثر بلاد الله تضييعاً لأولئك المكفوفين فبينما تبذل الأمم ما تبذل لتعليم عميانها وتهذيبهم والارتفاع بمستواهم ، نرى المكفوفين عندنا كماً مهملا ، بل ألعوبة نتندر عليها ، وإذا ما بدرت من أحدهم هفوة رفعنا عليه صيحاتنا المنكرة قائلين : حقاً ، إن كل ذى عاهة جبار . . مع أن الأعمى رجل له ما للمبصر من حقوق وكرامة عند الله وعند خيار الناس ، وكم من كفيف كان لقومه نعم المستشار فى الملمات ، حتى يقول :

لئن كان يهدينى الغلام لوجهتى ... ويقتادنى فى السير إذ أنا راكب
فقد يستضىء القوم بى فى أمورهم ... ويخبو ضياء العين والرأى ثاقب

وكم من مبصر يتطاول على كفيف ببذاءته ووقاحته ، حتى يثقل ذلك المبصر ويسمج ، فيذكرنا بذلك السخيف الذى تندر على أعمى قائلا يا فلان ما أذهب الله عينى مؤمن إلا عوضه خيراً منهما ، فبم عوضك ؟ . فأجابه الكفيف : بعدم رؤية الثقلاء مثلك . . . وهذه فرنسا الغربية المتحللة تعطى غيرها درساً بليغاً ، فتنشىء « بنكاً » يرعى شئون المكفوفين ، ويبذل ما فى وسعه لرد البصر إلى هؤلاء المحرومين من نور الحياة ، فاعتبروا يا أولى الأبصار . . .

وأما الشطر الثانى من الخبر ، وهو رفض الأعمى أن يبصر بعينى المجرم القاتل ، فإنه عظة زاجرة رادعة ، تعلمنا كيف نزن الحياة بميزان الفضيلة لا بميزان المنفعة ، فإن الملاحظ فى الشعوب الضعيفة الطاغية من طغاتها أو الشقى من أشقيائها قد يعبث فى الأرض فساداً ، ويهلك الحرث والنسل ،

ويمتص دماء البلاد والعباد ، ويتفرعن ويتملعن ، حتى يضج الناس من فضائحه وجرائمه ، ويبذلوا جهدهم لإزالته من طريقهم ، وهم يقسمون أغلظ الإيمان أنه لن يكون لذلك الشقى عودة إلى البغى ، أو قيمة فى الاعتبار ، أو منزلة فى الاحترام ، ولكن اللئيم الخبيث يحتال فيبرع فى الاحتيال .

إنه يفهم جيداً أن الجمهور الذليل المريض فى نفسيته ومعنويته سريع الغفلة عاجل النسيان ، ولكنه يحتاج فقط إلى تهدئة الشعور « وتطييب » الخاطر وإرضاء العاطفة الثائرة ، فيختفى المجرم الباغى حيناً من الزمن عن أبصار الجمهور ، وينقطع عن ميادين الاجتماع والملأ ، وبعد فترة من الزمن ينسى الجمهور الغافل ما كان ، يعود الشقى الطاغية مرة أخرى إليه ، وقد جدد إهابه وغير ثيابه ، ولكنه لم يغير شيئاً من ضلاله وإفساده فيلقى المرتع الخصيب ويفوز بالتجلة والترحاب ، وإذا استطاع الذئب أن يخدع القطيع ، فيوهمه أكثر من مرة بأنه الراعى الشفيق فردد السلام على الأغنام . . .

وأما الشعوب القوية الفتية فإنها تحرص على حقوقها ، وتحافظ على كيانها ولا تسمح بعبث العابثين فيها ، ولا تنسى إساءة المسيئين إليها ، مهما طال الأمد ، وتتابعت الآجال . . . وهذا رجل أعمى ، يراد له أن يبصر النور ، فيرفض ، لأن الطريقة التى ستوصله إلى ذلك غير مشرفة ، ولأن يعيش فى ظلمات العمى خير له من أن يبصر بعين ألفت الإجرام ، وهكذا فلتكن الألفة والإباء .

ومن عجب أن هذا هو هدى الإسلام ، فالمجرم لا يقام له اعتبار أو ثواب إلا إذا تطهر فخلق بالتطهير خلقاً جديداً عن طريق الحد أو القصاص ، أو عن طريق التوبة الصادقة النصوح ، وما أكثر ما تستلزم من شرائط وتبعات ، وأما المجرمون المصرون فلهم الويل مما يصفون ، فالله يقول : « إنه من يأت ربه

مجرماً فإن له جهنم لا يموت فيها ولا يحيى » ويقول : « وامتازوا اليوم أيها المجرمون » ويقول : « يعرف المجرمون بسيماهم فيؤخذ بالنواصى والأقدام » .

يا أتباع محمد عليه السلام . . .

إن الأمة الجديرة بخلافة ربها فى كونه هى التى ترعى حق ضعيفها ، وتتعاون فيما بينها ، ولا تنسى إساءة من اعتدى على حرمتها وكرامتها ، فإن الأمة التى تنسى السيئة ولا تؤدب عليها ، لن تقدر النعمة حق قدرها ولن تستفيد بها ، ولذلك تتوالى عليها النقم ، وتتفلت من أيديها النعم ، فاذكروا دائماً قول ربكم : « وأن ليس للانسان إلا ما سعى ، وأن سعيه سوف يرى ، ثم يجزاه الجزاء الأوفى » . وقوله : « ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه ويقولون يا ويلتنا ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة ، إلا أحصاها ووجدوا ما عملوا حاضراً ولا يظلم ربك أحداً » . وبقوله : « فمن يعمل مثقال ذره خيراً يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره » . واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون .

أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم ، سلوا ربكم التوفيق يستجيب لكم .

بين المؤمن والنحلة [١]

الحمد لله عز وجل ، هو الأول بلا ابتداء ، والآخر بلا انتهاء ، « لا تدركه الأبصار ، وهو يدرك الأبصار ، وهو اللطيف الخبير » . نشهد أن لا إله إلا الله ، لا يخرج شيء عن قدرته ، ولا يعزب كائن عن رؤيته ، وهو علام الغيوب ، ونشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، حرض على الفضائل والمكرمات ، ونفر من المآثم والسيئات ، ولون ضرب الأمثال والعظات ، فكان مبشراً ونذيراً ، وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً ، فصلواتك اللهم وسلامك عليه ، وعلى الشموس الساطعة من عترته وآله ، والكواكب اللامعة من صحابته ورجاله ، والمهتدين فى حياتهم بأقواله وأعماله ، « فأولئك يقرءون كتابهم ولا يظلمون فتيلا » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

إن ضرب الأمثال تذكار للرجال ، والعاقل اللبيب من ألقى السمع وهو شهيد إلى ما يردد ويقال ، فتلقاه بالقبول ، وعكف عليه بالبحث والتدبر ، وأخذ منه لنفسه ما يصلحها ويهديها ، وباعدها عما يشينها ويرديها ، ولطالما سيقت إليكم أمثال تقبيح للسيئات حتى تحذروها ، وتجسيم للقبائح حتى تحطموها ، ولعله من المستحسن أن نعرض لأمثال الجانب المقابل الذى يرسم الفضائل ويصور المحامد ، فنسوق إليكم مثلا من الأمثلة يصور المؤمن ضربه لنا زعيمنا الأول رسول الله صلوات الله وسلامه عليه ، وهو الذى أوتى حسن البيان وجوامع الكلم ، واختصر له الكلام اختصاراً ، وكانت بلاغته أول بلاغة بعد القرآن كتاب الله الذى يعلوا ولا يعلى عليه . . . يقول نبيكم

(١) ٦ من ذى الحجة سنة ١٣٧٠ هـ ٧ اغسطس سنة ١٩٥١ م .

فيما يروى عنه : « مثل المؤمن مثل النحلة ، إن أكلت أكلت طيباً ، وإن وضعت وضعت طيباً ، وإن وقفت على عود نخر لم تكسره » .

لقد جمع الرسول هنا فى كلمات قلائل أطراف البيان فى موضوع ينطوى على جلائل ، . . لقد نظر صلوات الله عليه إلى النحلة فرآها ضئيلة الجسم نحيلة الأعضاء ، ولكنها برغم ذلك صاحبة حذق وفطانة ، وجد نشاط ، تبنى بيتها وتنظم خليتها ، وتطيع ربتها ، وتعاون أسرتها ، وتجمع قوتها وترعى ذريتها وتسعى جهدها وتفيض خيرها ومنحتها[1] ، فضربها الرسول للمؤمنين مثلا يحتذيه فى جهات تحمد ولا تعاب ، ونضال عاقبته الشهد المذاب ، « وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون » .

إن النحلة « إن أكلت أكلت طيباً » فهى أولا تتنزه عن الأوساخ والأقذار ولا تأكل من طعام سواها ، وتألف الرياحين والأزهار ، تمتص منها خير ما فيها وهو الرحيق المصفى ، بعد أن طال اختباؤه واختفاؤه فى البراعم والأكمام وكذلك المؤمن الحق لا يعرف الدنية فى دينه ولا فى دنياه ، ولا يرضى الحرام فى رزقه أو ماله ، لأن كل لحم نبت من حرام فالنار أولى به ، ولا يقبل أن يذل نفسه أو يستذله سواه برشوة أو سحت أو كسب خبيث ، وخير عنده أن يبيت بالقليل الطيب والكفاف المشروع ، من أن يمسى غنياً ممتلئاً ، والشيطان هو الذى حمل إليه مغانم ذلك الامتلاء عن طريق السرقة أو الاختلاس أو الرشوة أو الغش أو الخداع ، وقديماً كان المؤمنون يحرصون على دينهم فى كسبهم حرص الأوفياء على عهودهم ، ووصل ذلك الاحتياط إلى النساء والسيدات فى البيوت والخدور ، إذ كن يودعن رجالهن وهم منصرفون إلى أعمالهم فى أول النهار قائلات لهم لا تنسوا . . . إننا نصبر على الجوع ، ولكننا لا نصبر على النار ، فإياكم إياكم وكسب الحرام ! . . .

(١) لعل من اهتمام القرآن بالنحلة ان ذكرها فى سورة سماها باسم « النحل » .

والنحلة « إن وضعت وضعت طيباً » . . . وماذا تضع النحلة ؟ . . إنها لا تضع خبثاً ولا نتناً ولا سوءاً ، إنها تضع عسلا طهوراً وشراباً لذيذاً مختلفاً ألوانه ، فيه كما يقول القرآن الصادق المصدوق « شفاء للناس » ، وكذلك المسلم المؤمن يجب ألا يصدر عنه إلا الجميل الطيب ، لأن الله طيب لا يقبل إلا طيباً ، فلا يتكلم المسلم إلا الكلمة الطيبة التى تكون « كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها فى السماء ، تؤتى أكلها كل حين بإذن ربها » ، ولا يعمل المسلم إلا الحسن المقبول « المال والبنون زينة الحياة الدنيا والعاقبات الصالحات خير عند ربك ثواباً وخير أملا » ، ولا يتصرف المسلم إلا فى حدود الشريعة والأخلاق ، لأن صوت السماء يقرع أذنيه على الدوام قائلا : « فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره » . ويقول : « ووجدوا ما عملوا حاضراً ولا يظلم ربك أحداً » .

والنحلة « إن وقفت على عود نخر لم تكسره » والعود النخر هو الغصن الأجوف البالى الذى لا يطيق حملا ولا ثقلا ، وإنما لم تكسر النحلة مثل هذا العود الضعيف لأنها خفية لطيفة ، لا تثقل ولا تمل ، وكذلك يجب أن يكون المؤمن ، يجب أن يكون خفيف الظل لطيف الروح رقيق الحاشية ، لا يثقل على إنسان بزيارته فى وقت غير ملائم ، ولا يثقل بإلحاحه فى الطلب ، ولا يثقل بتطفله وفضوله وتحسسه ، ولا يثقل بدعابته ومزاحه ، ولا يثقل بسماجته ووقاحته ، فإن المؤمن لا يكون ثقيلا أبداً ، بل المؤمن كما قال الرسول هين لين ، والمؤمن هش نش ، والمؤمن إلف مألوف ، ولا خير فيمن لا يألف ولا يؤلف ؛ وقديماً كان السلف يعتبرون الشخص الثقيل لعنة ونكبة ، فهذا أبو هريرة كان إذا رأى ثقيلا قال : اللهم اغفر له وأرحنا منه ، وهذا هو الإمام الأعمش يقول : إذا كان عن يسارك ثقيل وأنت فى الصلاة فتسليمه عن اليمين تكفيك . . . وقيل للشعبى : هل تمرض الروح ؟ قال : نعم ، تمرض

من ظل الثقلاء . فمر به بعض أصحابه وهو بين ثقيلين معروفين فقال له : كيف روحك الآن ؟ فقال : هي في النزع الأخير . وكان حماد بن سلمة إذا رأى شخصاً ثقيلا قال : اللهم اكشف عنا العذاب إنا مؤمنون ! . . .

على أن علماء البلاغة والبيان يقولون : إن الإنسان إذا شبه شيئاً بشيء فليس معنى هذا أنه يقصف التشبيه بينهما من كل وجه ، لأن هذا غير ميسور ، وغير محمود في الكثير من الأمور ، ولذلك تقتصر وجوه الشبه بين المؤمن والنحلة على الجهات الحميدة الطيبة ، التي تناسب المؤمن التقي النقي المجاهد ، فلا يتصور مثلا بحال من الأحوال أن يكون المؤمن كالنحلة في لسعها وأذاها[1] ، بل المؤمن زهرة تنفخ غيرها بالشذا والعبير ، وإذا لامسها وجد منها مس الحرير والمؤمن يحتمل الأذى في سبيل الله ، ويمن بالعضو في حدود القدرة والكرامة ، لأن ربه يقول : « وليعفوا وليصفحوا ، ألا تحبون أن يغفر الله لكم ، والله غفور رحيم » . « وعباد الرحمن . . » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

ليكن كل منا في هذا الكون كنحلة كريمة طيبة ، تألف الطيب الطهور ، فتغتذى به وتدخر منه وتفرز الطيب الطهور فتخرج للناس عسلا شهياً ورحيقاً مصفى ، وليكن كل منا خفيف الظل والروح كالنحلة حتى لا يضيق بحضورنا

---

(١) يقول ابن الاثير في كتاب النهاية : « للنحل آفات تقطعه عن عمله منها الظلمة والغيم والريح والدخان والماء والنار ، وكذلك المؤمن له آفات تفيره عن عمله : ظلمة الغفلة وغيم الشك وريح الفتنة ودخان الحرام وماء السعة ونار الهوى » (جـ ٤ ص ١٣١) .

ويقول أبو على مسكويه : « لا يقال في شيء : هذا مثل هذا الا بتقييد، فيكون مثله في جوهره أو كميته ، أو كيفيته ، أو غير ذلك من سائر المقولات وقد يماثله في اثنين منها وأكثر فأما في جميعها فمحال » (كتاب الهوامل والشوامل ص ١٣٩) .

أو حديثكم أو رؤيتكم إنسان ، وليكن كل منا كالعافية إن جاءت إلى الناس فرحوا لها وتمتعوا بها ، وإن غابت عنهم اشتاقوا إليها وتحسروا عليها ، وليجاهد كل منا ليقال عنه إنه كالنحلة فى طيب غذائها وطيب إفرازها ، وحسن مسعاها واتصال نشاطها وخفة ظلها ، لا أن يقال عنه إنه كالنحلة فى لسعها وأذاها وضآلة قيمتها . . وما عرض للمؤمن أمران إلا اختار أدناهما إلى الكمال . واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون ، إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون . أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم . سلوا ربكم التوفيق يستجب لكم . . .

عقل وعمل (١)

الحمد لله عز وجل ، جعل الإسلام دينه الحق المقيم « ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين » . أشهد أن لا إله إلا الله ، يؤيد العاملين ويمحق المبطلين : « إن الله لا يصلح عمل المفسدين » ، وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، نطق بالصدق وهدى إلى الحق ، فكان رحمة الله للعالمين . فصلوات الله وسلامه عليه . وعلى ذريته وآله ، وصحبه ورجاله ، والمستضيئين بمقاله ، والمهتدين بأعماله « لهم دار السلام عند ربهم وهو وليهم بما كانوا يعملون » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

قام الإسلام على دعامتين هما العقل والعمل ، فالإنسان قد أتاه خالقه عقلا يفكر ويدبر ، فيدرك ويعرف ، ومن وراء إدراكه ومعرفته يتحرك شعوره وانفعاله ، فيرضى عن الشيء الطيب الجميل ويحبه وينفر من الشيء الخبيث القبيح ويبغضه ، ومن وراء هذا الانفعال يتحدد سلوك الإنسان ، فإذا هو يمضى فى طريق ما ارتضاه من عقائد ومبادىء يتمسك بها ويطبقها ، وهذا هو العمل ، ولعل أئمة الإسلام قد أرادوا ذلك حين قالوا إن الإيمان اعتقاد وعمل ، فهو اعتقاد بالجنان ، ونطق باللسان ، وأداء للأعمال والأركان.

وقد أعطى الإسلام العقل من المكانة والتنويه ما يجعلنا نقرر ونحن على إيمان واطمئنان أن العقل المؤمن هو رائد الإنسان الماضى فى طريق الخير وحياة البر وصراط الفلاح ، والقرآن الكريم قد كرر كلمة « أفلا تعقلون » أكثر من عشر مرات فى مواطن التوبيخ للذين لا يعقلون ولا يفكرون ، وقال :

---

(١) ٢٦ ذو الحجة سنة ١٣٨٣ هـ ٨ مايو سنة ١٩٦٤ م .

« كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تعقلون » وقال : « ويجعل الرجس على الذين لا يعقلون » وقال : « وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون » .

كما أن الإسلام جعل العمل أساس الجزاء وميزان التقدير ، فقال القرآن : « فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحاً ولا يشرك بعباده ربه أحداً » . وقال : « إنا لا نضيع أجر من أحسن عملا » وتكررت مادة العمل فى القرآن الكريم أكثر من ثلاثمائة مرة ، وقال : « وأن ليس للانسان إلا ما سعى ، وأن سعيه سوف يرى ، ثم يجزاه الجزاء الأوفى » . وقال : « ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكوراً » .

ولقد أعطى سيد الأنام محمد عليه الصلاة والسلام المثل والقدرة من نفسه ، فلم يتكل على أنه رسول الله أو حبيب الله أو خير خلق الله أو أقرب الناس إلى الله ، بل عمل وجاهد فى سبيل الله ، وحمل آله وذريته على أن يعملوا على قرابة أو شفاعة أو مخالطة للرسول ، فقال لأهله : « يا آل محمد ، لا يأتينى الناس بالأعمال وتأتونى بالأنساب ، اعملوا فإنى لا أغنى عنكم من الله شيئاً » وقال لأعز الناس عليه وهى ابنته فاطمة : « يا فاطمة بنت محمد ، اعملى فإنى لا أغنى عنك من الله شيئاً » وقال : « إن أوليائى المتقون حيث كانوا وأين كانوا » فليس أولياؤه وأحباؤه هم الذين ينتمون إليه بصلة النسب أو القرابة دون أن ينهجوا نهج المسلمين ، أو يعملوا عمل الصالحين ، وإنما هم سائر المؤمنين من كل من استقام اعتقاداً ، وطاب قولا ، وصلح عملا ، ولذلك قال بعض الأئمة : « العبرة بقرابة الدين لا بقرابة الطين » .

والإسلام لم يجعل لغير الله شاناً أو دخلا فى النفع أو الضر ، فهو وحده الذى يعطى ويمنع ، ويرفع ويضع ، ويضر وينفع ، بيده مقاليد السموات والأرض ، وإليه تصير الأمور ، وليس بجوار سلطانه وجلاله أى شأن لبشر

أو حجر أو أثر ، وإذا قيل إن هناك بيضة باضتها دجاجة وقد كتب عليها اسم الله أو اسم الرسول ، فإن هذه البيضة لا تكتسب بذلك عبادة أو قداسة ، وإلا كان ذلك إشراكاً بالله عز وجل ، وهذا لا يمنع أن يطيل الإنسان النظر — إذا صح الخبر — فيتذكر أن الله قادر على كل شيء ، وأن له فى كونه آيات وعلاقات ، ولكن إذا دلنا الشجر أو المدر أو النهر على الله فلتشغلنا بعد ذلك عظمة الخالق عن تعظيم المخلوق .

ولقد حز فى النفس حينا أن نرى الثائرات تثور ، والفتنة تتسع ، والأرواح من المسلمين تزهق فى الهند ، بسبب ضياع شعرة قيل إنها من شعرات الرسول الأعظم سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، وكان الأولى أن تراق هذه الدماء الزكية المسلمة فى مجال غير هذا المجال ، وميدان غير هــذا الميدان ، وإن كنا نعرف فى الوقت نفسه أن أكثر العلماء يرون أن التبرك بآثار النبي — إذا صحت نسبتها وثبتت — أمر مشروع ، فقد كان الصحابة يتبركون بعرقه وماء وضوئه وثيابه وشعره ، لما يعمر قلوبهم من الثقة والحب له ، وإن كان بعض الأئمة — كالشاطبي — يرى أن الاقتصار على الاستعانة بالعمل الصالح أولى ، لأن الرسول رأى صحابته ذات يوم يسارعون إلى ماء وضوئه ليتبركوا به فقال لهم : لم تفعلون هذا ؟ فأجابوا : نلتمس الطهور والبركة . فقال سيد الأنام : : « من كان منكم يحب أن يحبه الله ورسوله فليصدق الحديث ، وليؤد الأمانة ، ولا يؤذ جاره » .

والذى تحدثنا به سيرة الرسول الأكرم محمد صلى الله عليه وسلم أنه كانت له آثار ، وكانت هذه الآثار موضع الإعزاز والادخار ، لما كانت تثيره من اعتبار وادكار ، ولكن تطاول الأزمان وتعدد الفتن واختلاف الأيدي جعل هذه الآثار فى خبر كان ، فلا يستطيع شخص اليوم أن يقرر جازماً موقناً متأكداً أن هناك أثراً حقيقياً من آثار الرسول باقياً بيننا معروفاً لنا لم يتطرق

إليه الشك أو الريب ، وما أكثر الآثار التى تنسب إلى الرسول ويزعم الزاعمون أنها منه وأنها له وبقيت بلا دليل أو برهان فلم تصح مثلا نسبة هذه الأحجار التى يقولون إن النبى داس عليها بقدمه فأثر فيها ، وقال الإمام ابن تيمية : إن ما يروى فى ذلك من اختراع الجهال ، وإن من يزر تركيا مثلا يجد فى كل منبر من منابر مساجدها صرة يقولون إن فيها شعرات من شعرات النبى ، ومثل هذا يقال عن بلاد أخرى غير تركيا ، ولكن الأدلة غير متوافرة لتبيين صحة النسبة فى هذه الشعرات إلى خير الأنام محمد عليه الصلاة والسلام ، وليس بمعقول أن يكون المأثور من الشعر الطهور — إن وجد — بهذه الكثرة ، ولو فرضنا ووجدت آثار من هذه القبيل فواجبنا شرعاً ألا نتجاوز فى أمرها حده ، إذ لا يجوز فى دين العقل والعمل : دين الإسلام العظيم أن يعتمد الإنسان فى تقرير مصيره أو محو ذنوبه على مجرد التقديس أو الإجلال لهـذه الآثار : « فاعبد الله مخلصاً له الدين » ، « ألا لله الدين الخالص » .

ولنتذكر تصرف الفاروق عمر بن الخطاب فى شجرة بيعة الرضوان ، وهى الشجرة التى وقف الرسول تحتها عند الحديبية ، وبايع نحو ألف وخمسمائة من أصحابه على الثبات فى القتال وعدم الفرار ، وقال لهم « أنتم خير الناس » وقال عنهم : « لا يدخل النار أحد ممن بايع تحت الشجرة » وزكى القرآن هذه الشهادة حيث قال : « لقد رضى الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة فعلم ما فى قلوبهم فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحاً قريباً » وكان عمر حاضراً هذه البيعة ، وكان آخذاً بيد النبى فى أثنائها والنبى واقف تحت الشجرة ، ومع ذلك حينما رأى عمر أن الناس بعد ذلك أخذوا يأتون هذه الشجرة ويصلون عندها ويتبركون بها ، خاف المصير فأمر بقطعها ، ليشعر الناس بأن المعبود هو الله واجب الوجود ، وخالق كل موجود : « الله لا إله إلا هو الحى القيوم » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام : أنعم وأكرم بكل أثر أو أمر يتصل حقيقة برسول الله وحبيب الله ورحمة الله عليه صلوات الله ، إنه إن صح يكون خير تذكار وأقوى مثير للاعتبار ، وإن بين أيدينا أعظم آثار سيد الإنسانية وإمام البشرية محمد ، وهذا الأثر باق خالد واضح ، وهو سنته الثابتة الصحيحة ، فهى الضياء والدواء ، وفى الاهتداء بها طاعة لخالق الأرض والسماء : « من يطع الرسول فقد أطاع الله » ، « فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ، ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً » . فلنتتبع هذا الأثر ، ولنستجب لكل ما يثبت فيه من خبر ، نكن من الفائزين ، وسبحان من لو شاء لهدى الناس جميعاً إلى سواء السبيل .

كلب بأكثر من ثلاثين جنيها [١]

الحمد لله عز وجل ، وهو الحكيم الذى دعا إلى الحكمة ، « ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيراً كثيراً ، وما يذكر إلا أولو الألباب » . أشهد أن لا إله إلا الله ، يؤيد العقلاء بتوفيقه وهدايته ، ويضل السفهاء المجانين لطريقته ، « وما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون » وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، جعل الاعتدال شعاره ، والاتزان دثاره ، فصلوات الله وسلامه عليه ، وعلى آله وأصحابه ، وأتباعه وأحبابه : « والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواماً » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام .

أقامت كلية الشرطة فى وسط الأسبوع الماضى مزاداً لبيع الكلاب ، وهذا خبر عادى ، ولكن له بقية مثيرة ، فقد ذكرت الصحف فى حديثها عن هذا المزاد أن تلميذاً سنه ستة عشر عاماً ، وهو فى السنة الثانية الثانوية ، قد اشترى كلباً من هذه الكلاب باثنين وثلاثين جنيهاً ونصف جنيه ، ليقدمه هدية إلى أحد أصدقائه ، وقد أثار هذا الخبر فى النفس عدة خواطر ، منها أن الأصل فى أمثال هذه الكلاب الغالية الثمن أن تكون لتتبع الجريمة والمجرمين أو لحراسة ما يحتاج إلى حراسة ، أو لصيد ما ينتفع به ، وإما أن تكون للإهداء من تلميذ إلى صديقه فهذا ما لا يستساغ ، ومنها أن التلميذ الذى يدفع ما يزيد عن ثلاثين جنيهاً ثمناً لكلب يهديه إلى صديقه لابد أن يكون غارقاً فى المال ، وإلا فماذا يفعل فى أمور حياته الأخرى ؟ وبأى الأثمان يشترى ملابسه ومطالب حياته وهداياه للأقرباء وغير الأقرباء ؟ . ومنها إنى علمت أن تلميذاً طلب من والده أن يشترى له كلباً من هذه الكلاب حينما قرأ إعلاناً عن

---

(١) ٢ صفر سنة ١٣٨٧ هـ ١٢ مايو سنة ١٩٦٧ م .

مزادها فى الصحف ، فقال له والده إن هذه الكلاب غالية الثمن ، وأنا لا أملك هذا الثمن . فقال له والده : وهل يزيد ثمنها عن جنيهين أو ثلاثة ؟ فأجابه الوالد : وهل الجنيهات الثلاثة شيء زهيد يابنى ؟ . وبعد أيام قرأ الابن فى الصحف خبر ذلك التلميذ الذى اشترى كلباً بأكثر من ثلاثين جنيهاً ، فحمل الابن الصحيفة إلى والده ، وأشار له نحو الخبر وقال : اقرأ . وقرأ الأب ، ولم يستطع أن يتكلم ، فقد رأى فى عينى ولده نظرة غريبة ، كأنه يريد أن يقول لأبيه : ولماذا لم تكن أنت أيضاً يا والدى غنياً كوالد هـذا التلميذ ؟ . وبعد حين تنهد الولد وقال بتفكيره الساذج ليتنى كنت مكان هذا التلميذ ، أو ليتنى كنت صديقه الذى أهدى إليه هذا الكلب ! .

أرأيتم إذن أن الخبر كان مثيراً ؟ . لقد أعطانا أولا صورة من صور الإسراف الذى ما زال يأتيه الذين لا يعرفون اعتدالا ولا وقاراً ، مع أن القرآن يقول : « ولا تبذر تبذيراً ، إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين وكان الشيطان لربه كفوراً » . وأعطانا الخبر أيضاً صورة من صور التدليل المرذول الذى يلجأ إليه المترفون فى معاملة أبنائهم ، حيث يستجيبون لأهوائهم ونزواتهم بلا توجيه أو إرشاد ، مع أن القرآن يقول : « وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميراً » . وأعطانا الخبر أيضاً صورة من صور الإثارة للغير ، فإن شعور الكثيرين من التلاميذ سينحرف حينما يطالعون مثل هذا الخبر ، ويقولون فى أنفسهم : ولماذا لم يكن آباؤنا أغنياء كهؤلاء ؟ . ولست أدرى حكمة فى نشر الصحف لمثل هذا الخبر المثير ، أتريد أن تعرض به ؟ فلماذا إذن لم تنتقده أو تعاتب فاعله ؟ . أم تريد غرائب الأنباء وعجائبها ، دون تقدير لما ينشأ عنها من آثار ، كتحريك نزعات الحقد والغيظ فى نفوس الكادحين الذين يبذلون من عرقهم فى سبيل الحياة ما يبذلون ثم يرون أمامهم صبية أو غلماناً يدللهم آباؤهم بهذا الشكل المثير ؟ ! .

وإذا كان هذا التلميذ قد اشترى كلباً هدية لاحد أصدقائه بما يزيد عن ثلاثين جنيهاً ، فبكم من الجنيهات اشترى كتباً توسع مداركه أو تهذب مشاعره؟ وبكم من الجنيهات تطوع أو أسهم فى وجوه الخير والبر الكثيرة ؟ وإذا كان وهو غلام فى السنة الثانية الثانوية من دراسته يهدى ما قيمته أكثر من ثلاثين جنيهاً ، فماذا يهدى إلى أصحابه وأحبابه إذا صار طالباً فى الجامعة . أو تخرج فيها وأصبح ذا وظيفة أو ذا مركز فى المجتمع ؟ . ليته علم أن هذا الخبر يذكرنا بالإعلانات المأجورة التى تنشر بين الحين والحين ، وفى كل منها أن كلباً قد ضاع من صاحبته أو صاحبه وشكله كذا ، ولونه كذا ، وفى رقبته من الأطواق كذا ، وأن من وجد الكلب فعليه الاتصال بالتليفون رقم كذا ، وله هدية ثمينة أو مكافأة كبيرة ؛ بل ويذكرنا بما نسمعه أو نطالعه أحياناً من أن بعض المخاليل إذا مات كلب لهم أقاموا عليه مأتماً كمآتم البشر ، ودفنوه فى قبر رخامى لا يدفن فى مثله البشر ، وكأنهم لم يسمعوا تهديد الحق جل جلاله : « أذهبتم طيباتكم فى حياتكم الدنيا واستمعتم بها فاليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تستكبرون فى الأرض بغير الحق وبما كنتم تفسقون » ، « حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلا أو نهاراً فجعلناها حصيداً كأن لم تغن بالأمس ، كذلك نفصل الآيات لقوم يتفكرون » .

لقد جاء فى الحديث المتفق عليه : « من اتخذ كلباً إلا كلب ماشية أو صيد أو زرع انتقص من أجره كل يوم قيراط » . ولعل السر فى هذا أن من يتخذه لغير هذه المقاصد المشروعة يتخذه للترف أو الزينة أو اللهو الخبيث وهذا لا يليق ، كما أن الكلب عرضة للإصابة بمرض الكلب الذى ينشأ منه غالباً ، ولعل هذا هو السر فى الحكم بنجاسة الكلب حتى جاء الحديث المشهور « إذا ولغ الكلب فى إناء أحدكم فليرقه ثم ليغسله سبع مرات إحداهن بالتراب»

وإذا كان بعض المذاهب يرى طهارة الكلب فالأكثرية تذهب إلى التشديد فى نجاسة لعابه ، وقد أمر الرسول بقتل الكلب العقور والكلب المسعور ، وجاء فى السنة أن الملائكة لا تدخل بيتاً فيه كلب ، ولعل المراد بذلك الكلب المتخذ لغير الأغراض المشروعة ، وهذا لا يتعارض مع دعوة الإسلام إلى الرفق بالحيوان ، ولا مع ما جاء فى السنة من أن الله تعالى غفر لرجل لأنه رأى فى الصحراء كلباً أصابه العطش فملأ خفه ماء وسقاه .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام : فلنعلم أولادنا الاعتدال فى الحياة فإن أيامها غير مضمونة البقاء على وتيرة واحدة ، ورضى الله عن عمر يوم قال : « اخشوشنوا فإن النعم لا تدوم » . ولنعلمهم أن يكونوا قريبين من بيئاتهم ومجتمعاتهم . بدل أن نعودهم الجموح والشطط والإسراف ، وبذلك تفسد حواسهم ونفوسهم ، وتزهق عواطف المودة والأخوة بينهم وبين أبناء جيلهم . وخير الأمور الوسط : « وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس، ويكون الرسول عليكم شهيداً » . واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون .

غزو الفضاء [١]

الحمد لله عز وجل : « يؤتى الحكمة من يشاء ، ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيراً كثيراً وما يذكر إلا أولو الألباب » . أشهد أن لا إله إلا الله ، نصب الدلائل والعلامات ، وبث البراهين والآيات : « وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما لاعبين » . وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، صاحب الإسراء والمعراج ، حيث شاهد ما شاهد : « لقد رأى من آيات ربه الكبرى » فصلوات الله وسلامه عليه ، وعلى آله وصحبه ، وجنوده وحزبه : « أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

لاشك أن الخبر العالمى الأول الآن هو أن روسيا أطلقت رجلا لغزو الفضاء ، ثم عاد إلى الأرض سالماً ، ولا شك أن الإنسان يحقق بهذا انتصاراً علمياً باهراً ، وهذا الانتصار يشعر الإنسان العاقل المفكر بأنه ليس شيئاً ضئيلا فى الحياة ، ولا مخلوقاً تافهاً فى الدنيا ، وكيف وهو خليفة الله فى أرضه ، وصنعة ربه التى خلقها وسواها وعدلها فى أى صورة ما شاء ركبها ، ونحن المسلمين أمام هذا النصر نردد قول نبينا : « الحكمة ضالة المؤمن يأخذها من أى وعاء خرجت » ، فلا يضيرنا هنا أن نختلف مع روسيا فى كثير أو قليل من العقائد والمبادىء ، بل يعنينا أن نتذكر أن هذا النصر العلمى الكبير يمكن تعقله وتصوره فى ضوء القرآن الكريم ، فالله عز وجل الذى يقول لنا فى كتابه : « وما أوتيتم من العلم إلا قليلا » يغرينا بالبحث والنظر ، ويحرضنا على التأمل والكشف ، ويدفعنا إلى الازدياد من العلم والمعرفة ، حيث يقول :

---

(١) ٢٨ شوال سنة ١٣٨٠ هـ ١٤ ابريل سنة ١٩٦١ م .

« وقل رب زدني علماً » ويقول : « علم الإنسان ما لم يعلم » ويقول : « وعلمك ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيماً » . وعلى هذا تكون كل خطوة يخطوها الإنسان لكشف مجهول أو معرفة مستور ، أو إدراك حقيقة من حقائق الكون ، أو استخدام قوة من قوى الطبيعة ، فضلا من الله على عباده فى باب العلم ، والله ذو الفضل العظيم .

وفريق من الناس يحسب أن مثل هذه الكشوف العلمية يتعارض مع النصوص الدينية ، وهذا غير صحيح ، فالله تعالى قد دفع عباده دفعاً إلى هذه الكشوف حينما قال لهم : « انظروا ماذا فى السموات والأرض » وحينما قال : « ألم تروا أن الله سخر لكم فى السموات وما فى الأرض وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة ، وبعض المفسرين يستنتج معنى غزو الفضاء من قوله تعالى : « يا معشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السموات والأرض فانفذوا لا تنفذون إلا بسلطان » ويقول إن المراد بالسلطان هنا سلطان العلم والمعرفة ، وكله بفضل الله ومشيئته ، والآلوسى يذكر فى هذه الآية هذا التفسير : « إن قدرتم أن تنفذوا لتعلموا بما فى السموات والأرض فانفذوا لتعلموا ، لكن لا تنفذون ولا تعلمون إلا بحجة نصبها الله تعالى فتعرجون عليها بأفكاركم » . والآلوسى نفسه يشير فى موطن آخر إلى إمكان ما يذكره الباحثون منذ حين من وجود مخلوقات حية فى القمر أو الكواكب الأخرى ، فعند تفسير قوله تعالى : « ومن آياته خلق السموات والأرض وما بث فيهما من دابة وهو على جمعهم إذا يشاء قدير » . . . يذكر أن الدابة هى الحيوان الذى له دبيب وحركة ، وتطلق على الإنسان وغيره من الحيوان ، ويذكر أن ظاهر الآية يفيد وجود هذه الأحياء فى السموات والأرض ، وأنه ثبت فى صحاح الأحاديث ما يدل على وجود الدواب فى السماء ، بل لا يبعد أن

يكون فى كل سماء حيوانات ومخلوقات على صور شتى وأحوال مختلفة لا نعلمها : « ويخلق ما لا تعلمون »[١] .

وفريق آخر من الناس يتوهم أن تتابع هذه الكشوف سيؤدى إلى زعزعة الإيمان بالله ، أو ضعف الاعتزاز بالدين ، وهذا غير صحيح ، بل على العكس من ذلك ، ستؤدى هذه الكشوف إلى ازدياد الإيمان وقوة اليقين ، لأن كل واحد منها يعطينا دليلا جديداً على سعة ملك الله ودقة صنعه :

وفى كل شىء له آية تدل على أنه الواحـد

والله تعالى يقول فى كتابه المجيد : « سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق أو لم يكف بربك أنه على كل شىء شهيد » . ويقول : « ولله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجه الله إن الله واسع عليم » . فحيثما ذهب الإنسان إلى أفق من الآفاق أو مجال من المجالات فسيرى نور الله أمامه باهراً وقدرته ظاهرة : « الله نور السموات والأرض » ، « والسموات مطويات بيمينه » ، « ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين » .

ويخيل إلى — والغيب يعلمه الله — أن روسيا سترجع باتساع علمها ومعرفتها إلى الدين بعد حين ، وستعود إليه على بصيرة ، لأن الله تعالى يقول : « إنما يخشى الله من عباده العلماء » وحين يتسع العلم ويتسق ويستقيم يكون خير رائد يقود الإنسان إلى الإيمان بالله الذى ليس كمثله شىء وهو السميع البصير . ولقد كانت روسيا قبل ثورتها الشيوعية متدينة ، وكان التدين متمكناً منها ، ولكنها كانت جاهلة فاستغل الثعالب من كذبة رجال الدين هذا الجهل . وشوهوا فيها معالم الدين ، واستغلوا سلطتهم الروحية أسوأ استغلال ، وكان هذا الاستغلال سبباً فى رد الفعل العنيف الذى نقل روسيا من تدينها العميق

---

(١) تفسير الألوسى جـ ٢٥ ص ٢٦ وقد توفى الألوسى سنة ١٢٧٠ هـ

إلى إلحادها المطلق ، لكن هذا الإلحاد سيزول يوم تتعرف روسيا إلى آفاق الكون وآيات الله فيه ذلك التعرف الواسع المستقيم ، ويومئذ تعود إلى الدين بلا اعتساف أو انحراف .

وهذا أكبر عالم بشئون الفضاء فى إنجلترا يقول : إن ما يدعو إلى الإعجاب أن الأمة التى حققت هذا النصر العلمى كانت قبل جيل واحد أمة تتفشى فيها الأمية إلى حد كبير . وليس فى هذا عجب أو غرابة ، فالأمم كالأفراد تغفو ثم تصحو ، وتكسل ثم تنشط ، ولقد كانت الصين راقدة فى ظلمات جهلها وتخلفها ، ثم بهرت العالمين بوثبتها وقوتها ، ولقد تكرر انكسار ألمانيا ، ثم تكرر نهوضها بعد انكسارها ، وكل أمة قادرة على أن تنهض إذا أرادت وصممت على النهوض .

ومما يستحق التنويه أن روسيا قد قالت : إن هذا النصر الكبير لن يستغل فى الحرب ، بل فى تحقيق السلام للناس جميعاً ، وإنها لفرصة يجب انتهازها للدعوة إلى السلام ، وإذا كنا نكره الشيوعية ، ولا نقبل أن نكون شيوعيين ، فهذا لا يمنعنا أن نشارك روسيا الدعوة إلى نشر السلام ، لأن أمتنا أمة سلام ، وديننا دين السلام ، وتذكر السلام فى هذا الموطن مع الحض عليه فى إخلاص يجعل الإنسان غير مغتر بما توصل أو يتوصل إليه من كشوف ، ونحن نريد مع كل خطوة من خطوات التوفيق والانتصار الإنسانى خطوة مثلها أو أوسع منها نحو التواضع والتعقل ، لأن الإنسان إذا سيطر عليه الغرور فى هذه المجالات فسيصبح باغياً طاغياً ، وسيستخدم ما بين يديه من طاقات للعلو والغلو والإسراف وعاقبة هذا هى الوبال والنكال ، والله سبحانه يحذرنا من ذلك كل التحذير حيث يقول : « حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلا أو نهاراً فجعلناها حصيداً كأن لم تغن بالأمس كذلك نفصل الآيات لقوم يتفكرون » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام :

أين نحن هنا من الدنيا المموارة بالحركة والحياة ، والكشف والإنتاج ؟ . . أين نحن من هذه الخطوات الجبارة فى ميادين العلم والاختراع ؟ . . لقد غزت روسيا الفضاء ، وهى تتابع خطواتها فى طريق هذا الانتصار ، فماذا غزونا نحن ونحن أمة الإسراء والمعراج التى حدثها ربها فى كتابه عن السموات والأرض ، والأفلاك والكواكب ، وما فى كون الله من آيات وأسرار تتطلب التأمل والتفكير والمتابعة ؟ . إن هذه الكشوف المتوالية يجب أن تكون وخزات فى جنوبنا ، ليكون لنا منها نصيبنا اللائق بنا وبتاريخنا ومواريثنا حتى نكون خير أمة أخرجت للناس . وسبحان من لو شاء لهدانا جميعاً إلى سواء السبيل .

الى مجمع البحوث الاسلامية (١)

الحمد لله عز وجل ، شرع لعباده طريق الرفعة والسيادة ، وجعلهم أهل التوجيه والقيادة : « ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعاون إن كنتم مؤمنين » . أشهد أن لا إله إلا الله ، جعل ميراث المؤمنين اعتماداً عليه واستمداداً منه واعتزازاً به « ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون » . وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، لم يرض الدنيا فى دينه ولا دنياه ، بل عاش كريماً ولقى ربه مجاهداً ، فصلوات الله وسلامه عليه ، وعلى آله وصحبه وجنوده وحزبه : « والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام :

فى أيامنا هذه ، وفى وسط شهر المحرم طليعة شهور العام الهجرى ومفتتح التاريخ الإسلامى ، وعلى مقربة من عودة أفواج الحجيج إلى ديارهم بعد أن شهدوا موسم الحج الذى شرعه الله تعالى ليكون أكبر مؤتمر يعمل لعزة الإسلام وخير المسلمين ، وفى القاهرة قلب العروبة المؤمنة ، وبلد الجامع الأزهر الشريف ، ومحط رجال البعوث الإسلامية التى قدمت من مشارق الأرض ومغاربها استجابة لتوجيه القرآن الكريم حيث يقول : « فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا فى الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون » . فى هذا الميقات المشهود وذلك المكان المحمود ، وعلى مشهد من الملايين التى ترى وتسمع ، وتتابع وترصد ، يجتمع مجمع البحوث الإسلامية الذى يضم علماء ممثلين لكل بلاد المسلمين ، ليتدارسوا شئون الدين ، وأمور المؤمنين ، استجابة لقول الله تعالى : « وأمرهم شورى بينهم » وقوله :

---

(١) ١٣ المحرم سنة ١٣٨٥ هـ ١٤ مايو سنة ١٩٦٥ م

« ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولى الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم » .
ومجمع البحوث الإسلامية هو بمقتضى القانون الأخير للجامع الأزهر الشريف هو الهيئة العليا للشئون الإسلامية العلمية ، ومن صميم واجبه دراسة كل ما يتصل بالإسلام وثقافته وأحكامه ، وجمع كلمة المسلمين على صراط ربهم المستقيم ومحجته الواضحة التى يقول عنها سيد الخلق محمد عليه الصلاة والسلام: « تركتكم على المحجة البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك » والرائد لنا على هذا الطريق هو الكتاب والسنة اللذان يقول فيها الصادق المصدوق : « تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا من بعدى أبداً كتاب الله وسنتى » .

وحينما يلتقى أعلام هذا المجمع الإسلامى الكبير يتوقع كل مسلم ويتمنى أن يكون التقاؤهم حقلا خصيباً للاجتهاد الواعى البصير المخلص فى تفهم أحكام الشريعة ، وبيان تعاليمها للناس ، وأن يكون بفضل الله وتوفيقه مظهراً من مظاهر إجماع العلماء ورثة الأنبياء على الخير واتفاقهم على الرشد ، مصداقاً لقول رسول الله : « يد الله مع الجماعة » وقوله : « لا تجتمع أمتى على ضلالة » وإذا كان الله تعالى قد أكرم أمته بإنزال قرآنه ليكون هدى ونوراً ، وأكرمها بنبيه ليكون شاهداً ومبشراً ونذيراً وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً ، فإن الله تبارك وتعالى قد أكرمها كذلك بأن جعل اجتماعها على الرأى أو الفكر مظهراً من مظاهر الرشاد وموطناً من مواطن التوفيق ، ولقد قال الإمام على للرسول : يا رسول الله ، الأمر ينزل بنا لم ينزل فيه قرآن ولم تمض فيه منك سنة ؟ فقال : اجمعوا له العالمين من المؤمنين فاجعلوه شورى بينهم ، ولا تقضوا فيه برأى واحد .

ونحن فى الواقع نريد من مجمع البحوث الإسلامية الكثير والكثير ، وفى طليعة ما نريده هو أن يرسم لنا سبيل الوحدة والتوحيد فى كل نواحى الملة

والشريعة والدين والحياة والأحياء ، فإن الوحدة هي سفينة الإنقاذ وقارورة الدواء، ولاشك أن وحدة الاعتقاد تؤدى إلى وحدة التفكير ، ووحدة التفكير تؤدى إلى وحدة الهدف ، ووحدة الهدف تؤدى إلى وحدة الصف ، ومتى اتحد الاعتقاد والتفكير والهدف والصف فقد تحقق التآلف العميق الوثيق الذى يعد أكبر النعم حيث يقول واهب النعم لرسوله صلى الله عليه وسلم : « هو الذى أيدك بنصره وبالمؤمنين وألف بين قلوبهم لو أنفقت ما فى الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم إنه عزيز حكيم » . ونحن نريد من مجمع البحوث الإسلامية أن يقوم بتصفية عقيدة الوحدة والتوحيد من كل ما علق بها من تحريف المحرفين وتخريف المخرفين ، واستغلال المستغلين ، وتشويه الجبارين ، حتى يفتح بذلك أوسع الأبواب أمام التوحيد الحقيقى الفعلى للأمة المؤمنة فى كل ميدان من ميادين الفكرة والعبادة والسلوك ، فنرى هذه الأمة العظيمة الضخمة موحدة فى شخصيتها العامة ، ومناهجها المعنوية والمادية ، واتجاهاتها السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، وموحدة فى توقيتها وتاريخها وتحديد أعيادها ومواسمها من حيث الابتداء والانتهاء ، فإن مظاهر العيب الجارح الفاضح أن نرى الأمة الإسلامية كل حين تختلف فيما بينها حول ابتداء رمضان ونهايته ، وحول عيد الفطر وعيد الأضحى ، وحول بدء السنة الهجرية ، مع أن الرب واحد ، فيجب أن يكون أمر مشترك من أمور هذه الأمة موحداً : « وأن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم » . « واعتصموا . . . » .

ونريد من مجمع البحوث الإسلامية أن يعنى العناية كلها بقضية الساعة ومشكلة اليوم ومأساة الحاضر ، أن يعنى بقضية فلسطين اللحن الباكى الحزين فى تاريخ العرب والمسلمين . فلسطين حرم الله الأمين . التى يوجد فيها أولى القبلتين وثالث الحرمين ، والتى جعلها الحكيم العليم مختتماً لرحلة رسوله الأعظم محمد ليلة الإسراء ، كما جعلها مفتتحاً لرحلة إلى السماء فى المعراج ، فكأنها

واسطة العقد ومركز الدائرة فى أكرم رحلة قام بها نبي فى هذا الوجود ، وفى هذا إشارة بليغة إلى أن هذه الأرض من صميم وطن الإيمان والمؤمنين ، وفيها جمع الله لحبيبه ورسوله الأنبياء والمرسلين ليؤمهم بحكم أنه النبي الخاتم الجامع الذى أرسل رحمة للعالمين ، فكان هذا إيذاناً بانتقال مواريث النبوات والرسالات بوطنها وأمنها إلى شيخ الأنبياء وإمام المرسلين محمد عليه الصلاة والسلام ، وفلسطين هى بلد المسجد الأقصى الذى يقول فيه الحق جل جلاله « سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى . . » . ويقول عنه المصطفى : « لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد . . » . وفلسطين هى الأرض الطيبة ذات المكانة المقدسة فى أنظار أتباع محمد وأتباع عيسى عليهما الصلاة والسلام ، فإذا كانت هى مسرى محمد فهى مولد عيسى ، وإذا كان فيها المسجد الأقصى ففيها كنيسة القيامة ، وإذا كان فيها مسجد عمر ففيها كنيسة المهد ، ومن هنا لا تفرط أمة العرب بما فيها من مسلمين ومسيحيين فى أرض فلسطين ، ولكنه من نكد الدنيا علينا أن نرى فريقاً من الجبناء يريدون أن يصفوا قضية فلسطين ، وأن ينقلوها إلى عالم الذكريات ، فهم يدعون إلى الرضا بالواقع ، وياله من واقع أليم فأى مؤمن يرضى بإهدار دماء الشهداء التى سالت على أرض فلسطين ، وأى مؤمن يرضى بضياع الضحايا من الأطفال الذين ذبحوا والنساء اللواتى بقرت بطونهن وهن حوامل — يا لثارات اللد والرملة والنقب والفالوجة ودير ياسين — وأى مؤمن يرضى بتشريد اللاجئين المعذبين فى الأرض هنا وهناك ، وأى مؤمن يرضى ببقاء إسرائيل خنجراً مسموماً فى كبد الأمة المؤمنة ، ونقطة ارتكاز للاستعمار والإذلال والاستغلال ؟ وماذا نصنع إذن فى قول خالقنا جل جلاله : «ولتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا » وقوله عنهم : « وضربت عليهم الذلة والمسكنة وباءوا بغضب من الله » . فليضع مجمع البحوث الإسلامية

هذه القضية العاجلة الخطيرة نصب عينه ليرى المؤمنين فى كل مكان أن الجهاد من أجل فلسطين ليس واجباً قومياً فحسب ، ولكنه أيضاً واجب دينى إسلامى « ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام : لقد أساءت إلينا الفرقة فيجب أن تسعدنا الوحدة ، ومكرت بنا الخيانة فيجب أن تعصمنا على طريقنا الأمانة ، وأضرت بنا قلة السلاح والعتاد ، فيجب علينا أن نحسن الإعداد والاستعداد ، وخرج منا بالأمس من خرج لدنيا يصيبها أو شهوة ينالها ، فيجب أن نجعل خروجنا لوجه الله والوطن : « بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن فله أجره عند ربه ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون » . واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون .

« فكر فلها مدبر » (١)

الحمد لله العلى الأعلى « الذى خلق فسوى ، والذى قدر فهدى » أحمده سبحانه وأشهد أن لا إله إلا الله ، أبدع فنون الخلق ، وهيأ أسباب السعى والرزق : « والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً وجعل لكم السمع والأبصار ، والأفئدة لعلكم تشكرون » . وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، خير من فكر ودبر ، وسعى وعمل ، فصلوات الله وسلامه عليه ، وعلى آله المجاهدين ، وصحابته المناضلين ، وأتباعه المكافحين « ومن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا يخاف ظلماً ولا هضماً .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام :

هناك طائفة من الكلمات الشائعة بين عامة المسلمين ، قد تكون جميلة فى شكلها وظاهرها ، حلوة فى إيقاعها ورنينها ، ولكنهم يسيئون استعمالها واستغلالها ، فيتخذون منها تكأة للفرار من العمل وأداء الواجب ، أو منفذاً إلى الركود والجمود ، أو عنواناً لسوء الفهم لحقيقة القضاء والقدر ، وبذلك يتواكلون ويحسبون أنهم يتكلون ، ويتجمدون ويتوهمون أنهم يتعبدون ، ومن هذه الكلمات قولهم : « لا تفكر فلها مدبر » ، ولا شك أن الله جل جلاله هو الذى « يدبر الأمر » ، ولكن الجهلة يتخذون من هذه العبارة وسيلة للفرار من التبعة ، والبعد عن طريق العمل ، وفتح باب الكسل ، ولو أنصفوا لقالوا : « فكر فلها مدبر » ، وذلك لأن التفكير فريضة إسلامية قرآنية ، ورب القرآن هو القائل : « إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكرون فى خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك فقنا عذاب

---

(١) ألقيت بمسجد الفتح بالمعادى فى ٢٩ نوفمبر سنة ١٩٧٤ م .

النار » . ويقول : « قل هل يستوى الأعمى والبصير ، أفلا تتفكرون »؟ ويقول عدة مرات : « إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون » . ويقول سيدنا رسول الله عليه صلوات الله وسلامه : « تفكروا فى خلق الله ، ولا تتفكروا فى الله فإنكم لن تقدروا قدره » ويقول خامس الراشدين عمر بن عبد العزيز : « الفكرة فى نعم الله عز وجل من أفضل العبادة » . ويقول الحسن البصرى : « تفكر ساعة خير من قيام ليلة » .

ومن هنا يمكن أن نعد هذه العبارة : « لا تفكر فلها مدبر » بالمعنى التواكلى الشائع عند عامة المسلمين من شعارات الكسالى أصحاب النزعة السلبية الذين يفضلون الراحة والكسل على التفكير والعمل، وكأن الواحد منهم يريد أن يساق إليه طعامه وشرابه وثيابه دون حركة منه أو سعى، فكأنه الذى قيل له :

دع المكارم لا ترحل لبغيتها واقعد فإنك أنت الطاعم الكاسى

وكأن منهم ذلك الذى أراد أن يثبط عزائم الناس عن الاستجابة لرب الأرباب بالسعى والعمل والنضال فقال :

جرى قلم القضاء بما يكون فسيان التحرك والسكون
جنون منك أن تسعى لرزق ويرزق فى غشاوته الجنين

أفنصدق هذا القائل الجاهل أم نصدق رب العالمين الذى يقول : « وأن ليس للإنسان إلا ما سعى ، وأن سعيه سوف يرى » ويقول : « فمن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا كفران لسعيه وإنا له كاتبون» . وليس التفكير المطلوب شرعاً مجرد عملية عقلية لا تظهر لها ثمرة فى الخارج ، وإنما يريد الإسلام من الإنسان أن ينظر ، ثم يفكر ، ثم يتدبر ، ثم يخطط ، ثم يعزم ، ثم يقدم ، ثم يشمر ، وإذا لم يكن الأمر كذلك فلماذا إذن قال الحق جل جلاله :

« وأعدوا — انفروا — فاثبتوا — وقل اعملوا — فامشوا فى مناكبها فانتشروا فى الأرض . . . » إلخ .

وإن عبارة : « لا تفكر فلها مدبر » تذكرنا بعبارة أخرى هى كلمة حق فى ظاهرها ، ولكن يراد بها باطل عند استعمالها ، وهى قولهم : « المكتوب على الجبين ، لازم تشوفه العين » . ومعنى هذه العبارة مقبول وجميل على أساس أنه يراد بها أن كل أمر قدره الله وأراده لابد من وجوده ونفاذه : « إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون » ، ولكن الجهلة من الناس يرددون هذه العبارة ويريدون بها التحبيب فى الكسل والانقطاع عن العمل ، وأنه لا فائدة من السعى أو بذل الجهد ، ما دام قد تحتم أن يقع المكتوب ، وينسون قول الحق جل جلاله : « من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها وما ربك بظلام للعبيد » وقوله : « فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره » ، ومنذ حين طويل واللسان أراد هذه العبارة : « إذا كان قد قيل : لا يغنى حذر من قدر ، فينبغى أن يقال : إن الحذر جزء من القدر ، أليس الله تبارك وتعالى يقول : (يا أيها الذين آمنوا خذوا حذركم)[1] »؟

والعجيب أن الأمم الناهضة من حولنا قد نظرت واعتبرت ، ثم فكرت وتدبرت ، ثم اخترعت وأبدعت ، ثم تقدمت وتزعمت ، وغاص أبناؤها فى أعماق البحار ، ثم ارتفعوا حتى بلغوا الكواكب والأقمار ، وذلك لأنهم سعوا وعملوا فى آناء الليل والنهار ، وأما أمة محمد عليه الصلاة والسلام ، فإنها ما زالت — إلا من رحم الله منها — تتنكر لميراثها ، وتطعم من بقايا الفتات على موائد سواها ، مع أن ربها قد طالبها بأن تعمل أضعاف ما يعمل سواها ، فإذا كانت الأمم الملحدة أو الجاحدة تعمل للدنيا وحدها ، فإن الإسلام يطالب أبناءه بأن يعملوا للدنيا وللآخرة معاً : « اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدا وأعمل

(١) فى كتاب « أخلاق القرآن » جـ ٢ تفصيل للحديث عن «الحذر».

لآخرتك كأنك تموت غداً » . ورب العزة ، هو الذى يقول : « وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون وستردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون » ، فيا ابن الاسلام : فكر ولا تقصر ، وأقدم ولا تحجم ، واعمل ولا تكسل ، وجاهد ولا تعاند ، وتجدد ولا تتجمد ، وحاول ولا تيأس وعاود ولا تقنط ، فأنت جزء من قدر الله ، وتفكيرك جزء من قدر الله ، وسعيك جزء من قدر الله ، ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكوراً » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام : إن التفكير فريضة إسلامية ، فلا يقل أحد منا « لا تفكر فلها مدبر » بل ليقل : « فكر فلها مدبر » . وليكن التفكير باباً إلى التدبير ، وليكن التدبير باباً إلى البناء والتعمير ، والله لا يضيع أجر العاملين .

رعاية اليتيم (١)

الحمد لله عز وجل ، أراد لعباده الأطهار طريق الخير والبر ، ومنهج العدل والفضل : « صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة ونحن له عابدون » ؛ أحمده سبحانه ، وأشهد أن لا إله إلا الله ، يعز الأتقياء الشرفاء ، وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، يحسب أهل الإصلاح والوفاء ، فصلوات الله وسلامه عليه ، وعلى الطيبين من ذريته وآله ، والطاهرين من صحابته ورجاله ، والمهتدين بأعماله وأقواله : « فمن أسلم فأولئك تحروا رشداً » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام :

أقام الإسلام مجتمعه العاقل الفاضل على أركان ثابتة ودعائم راسخة ، ومن أهم هذه الدعائم أن يتحقق بين أبناء المجتمع روح التضامن والتعاون ، فيأخذ القوى بيد الضعيف ، ويشد المقتدر من أزر العاجز ، ولعل أقوى مظاهر التضامن وأكرمها ، هو أن يحرص المجتمع على حسن الرعاية لمن فيه من اليتامى الذين فقدوا آباءهم أو أمهاتهم ، وتعرضوا لابتلاء الحياة وهم صغار ناشئون ، وفقدوا من يرعاهم ويتولى أمورهم . وأنت تستطيع أن تحكم على المجتمع بالصلاح والخير ، إذا رأيت اليتيم فيه معززاً مكرماً ، لا يضيع وسط الزحام ، ولا تسحقه الأقدام ، ولا يصبح ماله نهباً مقسماً بين الخونة اللئام من سفلة الناس وشياطين البشر .

وحسب رعاية اليتيم شرفاً وتنويهاً بين الفضائل أن يحدثنا القرآن المجيد بأنها صفة من صفات رب الأرباب سبحانه وتعالى . أليس هو القائل لنبيه : « ألم يجدك يتيماً فآوى » ؟ . وحسب اليتيم شرفاً أن يخرج الله جل جلاله إلى

---

(١) الجمعة ١٩٧٦/٧/٩ م .

ساحة الحياة خاتم أنبيائه وإمام رسله ، يتيماً بلا أب ولا أم ، حتى كان يقال لرسول الله صلى الله عليه وسلم : « يتيم أبي طالب » . لقد مات أبوه وهو جنين فى بطن أمه ، وماتت أمه وهو صغير ، وتولت عناية الله رعايته وصيانته وتوجيهه ، فماذا كان من شأن اليتيم محمد ؟. لقد شاءت إرادة الله أن يسمو ويعلو ، حتى يبز السابقين واللاحقين ، وحتى يكون رسول الله إلى الناس أجمعين ، ورحمة الله للعالمين .

والقرآن الكريم يقرع أسماعنا بقول خالقنا : « ويسألونك عن اليتامى قل إصلاح لهم خير » . وهذا رسول الله عليه الصلاة والسلام ، يرفع من شأن كافل اليتيم وراعيه ، الذى يحفظ له ماله وينميه ، ويشيد بمكانته السامية عند الله سبحانه يوم القيامة ، فيقول : « أنا وكافل اليتيم فى الجنة كهاتين » وأشار بإصبعيه السبابة والوسطى .

ولعل أهم شيء يجب أن يرعى لليتيم ويصان ، هو ماله الذى تركه له والده أو وصل إلى ملك اليتيم بأى طريقة من طرق التملك ، فواجب ولى اليتيم ، أو من يرعى شئونه تطوعاً أو تكليفاً أن يصون كل كثير وقليل من مال اليتيم وأن يحافظ عليه ، ويختار أحسن الوسائل لتنميته وتثميره ، وأن يحرص عليه أكثر من حرصه على ماله ومال أولاده ، وألا يمسه بسوء ، وألا يستبيح لنفسه بالاستيلاء على أى قدر منه دون حق ، وإلا اكتسب حراماً يؤدى به إلى الخراب فى الدنيا والعذاب يوم القيامة ، والرسول صلوات الله وسلامه عليه يحذر وينذر ، حين يقول : « كل لحم نبت من حرام فالنار أولى به » ، وما أسوأ عاقبة المال الخبيث ، والله جل جلاله يقول : « وآتوا اليتامى أموالهم ، ولا تتبدلوا الخبيث بالطيب ، ولا تأكلوا أموالهم إلى أموالكم ، إنه كان حوبا كبيراً » أى إثماً عظيماً .

وهذه الرعاية الدقيقة لمال اليتيم وشئونه لا تتحقق على وجهها السليم بالقانون وحده ، أو رقابة الناس فقط . فكم من تشريعات وضعت للمحافظة على أموال اليتامى والقصر الضعفاء ، ومع ذلك ظل السلب والنهب شائعاً عند كثيرين من اللصوص الذى يسطون على أموال اليتامى بلا تحرج أو ارعواء .

إنه لا ينفع هنا إلا التقوى والوازع الدينى ، والخوف من الله العلى الكبير المنتقم الجبار ، العزيز القهار ، الذى قد يمهل ولكنه لا يهمل ، والذى يضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئاً : « فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره » . ولذلك نجد القرآن هنا يعطى الإنسان درساً لا يجحده ولا ينساه ، لأنه مأخوذ من صميم الحياة ومن لباب الواقع المتكرر المشاهد الذى لا يجحد ، ولا يكابر فيه أحد : « وليخش الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافاً خافوا عليهم فليتقوا الله وليقولوا قولا سديداً، إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً إنما يأكلون فى بطونهم ناراً وسيصلون سعيراً » .

إن القرآن هنا يمس شغاف القلوب ، ويهز أوتارها هزاً عنيفاً بليغاً ، فهو يدفع الناس دفعاً إلى تصور ذريتهم الضعيفة المكسورة الجناح ، تنهشهم أفاعى البشر ، وتفتك بهم ذئاب الإنسانية ، فقد تدور عليهم الأيام ، وتجعلهم الأقدار يتامى ، لا حول لهم ولا قوة ، يطمع فيهم الطامع ، وما من نصير لهم أو مدافع ، والجزاء من جنس العمل .

فليتق الآباء ربهم ، وليحذروا عقابه ، وليكونوا حراصاً على من يكفلونهم من اليتامى ، يحفظون أموالهم ، ويحسنون تربيتهم ، ويتقنون إعدادهم للحياة ، والله خير الشاكرين ، يشكر معروفهم . ويقدر سابقتهم ، ويهيء لأولادهم اليتامى من يحن عليهم ، ويعاملهم بالبر كما كان أبوهم يفعل مع يتامى الناس من قبل ، وإلا فيا سوء المصير .

ولقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اجتنبوا السبع الموبقات » أى الأمور المهلكة لصاحبها فى دينه ودنياه والتى تعرضه للمصير والعذاب الأليم ، وذكر منها أكل مال اليتيم ، كما جاء فى حديث الأسراء قول النبى : «ورأيت قوماً لهم مشافر كمشافر الإبل ، وقد وكل بهم من يأخذ بمشافرهم ، ثم يجعل فى أفواههم صخراً من نار يخرج من أسافلهم . فقلت : من هؤلاء يا جبريل ؟ . قال : هؤلاء الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام :

عزت أمة ترعى اليتامى ، وتحافظ عليهم وعلى أموالهم ، حتى يخرج منهم من ينفع الوطن والناس ، وذلت أمة يضيع بينها اليتيم ، كأنه بين سباع أو ذئاب وسبحان من لو شاء لهدى الناس أجمعين .

شفقة المجرمين (١)

الحمد لله عز وجل ، هو الذى دعا إلى الهدى وحذر من الضلال . وبشر المتقين بالرضا وأنذر الآثمين بالنكال : « إن ربك سريع العقاب وإنه لغفور رحيم » . أشهد أن لا إله إلا الله ، أنزل الذكر الحكيم ، وشرع الصراط المستقيم ، فأمر بالقسط ونهى عن الجور : « وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان » . وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، خير من حكم فعدل ، وجاهد فى سبيل ربه فوصل ، فصلوات الله وسلامه عليه ، وعلى فروع دوحته ، وأقطاب صحبته ، وأنصار دعوته : « أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة ، وأولئك هم المهتدون » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

إن الجمع بين الضدين أمر يحير ويذهل ، فلو استقام الإنسان على طريق واحد لاستبان أمره واستراح غيره ، حتى ولو كان مخطئاً ، لأن شأنه سيكون معروفاً متميزاً ، يمكن فهمه ومعالجته ، وأما أن يحاول الإنسان أن يجمع بين طريقين مختلفين ، كأن يكون خيراً وشريراً ، أو عادلا وجائراً ، أو رحيماً وقاسياً ، فهذا هو المحير للألباب . . . وقد نشرت الصحف منذ قليل أن فرنسا قد أزاحت الستار فى باريس عن تمثال للكلبة الروسية « لايكا » التى كانت أول مسافرة فى الفضاء داخل القمر الصناعى الروسى ، والتى قيل إنها ماتت بسبب ذلك ، وقد أقامت هذا التمثال جمعية « محبى الكلاب » فى فرنسا (٢) ! . . وذلك لأن أبناء فرنسا — كما يشيعون ويذيعون — تألموا ألماً شديداً للقسوة الروسية البالغة التى عاملوا بها « لايكا » حين عرضوها للخطر والهلاك ، لأن أبناء فرنسا قد حزنوا حزناً بليغاً لمصير « لايكا » الفاجع !! .. يا للمهازل

---

(١) الجمعة ١٣ شوال سنة ١٣٧٧ هـ ٢ مايو سنة ١٩٥٨ م .

(٢) جريدة الأهرام ٢٧ أبريل ١٩٥٨م .

التى تضحك وتبكى فى آن واحد . . . إن فرنسا تحاول بهذا أن توهمنا أنها فزعت وجزعت ، وثارت ومارت ، وهاجت وماجت ، وطعنت فى الصميم ، وأصيبت فى السويداء من قلبها ، بسبب ما أصاب الكلبة الضعيفة المسكينة التى استخدمها قومها فى تجربة علمية ضخمة لها جلالها وتأثيرها فى مستقبل الحياة والأحياء ، فقامت فرنسا تندب وتلطم ، وتتلقى المواساة والعزاء ، وتقيم التماثيل والأنصاب . . . فليت مخبراً منصفاً يخبرنا أو يسأل فرنسا هذه فيقول : أيهما أهم شأناً وأغلى قيمة فى تقدير العقلاء يا هؤلاء : أهى الكلبة الروسية أم الإنسانة المجاهدة الجزائرية « جميلة بوحريد » وأشقاؤها من أهل الجزائر ؟ . . .

أتكون كلبة واحدة تشارك فى تجربة علمية أهم وأعظم فى نظر فرنسا من قطر عربى إسلامى ضخم ، تعدو عليه اللئيمة فرنسا ، فتقتل شيوخه ، وترمل نساءه ، وتيتم أطفاله ، وتنشر فيه الخراب والدمار ، وتحاول بكل أسلوب شيطانى خبيث أن تسلخه عن عروبته وإسلامه ، وأن تزهق روح حريته واستقلاله ؟ . . أتقوم قيامة فرنسا الكذوب من أجل كلبة ، ثم لا تحس ولا تشعر ولا تخجل من العظائم والجرائم ، والنكبات والأهوال ، والفظائع والمآثم التى يقترفها أبناؤها المجانين المخابيل فى ربوع الجزائر الحبيبة الغالية . . . ولكن من يدرى . . . لعل هناك نسباً وصهراً وقرابة قريبة بين هؤلاء وبين الكلاب ، ولعله قد انقطعت الأسباب والأنساب بينهم وبين البشر ، ولذلك هم يعنون بشأن الكلاب هذه العناية ولا يقيمون وزناً للملايين من الناس ! ! .

وقد يكون من أدلة ذلك أن فرنسا التى تذيق أهل الجزائر العسف والخسف وتنشر بينهم الجوع والعرى ، وتسرق من بلادهم ما تسرق وتمتص من دمائهم ما تمتص ، هى نفسها التى تنشر عنها الصحف منذ قليل أنها فتحت «صالونات الكلاب فى باريس ، حيث يقوم إخصائيون بقص شعرها وتزيينها وتعطيرها . .

فالقلوب التى تظاهرت بأنها تسيل شفقة وعناية بالكلاب ، هى نفسها التى تتقد عداوة وحقداً وبغياً على أبناء الجزائر الأحرار ! . . .

لسنا بهذا ندعو إلى إهمال الحيوان الأعجم أو القسوة عليه أو سوء استغلاله هنا أو هناك ، فنحن أبناء الإسلام العظيم نعرف أن ديننا السمح الكريم يأمرنا بالرفق فى كل شيء ، وإذا كان هناك أقوام يدعون اليوم أنهم السابقون إلى نشر مبادىء الرفق بالحيوان ، فإن الإسلام قد سبقهم إلى ذلك منذ مئات ومئات من السنين ، فوضع أسمى القواعد للرفق بالحيوان الأعجم الذى لا ينطق ولا يبين ، وكان الإسلام فى هذا الباب إماماً مفرداً لسائر العالمين . . . فرسول الإسلام عليه الصلاة والسلام هو الذى يقول : « اتقوا الله فى هذه البهائم المعجمة (التى لا تنطق) فاركبوها صالحة (قوية) وكلوها صالحة (سليمة)». ومر بعض الناس على النبى بحمار قد وسم فى وجهه (والوسم هو الكى) فقــال النبى : « أما بلغكم أنى لعنت من وسم البهيمة فى وجهها أو ضربها فى وجهها » ؟ وسمع النبى امرأة تلعن دابة كانت تركبها ، فغضب من ذلك وأنزلها من فوقها وأطلق الدابة عقوبة لها ، حتى لا تعود إلى لعن الحيوان ؛ بل أمرنا النبى بالإحسان إلى الحيوان حتى فى ذبحه فقال : « إن الله كتب الإحسان على كل شيء ، فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة (أى فى القصاص) ، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة ، وليحد أحدكم شفرته ، وليرح ذبيحته » . وعن ابن مسعود أن النبى صلوات الله عليه قال : « أعف الناس قتلة أهل الإيمان » .

ولقد أخبرنا الحديث النبوى أن رجلا رأى كلباً أصابه العطش فى الصحراء فنزع خفه وسقاه قائلا : لقد أصاب هذا الكلب من الظمأ مثل ما أصابنى . فغفر الله له فدخل الجنة . روى البخارى ومسلم وغيرهما عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « بينما رجل يمشى بطريق اشتد عليه العطش فوجد بئراً فنزل فيها فشرب ، ثم خرج ، وإذا كلب يلهث الثرى من العطش

فقال الرجل : لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذى كان بلغ منى ، فنزل البئر فملأ خفه ماء ، ثم أمسكه بفيه حتى رقى فسقى الكلب ، فشكر الله تعالى له فغفر له . قالوا : يا رسول الله ، وإن لنا فى البهائم لأجرا ؟ ؟ . قال : فى كل كبد رطبة أجر ! » .

وعن النبى صلوات الله عليه — فيما يرويه مسلم — أن امرأة بغيا (زانية) رأت كلباً فى يوم حار يطوف حول بئر ، وقد تدلى لسانه من شدة العطش والظمأ ، فأخرجت له بخفها ماء فسقته ، فغفر الله لها بسبب رحمتها لهذا الكلب. وفى مقابل هذا الموقف نجد الرسول يقول : «دخلت امرأة النار فى هرة حبستها ، فلا هى أطعمتها ولا هى تركتها تأكل من خشاش الأرض » . ونهى الرسول عن الانتظار فوق ظهر الدابة بلا ضرورة حتى لا تتعذب فقال: « إياكم أن تتخذوا ظهور دوابكم منابر ، فإن الله إنما سخرها لكم لتبلغكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس ، وجعل لكم الأرض فعليها فاقضوا حاجاتكم » .

وقد جري السلف والخلف من أمة محمد صلى الله عليه وسلم على التواصى بالرفق بالحيوان ، ومعاملة العجماوات معاملة الرحمة والشفقة والتخفيف ، فهذا مثلا هو الحاكم العادل عمر بن عبد العزيز يكتب إلى القائم على شئون السكك والطرقات يأمره بأن لا يحمل حيوان أحمالا ثقيلة ، ولا ينخس بمقرعة فى أسفلها حديدة . وكتب إلى واليه بمصر يقول : إنه بلغنى أن بمصر إبلا للنقل يحمل على البعير منها ألف رطل ، فإذا أتاك كتابى هذا فلا يحمل على البعير أكثر من ستمائة رطل » . وكان لعمر غلام يشتغل على بغل له ويأتيه من عمل البغل بدرهم كل يوم ، فجاءه يوماً بدرهم ونصف ، فسأل عمر الغلام عن سبب الزيادة فقال : راجت السوق. فقال عمر : كلا ، ولكنك أتعبت البغل، فأرحه ثلاثة أيام ! . .

هذه هى مبادىء الرفق والرحمة كما دعا إليها الإسلام وعمل بها الأخيار من أهل الإسلام ، لا ما تأتيه فرنسا التى لا تستحى ولا تخجل ، فنراها تبيح للمرأة أن تأكل بثدييها فى فجور ، وتتاجر بعرضها فى توقح ، وتتخذ من عفتها إناء تلغ فيه الكلاب بلا استحياء ، وكذلك نرى فرنسا تسرف فى عدوانها على الآمنين وتشتط فى بغيها على الجزائريين ، ثم تتظاهر بالغيرة والألم من أجل كلبة استخدمها قومها فى محاولة علمية فنالها ألم أو موت من وراء ذلك . . .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . . لقد آن لنا بل — وجب علينا منذ أمد طويل — أن نخلع جميعاً عن عيوننا تلك الغشاوة التى غشيتها من سحر الغرب الماكر ، ومدينة الغرب الكاذبة ، ومظاهر الغرب الخادعة ، وآن لنا أن نزن الناس أينما كانوا بميزان الإنصاف والعدل ، وبمقدار ما يعملون للحق والخير ، وما يبذلون من جهود لإسعاد البشرية والسمو بالإنسان . دون اغترار بمظهر أو منظر أو جنس أو لون ؛ وحينما فضل الإسلام العبد الحبشى المؤمن على الشريف القرشى الآثم ، أرانا أن الغيرة بطهارة الأعمال وقوة الإيمان ، لا بالمظاهر والألوان ، « إن أكرمكم عند الله أتقاكم ، إن الله عليم خبير » . هذا هو الطريق ، فاسلكوا صراط ربكم خير صراط ، وسبحان من لو شاء لهدانا جميعاً سواء السبيل ، واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون ، إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون . . .

بين الآدمية والوحشية [1]

الحمد لله عز وجل ، هو « الرحمن ، علم القرآن ، خلق الإنسان ، علمه البيان » ، أشهد أن لا إله إلا الله ، سوي الإنسان فعدله ، فى أى صورة ما شاء ركبه ، إن الله لذو فضل على الناس ، ولكن أكثر الناس لا يشكرون ، وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله خير من أعز الإنسانية وكرم البشرية ، فصلوات الله وسلامه عليه ، وعلى ذريته وآله ، وصحبه ورجاله : « الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

طلعت علينا الصحف بأخبار تلك الملاكمة الإجرامية التى دارت بين ثورين من ثيران المدنية الغربية الزائفة فى أمريكا ، والتى تجمعت الآلاف فى مكانها لتشهدها ، كما تجمعت الملايين حول أجهزة التلفزيون لترى هذا الصراع الحيوانى البشع الذى لا يدل على إنسانية ولا تربية ولا تهذيب ، وقد نشرت الصحف أخبار هذه الملاكمة فى صفحاتها الأولى ، كأنها اختراع عالمى كبير ، أو حدث اجتماعى خطير ، ونشرت صورتى العملاقين البشريين المتصارعين وأحدهما كالسبع الهائج والآخر يسيل الدم من وجهه تحت إحدى عينيه ، ويده على عينه الأخرى ليتحسس ما فيها من آلام ، بسبب الضربات الجنوبية الوحشية التى تلقاها من خصمه باسم الرياضة التى نريدها تقوية للجسم وصيانة للصحة وتقويماً للأخلاق ، فجعلوها لوناً من تصارع الثيران ، أو تهارش الكلاب ، أو تناحر الذئاب ، وقد خصصت الصحف لهذه الأنباء صفحات وأعمدة بينما تضيق هذه الصحف عن عمود أو جزء من عمود يومى للدين أو الأخلاق أو القيم الروحية ، وأعلنوا أنهم سيذيعون هذه الملاكمة الوحشية

(١) الجمعة ١٥ شوال سنة ١٣٨٣ هـ ٢٨ فبراير سنة ١٩٦٤ م .

فى التلفزيون ، وكأن التلفزيون لم يكتف بما يعرضه من مسرحيات مثيرة ، وقصص مرعبة وروايات مفزعة ، فأراد أن يضع على الجمل ناقة كما يقول المثل العامى المشهور .

إن أنباء هذه الملاكمة وأمثالها ترينا أن الإنسان الذى صلح لكى يكون مهذباً رقيقاً ويكاد يشرق بالنور فى محاريب الطاعة والعبادة والاستقامة والأدب ، ينقلب إلى وحش كاسر وحيوان مفترس حين يتنكر لإنسانيته ، ويتمرد على بشريته ، ويستجيب للحيوانية الكامنة فيه ، فيبغى ويطغى ، ويشذ وينحرف ، إذ يظن أنه قد صار قوياً لا يغلب ، ولعل هذا يفسره قول الله تعالى : « كلا إن الإنسان ليطغى ، أن رآه استغنى » وقوله عز من قائل : « لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم ، ثم رددناه أسفل سافلين » . وهذا أحد المتلاكمين يقول لخصمه : « سآكلك أيها القرد » ، ويصفه بأنه دب ضخم وخنزير كبير ، فهل هذه هى آداب المدنية الحديثة التى تقدمها إلى أهليها فى مجال الحديث والخطاب والمنافسة ؟ ألا لعنة الله على مدنية كهذه ، وأدعياء فى المدنية كهؤلاء . ثم إن الأول أخذ يكيل الضربات للآخر فيسيل الدم من جسمه ، ويتكسر ذراعه ويصاب بكسور وتمزقات أخرى مما يجعله يترنح ويبكى ، ويتعرض لإجراء عملية جراحية فى جسمه ، ويحدث هذا كله أمام ستة عشر ألف متفرج ممن يزعمون أنهم من أبناء الحضارة والمدنية والنور ، ويا ضيعة الكرامة البشرية والمكانة الإنسانية فى عهد النور والحرية ، بل فى عهد الثيران المتناطحة وطغيان الحيوانية الطافحة . فهل هذه هى الرياضة التى تربى النفوس وتهذب الأخلاق وتضبط المشاعر ؟ وهل احتاجت الإنسانية إلى هذا اللون الحيوانى الوحشى من التصارع وأمامها ألوان شتى من الرياضة ، تقوى بها أبدانها ، وترضى هوايتها ، فهناك كرة القدم ، وكرة السلة ، وكرة المنضدة ، وكرة الشبكة ، وهناك السباحة والعدو وحمل الأثقال وركوب الخيل ، وغير ذلك من رياضات تنفع

وتمتع ، فما الذى يحوج هؤلاء المتعطشين إلى رؤية الدماء ، وإلى إهدار كرامة الجسم البشرى ، وإزهاق روح التقدير والصيانة لحرمة الإنسان ، الذى يحوجهم إلى مثل هذه الرياضة الحيوانية التى تليق بأبناء آدم أبداً ، وإنما تليق بسباع فى غابة ، أو ذئاب فى مذأبة ، أو ثيران فى مزرعة ، أو كلاب فى خلاء ؟ .

ثم إن أحد المتلاكمين يذكر أن خصمه قد وضع على قفازه مادة دهنية سامة ، وكان يحاول فى أثناء صراعهما أن يدخلها فى عينيه ليصيبه بكف البصر ، حتى يقضى بقية حياته عاجزاً عن مواصلة رياضته أو واجباته ، فهل هذه هى أخلاق الرياضة ؟ وهل هذا هو الرق الذى يحصل عليه الرياضيون من ورائها ؟ أليس هذا خداعاً وخيانة ؟ أليس هذا خروجاً على أبسط قواعد العدل والأمانة ؟ ألا بئس ما يصفون ! . ومن العجيب أن كل ما فعله المسئولون عن هذه الملاكمات الحيوانية بالنسبة إلى هذا الثور الهائج الذى وصف خصمه أمام الملأ بأنه قرد ودب وخنزير ، هو أنهم خصموا منبه مبلغاً من المال الذى يستحقه عن هذه الملاكمة أو هذه المتاجرة الوضيعة بآدمية البشر ، وبقى له بعد هذا الخصم ستمائة ألف دولار ، وهكذا يتسلى هؤلاء الأدعياء فى باب الحضارة والمدنية بالتطلع إلى أفراد من البشر يتنكرون لآدميتهم ، ثم يجعلون هذا التوحش وسيلة خبيثة ، لجمع المال وخداع الجماهير ، وهكذا يرينا إنسان الغرب كيف يحيل الحياة إلى لغة المادة والدولار دون أن يحفظ للكرامة البشرية ما تستحق من عناية ورعاية .

وإن حقنا — إن لم يكن من واجبنا — أن نتذكر هدى خالقنا وأدب ديننا ونحن فى هذا المجال ، فالله تبارك وتعالى يخبرنا فى كتابه المجيد بأنه قد حاط الإنسان بصنوف من التكريم والتقدير ، فهو قد خلق آدم ، وجعله خليفة فى أرضه ، وعلمه من الأسماء ما علم ، وأظهر فضله على الملائكة ، وأمرهم

بالسجود والخضوع له ، وقال عن الإنسان فيما قال : « ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ، ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا » . ورسول الله صلوات الله وسلامه عليه يعلمنا أن المؤمن القوى خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف ، ولكن آية قوة يريدها الرسول ؟ إنها ليست قوة الثيران الهائجة ، ولا ضخامة الأفيال الجاهلة ، ولا شدة الذئاب الباغية ، بل هى قوة الحس التى تحكمها قوة العقل ، وتسوسها قوة الخلق ، ويشرف عليها سمو الروح ، ولذلك قال الصادق المصدوق عليه صلوات ربه وسلامه : « ليس الشديد بالصرعة (أى الذى يصرع الرجال لقوته وشدته) ، إنما الشديد الذى يملك نفسه عند الغضب » . نعم يملك نفسه عند الغضب فلا يهيج ولا يثور ، ولا ينطق بالهجر والفجور ، ولا يتنكر لآدميته وبشريته ولا يستبيح لنفسه أن يتطاول على غيره أو يذل سواه ، فالحديث النبوى الشريف يقول : « الإنسان بنيان الله ملعون من هدم بنيانه » . وما دام هذا الإنسان بنيان الرحمن فكيف يستبيح أدعياء المدنية أن يجعلوه فى مرتبة الثيران ؟ . .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام : إن كل عاقل ذى إحساس يشعر بالخزى والخجل حين يقرأ عن أمثال هذه المعارك الوحشية أو يشاهدها ، لأنه يحس بأن بعض الذين يشاركونه صفة البشرية ينحطون عن مستواها الرفيع إلى درك سحيق ، وإن من واجبنا أفراداً وجماعات أن نقاوم أمثال هذه الأعمال ، وألا نمكن لها من عيون أبنائنا أو أسماعهم ، وإلا حرضناهم على الحيوانية والوحشية ، ومن واجب وسائل الإعلام أن تكف عن الاهتمام الواسع بمثل هذا الإجرام ، ولتوفر جهدها الضائع فى مثل هذه الفضائح لكى تستخدمه فيما يجب من دعوة إلى دين أو خلق أو استقامة ، وسبحان من لو شاء لهدى الناس جميعاً إلى سواء السبيل ، واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون ، إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون .

أسبوع أسود (١)

الحمد لله عز وجل ، وعد المؤمنين المخلصين بالعزة والكرامة ، وأوعد الفاسقين المتخاذلين بالذلة والندامة : « إن ينصركم الله فلا غالب لكم وإن يخذلكم فمن ذا الذى ينصركم من بعده وعلى الله فليتوكل المؤمنون » . أشهد أن لا إله إلا الله الواحد الأحد ، وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، خير من دعا إلى سعادة الحياة ونعيم الأبد ، ، فصلوات الله وسلامه عليه ، وعلى آله وصحبه ، وجنوده وحزبه ، أولئك حزب الله ، ألا إن حزب الله هم الغالبون .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

نستطيع أن نقسم أيام أمتنا خلال تاريخها الطويل إلى ثلاثة ألوان من الأيام ، فهناك أيام نستطيع أن نصفها بالحمراء ، وأيام نصفها بالبيضاء ، وأيام نصفها بالسوداء ، فأما الأيام ذوات اللون الأحمر فهى أيام الكفاح والنضال ، التى تخرج فيها الأمة المؤمنة الموقنة إلى ميادين الجهاد ومواطن الاستشهاد ، تبيع نفوسها لربها وفى سبيل عقيدتها ، وتكتب بدمائها وثيقة حريتها وعزتها ، لأن وثائق الحريات فى دنيا البغى لا تصاغ بغير الدماء :

وللحـــرية الحمراء باب   بكل يد مضـــرجة يدق

وهى فى هذه الأيام الحمر تستجيب لهدى خالقها ، وتسعى إلى وعده الصادق الأمين : « إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون فى سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعداً عليه حقاً فى التوراة والإنجيل والقرآن ، ومن أوفى بعهده من الله ؟ فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم » . وأما الأيام ذوات اللون الأبيض ، فهى أيام الصفاء

---

(١) أول ربيع الثانى سنة ١٣٨٢ هـ ٣١ اغسطس سنة ١٩٦٢ م .

والهناء ، وأوقات النصر والفوز ، التي تنشر على الأمة أفواف السعادة ، وتفتح أمامها أبواب النعيم ، وتمكنها من قطف ثمرات جهادها وكفاحها ، فتمضى فى حياتها هانئة البال سعيدة الأحوال . وأمام الأيام ذوات اللون الأسود ، فهى أيام الشقاق والافتراق ، وأوقات الفتنة والوقيعة ، التى تنخدع فيها الأمة بوساوس الشيطان ودواعى الضلال والبهتان ، فيصبح بأسها بينها شديداً ، وتذهب هيبتها وكرامتها ، ويتصارع أبناؤها وفلذات أكبادها بالحق وبالباطل ، فإذا هم فى ذلة وهوان ، ناسين قول ربهم فى القرآن : « ولاتنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم واصبروا إن الله مع الصابرين » .

ولقد مرت علينا فى الفترة الأخيرة أيام سود حالكة السواد ، ونستطيع أن نسمى الأسبوع الماضى [1] من حياة الأمة بالأسبوع الحزين أو الأسبوع الأسود الكالح ، فقد كانت أنباؤه سيئة ، وكانت أخباره حزينة ، وكانت وقائعه مؤسفة ، وكانت أحداثه مؤلمة ، وأخرج الشيطان فيه لسانه للأمة أكثر من مرة ضاحكاً عليها ساخراً منها بعد أن نجح فى تسخيرها لمآربه ومشاربه ، فتغلب فيها عنصر الهدم والتدمير على عنصر البناء والتعمير . وما أشد البلاء حين تكون هناك أيد تهدم ما تبنيه أيد أخرى ، فإن للشر قوة فى التخريب تفوق بمراحل قوة الخير فى الترميم ، وما نبنيه فى شهور أو أعوام يهدمه المفسدون فى ساعات أو أيام ، ولن يستقيم حال أمة أبداً ما دامت من وراء الأيدى البانية أيد أو يد تهدم :

متى يبلغ البنيان يوماً تمامه   إذا كنت تبنيه وغيرك يهدم ؟

هذه جامعة الدول العربية ورسالتها الأصلية الأساسية هى أن تجمع وتوحد وتؤلف ، لأنها جامعة ، ولأن أعضاءها ينتسبون إلى قومية واحدة . ماذا كان من أمرها خلال تلك الأيام السود ؟ . لقد عقدت عدة اجتماعات لبحث نزاع

---

(١) الأسبوع الأخير من اغسطس عام ١٩٦٢م .

بين عضوين فيها ، ورأينا كيف كان النقاش حاداً ، والجدال عنيفاً ، والشتائم متوالية ، وكأن المتناقشين ليسو إخوة ، وليسوا أبناء عروبة ، وليسوا زملاء فى جامعة ، بل كأنهم أعدى الأعداء ، وكأن بينهم أحقاد الدهر وشحناء الأبد . ولو أن هؤلاء اهتدوا بهدى الله تبارك وتعالى ، واستضاءوا بسنة رسوله محمد صلى الله عليه وسلم ، واستجابوا لتعاليم الإسلام ومبادىء السماء ، لمـا سمحوا لأنفسهم أبداً أن يتراشقوا بالسباب والشتائم ، ولا أن يثيروا فتن الأحقاد والسخائم ، بل لا تعظوا بقول الخالق جل جلاله : « واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا ، واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً » . وقوله عز من قائل : « إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم واتقوا الله لعلكم ترحمون » . وبينما كان المخلصون يتمنون أن يلتئم الشمل ويزول الخلاف ويتصافى الأشقاء ، ويشد الإخوة رباط التعاون الوثيق بينهم جميعاً داخل نطاق الجامعة إذ باتحاد جديد يعلن عنه بين عضوين فقط من أعضاء الجامعة ، كان الخلاف قد استشرى حتى بلغ حد الانسحاب والانقسام ، ولأعداء هذه الأمة أن يفرحوا وأن يشمتوا ما شاءوا ، فهم يرونها اليوم فى مأتم دونه المآتم ، وكأن هذه الأمة لم تعتبر بقول الله تعـالى للمؤمنين فى شأن أعدائهم المفرقين المفسدين : « لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا خبالا . ولأوضعوا خلالكم يبغونكم الفتنة وفيكم سماعون لهم والله عليم بالظالمين » .

وهل أتاكم نبأ الجزائر العربية المسلمة ؟ .. الجزائر التى ظلت محتلة مائة واثنين وثلاثين عاماً . . . الجزائر التى ثارت وحاربت مدة سبع سنوات عجاف شداد . الجزائر التى لم يمض على استقلالها غير أسابيع معدودة . الجزائر المهددة بالجوع والإفلاس وضياع معالم اللغة العربية والروح الإسلامية. هذه الجزائر المجاهدة المكافحة ، كيف استباح أبناؤها لأنفسهم أن يختلفوا

فى أيام النصر وقد اتحدوا فى أيام الشدة والكفاح ؟. وكيف أجازوا لأنفسهم أن يتقاتلوا ويتعاركوا حتى يسقط بينهم قتلى وجرحى ، وحتى يعرضوا بلادهم لمصيبة الحرب الأهلية ونكبة العراك الداخلى ، فتتحرش كل ولاية بأختها . كأنه لا روابط بينهم من دين أو قومية أو وطنية أو جوار . أو لم يسمعوا قول رسولهم عليه الصلاة والسلام محذراً ومنذراً : « لا ترجعوا بعدى كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض » ؟ ألم يسمعوا أن القرآن الكريم ربهم قد وصف الفرقة بأنها غمرة وضلالة فقال : « فتقطعوا أمرهم بينهم زبرا (أى قطعاً وفاقاً) كل حزب بما لديهم فرحون ، فذرهم فى غمرتهم حتى حين » وذلك عقب تقريره للأصل الذى لابد أن يكون حتى يستقيم أمر المسلمين ، فقال : « وإن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون » . وهذا رسول الله عليه صلوات الله يقول : « يد الله مع الجماعة » ومفهوم هذا أن يد الشيطان مع الفرقة والتحزب ويقول الرسول أيضاً : « من خرج عن الطاعة وفارق الجماعة ، فمات مات ميتة جاهلية » . ولقد اعتبر القرآن الكريم ائتلاف الأمة واجتماعها على رأى واحد وخطة واحدة أعظم منة امتن الله بها على رسوله فقال له : « وإن يريدوا أن يخدعوك فإن حسبك الله هو الذى أيدك بنصره وبالمؤمنين ، وألف بين قلوبهم ، لو أنفقت ما فى الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم ، ولكن الله ألف بينهم إنه عزيز حكيم » . وكأن هذه الآية تشير إلى أن تحقيق الائتلاف والاتحاد لا يكون عن غير طريق الله ، فلولجأت الأمة إلى بارئها وآمنت به حقاً ، واستجابت له صدقاً ، واستعانت به من أعماقها ، لأعانها ونصرها وحقق لها وحدتها العميقة الوثيقة : « إن ينصركم الله فلا غالب لكم ، وإن يخذلكم فمن ذا الذى ينصركم من بعده ، وعلى الله فليتوكل كل المؤمنون » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام. . . إن المؤمن الغيور يرى الخير فيبش له ويهش ، ويرى الشر فيأسى له ويحزن منه ، ونحن اليوم فى غمرة تثير الأسى والشجا ، ولكننا مع ذلك لا نيأس ولا نقنط ، ولعل هذه الشدائد تكون معواناً على تعليمنا وإفهامنا أن طريق الرشاد والسداد لا بد له من أمرين : إيمان بالله واتباع لهديه ، وسبحان من لو شاء لهدى الناس جميعاً إلى سواء السبيل واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون .

حنين الى المحبة [1]

لك الحمد يا علياً بسلطانك وعظمتك ، وقريباً بلطفك ورحمتك، دلت عليك آثارك ، وعزت على الألباب أسرارك ، ليس كمثلك شيء ، وأنت السميع البصير ، نشهد أن لا إله إلا أنت ، لك فى كل شيء حكمة ، وفى كل مظهر نعمة ، وأنت الخلاق ذو القوة المتين ، ونشهد أن سيدنا ومولانا محمداً عبدك ورسولك ، عرف ميزان الحق فاستخف بغيره من الموازين ، وقاد كتيبة الرشد فدحر بها فلول الآثمين ، فصلواتك اللهم وسلامك عليه ، وعلى آله المسارعين فى الخيرات ، وأصحابه الهازئين بالأزمات ، وأتباعه الثابتين للغمرات ، أولئك الذين صبروا فظفروا ، « إنما يوفى الصابرين أجرهم بغير حساب » ! ! . .

يا أتباع محمد عليه السلام . . .

إن من النفوس نفوساً تعاف الضيم ولا تصبر على الهوان ، وترى المشقة فى سبيل الله لذة ونعمة ، وتحس الراحة مع الذل مرضاً ونقمة ، ولله فى خلقه شئون . . . كان معنا خلف الأسوار فى ظلمات الاعتقال شاب كريم ، قد أخلص نفسه لربه ، ووصل أسبابه بأسبابه ، وكان أثناء المحنة يزداد توهجاً

---

(١) ٦ محرم سنة ١٣٦٩ هـ ٢٨ اكتوبر سنة ١٩٤٩ م .

وإشراقاً كلما ازداد البغي السافر والطغيان الفاجر ، كان كلما ضاقت الحلقات وتتابعت البلايا ، تضاعف يقينه ورجاؤه ، فكان أشبه بالذهب الأصيل لا يزيده لهب النار إلا صفاء وبهجة ، وقد لقيته بعد أن أخرج من عزلته إلى دنيا الناس ، فهالني أن أراه حزيناً كاسف البال ، وما كدت أهنئه بنعمة الانطلاق والهناء بعد شدة الاختبار والبلاء ، حتى قال : أجئت تهنيني ؟ ليتك تعزيني ، فكأنما سلب الله مني بعودتي إلى هؤلاء الأحياء سبباً كنت أناجيه عن طريقه ، وأتمتع فيه برحمته رغم ضيقه ، وليتني أعود إلى ما كنت فيه من اعتقال واعتزال ، فذلك أهون علي مما صدمني في دنيا الأنعام والأغنام والأصنام مجتمع اللئام الطغام ! .

قاطعته قائلا : أو هكذا ننكر فضل الله علينا . ونجحد مدده إلينا ، ونتمنى لأنفسنا البلاء والعناء على حين يأمرنا ديننا السمح أن نسأل السلامة والعافية من الكريم الوهاب ؟ وما الذي يدعوك إلى هذه الثورة الثائرة ، ويجعلك تود أن تعود إلى عالم السدود والقيود ؟ ! . . فاندفع يقول : لقد كنا في محنتنا القاسية منعزلين ، بعيدين عن مطايا الشهوات وعبيد الأغراض وطلاب المادة ، فكنا رغم الخسف والعسف والجبروت الذي لا يستند إلى حق أو قانون نعيش عيشة جهاد نفسي ، في خلوة ربانية ملؤها التمحيص والتطهير ، نصلي الصلاة الهادئة العميقة المليئة بالسكينة والوقار ، فنطيل قيامها وقرآنها وركوعها وسجودها وقنوتها ، ونحيطها من أمامها ومن ورائها بمأثور الدعاء وأحزاب القرآن نرتله فرادى أو جماعات ، بجهر أو إخفات ، ونقرأه متمهلين متدبرين متأثرين ، أما اليوم فقد شغلتنا أموالنا وأهلونا ، وشقينا بدنيا الذين عاثوا في الأرض فساداً ، وكانوا أئمة للمجرمين ، فأصبحنا نؤدي الصلاة على غير ميقاتها عجلين ، ننقرها نقر الديكة ، بلا طمأنينة أو إقبال ، وأصبحنا نسمع

القرآن الكريم فى كل مكان ، ولكن الببغاوية التى تتغنى به غير متدبرة له تحرمنا من نعمة الالتفات إليه أو الاعتبار به .

ولقد كنا خلف الأسوار آلافاً من مختلف الطبقات والطوائف ، وكثير منا لم يتلاقوا ولم يجتمعوا من قبل ، فجاءت المحنة فلفت الجميع بردائها ، وسقتهم من شرابها ، فربطت بين قلوبهم ، ووحدت بين مشاعرهم ؛ فكنا نعيش هناك بعيداً خلف الأسوار وتحت طاغوت السياط والرماح مع مظلومين أمثالنا ، تشاركنا معهم فى آلامنا وآمالنا ، فهم يحسون بإحساسنا ، ويتجاوبون معنا فى عواطفنا ، ويتراحمون برحم الإسلام ونسب الأخوة فى الله ، ويتعاونون ما استطاعوا على البر والتقوى ، ويتقاسمون بينهم فتات العيش وخرق الثياب وبقايا القروش ، وقطع الفراش وآنية الطعام ، أما اليوم فقد خرجنا إلى أمة تتهارش تهارش الكلاب ، وتتعارك تعارك الذئاب ، وكل منهم يريد أن يكون الغالب الواصل ولو على أشلاء الجميع ، وكل منهم ينادى : نفسى ومطامعى وشهواتى وبعدى يكون الطوفان ! . ومع هذا يتبجحون قائلين إنهم من أمة دينها الإسلام ، مع أن الرسول عليه السلام يقول : « المسلم للمسلم كالبنيان يشد بعضه بعضاً » ويقول : « مثل المؤمنين فى توادهم وتعاطفهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر » . ويقول : « المسلمون تتكافأ دماؤهم ، ويسعى بذمتهم أدناهم ، وهم يد على من سواهم » .

ولقد كنا خلف الأسوار نبنى كل شىء بأنفسنا ، ونعمل كل حاجة بأيدينا ، بعد أن نسينا الغرور الكاذب والتعالى الفارغ ، وكنا نهىء طعامنا وفراشنا وحجراتنا بأنفسنا ، فاستفدنا من ذلك تجربة وخبرة ، وصلة بالحياة المتقشفة الزاهدة التى تقتصر غالباً على الضرورى ، والتى يريدها الإسلام حقاً للمسلم ، وكان الذين بغوا علينا يتمنون لنا الهلاك والفناء ، وكأنما قد ألقوا

بنا فى غيابات المعتقلات الأثيمة اللئيمة ليقولوا لنا « موتوا » ، أو « ليأكل بعضكم بعضاً » ، ولكن لم يمت أحد ، ولم يؤكل أيضاً أحد ، بل كانوا كلما حرمونا حقاً من حقوقنا ، أو شيئاً من مقومات إنسانيتنا وحياتنا ، صبرنا عنه صبر المؤمنين ، واستغنينا عنه استغناء الواثقين بفرج رب العالمين ، ولقد أسلمونا فريسة هينة للذباب والبعوض والقمل والبق وفيران الصحراء ، وغير ذلك من الهوام ، ومع ذلك سلمنا ، واحتلنا بما استطعنا وبما ألهمنا إياه مولانا الأعظم سبحانه حتى نجونا ، وكنا أثناء ذلك أبرياء مظلومين نرقب يوم الخلاص ، وننتظر عنده الإنصاف من الإجحاف ، ولكننا خرجنا بعد اللتيا والتى ، وبعد سلسلة طويلة ، من المظالم والمآتم والعظائم ، فإذا بهم يمنون علينا بالخروج ، ويشتطون معنا فى الحساب ، فلا انتصار ولا رد للاعتبار ، وإذا بالشعب المسكين قد ألف المهانة ، ونسى الإهانة ، بل إن فيه من ينظر إلينا كأننا منبذون غرباء ، ولا زلت أذكر موقفى مع رجل كريم أحبه وأعزه وأذكره وأقدره ، رأيته عقيب عودتى ، وكان من عادته أن يضمنى مصافحاً كلما طال بيننا الفراق ، فاندفعت نحوه لأضمه فرحاً بلقائه ، فأشهد لقد رأيته يزور عنى ، ويتجنبنى فى لباقة كأننى مسلول أو مجذوم ! ! . . وهكذا فعل عهد الإرهاب البائد ما فعل بعقول الناس ! ! . .

ولقد كنا خلف الأسوار رغم سفاهة الأشرار نستفيد فى أجسامنا وديننا وأخلاقنا ، فلا سهر ولا قلق ولا شهوات ، بل هدوء وقنوت وإخبات ، ولا مسارح أو سينمات ، بل مطالعة ومدارسة وعبادات ، ولا أصناف من الطعام ترهق وتفسد الأجسام بل بساطة فى الغذاء وتعرض للشمس والهواء ، وكنا بعيدين عن هذا العالم المتحلل المنطلق فى ميدان الفسق والفجور ، فلا نرى شيئاً من اللحوم النسائية ، أو المكايد الشيطانية ، أو المهاترات الحزبية ، ولا نشهد مصارع الأمة كل حين على أيدى الذين يتخذون من الناس عبيد

ضيعة وأغنام مزرعة ، يتصرفون فيهم كما يشاءون كأن الأمة قد ألقيت إليهم تراثاً خالصاً من آبائهم الأولين ! .

وأراد الشاب البرىء الكريم أن يتابع ثورته ، فقاطعته قائلا : حسبك فقد شفيت وأوفيت ، وتذكر يا صاحبى أن الفرار من الميدان عين الهزيمة ، وأن المنزوى فى سفح جبل أو ركن خلوة يصلى ويتلو ليس بالعابد الصحيح ، إنما العابد ، كل العابد ، من قذف بنفسه فى خضم الحياة وأتون المجتمع ، وألقى بدلوه بين الدلاء ، يريد الإصلاح والتطهير ، فينجح مرة ويفشل أخرى ويجنى تارة عسلا وتارة شوكاً وحنظلا ، ولا يضيره أبداً أن يناله رشاش من الخطأ أو التقصير ، فقد كتب على كل منا حظه من العيب والنقص ، بل يضيره أن يستظل ويلقى السلاح ، أو أن يحطم فيه الفشل عوامل المثابرة والطموح ، وإن رجلا يجاهد من أجل الناس فى مجتمع فاسد فيصيبه من رشاشه ما يصيبه ، ثم يواصل المسير حتى يؤدي رسالته ويصل غايته ، لأفضل عند الله من رجل يعبده منفرداً فى جبل من الجبال دون أن يحمل هماً من هموم العباد ، أو عبئاً من أعباء البلاد .

يا أتباع محمد عليه السلام . . .

هكذا يجب أن نسير ، معتبرين بالخطأ ، منتفعين من مرارة الفشل ، مستزيدين من خير العمل ، فلينهض العاثر من عثرته ، وليرفع المستضعف رأسه من كبوته ، ولنكتو معاً بنيران التطهير والتقويم ، فإن باب الإصلاح والإنابة مفتوح : « والله يحب المحسنين والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ، ومن يغفر الذنوب إلا الله ، ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون ، أولئك جزاؤهم مغفرة من ربهم وجنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ونعم أجر العاملين » فأقبلوا أيها المدبرون ، وعاودوا الكرة أيها اليائسون ، واتقوا الله لعلكم تفلحون .

فتوة الأخيار (١)

الحمد لله عز شأنه، جعل الخير طريق الأبرار وزينة الأحرار «وافعلوا الخير لعلكم تفلحون» . أحمده سبحانه وأشهد أن لا إله إلا الله ، ضمن الفوز والسلامة لمن سلك طريق الاستقامة : «إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التى كنتم توعدون» . وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، أدبه ربه فأحسن تأديبه ، وجعل الخير شعاره ومطلوبه : «إنك لعلى خلق عظيم» فصلوات الله وسلامه عليه ، وعلى ذريته وآله ، وصحبه ورجاله «للذين أحسنوا منهم واتقوا أجر عظيم» .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام : إذا كانت الفتوة فى الأصل تدل على صلابة الأعضاء وقوة الأطراف ومتانة الجسم ، فإنها عند علماء الأخلاق مجموعة من خصال المروءة والمعاونة للغير وخدمة المجتمع ، وليست العبرة فى نظر الإسلام أن يقوى البدن على حساب الروح ، أو أن يطغى الحس على أدب النفس ، وقديماً قال القائل الحكيم : «فأنت بالروح لا بالجسم إنسان» . وخير الناس فى هذا المجال من واءم بين سلامة حسه وطهارة نفسه ، وأخذ نصيبه من دنياه ، ولكنه لم يضيع واجب أخراه ، ولذلك قال القرآن الكريم : «وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ، ولا تنس نصيبك من الدنيا ، وأحسن كما أحسن الله إليك ، ولا تبغ الفساد فى الأرض ، إن الله لا يحب المفسدين» . ولقد نوه الحق جل جلاله بالفتوة المؤمنة المستزيدة من هدى ربها ، الثابتة قلوبها ، الناطقة ألسنتها بكلمة الحق : كلمة التوحيد ، الماضية فى طريقها على الصراط المستقيم ، فقال التنزيل الحكيم : «إنهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى ، وربطنا على قلوبهم إذ قاموا فقالوا ربنا رب السموات والأرض لن ندعو من دونه إلهاً لقد قلنا إذن شططا» .

---

(١) أذيعت هذه الخطبة من مسجد الرفاعى يوم الجمعة ٣١ اغسطس سنة ١٩٧٣ م .

والفتوة فى نظر الإسلام لا ترتبط بالسنين والأعمار ، فقد تبقى روح الفتوة فى صدر صاحبها ولو قضى من عمره عشرات من الأعوام ، وقد يحرم شقى روح الفتوة فيبدو كأنه كيان متهدم فى عزيمته وهمته وهو ما زال فى ربيع العمر أو سن الشباب ، وذلك لأن الفتوة فى الإسلام فتوة قلبية روحية أخلاقية، وقد فهم هذا أهل الصفاء والتقوى فقال قائلهم : « رأس الفتوة الإيمان » ، وقال آخر : « الفتوة اجتناب المحارم واستعجال المكارم » ، ولذلك وصف كثير من السابقين رسول الله عليه الصلاة والسلام بأنه « سيد الفتيان » لأنه كان المثل الأعلى فى نقاء الحس وصفاء النفس ، وفى طهارة القلب وسمو الروح

وإذا كانت الفتوة الأخلاقية تتطلب القوة فى أكثر من ناحية، فإن الإسلام العظيم يوجه الأبصار والبصائر إلى هذه الألوان من القوة ، يوجه إلى قوة الجسم والعلم بقول القرآن : « وزاده بسطة فى العلم والجسم » . ويوجه إلى قوة الأخلاق : « أفمن كان مؤمناً كمن كان فاسقاً لا يستوون » . ويوجه إلى قوة الطاعة : « خذوا ما آتيناكم بقوة » ، ويوجه إلى قوة الوحدة : « واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا ، ويوجه إلى قوة المعاونة : « وتعاونوا على البر والتقوى » ويوجه إلى قوة الإعداد : « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة » ويوجه إلى قوة الاحتمال والمصابرة : « يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون » .

وأجلى مظاهر الفتوة الأخلاقية الصوفية هو مقاومة حب الذات ، وملازمة خدمة الناس ، ولذلك قال سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم : « خير الناس أنفعهم للناس » ، ولعل أهل التصوف البصير قد استمدوا من هذا النبع النبوى مبدأهم فى خدمة الناس ، حتى قال القشيرى : « أصل الفتوة أن يكون العبد ساعياً أبداً فى خدمة غيره » . وقد اهتدى بهذا الهدى الإمام أحمد الرفاعى الذى تمر بنا الآن ذكراه ، فكان يقول ناصحاً وموجهاً :

« عليك بحفظ القلب من نسيان ذكر الله ، وعليك بخدمة الفقراء والغرباء ، وبادر دائماً بالسرعة للعمل الصالح من غير كسل ولا ملل » . وكان يقول مربياً ومؤدباً : « قم بقضاء حوائج اليتامى وأكرمهم ، وأكثر التردد لزيارة المتروكين من الفقراء ، وبادر لخدمة الأرامل ، وارحم ترحم ، وكن مع الله تر الله معك ، واجعل الإخلاص رفيقك فى سائر الأقوال والأعمال » .

ولم يكتف الإمام أحمد الرفاعى بالنظريات يفكر فيها ، أو بالكلمات يرسلها على الأسماع ، بل قرن القول بالعمل ، والنظرية بالتطبيق فرأيناه من تاريخه رجل خدمة اجتماعية ، يعنى بشئون قومه وبنى جنسه ، ويبذل مجهوداً كبيراً فى خدمة اليتامى والأرامل والعجزة والفقراء والمساكين ، وكانت دموعه تسيل إذا سمع طفلا ينخرط فى البكاء ، وكان رجلا رحيماً اتسعت رحمته بالخلق حتى انتقلت من الإنسان إلى الحيوان ، فكان يعنى بأمر الحيوانات الضالة أو المريضة . مما نسميه نحن الآن فى العصر الحديث باسم « الرفق بالحيوان » . وصلوات الله وسلامه على أستاذ البشرية ومعلم الإنسانية رسول الله محمد الذى سبق المصلحين فى التوجيه إلى الرفق بالحيوان حتى قال : « دخلت امرأة النار فى هرة حبستها ، فلا هى أطعمتها ولا هى تركتها تأكل من خشاش الأرض » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . .

حينما نستعرض سير أولئك الأعلام الأبرار من الصالحين المتقين الأخيار ، الذين تألقوا على طريق المسيرة البشرية الطويلة نماذج طيبة لفتوة الأخلاق وقوة الأرواح ، لا يليق بنا أن يشغلنا التتبع لما نسميه فى حياتهم بالكرامات والولايات والنفحات ، أو تستبد بنا الشطحات والصيحات ، أو اللفات والدورات ، بل يليق بنا أو يجب علينا أن نحسن تقليدهم فى الطاعات

والقربات ، والتشبه بهم فى السلوك القويم والعمل الكريم ، ولا يجوز لنا بحال من الأحوال أن نتابع على باطل ، أو نطيع فيما يخالف شريعة الله عز وجل فالرسول يقول : « لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق » . ولنتذكر دائماً قول الله تعالى : « ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، الذين آمنوا وكانوا يتقون ، لهم البشرى فى الحياة الدنيا وفى الآخرة لا تبديل لكلمات الله ذلك هو الفوز العظيم » . وأن نتدبر جيداً قوله تعالى : « فذكر إن نفعت الذكرى ، سيذكر من يخشى ، ويتجنبها الأشقى الذى يصلى النار الكبرى ، ثم لا يموت فيها ولا يحيى » .

أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم ، سلوا ربكم التوفيق يستجيب لكم.

□□□□□□

الخطبة الثانية

الحمد لله تبارك وتعالى ، هو الأول والآخر ، والظاهر والباطن ، وهو بكل شىء عليم ، أحمده سبحانه ، وأشهد أن لا إله إلا الله هو ولى الهداية والتوفيق ، وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، هدى بفضل ربه إلى أقوم طريق ، اللهم صل وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه ، وأتباعه وأحبابه ، ومن دعا بدعوته بإحسان إلى يوم الدين .

أيها الإخوة فى الله ، إنما يستقيم الانتفاع بذكرى السلف الصالح ، إذا استعرضنا تاريخهم ، وعرفنا كيف جاهدوا فى سبيل الله خير الجهاد ، وكيف خرجوا إلى ربهم بغير زاد ، غير التقى وعمل المعاد ، ثم عقدنا العزم على أن نعمل مثلهم ، فنخلص وجوهنا لخالقنا ، ونصدق الوعد معه ، ونفى بالميثاق له ، وبذلك تكون من الفائزين المفلحين « وعلى الله قصد السبيل ومنها جائر ولو شاء لهداكم أجمعين » .

اللهم اغفر للمؤمنين والمؤمنات ، والمسلمين والمسلمات إلى آخر الدعاء .

جريمة التبني[1]

لله الحمد ، يحق الحق بكلماته ، ويؤيد دعوة الصدق بآياته ، ألا له الخلق والأمر ، تبارك الله رب العالمين ، نشهد أن لا إله إلا أنت ، كتبت للحق الخلود والبقاء ، وسجلت على الباطل الاندحار والفناء ، « وقل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً » ونشهد أن سيدنا ومولانا محمداً عبدك ورسولك ، أشرف مولود ، وسيد الوجود ، وهو بالمؤمنين رءوف رحيم ، فصلواتك اللهم وسلامك عليه ، وعلى آله الكملة الأخيار ، وأصحابه الأئمة الأبرار ، وأتباعه السادة الأطهار ، « أولئك يجزون الغرفة بما صبروا ، ويلقون فيها تحية وسلاماً ، خالدين فيها ، حسنت مستقرا ومقاماً » . . .

يا أتباع محمد عليه السلام . . .

لقد قيل : إذا كثر العلماء قل العلم ، وذلك إما لأنهم إذا كثروا تنافسوا على المناصب والمراتب فأهملوا رسالتهم وضيعوا دعوتهم ، وإما لأن كثرة العلماء تستلزم كثرة ظاهرية ، فيستخف به الناس لشيوعه فيهم وقربه منهم ، فيزهدون فيه ويعرضون عنه ، أو يعرفونه ولكنهم لا يعلمون به فتقل ثمرته وفائدته ، وهذا مشاهد بوضوح بيننا الآن ، والدليل على ذلك تعطيل كثير من فرائض الإسلام وأصوله وتعاليمه ، حتى إنه لا يصدق علينا في الواقع وصف الإسلام ، وانتشار كثير من الكبائر والجرائم والعظائم التي لا يقرها الدين ، ويغفل عنها الناس أو يتغافلون ، ومن بين الجرائم الذائعة الشائعة مسألة « التبني » . فقد أخذ كثير من المسلمين يتبنون أطفالا من أبناء الملاجىء أو من اللقطاء ، ويعطون هؤلاء الأطفال ألقابهم وأسماءهم ، ويعتبرونهم كأبنائهم الشرعيين في كل شيء ، فهم يعاشرونهم ويورثونهم ، ويتخذون من الإجراءات الرسمية

(١) الجمعة

والفعلية ما يؤيد هذا الإدعاء ، دون أن يقدروا أن الإسلام لا يرضى عن هذا الافتعال الأثيم والتصرف الذميم ، ويعتبره كبيرة من الكبائر المحرمة . . حتى قال الرسول عليه الصلاة والسلام : كفر من تبرأ من نسب وإن دق ، أو ادعى نسباً لا يعرف ! . . .

لقد كان « التبنى » أسلوباً من أساليب الجاهلية التى دفعت إليها الهمجية ، والاضطراب فى الحياة ، والاختلال فى نظام المجتمع ، فقد كان الواحد منهم يختار من الأولاد المجاهيل من يشاء وينسبه إلى نفسه ، ويجرى عليه جميع الحقوق التى يتمتع بها الأبناء ، فلما طلع الإسلام بنوره الوضاء على ظلام الغبراء ، أراح اللاعبين الحائرين من هذا التزوير فى الأنساب والأرحام والقرابات ، وهداهم إلى صراط الحقيقة والواقع ، فحرم عليهم تبنى من ليسوا بأولاد حقيقيين لهم ، فقال القرآن المجيد : « وما جعل ادعياءكم أبناءكم ، ذلكم قولكم بأفواهكم ، والله يقول الحق وهو يهدى السبيل ، ادعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله ، فإن لم تعلموا آباءهم فإخوانكم فى الدين ومواليكم » . وبذلك حرم الإسلام ذلك التلاعب الخطير ، وأوجب أن ينسب الولد إلى أبيه إن كان معروفاً ، وإن لم يعرف له أب ، بأن كان لقيطاً أو مجهول النسب ، جعلناه أخاً لنا فى الدين ، ووليا من أوليائنا فى الملة ، يعامل بشرعة العدالة والإحسان وليس وراء ذلك إصلاح أو تنظيم ! . . . .

وقد أراد الحق سبحانه وتعالى أن يقضى على هذا المنكر الجاهلى فى معرض مشهود وموقف ملحوظ ، فاختار لهدمه والتضحية فى سبيل القضاء عليه أحب الخلق إليه رسوله محمداً صلوات الله عليه ، فقد كان عند الرسول عبد مملوك اسمه زيد بن حارثة ، وكان زيد فى الأصل حراً أسير وبيع كما يباع الرقيق ، وانتهى به الأمر إلى عشرة الرسول ، فرأى من مكارم النبوة ما فضل معه حياة العبودية على حياة الحرية ، وكان العرب حسب عادتهم يسمونه « زيد

ابن محمد » على طريقتهم فى التبنى ، وعلم أهل زيد بوجوده عند الرسول فأرادوا فداءه وتخليصه من الرق ، فأقبل أبوه وعمه وأخوه إلى رسول الله يعرضون عليه الفداء ، ولاقوا فى الطريق زيداً فسألوه : كيف صنع مولاك إليك ؟ . . فأجاب : إنه يؤثرنى ويفضلنى على أهله وولده ! . . فذهب والده حارثة إلى الرسول وخاطبه قائلا : يا محمد ، أنتم أهل حرم الله تعالى وجيرانه وعند بيته ، تفكون العانى ، وتطعمون الأسير ، وابنى زيد عندك ، فامنن علينا وأحسن إلينا فى فدائه ، فإنك ابن سيد قومه ، وإنا سنرفع لك فى الفداء ما أحببت ! . فأجاب الرسول : بل أعطيكم خيراً من ذلك ، فاستشيروه ، فإن اختاركم فخذوه بغير فداء . وإن اختارنى فكفوا عنه ! . . فأثنوا عليه وفرحوا ، فدعاه الرسول قائلا : أتعرف هؤلاء يا زيد ؟ قال : نعم ، هذا أبى وعمى وأخى . فقال الرسول : هم من قد عرفتهم ، فإن اخترتهم فاذهب معهم ، وإن اخترتنى فأنا من تعلم ! . قال زيد : لست بمختار عليك أحداً أبدا ، أنت منى بمكان الوالد والعم ! . . وعيره أهله بالعبودية ليفضل عليها الحرية فأبى زيد فراق الرسول ، فرجعوا يائسين ، ثم أعتقه الرسول وجعله بمنزلة ابنه ، واشتهر ذلك بين الناس ، فأنزل الله تحريم ذلك كما سبق ، فأطاع الرسول أمر ربه ، وأوجب أن لا يناديه أحد إلا باسم زيد بن حارثة !.

ثم أراد الله أن يستأصل شأفة هذا النظام الفاسد ، باستئصال أهم نتائجه ، وهى تحريم زوجة الولد المتبنى على الرجل المتبنى ، فاختار رسوله مرة أخرى ليهدم ذلك بنفسه ، فقد كان زيد هذا متزوجاً من زينب بنت جحش وهى قرشية رفيعة ، فكانت تتعالى عليه ، فشكاها زيد إلى رسول الله وعزم على طلاقها ، فنصحه الرسول أولا بأن يمسك عليه زوجه ويتقى الله فيها ، فأصر زيد على الطلاق . وكان الله قد أراد لنبيه أن يتزوجها بعد أن قضى زيد منها وطرا ، حتى يهدم بذلك عقائد العرب الوهمية السخيفة . فوجد الرسول من

تنفيذ ذلك الأمر شيئاً فى نفسه ، وأخفى عواطف كانت تضطرم فى فؤاده خوفاً من قالة الناس وافترائهم ، ولكن الله غالب على أمره ، فأمر رسوله بتنفيذ ما أراد ، فتزوجها رسول الله بعد طلاقها من زيد ، وكان أمر الله قدراً مقدوراً ! . . .

وقد يعترض متفلسف فيقول : ولماذا يحرم الإسلام « التبنى » مع أنه وسيلة من وسائل العطف والحنان ، والعناية بطائفة من البائسين والمحرومين ؟ . فنقول : إنما حرم الإسلام « التبنى » لأنه ينطوى على كثير من الأخطاء والآثام التى تضر بالصالح العام ، فهو أولا قائم على الافتراء والكذب ، ومحاولة صبغ هذا الافتراء بصبغة واقعية دائمة ، مع أن المجتمع الإسلامى قائم على الحق والصدق ، حتى فى أقل الأمور ، فلو كذب الرجل على الطفل الصغير بلا ضرورة لكان مسئولا ، ولذلك وصف القرآن الكريم التبنى بأنه ادعاء وقول بالأفواه لا نصيب له من الواقع ، والله يقول الحق الثابت الواقع فى نفس الأمر ، وهو سبحانه يهدى السبيل القويم ! . . والافتراء الموجود فى التبنى يؤدى اليوم أو غداً إلى اختلاط الأنساب واضطراب القرابات والروابط العائلية الأصيلة ، مع أن حفظ الأنساب كان أحد الأسباب التى حرم الله من أجلها الزنا والاشتراك بين أكثر من رجل واحد فى امرأة ! . . فالتبنى إذن افتراء تتبعه أخطاء ! . .

ومن أخطار التبنى إيقاع العداوة غالباً بين الأولاد الشرعيين أو الأقارب الحقيقيين ، وبين الولد المتبنى بسبب النفقات أو الميراث ، وكثيراً ما يختل تصرف الرجل فى التبنى فيؤثر الدعى اللقيط بخيره وبره ، ويقدمه على أولاد صلبه ، وقد يحرمهم بسببه من الميراث ، وقد حدثت فعلا حوادث كثيرة فى هذا الباب أدت إلى جرائم قتل ، ونشبت عنها قضايا كثيرة معقدة ، ضاعت

فيها جهود وأموال ، وتقطعت بسببها أواصر قربى ، وروابط محبة ، وعلائق عائلات ! . . .

ومن أخطار التبنى سوء الاستغلال ، فقد يتبنى الرجل بنتاً يبالغ فى إكرامها أولا ، ولكن عاطفة البنوة الحقيقية لا توجد ، فيسىء معاملتها على أخطاء لها مسرفاً فى ذلك ، أو تشذ نفسيته فيتصل بها اتصالا غير شريف ، أو سوى ذلك من مواقف التحول عن جادة الطريق إلى التقصير أو الفجور ، ومن الممكن الميسور لمن يريد أن يكون عطوفاً حنوناً ، أن يفيض أنهار بره ، وأن يسبغ أثواب خيره على من يشاء ، سراً وجهراً ، دون لجوء إلى هـذا التبنى الذى يحرمه الإسلام لما فيه من آثام ! . وحسب التبنى شناعة أنه تشبه بالكافرين ، وتغيير لما صنعته يد الله ، وتحريف لما نظمه الخالق الكريم ، ولذلك قال الرسول: من ادعى إلى غير أبيه وهو يعلم أنه غير أبيه فالجنة عليه حرام. وقال: من ادعى إلى غير أبيه أو انتمى إلى غير مواليه فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين ، لا يقبل الله تعالى منه صرفاً ولا عدلا . إلى غير ذلك من الأحاديث والآثار .

يا أتباع محمد عليه السلام . . إن ميادين المساعدة والإحسان والخدمة الاجتماعية كثيرة عديدة ، ومن أراد الخير والبر فلن يعدم الله لهما طرقاً وسبلا ، فما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا ، وإياكم ومحدثات الأمور فإنها مدرجة الهاوية ، والله يعلم وأنتم لا تعلمون ، وما وضعته يد الحكيم الرحمن لا تنقضه أبداً يد الإنسان ، واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون ، إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون . أقول قولى هذا واستغفر الله لى ولكم .

الاسلام والتبنى

الحمد لله عز وجل ، يحق الحق بكلماته ، ويؤيد دعوة الصدق بآياته ، ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين ، وأشهد أن لا إله إلا الله ، كتب للحق الغلبة والبقاء ، وسجل على الباطل الهزيمة والاندحار : « وقل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا » . وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، خير من هدى العباد ، ورسم طريق الرشاد ، فصلوات الله وسلامه عليه ، وعلى آله الأطهار ، وأصحابه الأخيار ، وأتباعه الأبرار ، « أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

أخذ كثير من المسلمين يتبنون أطفالا من أبناء الملاجىء أو اللقطاء ، ويعطون هؤلاء الأطفال ألقابهم وأنسابهم ، ويعتبرونهم كأبنائهم الشرعيين فى كل شىء فهم يعاشرونهم ، ويتخذون من الإجراءات ما يؤكد هذا الإدعاء ، دون أن يتذكروا أو يقدروا أن الإسلام لا يرضى عن هذا الافتعال الأثيم أو الافتراء الذميم ، حتى قال الرسول عليه الصلاة والسلام : «كفر من تبرأ من نسب وإن دق ، أو ادعى نسباً لا يعرف » ! . ولقد كان التبنى أسلوباً من أساليب الجاهلية ، فكان الواحد منهم يختار من الأولاد المجاهيل من يشاء ، وينسبه إلى نفسه . ويجرى عليه الحقوق التى يتمتع بها الأبناء ، فلما أشرقت شمس الإسلام حرم هذا التزوير فى الأنساب والأرحام والقرابات . وهدى الناس إلى صراط الحقيقة والواقع ، فقال القرآن المجيد : « وما جعل أدعياءكم أبناءكم ، ذلكم قولكم بأفواهكم ، والله يقول الحق وهو يهدى السبيل ادعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله ، فإن لم تعلموا آباءهم فإخوانكم فى الدين

ومواليكم » . وبذلك أوجب الإسلام أن ينسب الولد إلى أبيه إن كان معروفاً ، وإن لم يعرف له أب جعلناه أخاً لنا فى الدين ، ووليا من أوليائنا فى الملة ، يعامل بشرعة العدالة والإحسان ، وليس بعد ذلك إصلاح أو تنظيم .

وقد أراد الله سبحانه أن يقضى على نظام التبنى فى موقف مشهود ، فاختار لهدمه أحب خلقه إليه محمداً صلوات الله عليه ، فقد كان عند الرسول عبد اسمه زيد بن حارثة ، وكان العرب يسمونه « زيد بن محمد » على طريقتهم فى التبنى ، ولقد أراد والد زيد أن يفديه من الرسول فعرض النبي الأمر على زيد ليختار الذهاب مع أبيه إذا أراد بلا فداء ، ففضل زيد البقاء مع الرسول على الذهاب مع والده ، وقال للنبي : لست بمختار عليك أحداً ، أنت منى بمكان الوالد والعم . فأعتقه الرسول وصار عند القوم بمنزلة ابنه ، واشتهر ذلك بين الناس ، فأنزل الله تحريم ذلك كما سبق وجاء القرآن يقول : « ما كان محمد أباً أحد من رجالكم ، ولكن رسول الله وخاتم النبيين ، وكان الله بكل شيء عليماً » ، أطاع الرسول أمر ربه ، وأمر ألا يناديه أحد إلا باسمه وهو زيد بن حارثة . ثم أراد الله سبحانه أن يستأصل شأفة هذا النظام الفاسد باستئصال أهم نتائجه وهى تحريم زوجة الولد المتبنى على الرجل المتبنى فاختار الله رسوله مرة أخرى ليهدم ذلك بنفسه ، فقد كان زيد متزوجاً من زينب بنت جحش وهى سيدة قرشية رفيعة ، وكانت تتعالى عليه ، فشكاها زيد إلى الرسول ، وعزم على طلاقها ، فنصحه الرسول بأن يمسك عليه زوجته ويتقى الله بها ، فأصر زيد على الطلاق ، وكان الله تعالى قد أراد لزيد أن يطلقها ولنبيه أن يتزوجها بعد أن يقضى زيد منها وطرا ، حتى يهدم بذلك عقائد العرب الوهمية السخيفة ، فأمر الله رسوله بتنفيذ ما أراد ، فتزوجها رسول الله بعد طلاقها من زيد ، وكان أمر الله قدرا مقدوراً .

وإنما حرم الإسلام التبنى لأنه ينطوي على كثير من الأخطار والآثام التى تضر بالصالح العام ، فهو أولا نظام قائم على الافتراء والكذب ، ومحاولة صبغ هذا الافتراء بصبغة واقعية دائمة ، مع أن المجتمع الإسلامى قائم على الحق والصدق حتى فى أقل الأمور ، فلو كذب الرجل على الطفل الصغير بلاضرورة لكان مسئولا ، ولذلك وصف القرآن الكريم التبنى بأنه افتراء وقول بالأفواه لا نصيب له من الواقع ، والله يقول الحق الثابت الواقع . وهو سبحانه يهدى السبيل القويم ، والافتراء الموجود فى التبنى يؤدى اليوم أو غداً إلى اختلاط الأنساب واضطراب القرابات والروابط العائلية الأصيلة ، مع أن حفظ الأنساب هو أحد الأسباب القوية الهامة التى حرم الإسلام من أجلها الزنى والاشتراك بين أكثر من رجل فى زوجة . فالتبنى إذن افتراء تتبعه أخطاء .

ومن أخطار التبنى إيقاع العداوة غالباً بين الأولاد الشرعيين أو الأقارب الحقيقيين ، وبين الولد المتبنى بسبب النفقات أو الميراث ، وأحياناً يختــل تصرف الرجل فى التبنى فيخص لدعى اللقيط بخيره وبره ، ويقدمه على أولاد صلبه أو أقاربه ، وقد يحرمهم بسببه من الميراث ، فيحاول الأقارب الأصليون أن ينتزعوا حقوقهم من الادعياء الدخلاء ، وقد يرتكبون محظورات وجرائم فى سبيل الوصول إلى ذلك أو فى سبيل الكيد لمن اعتدى على حقهم ، أو إيذاء من حرمهم نصيبهم وقد حدثت فعلا حوادث كثيرة مؤسفة فى هذا الباب أدت إلى جرائم قتل ، ونشبت عنها قضايا كثيرة معقدة ، ضاعت فيها جهود وأموال ، وتقطعت بسببها أواصر قربى ، وروابط محبة ، وعلائق عائلات .

ومن أخطار التبنى سوء الاستغلال وانحراف المشاعر ، فقد يتبنى الرجل بنتاً يبالغ فى إكرامها أولا ، وهو يخالطها ويعاشرها بلا حجاب ، ولكن عاطفة البنوة الحقيقية غير موجودة ، فيسىء معاملتها بعد ذلك ، أو تشذ نفسيته

فيتصل بها إتصالا غير شريف ، وكذلك يقال فى امرأة تتبنى صبياً يخالطها ويعاشرها ، وقد ينام معها فى فراش واحد ، ثم يكبر الصبى فيصير رجلا ، وليست هناك بينهما أمومة ولا بنوة ، وقد تحس المرأة نحوه بإحساس الأنثى نحو الذكر ، فيوجد الزلل والانحراف ، أو التناقض والاختلاف ، ثم إن التبنى فوق هذا محاولة لتغيير ما صنعته يد الله ، وتحريف لما نظمه الخالق الكريم ، ولذلك قال الرسول عليه الصلاة والسلام : « من ادعى إلى غير أبيه وهو يعلم أنه غير أبيه فالجنة عليه حرام » . وقال : « من ادعى إلى غير أبيه أو انتمى إلى غير مواليه ، فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين ، لا يقبل الله منه صرفاً ولا عدلا » أي لا يقبل منه توبة ولا فدية ! .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

إن ميادين المساعدة والإحسان والخدمة الاجتماعية كثيرة عديدة ، ومن أراد الخير والبر فإنه سيجد لها طرقاً وسبلا ، حيث يسبغ أثواب خيرة على من يشاء سراً أو جهراً ، دون اللجوء إلى التبنى الذى يحرمه الإسلام لما فيه من آثام ، فما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا ، والله يعلم وأنتم لا تعلمون وما أحكمته يد العليم الخبير لا تنقضه يد الإنسان ، صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة ونحن له عابدون ، وسبحان من لو شاء لهدى الناس جميعاً إلى سواء السبيل ، واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون ، إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون .

قوة الضعف

الحمد لله عز وجل ، هو واهب القوى والقدر : « إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين » أحمده سبحانه وأشهد أن لا إله إلا الله ، يخلق من الضعف قوة وقد يجعل من القوة ضعفاً : « إن ربك هو القوى العزيز » . وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، كان المثل الأعلى فى قوة الإيمان وعمق اليقين وصدق الرجاء ، فصلوات الله وسلامه عليه ، وعلى آله وصحبه وشيعته ، والثابتين على سنته وطريقته : « ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوي عزيز » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

يجب أن يبحث الإنسان فى كل مظنة ضعف عن سبب قوة ولو أخلص المؤمن المجاهد فى تلمس ذلك وتطلبه لصار الضعف قوة ومن الأقوال المأثورة : « إن الله قد يضع سره فى أضعف خلقه » والمثل العربى يقول : إن لله جنوداً منها العسل[1] » ، وخير من هذا وأجمل قول الحق جل جلاله : « ولله جنود السموات والأرض وكان الله عزيزاً حكيما » وقوله سبحانه : « وما يعلم جنود ربك إلا هو » وفى نور هذه الكلمات المضيئة نفهم أن الضعف قد ينطوى على قوة مستورة تؤيدها عناية الله ، فإذا قوة الضعف تهد الجبال وتحير الألباب ، وقد يتساءل فى هذا الباب على سبيل المثال فنقول : بم أهلك الله الجبابرة الطغاة الكافرين من أهل سبأ ، حينما وهبهم الله جنتين عن يمين وشمال ، وقال لهم : «كلوا من رزق ربكم واشكروا له بلدة طيبة ورب غفور » ، ولكنهم طغوا بكفرهم ، وتباهو بقوتهم ، فماذا كنت النتيجة ؟ يقول القرآن : « فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العرم » أى المطر الشديد فكان سبب الهلاك

---

(١) قاله معاوية حينما سمع أن الأشتر شرب عسلا فيه سم فمات .

والدمار ، وجعل الله عز شأنه من الشيء الضعيف الرقيق المنساب قوة قوية مدمرة لأهل البغى والطغيان . وحينما جاء أبرهة الأشرم يتحدى بجبروته وجنوده ، ويرغى ويزبد مهدداً العرب ، منذراً بهدم الكعبة ، ومعه الفيلة الضخمة الغليظة ، حتى خاف أهل مكة فتركوها واعتصموا بالجبال والشعاب أظهر الله قوة الضعف ، وجعل السبب الضعيف الضئيل سلاح القضاء على الجيش العرمرم الجرار ، ولم يرسل الله لإهلاك الفيلة حيوانات ضخمة مثلها ، ولا ما يقارنها بل أرسل الطير الأبابيل « ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل ، ألم يجعل كيدهم فى تضليل ، وأرسل عليهم طيراً أبابيل ، ترميهم بحجارة من سجيل ، فجعلهم كعصف مأكول » أى كتبن أكلته الدواب وتطايرت بقاياه .

وهذا لوط عليه السلام يتعرض لموقف الضعف والشدة . حيث يهجم عليه اللئام الفاسقون من قومه يريدون الاعتداء على ضيوفه ، ويتطلع لوط يبحث عن ناصر أو معين ، فيجد الكل ضده ، فيقول كأنه يرجو إغاثة ونجدة : « قال لو أن لى بكم قوة أو آوى إلى ركن شديد » . وجاء الجواب من ملائكة الرحمن : « قالوا يا لوط ، إنا رسل ربك لن يصلوا إليك » ويختار الله أن يكون تدميره لهؤلاء ولموطنهم بقطعة من الحجارة الصغيرة المطبوخة بالنار وهى حجارة متتابعة مسومة أى لعلمة للعذاب ، فكان فيها القوة قوة الضعف : « فلما جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليها حجارة من سجيل منضود ، مسومة عند ربك وما هى من الظالمين ببعيد » . وأمر عاد غير ببعيد من قوم لوط ، فإذا كان هلاك قوم لوط قد تم بقطع صغيرة متوالية من الحجارة ، فقد تم إهلاك قوم عاد بالهواء ، بالريح العاصف : « وأما عاد فأهلكوا بريح (لها صوت من شدتها) صرصر عاتية ، سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوما (مشئومات) فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية ،

فهل ترى لهم من باقية » ؟ وأمر قوم نوح غير بعيد من قوم عاد ، فقد هلك قوم نوح بالماء ، وكذلك فرعون وقومه ، وربك يخلق ما يشاء ويختار .

وهذا هو رسول الله عليه الصلاة والسلام ، يخلق له ربه من الضعف قوة ، ومن القلة كثرة ، ومن الفقر غنى وثراء « ألم يجدك يتيما فآوى ، ووجدك ضالا فهدى ، ووجدك عائلا فأغنى » . لقد كان فرداً فصار أمة ، وكان أمياً فعلم الملايين ، وكان قليل المال فصار بالله أغنى الأغنياء ، وما زال صلوات الله وسلامه عليه يلتمس الغنى فى الفقر ، والقوة فى الضعف ، حتى أوتى من عزمه وعزيمته ، ما زعزع به أركان الأكاسرة والقياصرة : « وكان فضل الله عليك عظيما » . ولعل الله تبارك وتعالى قد أشار إلى قوة الضعف ، حين اختار الحمامة الأليفة الضعيفة — كما تقول بعض روايات السيرة — لتكون حارسة على باب الغار الذى لجأ إليه الرسول حين اختفى عن عيون المشركين وهو فى طريقه مهاجراً من مكة إلى المدينة ، كما اختار العنكبوت — إن صحت الرواية — لتكون معواناً للحمامة فى هذه الحراسة ، وكانت الحمامة الرقيقة النحيلة ، مع خيوط العنكبوت الهشة الواهية ، سبباً فى تعمية المشركين حتى لا يبصروا الرسول وصاحبه حين اختفيا فى الغار ، وفى داخل الغار كان هناك مشهد أروع وأمتع لقوة الضعف ، فهذا أبو بكر يخاف على الرسول سفه الشرك وبغى المشركين ، ويقول : يا رسول الله ، لو أن أحدهم نظر إلى موضع قدميه لرآنا ، فإذا القوة العارمة المؤمنة تتجلى من الرسول فى موقف الشدة والضعف ، فيقول لصاحبه : يا أبا بكر ، ما ظنك باثنين الله ثالثهما ، يا أبا بكر ، لا تحزن إن الله معنا ، ويؤيد صوت السماء رجاء النبوة ، فينزل قول الحق : « إلا تنصروه فقد نصره الله ، إذ أخرجه الذين كفروا ثانى اثنين إذ هما فى الغار ، إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا فأنزل الله سكينته عليه

وأيده بجنود لم تروها ، وجعل كلمة الذين كفروا السفلى ، وكلمة الله هى العليا ، والله عزيز حكيم » .

وتأتى غزوة بدر الكبرى ، ويخرج نحو ثلاثمائة من المؤمنين ليلاقوا نحو ألف من الكافرين ويشاهد الرسول فقر المسلمين وضعفهم وجوعهم وقلتهم فيدعو ربه قائلا عنهم : « اللهم إنهم حفاة فاحملهم ، اللهم إنهم جياع فأطعمهم ، اللهم إنهم عراة فاكسهم ، اللهم ان تهلك هذه العصابة لا تعبد فى الأرض » ، ويستجيب قيوم السموات والأرض لرجاء الرسول ، فيخلق من الضعف قوة ومن القلة كثرة ، ومن الجوع شبعاً ، فإذا الضعاف ينتصرون على الأشداء ، « ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة» . «واذكروا إذ أنتم قليل مستضعفون فى الأرض تخافون أن يتخطفكم الناس فآواكم وأيدكم بنصره ، ورزقكم من الطيبات لعلكم تشكرون » .

وهذا هو المكفوف يفقد بصره ، وفقدان البصر ضعف ، ولكن الله يجعل من هذا الضعف قوة فيعوض صاحبه ، يجعله حصانة وبراعة ، وكم فى المكفوفين من عبقريات تجلت فأدهشت ، ولو رجعنا إلى كتاب « فى عالم المكفوفين » لرأينا العجائب بعد العجائب فى هذا المجال ، وهذا شوقى يشير إلى مثل هذا حين يخاطب سلطان مصر بشأن المكفوفين فى الأزهر فيقول :

نظراً وإحساناً إلى عميانه — وكن المسيح مداوياً ومجبراً

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام :

ليس الحديث عن قوة الضعف دعوة إلى الرضى بالضعف أو السكوت عليه ، بل هو دعوة إلى استشعار القوة حتى فى حالة الضعف ، ودعوة إلى

التدثر بالرجاء والأمل حتى فى مواطن الشدة والبأس ، ودعوة إلى بذل الجهد فى كل حالة وعلى أى وضع ، ودعوة إلى اليقين بأن الله قادر على أن يجعل من الضعف قوة ما دام الإنسان يجاهد بقدر ما يستطيع ، « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة » . وعلى الله قصد السبيل ، أقول قولى هذا واستغفر الله لى ولكم .

ضعف القوة

الحمد لله تبارك وتعالى ، هو القوى العزيز ، ذو البأس الشديد : « من كان يريد العزة فلله العزة جميعاً إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه والذين يمكرون السيئات لهم عذاب شديد ومكر أولئك هو يبور » أحمده سبحانه وأشهد أن لا إله إلا الله يمهل ولا يهمل ، ويحلم ولا يغفل « ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين » وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله اعتز بالله ، فعصمه مولاه : « فإن تولوا فقل حسبي الله لا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم » فصلوات الله وسلامه عليه ، وعلى ذريته وآله ، وصحبه ورجاله والمهتدين بأعماله وأقواله : «ومن يعتصم بالله فقد هدى إلى صراط مستقيم » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام :

فى الأسبوع الماضى حدثتكم عن « قوة الضعف » واليوم أحدثكم عن « ضعف القوة » ، وقد رأينا أن الضعف قد ينطوى على قوة مستورة تؤيدها عناية الله ، وضربنا على ذلك الأمثال ، واليوم نحاول أن نرى معاً كيف تتداعى القوة القائمة على غير أساس سليم أو مبدأ قويم ، فإذا هى تتحكم وتنهار ، « والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون » . وهذا مثلا هو الشيطان، القوة الممثلة للشر والإثم والانحراف ، إنه يختال بجنوده ، ويغتر بأتباعه ، ويزهو بمكره وكيده ، ولكن هذا الطغيان يصبح أمام الإيمان واهياً ضعيفاً ، والله الذى يقرر ذلك : « الذين آمنوا يقاتلون فى سبيل الله ، والذين كفروا يقاتلون فى سبيل الطاغوت ، فقاتلوا أولياء الشيطان إن كيد الشيطان كان ضعيفاً » ، وهذا هو فرعون ، الذى طغى وبغى ، وكان فى الأرض

عالياً من المسرفين ، والذى تأله فى الأرض « فكذب وعصى ، ثم أدبر يسعى فحشر فنادى ، فقال أنا ربكم الأعلى « . فماذا كانت العاقبة ، تحول التأله ذلا ، وانقلبت القوة ضعفاً « فأخذه الله نكال الآخرة والأولى ، إن فى ذلك لعبرة لمن يخشى » . ولم يستطيع فرعون الطاغية ومن ورائه أشداء قومه أن يدفعوا عن أنفسهم الأذى ، حتى لو كان فى صورة أرق الأشياء وهو الماء : « فأتبعهم فرعون بجنوده ،فغشيهم من أليم ما غشيهم ، وأضل فرعون قومه وما هدى » .

وهذا هو قارون المغرور بنفسه المبهور بقوته فى الحياة ، وكثرة ثروته بين الناس « إن قارون كان من قوم موسى فبغى عليهم وآتيناه من الكنوز ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة أولى القوة إذ قال له قومه لا تفرح إن الله لا يحب الفرحين» وجاءته الموعظة العادلة الفاضلة ، الهادية إلى خيرى العاجلة والآجلة « وابتغ فيما أتاك الله الدار الآخرة ، ولا تنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله إليك ولا تبغ الفساد فى الأرض ، إن الله لا يحب المفسدين » . ولكن قارون لم يسمع ولم يستجب ، فهو غارق هناك فى أمواج خيلائه وطوفان كبريائه ، فهو يتباهى بقوته وعلمه . ويغتر بثروته وماله ، ويظن أنه بهذا يستعصم على الضعف ويتأبى على الإنكسار ، ناسياً أن الله جل جلاله « قد أهلك من قبله من القرون من هو أشد منه قوة وأكثر جمعاً » ، فماذا كان المصير ؟ . انقلب العز ذلا ، والغنى فقراً ، والقوة ضعفاً : « فخسفنا به وبداره الأرض فما كان له من فئة ينصرونه من دون الله وما كان من المنتصرين وأصبح الذين تمنوا مكانه بالأمس يقولون : وى كأن الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر ، لولا أن من الله علينا لخسف بنا وى كأنه لا يفلح الكافرون » .

وهؤلاء قوم ابراهيم عليه السلام ، يسرفون على أنفسهم وعلى الناس ، فيسعون فى الأرض فساداً، ويعبدون من دون الله ما لا ينفعهم ولا يضرهم، ولا يجديهم النصح والتوصية شيئاً ، ويعطيهم نبى الله إبراهيم درساً بليغاً فى أن الأصنام لا تدفع عن نفسها شراً ، فكيف تدفع قليلا أو كثيراً عن غيرها ، وهنا يثور الأقوياء الأشداء السفهاء لكرامتهم المهضومة وعزتهم المزعومة ، ويجتمعون فى طغيان وبهتان ، ويقررون أن يعصفوا بالنبى الوحيد الأعزل ، ويختارون للخسف به أقسى أنواع العذاب وهو الإطراق بالنار : « قالوا حرقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين » فماذا كان صنع الله القوى المتين ؟ جعل الشدة هواناً ، وأحال القوة ضعفاً، ومن خلال النار المحرقة المهلكة ، بعث الله النجاة والسلام « قلنا يا نار كونى برداً وسلاماً على ابراهيم، وأرادوا به كيداً فجعلناهم الأخسرين » .

وهذا هو النمرود بن كنعان الملك الجبار المتمرد ، الذى ادعى الربوبية . وحاج ابراهيم فى ربه ، وقال فى غرور وكبرياء : « أنا أحيي وأميت » ، فماذا يصنع القدر مع ذلك الذى طغى وبغى ، وتجبر وعتا ، وآثر الحياة الدنيا ، واغتر لأنه أحد الأربعة الذين ملكوا الدنيا ذو القرنين وسليمان والنمرود وبختنصر اختار الله لا هلاكه وإهلاك جنوده حشرة ضعيفة ضئيلة هزيلة ، هى البعوضة يقول التاريخ « فارسل الله عليه ذبابا من البعوض بحيث لم يروا عين الشمس ، وسلطها الله عليهم فأكلت لحومهم وشربت دماءهم ، وتركتهم عظاماً بالية ، ودخلت بعوضة أنف النمرود ، فعذبه الله بها ، وجعل يضرب رأسه بمختلف الأشياء لكى تموت البعوضة أو تخرج من أنفه ، ولكنها ظلت تذيقه العـــذاب ألواناً ، حتى مات الجبار ذو الأسباب ميتة الكلاب ، وما أضعف قوة المخلوق أمام سلطان الخالق .

وهؤلاء هم أهل الكفر والضلال ، يعدون فى الدنيا بالملايين بعد الملايين

وعندهم طاقاتهم ، ولديهم أموالهم وثرواتهم ، ولهم جبروتهم وطاغوتهم ، وقد كفروا بربهم ، وتمردوا على خالقهم ، وعبدوا من دونه ما عبدوا من أصنام وأوثان ، ولكن الله جل جلاله يذل اعتزازهم ، ويحطم قوتهم ، ويتحداهم أن يسخروا كل قوتهم فى إيجاد حشرة ضعيفة هزيلة : « يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له ، إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له ، وإن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه ، ضعف الطالب والمطلوب ، ما قدروا الله حق قدره ، إن الله لقوى عزيز » . والخطاب هنا لجميع الناس ، أبيضهم وأسودهم ، عربهم وعجمهم ، والتحدى موجود حتى مع اجتماعهم وتضامنهم : « ولو اجتمعوا له » وموضوع التحدى هين يسير صغير : ذبابة . والذباب من أضعف المخلوقات وأحقرها ، والتحـــدى هنا نوعان : إما أن يخلقوا ذبابة ، وإما أن يستردوا من الذبابة شيئاً أخذته منهم ، وما هم بفاعلين : « ضعف الطالب والمطلوب » . وفى الحديث القدسى يقول الحق عز شأنه : « فليخلقوا مثل خلقى : ذرة أو ذبابة أو حبة » .

وليس هذا تنفيراً من القوة ، أو تزهيداً فى الشدة والتماسك ، لأن الإسلام يدعوإلى كل أنواع القوة : « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة » ، ولكنا نريد القوة القائمة على الإيمان والعدل والخضوع لسلطان الله عز وجل : « خذوا ما آتيناكم بقوة » ونريد القوة العادلة المتعادلة : « محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم . . . » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام. . .

لا تخافوا البغى فى الأرض ، فمن فوقها قوة السماء ، ولا تهابوا الأقوياء السفهاء من الناس ، فإن ثباتكم فى وجوهكم ، مع رضى الله عنكم ، كفيل

بأن يحطم بنيانهم ويهدم كيانهم ، ويأتى عليه من القواعد : « لا يغرنك تقلب الذين كفروا فى البلاد ، متاع قليل ثم مأواهم جهنم وبئس المهاد » . انتزعوا من ضعفكم قوة تحيل قوة عدوكم ضعفاً ، اعتصموا بربكم يجعل لكم من أمركم فرقاناً ، وينصركم نصراً مبيناً « وما كيد الكافرين إلا فى ضلال . أقول قولى هذا واستغفر الله لى ولكم .

من أسرار الاستغفار

لله الحمد ، فاضت من يديه على عباده النعمة ، وكتب على نفسه لخلقه الرحمة ، « إن رحمة الله قريب من المحسنين » سبحانك ، تقدم عفوك على عقابك وتغلب نعيملك على عذابك : « نبيء عبادي أنى أنا الغفور الرحيم ، وأن عذابي هو العذاب الأليم » . نشهد أن لا إله إلا أنت ، الكل منك وإليك ، والاعتماد بك وعليك ، ولا حول ولا قوة إلا بك يا على يا عظيم ، ونشهد أن سيدنا ومولانا محمداً عبدك ورسولك ، إمام المربين ، وسيد المرشدين ، وقائد الغر المحجلين يوم الدين ، فصلواتك اللهم وسلامك عليه ، وعلى آل بيته ، وأغصان دوحته ؛ والخلص الكرام من جنده وصحابته ، والموفين بعهدهم من أتباعه وشيعته ، الذين إن مكناهم فى الأرض أقاموا الصلاة ، وآتوا الزكاة ، وأمروا بالمعروف ، ونهوا عن المنكر ، ولله عاقبة الأمور .

يا أتباع محمد عليه السلام . . .

هناك كثير من تعاليم الدين ، لا يستطيع المرء أن يصل فيها إلى الحكم الفاصل بالنظر العاجل أو الهوى المائل ، بل لابد من التأنى والتحرى ، ومعرفة العلل والأسباب ، ودراسة الحكم والثمرات ، وهنا يسهل عليه أن يحكم حكماً صائباً ، وأن يدرك ما انطوت عليه أمور ذلك الدين من أسرار وثمار ، (والله يدعو إلى دار السلام ، ويهدى من يشاء إلى صراط مستقيم) ! . . .

مر مثلا بخاطرى موضوع المغفرة والاستغفار فى الإسلام ، فرأيت عجبا ، وبدا لى ما يستوجب النظر ويثير الفكر . . . إن آيات الاستغفار وأحاديث الحض على التوبة كثيرة كثرة تستلفت البصيرة والبصر ، فالقرآن الكريم لا يكتفى بإباحة الاستغفار ، بل يطالب به فيقول : (واستغفروا الله إن الله

غفور رحيم (ويأتى بعض الأحاديث الشريفة فى توسيع الباب قائلا : « لو لم تذنبوا وتستغفروا الله لذهب الله بكم ، وأتى بقوم يذنبون ويستغفرون ، فيغفر لهم » .. ويعود القرآن فيذكر العباد بأن الله هو البر الرحيم ، وأنه الرؤف الكريم ، الذى يجب أن يقصد لغفران الذنوب مهما كانت الكبائر ، وأن يلجأ إليه فى الأزمات مهما كانت الشدائد ، فيقول : (ومن يغفر الذنوب إلا الله)؟ ثم يصل الخاطئين بأسباب الرجاء والطمع ، مهما كان مقدار بعدهم عن رحاب الاستقامة ، فيقول : (إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء) ... ثم يعمم المغفرة والقبول لكل من تاب وأناب ، مهما سلف منه ، فيقول : (قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ، إن الله يغفر الذنوب جميعاً ، إنه هو الغفور الرحيم) . ويفسر هذا رسول الله صلوات الله وسلامه عليه فيقول : (والذى نفسى بيده لو أخطأتم حتى تملأ خطاياكم ما بين السماء والأرض ، ثم استغفرتم الله لغفر لكم) ... إلى غير ذلك من عشرات الآيات والأحاديث التى تشرق بأضواء الأمل فى التوبة والغفران . . .

قد يضل ضال فى فهم هذه النصوص المقدسة ، فيخيل إليه أن الباب مفتوح بترحيب وبلا نظام مهما فسق واستعصى على أمر ربه ، فيقال له : كلا ليس الأمر كما حسبت ، فإن رب المغفرة هو رب المعاقبة ، والذى وسعت رحمته كل شىء هو نفسه الذى يقول : (وأن ليس للانسان إلا ما سعى ، وأن سعيه سوف يرى) . ويقول : (فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره) . فيعترض الضال قائلا : إذن فهناك تناقض وتعارض بين بعض الآيات وبعض ، وستظل آيات المغفرة الكثيرة إذن بلا موضوع ؟ . فنقول له : إن التناقض ليس موجوداً إلا فى ذهنك الضيق ، وتفكيرك المحدود ، لأنك تحكم شخصك فى أمر عالمى وضعه رب العالم

للعالمين ، وفيهم أصناف وأشكال وألوان ، وما هذا الحديث الطويل فى القرآن عن الاستغفار والحض عليه إلا أسلوب الحكيم العليم فى تربية الخلق ، فهو ينهض على كثير من الأسس القويمة العالية .

إن الإسلام الحنيف بأسلوبه هذا فى التحريض على الاستغفار يريد ألا يصادم الطبيعة البشرية ، بل يتمشى معها بما يلائمها ، إذ هو يعرف أن الإنسان بطبيعته خطاء ، قد كتب عليه حظه من النقص والعيب ، فلو سد فى وجهه باب الندم والتوبة لأخلد إلى الأرض ، وأفلس من أول الطريق . وإذن فليلتمس الإسلام للخاطىء عذراً ، وليبسر لتقويمه أمراً ، وهو أن يحرضه على الاستغفار المشتمل على قوي التذكار والاستحضار ، المؤدى إلى لون من المحاسبة والمراقبة التى تحيي موات الضمير فى الإنسان ، وتنقله من بيداء الضلال إلى جادة الإيمان ، ولعل الرسول الكريم عليه الصلاة والتسليم حينما كان يحرض صحابته على الاستغفار ويخبرهم أنه يستغفر فى اليوم سبعين مرة ، لم يقصد نفع نفسه ، أو التخلص من ذنوب نسبت إليه ، فهو المعصوم الذى غفر له ما تقدم من ذنوبه وما تاخر ، ولكنه قصد أن يعلم أتباعه كيف يفيقون بعد غفلة ، ويستقيمون بعد زلة ، ولا عجب فهو بالمؤمنين رءوف رحيم .

ومن أغراض الاستغفار والمتاب فى الإسلام إظهار فضل الله الرحمن الرحيم على عباده الحيارى الضعفاء ، فهو الذى برأهم ، وهو الذى أنعم عليهم وهو الذى حلم معهم ، وهو أيضاً الذى يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات ، فيالها من منة لا يقدر عليها إلا الخلاق العظيم ، الذى يفتح أمام الخاطئين عن سهو أو نسيان أو زلة باب الأمل والرجاء ، حتى لا يعرف اليأس إلى قلوبهم سبيلا ، فإنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون ، ويهيىء لهم دائماً فرصة للارتداع والاسترجاع ، ولله أفرح بعبده التائب من الذى فقد شيئاً نفيساً لديه ثم عثر عليه ، وها هو ذا سبحانه يجعل فرصة التطهر

والتخلص ممزوجة بالتزود من الخير والاقتراب من البر ، فيجعل عمل الخير تكفيراً لسالف الشر ، وإتيان الحسنة محواً للسيئة، وفى ذلك ما فيه من الإغراء والتحريض على الدنو من حمى الخيرات ، فيقول سبحانه : (إن الحسنات يذهبن السيئات ذلك ذكرى للذاكرين) ويقول عن فريق من عباده الناجين بمشيئته : (خلطوا عملا صالحاً وآخر سيئاً عسى الله أن يتوب عليهم) . ويقول رسوله عليه السلام : « وأتبع الحسنة السيئة تمحها ، وخالق الناس بخلق حسن»

ومن ثمرات الاستغفار الذى جعله الإسلام متكرراً كلما تكرر الذنب والخطأ تربية الحياء والخجل فى نفس الإنسان ، فإنه إذا أخطأ ثم استغفر فغفر له ، ثم عاد فأخطأ واستغفر ، ثم عاد فأخطأ واستغفر، حدثته نفسه — إن لم تكن قد ماتت — بأن هذا لايليق به كإنسان،ولا يجدر به كرجل حر ذى ضمير ، فيخجل من نفسه ، ويستحيي من تكرار خطئه ، فيستشعر فى صدره قوة عزم على المقاومة للهوى،والمغالبة للشيطان حتى يقهره ويستجيب لنداء الرحمن ، ولعل هذا هو المعنى الذى أراده على رضى الله عنه حينما جاءه شخص فسأله قائلا : رجل أذنب فماذا يفعل ؟ . قال على : يتوب ويستغفر ! قال الرجل : قد فعل ثم عاد ! . . قال على : يتوب ويستغفر !. قال الرجل : قد فعل ثم عاد ! . . قال على : يتوب ويستغفر ولو فعل ذلك مائة مرة حتى يخزى الشيطان ! وكان عمر بن عبد العزيز يخطب فيقول : « أيها الناس من ألم بذنب فليستغفر الله عز وجل . وليتب ، فإن عاد فليستغفر وليتب ، فإن عاد فليستغفر وليتب ، فإنما هى خطايا مطوقة فى أعناق الرجال ، وإن الهلاك كل الهلاك فى الإصرار عليها » . . . ولو فرضنا ما لا يليق بالمرء وهو أن يستمر فى غيه وبغيه بلا خجل أو ارعواء ، رغم انفتاح باب المتاب أمامه ، لحقق الإسلام من ذلك شيئاً آخر هو الإعذار إلى مثل هذا الميت الخبيث ، كيلا يكون له على الله حجة بعد ما ساسه بكل أساليب الرحمة والتكريم ! . .

ومن فوائد الإكثار من حديث الاستغفار إشعار الهداة وتذكير المصلحين بأن الخطأ والزلل من طبيعة البشر ، فيجب على أولئك المرشدين أن تتسع صدورهم ، وأن تقوى عزائمهم ، وأن يجمل صبرهم ، فلا يتضايقوا ولاييأسوا لرؤية الفشل أو تكرر الزلل ، بل عليهم أن يحتملوا الصدمات ويعاودوا الكرات والمحاولات ، إذ لو كان الخير عاماً وطبيعة فى الناس لما احتجنا إلى معلمين ومقومين ، ولكن الله يقول : (ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، وأولئك هم المفلحون) ويقول : (وأمر بالمعروف وأنه عن المنكر واصبر على ما أصابك إن ذلك من عزم الأمور) .

ولا ننسى أيضاً ما فى الاستغفار والدعاء والمناجاة من لذة روحية وطمأنينة نفسية وتباعد عن صخب الحياة ، واتصال بالملأ الأعلى وفى ذلك استعداد قوى وتهيؤ فعال لحسن التحول وكريم الاتجاه ، ولعل هذا هو مغزى الحديث النبوى الشريف : (من أكثر من الاستغفار جعل الله له من كل هم فرجاً ، ومن كل ضيق مخرجاً ، ورزقه من حيث لا يحتسب) .

يا أتباع محمد عليه السلام . . .

الكمال المطلق للبشر محال ، والعصمة للأنبياء والمرسلين . والخضوع المطلق للهوى الأثيم ضلال أى ضلال ، فلم يبق إذن إلا أن نحاول الخير ما استطعنا ، ولا يضيرنا أن نعثر أو نزل فذلك حظ مقسوم ، ولكن يضيرنا أن نستمر على الخطأ أو نرضى به ، أو نسعى إليه مختارين مستحلين . . . فلنرفع رؤسنا مرة جديدة أخرى ، ولنطو صفحات الماضى بما فيه ، ولنستغفر الله إنه هو الغفور الرحيم ، ولنبدأ الطريق من جديد ، فلن يقطعه علينا الحليم الكريم ، واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون .

أقول قولى هذا واستغفر الله لى ولكم . سلوا ربكم التوفيق يستجب لكم .

من أنبــاء السلف

لك الحمد يا من أضأت بنور الإيمان قلوب المؤمنين ، فأخرجت منهم للناس أئمة يهدون بأمرك ، ويدعون إلى ذكرك ويقومون بواجب شكرك ، فكانوا إصلاح الدنيا وهداة العباد ، سبحانك سبحانك ترضى عن العبـد فترفعه إلى أعلى عليين ، وتغضب على الشقى فتخسف به إلى أسفل سافلين ، وأنت وحدك العليم الخبير : نشهد أن لا إله إلا أنت . ونشهد أن محمداً عبدك ورسولك ، خير من أدب وهذب ووعظ وأرشد ، وعلم وقوم فعليه صلواتك وتحياتك ، وسلامك وبركاتك ، وعلى آله الذين أذهبت عنهم الرجس ، وطهرتهم تطهيراً ، وعلى صحابته الذين كانوا نجوماً وأعلاماً عند الله وعند الناس ، وعلى من دعا بدعوته إلى يوم المعاد .

يا أتباع محمد عليه السلام . . .

إن ضرب الأمثال للحائرين أمر واجب ، إذ فيه توضيح للغريب وتقريب للبعيد وتقرير للمشتبه وإحكام للمضطرب ، ولقد اهتم القرآن الكريم بضرب الأمثال فى كثير من المواقف والمواضع ، فرسم لقارئيه وسامعيه صوراً عديدة للأولين الماضين ، ولمن فاز منهم فى مسعاه ومن ضل منهم عن هداه ، وقص علينا قصصاً كثيرة رائعة للأخيار الأبرار من الصالحين الموقنين ، وما يريد الإسلام بهذا إلا أن نتأسى ونعتبر ، ونتشبه ونتذكر ، ومن تشبه بقوم دخل زمرتهم وحشر فى صراطهم ، وحسب منهم وعليهم ، ونحن نتلمس بيننا فى حياتنا الحاضرة نماذج للخير والإيمان ، تصلح لأن تضرب أمثالا للحائرين أو الناشئين ، فلا نكاد نجد شيئاً ذا بال من هذه النماذج ، لأن الحياة اللاغبة الصاخبة العابثة جرفت الكثير منا بتيارها العارم العنيف ، ولكننا

حينما نلفت البصر إلى الوراء ، ونسترجع سيرة سلفنا الصالح ، نجد مئات ومئات من النماذج العالية السامية التى تستحوذ على الألباب بهديها وتقاها ، وإيمانها ويقينها وجهادها وكفاحها ، فلنرجع إلى الوراء ، ولنستلهم التاريخ ! ! . .

هذا على بن أبى طالب رضى الله عنه وكرم الله وجهه ، سارع إلى الإسلام وهو غلام ، ودافع عن الرسول خير دفاع ، وشهد معه المشاهد كلها إلا تبوك فقد تخلف فى مهمة كان فيها من الرسول بمثابة هرون من موسى كما قال له الرسول نفسه ، وقضى «على» حياته كلها مجاهداً فى سبيل ربه ، ذائداً عن حرماته ، ناصراً لكلمته ، ألفته الميادين وعرفته المعارك ، ومع هذا كان شيخ الزهاد وزعيم الأتقياء وخطيب الخطباء ، إن دعا الداعى رأيته فارساً سباقاً ، وإن تليت الآيات رأيته خاشعاً بكاء ، وإن أظلم الليل رأيته راهباً متهجداً ولذلك جاز للصفى الحلى أن يقول فيه فيصدق :

جمعت فى صفاتك الأضداد   فلهـذا عزت لك الأنداد
زاهد حاكم ، حليم شجاع   ناسك فاتك ، فقير جواد
شيم ما جمعن فى بشر قط   ولا حاز مثلهن العبـاد
خلق يخجل النسيم من اللطف   وبأس يذوب منـه الجماد
جل معناك أن يحيط به الشعر   وتحصى صفاته النقـاد !

ولو أردنا أن نحيط بسيرة الإمام النقى التقى ، الورع الزاهد لا تسع المجال وفاض المقال وعز المنال ، فحسبنا أن نستروح من سيرته هذا الشذا العاطر الذى يزفه إلينا الموقف التالى : فقد دخل ضرار الصدائى على معاوية فقال له : صف لى علياً . فقال أعفنى . قال : لتصفنه . قال ضرار : أما إذا كان لابد

من وصفه فقد كان والله بعيد المدى ، شديد القوى ، يقول فصلا ويحكم عدلا ، يتفجر العلم من جوانبه ، وتنطق الحكمة من نواحيه ، يستوحش من الدنيا وزهرتها ، ويأنس بالليل ووحشته ، وكان غزير الدمعة طويل الفكرة ، يقلب كفه ويخاطب نفسه ، يعجبه من اللباس ما خشن ، ومن الطعام ما جشب (أى غلظ) ، وكان فينا كأحدنا ، يدنينا إذا أتيناه ، ويجيبنا إذا سألناه ، ويأتيناه إذا دعوناه ، وينبئنا إذا استنبأناه ، ونحن والله مع تقريبه إيانا وقربه منا لا نكاد نكلمه هيبة له ، فإن تبسم فعن مثل اللؤلؤ المنظوم ، يعظم أهل الدين ، ويقرب المساكين ، لا يطمع القوى فى باطله ، ولا ييأس الضعيف من عدله ، وأشهد لقد رأيته فى بعض مواقفه ، وقد أرخى الليل سدوله وغارت نجومه ، قابضاً على لحيته ، يتململ تململ السليم ويبكى بكاء الحزين فكأنى أسمعه الآن وهو يقول يا ربنا . يا ربنا ، يتضرع إليه ، ثم يقول : يا دنيا غرى غيرى ، إلى تعرضت أم إلى تشوقت ، هيهات هيهات قد باينتك ثلاثا لا رجعة فيها، فعمرك قصير ، وخطرك كبير ، وعيشك حقير ، آه آه من قلة الزاد وبعد السفر ووحشة الطريق ! .

فبكى معاوية ووكفت دموعه على لحيته ما يملكها ، وجعل يجففها بكمه ، وقد اختنق القوم بالبكاء ، وقال : رحم الله أبا الحسن ، كان والله كذلك ، فكيف حزنك عليه يا ضرار ؟ قال : حزن من ذبح ولدها فى حجرها ، فهى لا ترقأ عبرتها ، ولا يسكن حزنها ! ! . . ثم انصرف مسرعاً . .

تلك صفات من عمر الإيمان قلبه ، وزان اليقين روحه ، وخرجته مدرسة محمد السامية ، وما نريد من أنفسنا أن نبلغ هذا المبلغ فى يوم وليلة ، فما أصعب المرتقى ، ولكن شيمة المؤمن دائماً أن يتلمس القدوة ويتطلب الأسوة ، وهذا

مثل من بين مئات الأمثال ، ما أجدرنا جميعاً أن نجعله نصب أعيننا ، وأن نستلهمه فى حركاتنا وسكناتنا ، وأن نهتدى به فى سرنا وجهرنا لعلنا نفوز كما فاز الأولون ، وننجوا كما نجوا ، ونفلح كما أفلحوا وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون . أقول قولى هذا واستغفر الله لى ولكم . . .

افحكم الجاهلية يبغون ؟!

كان أسلافنا رضوان الله عليهم يستعيذون بالله من الضلال بعد الهدى ، والكفر بعد الإيمان ، والجاهلية بعد الاسلام ، والجزع بعد الرضى بالقدر ، وكانوا يرون الرجوع عن الحق بعد معرفته غاية الغايات فى الفساد والإجرام ، فمن فعل ذلك فقد خسر الدنيا والآخرة ، وذلك هو الخسران المبين ، ثم خلف من بعدهم خلف تنكروا لتلك المبادىء ، بعد أن استعبدتهم الأهواء ، وصرفتهم المطامع تصريف العبيد الأرقاء ، فأصبحوا يدعون لأنفسهم ما ليس لهم ، فإن جرت الأقدار يوماً بغير ما يشتهون فويل للزمان ، فتراهم وقد استبد بهم التمرد والنكران ، نكصوا على أعقابهم ، ومن نكص على عقبيه فلن يضر الله شيئاً ، وسيجزى الله الشاكرين ! . . .

كنت جالساً فى الترام فصعدت إليه امرأة بادية الهم تلوح عليها أمارات الأسى ، وكان الوقت ليلا ، وعربة الترام خالية إلا من أفراد ، فما كادت ترانى حتى خيل إلى أنها توسمت فى النجدة والإنقاذ ، فجلست أمامى فى حشمة وحياء ، وما هى إلا لحظات حتى بدأت تقص على قصتها المليئة بالأنات ! .

إنها زوجة رجل مسلم متعلم ، يشغل وظيفة ينال منها راتباً يكفل له حياة النعيم ، وقد تزوج بها منذ سنوات فأخلصت له ، وقد أراد الله أن تضع له ثلاث بنات متواليات ، وكانت الزوجة تلاحظ على زوجها أنه يمتعض كلما وضعت واحدة منهن ، فتكسو وجهه سحابة من الهم ! ! . . كانت الزوجة الوفية تلاحظ فتتألم لألم زوجها ، وتدعو الله أن يهب لها غلاماً ذكراً ، كى يفرح بها زوجها ويرضى عنها .

وها هى ذى قد حملت للمرة الرابعة ، وها هو ذا الجنين يتحرك فى أحشائها ويكبر يوماً بعد يوم ، ويدنومن ساعة الميلاد .

ومنذ ليال جرى بينها وبين زوجها جدال حول الذرية والحياة الزوجية ؛ فأنذرها بأنها إذا وضعت هذه المرة بنتاً كالعادة فلن تظل معه ، فإنه لا يريد البنات وإنما يريد البنين .

وهنا انفجر غيظ المرأة فسالت دموعها وأخذت تقول لى : وما ذنبى أنا يا سيدى ؟ ! . . وأية حيلة أحتال بها على المقادير ! وكان موضع نزولها من الترام قد أتى ، ثم حيت وانصرفت لتستقبل الغد المجهول .

يا الله ! أجاهلية بعد إسلام ، وكفر بعد إيمان ! « أفحكم الجاهلية يبغون ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون » .

لقد سمعت قصة تلك المرأة المسكينة ، فخطر ببالى أمر تلك المرأة العربية القديمة التى تزوجت رجلا اسمه « أبو حمزة » وشاء الله أن تلد له عدة بنات ، دون أن تلد له صبياً واحداً ، فغضب عليها وهجرها إلى بيت زوجة أخرى له، فسمعها ذات يوم وهى تداعب بناتها قائلة :

ما لأبى حمزة لا يأتينا ؟ يظل فى البيت الذى يلينا
غضبان ألا نلد البنينا ولم يكن ذلك فى أيدينا !

فاستحيا من الله ، وندم على ما فرط منه ، وعاد إلى زوجته وهو يردد لها عبارات الاعتذار والاستغفار ! .

بل لقد ذكرت الجاهلية وما كان من شأنها ، يوم كان أهلها الغلف القلوب الغلاظ الأكباد يعترضون على حكم القدر ويختارون على الله، فيستحلون لأنفسهم أن يئدوا فلذات أكبادهم من البنات ، فيدفنوهن فى التراب . فجاء

الاسلام فحرم عليهم ذلك الجرم الفظيع ، وأوجعهم زجرا وتأنيباً ، وسخر منهم حينما يضعفون عن النهوض بتبعات الحياة ، فيزهقون تلك الأرواح البريئة فقال عز من قائل: « وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسوداً وهو كظيم ، يتوارى من القوم من سوء ما بشر به،أيمسكه على هون أم يدسه فى التراب ؟ ألا ساء ما يحكمون » ! .

على أننا لو قارنا بين العربى الجاهلى والإنسان منا اليوم لأمكننا أن نتصور للجاهلى بعض العذر فى كراهته للبنات ، فقد كانت الحياة العربية قاسية مرهقة بل جهاد عنيف فى سبيل الحصول على القوت ، وكانت البنت بطبيعتها لا تصلح لهذا النضال . وكان المنتصر من العرب يستحل لنفسه أن يسبى النساء والبنات ، وذلك ذل يشق تحمله على نفس العربى المخذول ، كما أن الزنا الذى كان شائعاً فى الجاهلية كان يخيف بعض العرب أن يلحقه من ناحيته عار ، فكان يندفع فى ثورة جنونية إلى وأد ابنته فى التراب .

وأما اليوم ، فأى موجب لهذه الغضبة الثائرة ضد البنات ؟ لقد تغيرت الأحوال وتبدلت الأوضاع ، فتيسرت الأرزاق ، وأمن الناس شرور السبى والاعتداء الجاهلى على الحرمات ، فلم هذا البهتان ، وذلك الكفران ؟ « إن الإنسان لظلوم كفار ! » .

ونحن حينما نذهب لنلتمس العبرة من ديننا الحنيف نجد أن رسول الله عليه صلوات الله قد حث المسلم على أن يرضى بما قسم الله له فقال : « وارض بما قسم الله لك تكن أغنى الناس » . وحث على أن يعامل المسلم بناته بالبشر والرحمة وأن يعتبرهن سبب مثوبة ونعمة ، فقد روت السيدة عائشة رضى الله عنها فقالت : جاءتنى امرأة ومعها بنتان تسألنى (شيئاً من الإحسان) فلم أجد عندى غير تمرة واحدة فأعطيتها ، فقسمتها بين ابنتيها (مع شدة جوعها) ، ثم قامت

فخرجت ، فدخل النبي صلى الله عليه وسلم فحدثته بذلك، فقال : « من ابتلى منكن من هؤلاء البنات بشيء فأحسن إليهن كن له ستراً من النار ! » .

وعن ابن عباس رضى الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « من كانت له أنثى فلم يئدها ولم يهنها ، ولم يؤثر ولده عليها ، أدخله الله الجنة ! » ؛ وكان النبي يحب ابنته فاطمة أكثر من أى إنسان ، وكان يأنس بها ، ويفرح إذا رآها ، ولقد قال حينما بشر بولادتها : « ريحانة أشمها ، ورزقها على الله » .

ولو ذهبنا نستمع إلى صوت العقل لأرشدنا إلى أن كراهيتنا للأناث حمق وسفاهة ، فالفتاة تستطيع إذا أحسن وليها القيام بتنشئتها أن تسبق الفتى ، وأن تكون آثارها فى الحياة خيراً من آثاره ، حتى ليقال فيها :

ولو كان النساء كمثل هـــذى لفضلت النســـاء على الرجال

وللبنات رسالتهن فى الحياة ، وأعمالهن العظيمة التى لا يستطيع الرجال أن ينهضوا بها . . . فمن للبيت وأعماله ، والبر وشئونه ، والتمريض وفنونه ، ومن للمواساة والرحمة والعطف والشفقة ، والتخفيف من آلام الحياة ؟ دخل عمرو ابن العاص على معاوية وبين يديه ابنته عائشة ، فقال عمرو : من هذه يا أمير المؤمنين ؟ فقال معاوية هذه تفاحة القلب ! فقال : أنبذها عنك ، فوالله إنهن ليلدن الأعداء ، ويقربن البعداء ، ويورثن الضغائن ! فقال معاوية : لا تقل ذلك يا عمرو ، والله ما مرض المرضى ولا ندب الموتى ، ولا أعان على الأحزان مثلهن ، ورب ابن أخت قد نفع خاله ! فقال عمرو : ما أعلمك إلا أنك حببتهن إلى ! ! . .

هذا ، وقد يتزوج الرجل امرأة فى أول شبابها فتلد له البنات ، ثم يتغير الحال فيأتيه ما يشتهى من البنين بعد طول انتظار !

فيا أيها الساخطون على الزمان، الثائرون على نظم الحياة ، اذكروا أنكم أضعف من الضعف وأهون من الهوان ، أمام عظمة الخالق وإرادته وأنكم لا تملكون من أمر أنفسكم أو أمر الدنيا قليلا ولا كثيراً. وأن المسيطر على الكون له قدرته وحكمته، وجلاله وسلطانه، فاشكروا له ما أنعم به ، واذعنوا لما قضاه واسألوه من فضله الذى لا يحد، سؤال الراجى الضعيف ، لا سؤال المتجبر العنيف، حتى تجابوا : « لئن شكرتم لأزيدنكم ، ولئن كفرتم إن عذابى لشديد .

حرمة الدماء

الحمد لله عز وجل ، خلق الإنسان فى أحسن تقويم ، وكرمه بفضله أعظم تكريم : «ولقد كرمنا بنى آدم ، وحملناهم فى البر والبحر ، ورزقناهم من الطيبات ، وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا » . أشهد أن لا إله إلا الله ، يوسع العطاء والنعمة ، ويأخذ بالعدل والحكمة : «أفحسبتم إنما خلقناكم عبثا وأنكم إلينا لا ترجعون »؟ . وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، مزكى الإنسانية ، ومطهر البشرية ، فصلوات الله وسلامه عليه ، وعلى آله وذريته ، وأنصاره وصحبته ، ومن دعا بدعوته : « ومن يعتصم بالله فقد هدى إلى صراط مستقيم » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

تتعرض الأمة فى حياتها الطويلة العريضة لمتاعب ومشقات ، بعضها هين ميسور ، وبعضها ثقيل عسير ، وتمضى الأمة فى طريقها متحملة تلك المتاعب والمشقات ، صابرة عليها معالجة لها ، فيقوى عودها ويشتد ساعدها ، ولكن كيان الأمة يتزلزل ، وأساسها يتخلخل ، ورشادها يتبلبل ، حين يغويها الشيطان الأثيم ، فيتجارأ بعض حكامها أو أفرادها بالعدوان على الأرواح البريئة والدماء المعصومة ، فتكون الطامة الكبرى والنكبة العظمى ، لأن الحياة أبهى مظاهر الوجود ، ولأن الإنسان أسمى صورة للحياة وأعلى نموذج للأحياء ، ولقد خلق الله تعالى فى كونه مئات من أنواع الأحياء والمخلوقات ، ولكن القرآن المجيد حينما بدأ يتنزل على رسول الله ذكر خلق الإنسان فى أول طائفة نزلت من آياته ، وكأنه يريد أن يقول إن خلق هذا الإنسان يجب أن يكون كالعنوان للحديث الطويل عن صنع الله وقدرته وآياته ، فها هوذا

سبحانه يخاطب نبيه قائلا : « اقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الإنسان من علق » . ثم يعود القرآن الكريم فيكرر الحديث عن تكوين الإنسان وخلقه ، والتنقل به من نطفة إلى علقة إلى مضغة إلى عظم ولحم وشحم وأعصاب ، بصورة دقيقة معجزة للطاقات محيرة للألباب ، كما يكرر الحديث عما أودعه الله فى ذلك الإنسان من عقل وتفكير ، ووجدان ومشاعر ، مما صلح معه أن يكون خليفة لله فى أرضه ، وبرهاناً ساطعاً على وجوده واقتداره ، « وفى أنفسكم أفلا تبصرون » .

ومادام الإنسان صنعة خالقه العجيبة ، قد أبدعه بقدرته ، وسواه بحكمته ، واختصه بالكثير من آلائه ونعمائه ، فلابد أن يكون هذا الإنسان ملكاً خالصاً لله ، لا يتصرف فيه سواه ، هو الذي يوجده بعلمه وحكمته حينما يشاء ، وهو الذى يتصرف فيه بالإسعاد والإشقاء كما يشاء ، وهو الذى يحكم عليه بالبقاء أو الفناء كما يشاء ، ومن أراد أن يسيطر على هذا الإنسان أو يعتدى عليه ، فقد باء بغضب من الله ، وأعلن الحرب على مولاه ، وليس هناك أخسر ممن يحارب واهب القوى والقدر جل جلاله وعز سلطانه بل لقد حرم الاسلام أن يعتدى الإنسان على نفسه ذاتها بإهلاك أو اتلاف أو انتحار ، والله يقول : « ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة » والرسول يقول : «من تردى من جبل فقتل نفسه فهو فى نار جهنم يتردى فيه خالداً فيها مخلداً أبداً ، ومن تحسى سما فقتل نفسه فسمه فى يده يتحساه فى نار جهنم خالداً مخلداً فيها أبدا ، ومن قتل نفسه بحديدة فحديدته فى يده يجأبها (أى يطعن بها) فى بطنه فى نار جهنم خالداً مخلداً فيها أبداً » وذلك لأن نفس الإنسان ليس ملكاً لصاحبها وليست ملكاً لأحد من الناس ، ولكنها ملك لله وحده ! . . والرسول صلوات الله عليه يشير إلى هذا حيث يقول : « إن هذا الإنسان بنيان الله ملعون من هدم بنيانه » . ويالها من جريمة كبرى أن تمتد يد أثيمة طاغية لتهدم ركناً أو أركاناً من هذا

البناء الإنسانى الإلهى الذى صنعه الله فأتقن صنعه ، وقال : اشهدوا برهان توحيدى . . . ويالها من جريمة كبرى أن تتوقح هذه اليد الباغية فتسيل قطرة أو قطرات من هذا الدم البشرى الزكى الذي جعله الله سبب الحياة فى هـذا الإنسان ، والذى حرمه الإسلام وعصمه وحذر من الاعتداء عليه ، فقال الرسول : « كل المسلم على المسلم حرام : دمه وماله وعرضه » وقال : « لايزال العبد فى فسحة من دينه ما لم يصب دماً حراماً » .

ولقد كان الاعتداء على الدماء أول جريمة شنعاء ارتكبت فى الأرض ، بين ولدى آدم فهدد القرآن فاعلها ، وحذر منها ، وأطال الحديث الزاجر عنها ، واعتبر الاعتداء على دم نفس واحدة ، اعتداءاً على دماء الناس جميعاً ، لاشتراكهم فى معنى الإنسانية التى يجب أن تحفظ وتصان ، فجاء فى القرآن : « من قتل نفساً بغير نفس أو فساد فى الأرض ، فكأنما قتل الناس جميعاً ، ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعاً » . ثم جعل الإسلام جريمة الاعتداء على النفس تالية لجريمة الإشراك بالله ، فقال فى وصف عباده : « والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر ، ولا يقتلون النفس التى حرم الله إلا بالحق » ولذلك قال خامس الراشدين عمر بن عبد العزيز « إنه ليس بعد الشرك إثم أعظم عند الله من الدم » . ولم يتصور الإسلام وجود رجل مؤمن يقتل أخاً له فى الإيمان والإنسانية ، ولذلك قال القرآن : « وما كان لمؤمن أن يقتل مؤمناً إلا خطأ » وقال الرسول : « لا يقتل القاتل حين يقتل وهو مؤمن » ، وقال أيضاً : « إن الله حرم دماءكم وأموالكم وأعراضكم ، فلا ترجعوا بعدى كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض » وقال أيضاً : « كل ذنب عسى الله أن يغفره إلا من مات مشركاً أو مؤمن قتل مؤمناً متعمداً » .

وإنما حذر الإسلام من الاعتداء على الأرواح والدماء كل هذا التحذير لأن الحياة حين نفقدها لا نستطيع استردادها ، بخلاف الأشياء الأخرى ، فالمال مثلا غاد ورائح ، والصحة قد تذهب وتعود ، والجاه قد يعرض ثم يقبل ، ولكن دم النفس البشرية إذا سال فخرجت معه الحياة لم يكن إلى عودته سبيل ، ولعل هذا هو السبب فى أن يقول الرسول : «إن أول ما يقضى بين الناس يوم القيامة فى الدماء » ، لأن القاتل قد أزهق روحاً أوجدها خالقها ولا يستطيع إعادتها سواه ، فالله يبدأ يوم لقائه الأكبر بمحاسبة أولئك المجرمين الذين هدموا بناء الله وهم لا يستطيعون له رداً أو إعادة . . .

ولقد كان حكام المسلمين فى عصور الإسلام المستقيمة يخافون الخوف كله من الاعتداء على الأرواح والدماء بغير حق ، وهذا خامس الراشدين عمر بن عبد العزيز يكتب إليه أحد ولاته يستأذنه فى تعذيب بعض المتهمين ليعترفوا بجرائمهم ، فكتب إليه عمر يؤاخذه على ذلك فى شدة ويقول له فيما يقول : «وايم الله ، لأن يلقوا الله عز وجل بخياناتهم أحب إلى من أن ألقى الله بدمائهم » . ونراه يكتب أيضاً إلى أحد ولاته محذراً له من الاعتداء على الدماء والأرواح ، ويخوفه عاقبة ذلك ، فيقول له : « واحذر القصاص ، فإنك صائر إلى من يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور ، وتقرأ كتاباً لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها » . . . وهذا يذكر بموقف الحجاج مع سعيد بن جبير ، فقد قال الحجاج لسعيد بعد أن قبض عليه : اختر أى قتلة شئت لأقتلك بها ، فقال له سعيد : بل اختر أنت لنفسك فإن القصاص أمامك . قال الحجاج : وكيف ؟ أجاب سعيد : والله لا تقتلنى بقتلة إلا قتلك الله بمثلها يوم القيامة ! ! . .

وكان عمر بن عبد العزيز يقول : «والله لزوال الدنيا أهون على من أن يراق فى سببى محجمة دم » ولقد أخطأ عمر فى شبابه خطأ يتصل بالدم فظل

طيلة عمره يذكره ولا ينساه ، وظل يستغفر منه ربه ومولاه . فقد أمره الخليفة وهو وال على المدينة أن يضرب خبيب عبد الله بن الزبير فى أتاه ، فنفذ عمر أمر الخليفة وتسبب هذا الضرب فى وفاة خبيب ، فظل عمر طيلة حياته خائفاً قلقاً لا يستقر ولا يستريح ، وكلما تقرب إلى ربه بصالحات أو قربات ، وبشروه بذلك ، ارتعد وارتجف وقال لهم : « وكيف بخبيب على الطريق » ! ! . .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

ماذا يبقى للأمة من كيان أو اطمئنان إذا هانت فيها الأرواح واستبيحت الدماء ؟ . . وأين يذهب أولئك الجبارون المريقون للدماء من غضب الجبار ، وانتقام الشعوب ، ولعنة التاريخ ، وسوء المصير ؟ . . وإلى أية هاوية تنحدر الأمة بسبب هذا الطغيان الأثيم . . . إن الشاعر العربى قد صور خال أمته حين الفتنة والضلال عن طريق الصواب ، فلم ينس أن يحدثنا عن تذكرها لروابط الأخوة ووشائج الرحم التى تدعو إلى الإصلاح والرحمة ، فقال :

شواجر أرماح تقطع بينهم   شواجر أرحام ملوم قطوعها
إذا احتربت يوماً ففاضت دماؤها   تذكرت القربى ففاضت دموعها !

ولقد فاضت دماء النفوس الزكية فى هذه الأمة ، فمتى تفيض دموع الحنان والرحمة والأخوة بينها ؟ . . ولقد اشتجرت رماح البغى والفتنة ، فمتى تستيقظ مشاعر المحبة والمودة فيها ؟ . . ولقد نزغ الشيطان بين أبناء الأمة الواحدة فمتى يهتدون ويبصرون نور الرحمن ومتى يتذكرون قول رسولهم : « المسلمون تتكافأ دماؤهم ، ويسعى بذمتهم أوتاهم وهم يد على من سواهم » . وسبحان من لو شاء لهدانا جميعاً إلى سواء السبيل ! . .

اللبن والخمر

الحمد لله عز وجل ، أحل الطيبات وحرم الخبائث ، وهو بعباده رءوف رحيم . أشهد أن لا إله إلا الله ، يحق الحق ويبطل الباطل ، ويهدى من يشاء إلى صراط مستقيم ، وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله، كان نبي الرحمة وسراج الأمة ، فصلوات الله وسلامه عليه ، وعلى آله وصحبه ، وجنوده وحزبه : « ومن تزكى فإنما يتزكى لنفسه ، وإلى الله المصير » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

هذا خبر صغير فى حيزه ومرآه ، ولكنه كبير فى قيمته ومعناه ، فقد نشرت إحدى صحفنا أن نادياً رياضياً مشهوراً فى انجلترا فاز فريقه بكأس ضخمة فى مباراة نهائية ، فأراد أعضاء الفريق أن يملأوا الكأس بالخمر ويشربوها ولكن إدارة النادى عارضت فى ذلك وقالت لهم إن الرياضة تهذيب واستجاب الأعضاء وتسابقوا فى شرب اللبن . ثم أضافت الصحيفة قولها إن الأجدر من هذا بالذكر أن كثيراً من اللاعبين عندنا يعتقدون أن شرب الخمر بطولة ورجولة ! . يحدث هذا فى أوربا المتمدنة المتحضرة ، ذات الجو البارد والتى تشهد الصقيع والثلوج فى فترات من العام ، فنتذكر مع الأسى والأسف ما يجرى فى أقطار أخرى عربية وإسلامية من شرب الخمور وتقديمها فى الحفلات الرسمية وغير الرسمية ، وإن كنا فى الوقت نفسه نرى أن مجلس الأمة فى الكويت قد أصدر أخيراً قراراً يحرم استيراد الخمر أو تعاطيها وبيعها وحيازتها إلا فى السفارات الأجنبية . ونرجو أن يكون هذا القرار بداية خير لقرارات وإصلاحات فى بلاد العروبة والإسلام ، تقضى على المنكرات والآثام ، وتعز

من شأن الفضيلة والأخلاق والدين الذى لا سعادة للدنيا إلا به : « صبغة الله ، ومن أحسن من الله صبغة ، ونحن له عابدون » .

والمؤسف أكثر من هذا أننا درجنا على تقليد الغرب منذ عشرات من السنين فى أغلب الأمور الضارة ، ومن وراء هذا التقليد نسينا عاداتنا وتقاليدنا ومبادئنا ، حتى على شخصيتنا المعنوية ومواريثنا التاريخية وآدابنا الإسلامية ، فنحن مثلا قد قلدنا أوربا فى جعل « الكأس » هدية النصر ، والكأس تشير إلى الخمر ، والخمر غول مهلك وآفة وشربها رذيلة يأباها الإسلام ، وقد كان من الممكن لنا أن نتخذ رمزاً آخر يكون عنواناً على الفوز وتكريماً للفائز ويتفق مع عقائدنا ومواريثنا ، وكان من الممكن أيضاً أن نجعل اللبن هو الشراب الطهور الذى نقدمه فى المناسبات السعيدة ، لا لأن أوربا قد فعلت ذلك ، بل لأن النبى صلوات الله وسلامه عليه هو الذى أرشدنا إلى هذا منذ مئات ومئات من السنين ، فقصة الإسراء والمعراج تروى لنا أن جبريل عرض على الرسول صلوات الله وسلامه عليه قدحاً من اللبن وقدحاً من الخمر ، وكأنه يريد أن يرى ما يفعل الرسول ، فاختار خاتم الأنبياء قدح اللبن وشربه ، فقال له جبريل إنك قد اخترت اللبن ، وهو الفطرة ، ولو اخترت الخمر لغويت وغويت أمتك ؛ كما أن الرسول هو الذى قال لأتباعه ما معناه : إذا أكلتم الثريد فقولوا اللهم بارك لنا فيه وأبدلنا خيراً منه ، وإذا أكلتم اللحم فقولوا اللهم بارك لنا فيه وأبدلنا خيراً منه ، وإذا شربتم اللبن فقولوا اللهم بارك لنا فيه وزد لنا منه ، فعلمهم أن يطلبوا لزيادة من اللبن دون ما سبقه ، لأن اللبن يحتوي عناصر الغذاء المطلوبة للجسم ، وقد قرر هذا محمد الذى علمه ربه وهداه ثم جاء العلماء بعد مئات السنين يفاخرون بأنهم قد اهتدوا إلى معرفة تلك الحقيقة

ومن المضحك المبكى أن كثيرين من السكيرين وفريقاً آخر من الجاهلين يقولون إن الخمر لم ينص على تحريمها فى القرآن ، فتكون حلالا ، وتراهم

يكابرون فى هذا مكابرة مثيرة ، مع أن القرآن الكريم قد حرم الخمر وصورها فى صورة الإثم والرجس والمنكر ، ولكنه على طريقه فى التشريع قد تدرج فى التحريم حتى وصل إلى التحريم القاطع الشامل ، لأن الخمر كانت شائعة متحكمة ، فلو جابه مدمنيها بالتحريم الكلى دفعة واحدة لعز عليهم تركها فى يوم وليلة ، ولذلك قال أولا : « ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه سكراً ورزقاً حسناً » والسكر هو ما يسكر ، والرزق الحسن هو الحلال الطيب مما يؤكل ويشرب ، والرزق الحسن فى الآية مقابل للسكر ، فكأن السكر ليس رزقاً حسناً ، بل هو شىء آخر قبيح ، ولذلك قال ابن عباس ترجمان القرآن فى تفسير الآية : تتخذون منه ما حرمه الله عليكم اعتداء منكم ، وما أحله لكم وفيه منفعة أنفسكم . ثم قال القرآن : « يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس وإثمهما أكبر من نفعهما » وهنا قرن القرآن الخمر بالميسر وهو القمار ، وهو بلية ومصيبة ، ثم قال إن الخمر فيها إثم كبير ، وإن كان الناس يرون فيها منفعة لهم وهى الاتجار والربح منها ، ولكن الإثم فيها أعظم من هذا النفع ، والعاقل يضحى بالنفع الضئيل فى الشىء لما فيــه من ضرر كبير ، ثم قال القرآن : « يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون » ؛ والصلوات خمس صلوات كل يوم وليلة والوقت بين الصلاة والأخرى لا يتسع للاقبال على الخمر وتعاطيها ، ثم السكر منها ، ثم التخلص من آثار سكرها ، ثم الاستعداد للصلاة والإقبال عليها ، فكأن هذه الآية كانت تريد الحيلولة بين المسلمين وبين شرب الخمر بطريق غير مباشر ، وبأسلوب حكيم يشعر القوم بأن الخمر منكر لا يجتمع مع فريضة الصلاة المتكررة كل يوم ، ثم جاء الحكم النهائى الصريح الفاصل ، فقال القرآن : « يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون ، إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم

العداوة والبغضاء فى الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم منتهون » .

ولقد ذكر القرآن الكريم هنا أكثر من نص ودليل على التحريم ، فوصف الخمر بأنها « رجس » أى قذرة وقبيحة ، وقد أطلق القرآن الرجس فى مواطن أخرى على لحم الخنزير ، وعلى الكفر ، وعلى الكافرين ، وقرن الخمر بالأنصاب والأزلام وهما من أعمال الشرك والوثنية ، وجعل الخمر من عمل الشيطان الغوى المضل المبين ، وقال فاجتنبوه » والاجتناب أبلغ من الترك ، لأن الاجتناب ترك مع ابتعاد ، وفى القرآن مواطن أمر فيها القرآن باجتناب الطاغوت وكبائر الإثم والفواحش ، وجعل القرآن اجتناب الخمر سبباً للفلاح فقال : « لعلكم تفلحون » ، ثم جعل الخمر سبباً لإيقاع العداوة والبغضاء ، وللصد عن ذكر الله وعن الصلاة ، فكيف يقال بعد هذا إن القرآن لم ينص على تحريم الخمر ؟ . ثم يأتى الرسول صلوات الله وسلامه عليه فيصف الخمر بأنها أم الخبائث وأم الكبائر ، ويلعن عاصرها وبائعها وشاربها وحاملها والمحمولة إليه ، ويقول فى حديثه الصحيح « كل مسكر خمر وكل خمر حرام » ، ولقد كان الحد يقام على شارب الخمر فى عهد الرسول وفى عهد الخلفاء الراشدين ، وكان المخمور يضرب بالسياط أو بالنعال ، ولعلهم كانوا يضربونه بالنعال لكى يشعر بأنه قد انحط إلى دركة الحيوان القذر ، فلا يليق به إلا النعال لما ولغ فيه من ضلال وخبال . والخمر تجعل متعاطيها يرتكب من الآثام والخطايا ما تضج منه الأرجاء ، وما يندم عليه حين يصحو ولات ساعة مندم ، كما أنه يرتكب المهازل المنكرة ، ولقد روى الإمام القرطبى فى تفسيره أن أحد السكارى جعل يبول ، ويأخذ بوله بيديه ليغسل به وجهه ، وهو يقول : اللهم اجعلنى من التوابين واجعلنى من المتطهرين . وأن مخموراً آخر

وقع فى الطريق بسبب سكره ، فجاء كلب وجعل يلحس وجهه ، والمخمور يقول له : أكرمك الله ! .

كما أن الخمر يتخذها المجرمون وسيلة لتحقق مآرب الجاسوسية المؤدية إلى خيانة الوطن ، لأن المخمور يفشى الأسرار ويهتك الأستار بلا وعى ولا ارعواء .

ولذلك قال عثمان بن عفان : « اجتنبوا الخمر فإنها أم الخبائث » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام .

إن الإسلام العظيم يقيم دعائم مجتمعه على الفضيلة ومكارم الأخلاق ، ويحارب الرذيلة والإثم فى كل مكان ، وإن من واجب أبنائه أن يفقهوا عنه ، وأن يهتدوا به ، وأن يتخذوا من تعاليمه وآدابه تقاليدهم وعاداتهم وأوضاعهم الفردية والجماعية لتتحقق شخصيتهم وتسمو حياتهم ، وبذلك يكونون أعزة فى أنفسهم ، قدوة لغيرهم ، وسبحان من لو شاء لهدى الناس جميعاً إلى سواء السبيل ، واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون ، إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون .

علة التحريف

الحمد لله عز وجل ، هو الحق الذى لا يصدر عنه إلا الحق : «ويريد الله أن يحق الحق بكلماته ويقطع دابر الكافرين » . أشهد أن لا إله إلا الله ، أنزل لعباده أطيب الحديث وأصدق الكلام : « ومن أصدق من الله حديثاً » ؟ «ومن أصدق من الله قيلا» . وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، الصادق الأمين ، ورحمة الله للعالمين ، فصلوات الله وسلامه عليه ، وعلى ذريته وآله ، وصحبه ورجاله ، والمقتدين بفعاله ومقاله : «أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام :

من الآفات الخبيثة الخسيسة التى تستشرى فى الناس ، استشراء الداء العضال أو الوباء القاتل آفة التحريف للقول والتبديل للكلام ، وكأن الحياة حينما تعتل أو تختل تدفع بفرق كبير من أبنائها إلى التخصص فى تشويه الحق وتزوير الباطل وافتراء الكذب وتحريف الأنباء ، وبذلك يفسدون العلاقات ويمزقون الروابط ، وينشرون العداوات ويشيعون الإفك والزور ، فتختفى الحقائق بين ظلمات الأباطيل والأساطير ، ومن هنا يبدون الشريف خسيساً ، والطهور قذراً ، كما يبدون اللئيم كريماً ، والأثيم فاضلا نبيلا ، وإذا أراد الشيطان أن يرسى دعائم مجتمع مستقر فاضل ، فما عليه إلا أن يدرب طائفة من أهله على الافتراء والتحريف ، فإذا القوة ضعف ، وإذا الاجتماع فرقة ، وإذا الحياة ضلال أو خبال .

ولو رجعنا إلى كتاب الله الأقدس — وهو القرآن الكريم — لوجدناه ينسب التحريف للكلام والافتراء فى الأحاديث إلى آلام خلق الله على الأرض وهم اليهود ، فكأن هذا التحريف سمة من سماتهم ، وملمح من ملامحهم ، فمن جنح إليه فقد تشبه بهم ، ومن تشبه بقوم فهو منهم ، ومن تهود فقد جمعه الطريق المظلم مع الذين عاقبهم الله على تحريفهم بأن حرف خلقتهم فجعل منهم القردة والخنازير وعبد الطاغوت . . . أليسوا هم الذين قال القرآن فيهم : «أفتطمعون أن يؤمنوا لكم وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ما علقوه وهم يعلمون » ؟ أليسوا هم الذين قال فيهم : «يحرفون الكلم عن مواضعه » وقال : « يحرفون الكلم من بعد مواضعه » . وقال : «فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمناً قليلا فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون » ، أي أن اليهود حرفوا كتاب الله المنزل عليهم ، وفسروه للناس حسب هواهم ، لينالوا بذلك عرض الدنيا ، وزادوا فيه ما يحبون ، وكتموا منه ما يكرهون فلهم الويل والعذاب الأليم ، وفى الآيات المتحدثة عن تحريف اليهود ما يشعرنا بأن الإيمان لا يمكن أن يتحقق أو يستقيم مع التحريف والافتراء ، لأن التحريف ذبذبة واضطراب والإيمان ثبات واستقرار ، ولعل هذا هو الذى جعل القرآن يقول : «ومن الناس من يعبد الله على حرف ، فإن أصابه خير اطمأن به ، وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه خسر الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين » أى هو على حرف من أمره ، فهو كالجبان فى طرف الجيش ، إن رأى غلبة ونصر أمن واستقر ، وإن رأى هزيمة وقهراً خاف وفر ، والعبادة السليمة تقوم على الإيمان والإيمان يقين فى القلب يصرح عنه اللسان ، والمنافق يحرف الوضع ، فهو يخفى النفاق فى صدره ، ويتفاخر بالإيمان فى قوله ، وهكذا شأن المفترى المحرف ، يعرف حقيقة الكلام وصحته ، ولكنه يزور ويكذب ، وهو من

لؤمه لا يبالى أن يلقاك بحديث ، وأن يلقى غيرك بضده . وقد يحرف لك الكلام عن غيرك اليوم ، وفى غد يحرف عنك الكلام لغيرك : ومذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء ، ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلا » .

والله تبارك وتعالى يعلم رسوله صلى الله عليه وسلم أن يكون متثبتاً من القول دقيقاً فى النطق ، بعيداً عن الانحراف فى القليل أو الكثير ، فيقول له فى شأن القرآن المجيد : « لا تحرك به لسانك لتعجل به ، إن علينا جمعه وقرآنه ، فإذا قرأناه فاتبع قرآنه ، ثم إن علينا بيانه » . أى لا تتعجل فى تلاوة القرآن قبل كمال استماعه ، والإحاطة بكل كلماته وحروفه ، فنحن سنجمعه لك فى قلبك وعقلك ، ونمكن منه لسانك ، فإذا حققنا لك كل هذا كان واجباً عليك أن تلتزم قراءته كما نزل ، دون أن تنقص منه شيئاً أو تزيد عليه شيئاً ، حتى يظل سالماً من التغيير والتحريف : « لا مبدل لكلماته وان تجد من دونه ملتحداً » .

ومن أشد ألوان التحريف خطراً وأثراً أن يعمد المحرف المبدل إلى كلام متماسك يرتبط بعض أجزائه ببعض ، فيمزق أوصاله ويقطع حباله ، ويذكر جانباً منه ويدع الآخر ، ويقسم لك بأغلظ الأيمان أنه حكى الكلام الذى حكاه بلا تبديل أو تغيير ، مع أنه بما أحدثه فيه من بتر قد نقل معنى الكلام من حال إلى حال ، فماذا تكون النتيجة مثلا لو أن قائلا قال : « لا تقربوا الصلاة » ولم يقل : « وأنتم سكارى » ؟ . وماذا تكون النتيجة لو أن قائلا قال : « فويل للمصلين » وترك الباقى وهو : « الذين هم عن صلاتهم ساهون » ؟ وفى الناس كثيرون يلجأون إلى هذا الأسلوب الشيطانى الأثيم ، أسلوب البتر والاقتصار على جزء من الكلام دون جزء ، موهمين أنهم لم يغيروا ولم يبدلوا ، وباقتصارهم على جانب من الكلام دون جانب يشوهون الحقائق ، ويفسدون

بين الناس ، ثم يمضون فى طريق النميمة والسعاية والوقيعة القائمة على كتمان الحق تارة ، وافتراء الباطل تارة ، والتزيد فى الرواية تارة ، والنمو فى الكلام تارة أخرى ، ولقد أمر الله تعالى نبيه بأن يستعيذ من مثل هذا حينما علمه أن يستعيذ «من شر النفاثات فى العقد» وهى النفوس النمامة التى تمزق روابط الأخوة والمحبة بين الناس بزور القول وباطل الحديث ، ولهذه النفوس حيل وطرق وأساليب فى تمويه الحق وسبك الباطل ، بحيث يغرون ويخدعون : « ومن الناس من يعجبك قوله فى الحياة الدنيا ويشهد الله على ما فى قلبه وهو ألد الخصام ، وإذا تولى سعى فى الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل والله لا يحب الفساد ، وإذا قيل له اتق الله أخذته العزة بالإثم فحسبه جهنم ولبئس المهاد » .

وإذا كنا نعلم أن الحياة لا تخلو من هذا الصنف الخبيث اللئيم الذى يبدل ويحرف ويفترى ، فإن من واجبنا أن نكون على جانب كبير من الحيطة والحذر ، فلا نصدق كل ناعق ، ولا ننخدع بكل ناطق ، بل نتثبت ونتروى ونراجع ونتحرى ، وإلا وقعنا فى آثام وأخطاء ، وقد علمنا الله ذلك منـــذ عهد بعيد ، حيث قال : « يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوماً بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين » . وما أجدر العاقل بأن يردد ولو بينه وبين نفسه كلما سمع نبأ شاذاً أو خبراً غريباً قول الأوائل : « ما آفة الأخبار إلا رواتها » . ورضوان الله على خامس الراشدين عمر بن عبد العزيز حين نصح الوالى بألا يتسرع فى الحكم إذا جاءه أحد الخصمين وأخبره بأن خصمه قد فقأ عينه ، فربما كان هذا الخصم الحاضر قد فقأ لخصمه الغائب عينيه معاً . . .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . يقول رسولكم : « الصدق طمأنينة والكذب ريبة » . ويقول : « إذا حدث رجل رجلا بحديث ثم التفت فهو

أمانة » ويقول : « المجالس بالأمانة » . ومعنى هذا أن الكلام الذى يسمعه يصبح عنده وديعة وأمانة تجب حراستها ورعايتها ، فإما أن يطويها الإنسان إذا طولب بالكتمان ، وإما أن يرديها بلا تحريف أو تغيير إذا كانت هناك مصلحة يقرها الشرع فى النقل والرواية ، وما أحوجنا إلى أن نصدق حين يقول ، ونثبت حين نروى ، ونتدبر حين نسمع ، ونحذر الافتراء فى القول كما نحذر المفترين من الناس، وسبحان من لو شاء لهدانا جميعاً إلى سواء السبيل ، واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون .

الخشية من التفريط

الحمد لله ، «وله الكبرياء فى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم » ، نشهد أن لا إله إلا الله ، يعلم حتى الخطرة والفكرة ، ويحاسب حتى على اللفتة والنظرة فيخسف بالخبيثين وينصف الطيبين « إنما تنذر من اتبع الذكر وخشى بالغيب فبشره بمغفرة وأجركريم » . ونشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، أخلص لله فؤاده ، وجعل عليه اعتماده ، فكان سيد المتقين وإمام المؤمنين ؛ فصلواتك اللهم وسلامك عليه ، وعلى آله وصحبه ، وجنوده وحزبه «الذين يخشون ربهم وهم من الساعة مشفقون» . . .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

إن الشعور بالمسئولية عاطفة كريمة ، تثور فى نفس الرجل التقى ، صاحب الضمير الحى ، فتقلقه دائماً وتذكره باستمرار ، ليؤدى ما يجب ، ويحذر ما لا يليق ، سواء أكان منفرداً بنفسه مجتمعاً بسواه ،لأن الله جل جلاله لا يغيب عن وجوده ودنياه : «وأسروا قولكم أو اجهروا به إنه عليم بذات الصدور ، ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير »؟ . ومن هنا كان ولاة السلف الصالح يعتبرون الولاية على الناس محنة لا منحة ، وتكليفاً لا تشريفاً ، يحاسبون أنفسهم فيشددون حسابها قبل أن يسألهم غيرهم ، وهم يراقبون ربهم قبل أن يراقبوا معاشريهم وأصحابهم ، ولعل أسرع شاهد يرد علينا فى ذلك هو عمر الفاروق الذى كان يقدر مسئوليته أدق تقدير ، فيقول : لو عثرت دابة بشط الفرات لخشيت أن يسألنى الله عنها يوم القيامة ، لماذا لم أمهد لهـا الطريق .. وظل طيلة خلافته تعباً قلقاً ، زاهداً مناضلا ، وأسعفته طاقته وعبقريته بما أراد من تصريف الأمور وقيادة الرعية على الوجه السليم الذى

أراد ، فلما صار فى أخريات أيامه وخشى ألا يقدر على ضبط الرعية وسياسة الجماعة كما كان يفعل بالأمس ، وخاف أن يؤاخذه ربه بسبب هذا الضعف ، جعل يدعو ربه فيقول : «اللهم كبرت سنى ، وضعفت قوتى ، وقامت حيلتى ، وانتشرت رعيتى ، فاقبضنى إليك غير مضيع ولا مفرط ، اللهم ارزقنى الشهادة فى سبيلك ، واجعل موتى فى بلد رسولك عليه الصلاة والسلام».

وفى هذا الدعاء القليل الجليل أحاط عمر رضى الله عنه بخلاصه ما يرجوه المؤمن الصادق . . . إنه يحس من نفسه ضعفاً جثمانياً ، يخشى أن يولد ضعفاً فى الهمة والعزيمة ، فيشكو إلى ربه كبر السن واضمحلال القوة ، وضياع الفتوة واتساع الدولة ، عليه ويسأله أن يتوفاه ويقبضه إليه وهو على صراط مستقيم وبالملة الصحيحة متمسك ، وللعدالة ناشر وحارس ، قبل أن يدركه ما يخشى معه التضييع أو التفريط ، وفى هذا التمنى يلوح الشعور بالمسئولية واضحاً ، ويتجلى الخوف من التبعة أخاذاً ، ولا عجب فإنما العبرة بالخواتيم ، ولقد جاء فى الأثر : «اللهم اجعل خير زمانى آخره ، وخير أعمالى خواتيمها ، وخير أيامى يوم لقائك» . وكم من مغتر ببداية براقة خدعه شيطانه فساقه إلى الوبال بعد طول النضال ، وكم من مثقل بأحمال جاءته الخشية فصارت به إلى أفضل حال ، ورضى الله عن ابن عطاء يوم قال : رب معصية أورثت ذلا وانكسارا خير من طاعة أورثت عزاً واستكباراً . . .

ثم ينتقل عمر إلى دعاء آخر . . ينتقل إلى مرتبة أخرى من مراتب التطلع إلى فضل الله ونعمائه ، فيقول فى دعائه : «اللهم ارزقنى الشهادة فى سبيلك» . . إذن فهو لم ينخدع ولم يغتر بما قدم من طيبات خالدات وباقيات صالحات ، مع أنه الفاروق الذى فرق الله به بين الحق والباطل ، وهو الذى جاهد فى الله حق جهاده ، وهو الذى ساس الرعية ودفع البلاء عن الأمة ، وسهر فى سبيل راحتها وسعادتها ، وفتح باسم الله الفتوح فى المشارق والمغارب . . . فيسأل الله

الشهادة فى سبيله لأنه يريد أن يموت موتاً عزيزاً كريماً ، فى ساحة ميدان أو بطعنة سنان ، لأن يموت ميتة رخيصة يحبها الجبان ، ولم ، ولم لا وهو يعلم ما ادخره ربه عزوجل للشهداء من حياة سامية ونعيم مقيم فى جواره الكريم ؟ « ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون » . .

ثم يسأل عمر ربه أن ينيله ثالث أمنياته ، وهى أن يجعل مماته فى بلد رسوله عليه الصلاة والسلام ، وهذا الرجاء يدلنا أولا على أن عمر كان عميق الحب لرسول الله عليه صلوات الله وكان حريصاً على هديه وسعية وأتباعه ، ولذلك هو يحرص على أن يكون قريب الصلة به دائماً حياً وميتاً ، ويدلنا ثانياً على أن عمر يود أن يموت فى أرض المدينة التى كانت دار الهجرة ومركز القيادة ، ومعقل النصر ومستقر الجماعة الإسلامية الأولى ، فهى يومئذ الأرض الطيبة الطاهرة التى لم تغير ولم تتبدل ، وهو فيها آمن من التغيير والتبديل وفى المدينة يقول الرسول صلى الله عليه وسلم : « إنما المدينة كالكير ، تنفى خبثها وينصع رطيبها » . وقال : « لا يصبر على لأوائها وشدتها أحد إلا كنت له شهيداً أو شفيعاً يوم القيامة » . ويقول : « لا يخرج أحد من المدينة رغبة عنها إلا أبدلها الله خيراً منه » . ويقول : « من استطاع أن يموت بالمدينة فليمت بها ، فإنى أشفع لمن يموت بها » . ويقول : « من أحدث فيها حدثاً ، أو آوى محدثاً ، فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين ، لا يقبل الله منه صرفاً ولا عدلا » .

وقال القاضى عياض رحمه الله : « وجدير بمواطن عمرت بالوحى والتنزيل وتردد بها جبريل وميكائيل ، وعرجت منها الملائكة والروح ، وضجت عرصاتها بالتقديس والتسبيح ، واشتملت تربتها على جسد سيد البشر ، وانتشر عنها من دين الله وسنة رسوله ما انتشر ، مدارس وآيات ، ومساجد جماعات وصلوات ، ومشاهد الفضل والخيرات ، ومعاهد البراهين والمعجزات ، ومناسك الدين ، ومشاعر المسلمين ، ومواقف سيد المرسلين ، ومثوى خاتم

النبيين ، حيث انفجرت النبوة ، وأين فاض عبابها ، ومواطن مهبط الرسالة ، وأول أرض مس جلد المصطفى ترابها : أن تعظم عرصاتها ، وتتنسم نفحاتها ، وتقبل ربوعها وجدراتها » ! ! . .

وإنها لنعمة عظمى على المرء أن يتحرى بنفسه ومستقره مواطن الفضيلة والإيمان وينأى بحسه ونفسه من مباءات الرذيلة والكفران ، ثم يقبضه الله إليه طاهراً مطهراً فى تلك البقعة النقية الصافية .

ويلوح لنا أن إخلاص عمر فى دعائه ، ثم قرنه القول الطيب بالعمل الصالح ، ثم إقباله على ربه بفؤاد المنيب وروح الخائف ، كان سبباً فى أن يستجيب الله دعاءه ويحقق له ما أراد فقبضه إليه وهو على أتم ما يكون من الصلاح والإصلاح ، والهداية والرشاد ، والتوفيق والسداد ، ثم كتب النهاية السعيدة الغالية ، فسقط شهيداً فى سبيل ربه ، وهو واقف بأكرم بقعة وهى المحراب فى مسجد الرسول عليه الصلاة والسلام ، وهو متأهب لأداء قربة من أعظم القربات فى الإسلام وهى الصلاة التى جعلها الله عماد الدين ، وحددها فارقاً بين المسلمين والكافرين ، وكان قتله بيد عبد مجوسى كافر ، لا بيد مسلم يمكنه أن يشاركه يوم القيامة فى قولة : لا إله إلا الله ، محمد رسول الله . . ثم ختم له ربه بالثالثة بعد صعود روحه ، فجعل مرقده بجوار حبيبه ومرشده محمد صلوات الله عليه ، وبجانبه ثالث طالما طعم معهما حلاوة الأخوة فى سبيل الله ، وهو أبو بكر الصديق عليه رضوان الله .

وقد سرت هذه الخشية من التبعة والحساب عليها من عمر الفاروق إلى ذريته ، فها هوذا مثلا حفيده عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه يروى التاريخ عنه أنه قام ذات ليلة يصلى ويبكى ويشهق ، ولما أصبح سألته زوجته عن ذلك لتتعظ به فقال لها :

« إنى نظرت إلى فوجدتنى قد وليت أمر هذه الأمة صغيرها وكبيرها ، وأسودها وأحمرها ، ثم ذكرت الغريب الضائع ، والفقير المحتاج ، والأسير المفقود ، وأشباههم ، فى أقاصى البلاد وأطراف الأرض ، فعلمت أن الله سائلى عنهم ، وأن محمداً صلى الله عليه وسلم حجيجى فيهم ، فخفت ألا يثبت لى عند الله عذر ، ولا يقوم لى مع رسول الله صلى الله عليه وسلم حجة ، فخفت على نفسى خوفاً دمعت له عينى ، ووجل له قلبى ، وأنا كلما ازددت لها ذكراً ازددت منه وجلا ، وقد أخبرتك ، فاتعظى الآن ، أودعى » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

ألا يعتبر بهذه الصورة الرائعة المؤثرة أولئك الذين يعبون من أوساخ الدنيا عبا بلا حل وبلا حساب ، وأولئك الذين يتخذون الحياة مغنماً نستحوذ بفجوره على السحت والباطل ، وأولئك الذين يتربصون بالضعفاء الدوائر ليبطشوا بهم حين يقدرون ، وأولئك الذين يتحملون الأمانات المختلفة فيضعونها أو ينتهكون حرماتها ، وكأنهم نسوا قول ربهم : «أفحسبتم انما خلقناكم عبثا وأنكم إلينا لا ترجعون » . فليسأل كل منا ربه أن يحييه ما دامت الحياة خيراً له ، وأن يميته إذا كان الموت خيراً له ، وأن يقبضه إليه غير مضيع ولا مفرط ، وأن يرزقه الشهادة فى سبيله ، وأن يدخله فى عباده الصالحين . واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون ، إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون .

أقول قولى هذا واستغفر الله لى ولكم ، سلوا ربكم التوفيق يستجب لكم .

وما يعلم جنود ربك الا هو

لله الحمد ، كثرت فينا مآثره ومحامده ، واستفاضت بيننا مكارمه وعوائده [« ولله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجه الله إن الله واسع عليم » . نشهد أن لا إله إلا أنت ، استترت ولكن دلت عليك أعلام الظهور ، وسموت ولكنك تعلم [خفيات الأمور ، والله بكل شيء محيط ، ونشهد أن سيدنا محمداً عبدك ورسولك ، أسلم إليك أمره ، وعلق بإرادتك نصره ، فكان سيد الفائزين ؛ فصلواتك اللهم وسلامك عليه ، وعلى الفروع الزكية النابعة من دوحته ، والغر الميامين وشيعته وصحابته ، والموفين بعهدهم من أتباعه وجماعته ، أولئك لهم البشرى ولهم جنات النعيم .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

حينما يدب دبيب اليأس فى النفوس ، وتستبد الريب والشكوك بالقلوب والعقول ، فيسيء الناس الظن ويضعف إيمانهم بمبادئهم وعقائدهم ، يركنون إلى الأرض قانطين ، ويخيل لقلتهم الصالحة أن جهودهم الفردية قليلة ضئيلة لا تغنى ولا تثمر ، وقد نسى هؤلاء أن فجاءات الأقدار لا تحصى ، وأن عجائب الأيام لا تقف عند حد ، وأن قوى الجبار لا ترى ، ولله جنود السموات والأرض ، وما يعلم جنود ربك إلا هو ؛ وأن المجهود مهما قل لن يضيع ، ومن يدرى فلعل الله يطوى ما لا يبديه ، فيجعل الخير كل الخير فيما نستقله ونزدريه ، ولعله فى أقل من لمح البصر يدنى الظفر ويهيء الثمر ، ويغير من حال إلى حال ؛ ولله فى خلقه شئون ، والله يعلم وأنتم تعلمون . أن الله يضع سره فى أضعف خلقه ، ويجعل من القليل عندما يريد كثيراً ، ومن الهزيل أمراً جليلا خطيراً ، فهذا كمال البشرية وسيد الإنسانية محمد

صلوات الله عليه ، تخذله مكة بصناديدها ولهاميمها ، ورءوس العرب قريش فيها ، وتثور عليه السيوف الباغية العمياء ،وتتربص به الجماعة الطاغية الحمقاء ولا ينصره جيش ولا قبيل ، ولكن غار مكشوف لا يحرسه جند أو سيوف ، ولكن تحرسه خيوط من نسيج العنكبوت « وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون » وتذود عنه حمامتان ببيضهما بدل قنابل البارود وكرات الديناميت وقذائف المدافع ، وتستره شجرة لينة خضراء نبتت على باب الغار بدل الحصون والمعاقل ، وقد وضع الله فى العنكبوت وبيض الحمام والشجرة الخضراء من سره وأمره ما حفظ به رسوله وصان ملته ، ومن قبل ذلك صان بيته وكعبته ، يوم جاء أبرهة ملك اليمن ، ممدوداً بقوة النجاشى ملك الحبشة ، مجهزاً بجيش طويل فى مقدمته ألف فيل ، ولم يستطع العرب دفاعاً أو ثباتاً فلاذوا بالفرار ، وأراد الله أن يدحر أولئك المتبجحين ، فلم يدحرهم بطائرات أو دبابات أو مصفحات ، بل أبادهم بطير صغار كالخطاطيف ، فى منقار كل طائر دقيق حجمه بين العدسة والحمصة ، فكان الحجر رغم دقته وصغره يخترق الرجل من رأسه ثم يخرج من دبره ، فشتت الله بذلك شملهم ، وأفسد سعيهم وأضل كيدهم ، وصيرهم هباء منثوراً ، «فجعلهم كعصف مأكول » .

واترك إن شئت باب الحماية والدفاع ،وتعال بنا إلى باب الانتقام وتعجيل العقاب على الآثام ، فإنك سترى ربك أيضاً يبعث القوة حيث لا تنتظر ، ويشد أسر الهين اللين فتنبهر ، وتؤمن بعد جحود ، وتوقن بعد بلبلة وارتياب إن الله لا يعجزه شىء فى الأرض ولا فى السماء ، وأنه المتصرف المطلق فى سائر الأشياء . .

ها هوذا سبحانه يعطى مملكة سبأ جنتين عن يمين وشمال ، ويهبها من القوة والمنعة ما تفخر به وتستطيل ، ثم تكفر بأنعم الله فيعجل لها النقمة ، ولكنه

لا يرسلها ممثلة إلا فى ألين الأشياء وأسهل المواد ، فى الماء السائل الذى لا تقبض عليه اليد بنعومته ورقته « فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العرم » وهكذا جعل الله الماء السائل فى قوة المحطم للجلمود والقاضى على الصخور ، وإن يكن فى موطن آخر قد جعل هذا الماء سبباً للنماء والبقاء والحياة : « وجعلنا من الماء كل شىء حى » كما أن قدرته الهائلة جعلت النقطة الواحدة من ماء الرجل صالحة لتلقيح ملايين الخلايا ، وتكوين ملايين الأجنة ، وإلى تدبر مثل هـذا يشير القرآن الكريم فى قوله : « وأنه خلق الزوجين الذكر والأنثى ، من نطفة اذا تمنى » » . حقاً : ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين .

وهذه عاد كفرت برسول ربها وعتت عن أمره ، « واتبعوا كل جبار عنيد » ، فجاءتهم اللعنة الكبرى من السماء ، ولكنها لم تأتهم فى قاذفات قنابل أو مناطيد جو أو كتائب جيش مزود بالسلاح والعتاد ، بل أتتهم ممثلة فى الريح « إنا أرسلنا عليهم ريحاً فى يوم نحس مستمر ، تنزع الناس كأنهم أعجاز نخل منقعر ، فكيف كان عذابى ونذر »؟ . والريح هو الهواء ، والهواء شىء رقيق ، لا يرى ولا يقبض عليه ، ومع ليونته ورقته وهبوبه جعله الله سبب نعمته ، ووهبه من سلطانه وقوته ، ما أبداه مظهراً لاقتداره وعظمته ، والله على كل شىء قدير ، ومثل الريح الدخان يبعثه الله على القوم اللئام ذوى الكفر والخصام ، فيريهم الأهوال ، ويذيقهم ما لا تذيقه الأحمال والأثقال ، حتى يبتلوا منه بأشد العذاب وأقسى العقاب ، مع أنه دخان قريب الشبه والحال من الهواء ، ولكنه أمر الله : « فارتقب يوم تأتى السماء بدخان مبين ، يغشى الناس هذا عذاب أليم ، ربنا اكشف عنا العذاب إنا مؤمنون » .

والتفت إن شئت من باب الانتقام والعقاب على الآثام إلى باب الوخز والزجار للاعتبار والاتعاظ ، فستجد الأمر هو الأمر ، والنظام هو النظام ،

فقدرة الله تخلق من الضعف قوة ومن القوة ضعفاً ، وتأتى الإنسان من حيث لا يحتسب ، فهؤلاء هم الناس مثلا يزرعون ويكدحون ، حتى ترى الأرض وقد أخذت زخرفها وازينت ، وظن أهلها أنهم قادرون عليها ، فيأتيها أمر الله ليلا أو نهاراً ،فيجعلها حصيداً كأن لم تغن بالأمس ، جزاء للكفران أو النكران أو الطغيان، ولا يتمثل هذا الأمر الإلهى المؤدب فى شىء عظيم أو جسيم ، بل فى دودة صغيرة أو حشرة حقيرة ، تخرب العامر ، وتنسف الأخضر ، وتترك الناضر قاعا صفصفا ، ويحاول الناس بأشخاصهم وأعوانهم وآلاتهم وفنهم ومسحوقاتهم أن يقضوا على الحشرة الحقيرة فلا يستطيعوا إلى ذلك سبيلا . وهل أتاك نبأ نمروذ بن كنعان الذى كفر بربه ، وخرج على نبيه إبراهيم ، وكان يدعو الناس إلى عبادة ذاته ، ويقتل الأطفال ، ويدين بالوثنية ، ويسرف فى البغى والطغيان ؟ . . لقد قضت عليه بعوضة (ناموسة) . فقد خرج بجنوده لمحاربة سيدنا إبراهيم ، فأرسل الله على نمروذ وجنوده البعوض فلدغت جيشه ، فمات من لدغها خلق كثير ، والتجأ الباقون إلى الدور ، وأغلقوا الأبواب وأسبلوا الستور ، فلم تغن عنهم شيئاً ، وانفرد نمروذ عن جيشه ، ودخل منزله ، وأغلقت الأبواب ، وأرخيت الستور ، واستلقى على سريره ، فجاءت بعوضة رقدت على لحيته ، فهم بقتلها ، فدخلت منخره وصعدت إلى دماغه ، فعذبه الله بها أربعين يوماً لا ينام ولا يطعم ثم شقت رأسه وخرجت وهى مثل الفرخ . فمات ! ! . .

وأحياناً لا يرى الناس فى هذا المقام سبباً كبيراً ولا صغيراً ، لأنه دق ولطف حتى لا يرى ، ألا نتذكر ما قصه القرآن عن أصحاب الجنة : « إنا بلوناهم كما بلونا أصحاب الجنة إذ أقسموا ليصرمنها مصبحين ولا يستثنون فطاف عليها طائف من ربك وهم نائمون فأصبحت كالصريم » .

فما هو ذلك الطائف الذى طاف وهل رآه أصحاب الجنة حتى يدفعوه ؟ . . . علم ذلك عند اللطيف الخبير .

وهؤلاء هم الناس يستطيعون مناعم العيش ، وينغمرون فى تيار اللذات ، وتطول منهم الأجسام وتتبجح الأفهام ، ويخيل إليهم أنهم كل شىء فى الوجود فإذا بجرثومة لا ترى أو ميكروب لا يبدو ، يسعى إليهم وهم لا يشعرون ، فيقلب صحتهم مرضاً ، وقوتهم ضعفاً ، وجمعهم شتاتاً ، وأمنهم خوفاً وهلعاً ، ويبذلون ما يبذلون ، ثم يظل الداء داء ، يتخير ضحاياه هنا وهناك ، لأن الله أراد ، وفوق تدبيرنا لله تدبير ! .

يا أتباع محمد عليه السلام . . .

ما معنى هذا كله ؟ معناه أن الله العلى القاهر يجعل من القليل كثيراً ، ومن الضعيف قوياً ، وليست العبرة عنده بالكميات ولكنها بالكيفيات ، وللناس المظاهر ولله السرائر ؛ فمن كان آخذاً فى منكر يظنه خفيفاً فقد ضل وغوى ، فرب ما رآه خفيفاً يكون عند الله فى مثقال الجبال : « وتحسبونه هيناً وهو عند الله عظيم » . ومن كان مستقلا لمجهود خير فردى يقدمه فلا يقنط ، فلعل بركة الله تنميه وتبسطه هنا وهناك : « والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم » . ومن كان قانطاً فليذكر أن الله يمد يده حينما تعجز أيدى الناس ، ولسنا بهذا نمنعكم من التفكير والشكوى والتحريض على الإكثار من الخير والتباعد عن المنكر ، ولكننا نريد أن تتذكروا حينما تضيق السبل أن يد الله هناك ، وأنها تستطيع أن تنقذ عندما تريد ، فخافوها وارهبوها ، واعملوا تحت لوائها على الدوام ، وتطلعوا إليها حينما تهب ريح اليأس ، واطلبوا منها النجاة ، واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون ، إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون .

وجعلنا من الماء كل شيء حي

لله الحمد ، دنا من الخلائق بلطفه ورحمته ، وعلا فوق الكائنات بقهره وقدرته ، سبحانه يختص برحمته من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم ، نشهد أن لا إله إلا أنت ، لا تنتهى أسرارك ، ولا تحصى آثارك ، فلك فى كل شىء آية تدل على أنك الواحد القهار ، ونشهد أن سيدنا ومولانا محمداً عبدك ورسولك ، لم يفته النظر حتى فى دقيق الأمور ، ولم تخطئه الفكرة فى الغيبة أو الحضور ، فصلواتك اللهم وسلامك عليه ، وعلى آله الصافين صفاء المزن فى عليائها ، وأصحابه الآخذين من الحكمة بلوائها ، وأتباعه الغامرين الأرض بريها ودوائها ، أولئك هم الساهرون اليوم الفائزون غداً يوم تقوم الأشهاد ، « تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً فى الأرض ولا فساداً والعاقبة للمتقين » .

يا أتباع محمد عليه السلام ...

أرأيتم هذا الماء الذى نشربه ونستحم به ونغسل ملابسنا وأدواتنا ، ونسقى منه دوابنا ، ونروى أرضنا ؟.. إننا نراه بين أيدينا كثيراً فى الأنهار والأنابيب والمغاسل،فنسرف فى استعماله،ونستخف بأمره وحاله ، ولا يفكر أحدنا فى أن يقف لحظة مفكراً متأملا ، متدبراً كيف خلق الله هذا الماء ، ولماذا خلقه ، وما هى قيمته وجدواه فى هذه الحياة ، وقد أصبحنا من غفلتنا الطويلة البعيدة الأمد ، نستخف بأمر هذا الماء ، ونعده شيئاً تافهاً لا يقام له فى الحياة ميزان ، وذلك لأنه كثر وعم وشمل ، والنعمة الجليلة إذا شاعت فقدت روعتها وبهجتها بين الغفلة الجهلة من بنى الإنسان ! .. وهذا الماء

الضائع المقدار والمكانة بيننا هو الذى جعله الخالق العظيم أصل الوجود والحياة، وأحيا به الأرض بعد موتها ، وأخرج به من الثمرات رزقاً لكم ، وأخرج به نبات كل شيء : « ونزلنا من السماء ماء مباركاً فأنبتنا به جنات وحب الحصيد» وقد تكرر ذكر الماء وسرد آياته وثمراته فيما يزيد عن ستين موضعاً فى القرآن الكريم ، ومن تلك الآيات قوله عز من قائل : « وجعلنا من الماء كل شيء حي » . وهى كما ترون آية قصيرة نطالعها فى المصحف أو نسمعها من القارىء ثم نمر بها عجلين غافلين ، وقد يكتفى بعضنا فى فهمها بأن الله قد خلق من الماء المعروف كل كائن قابل للحياة والنمو من الإنسان والحيوان والنبات ، دون أن يكلف نفسه مشقة بالتصور لمظاهر هذا الخلق العجيب فى مجالى الطبيعة الحافلة بشتى المشاهد والصور ، ولو أنه فعل لرأى كيف تنطوى هذه الآية الكريمة على الكثير الغزير من المعانى والافكار . . .

هذا هو الماء مثلا يلقيه الله العلى الكبير ، والحكيم القدير ، على الأرض الخامدة الهامدة فإذا بها وهى جماد وتراب تحيا وتخضر ، وتتجدد وتنضر ، ليثبت الخالق بذلك أنه قادر على أن يحيي الموتى : « وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج ، ذلك بأن الله هو الحق ، وأنه يحيي الموتى ، وأنه على كل شيء قدير » . . وتتناول الحبة من الحبوب ، أو البذرة من البذور بين يديك فتراها يابسة جافة ، متماسكة غليظة ، ليس فيها أى مظهر من مظاهر الحياة أو علامة من علامات النمو ، ولكنك تسقيها بالماء ، أو تلقيها فى الأرض الرطبة ، فإذا بالحبة الصلبة الجافة تستحيل بقدرة قادر وجبروت قاهر إلى خضرة زاهية ، ونماء ملحوظ ، وارتفاع فى العلاء ، يحير ألباب العقلاء . . . وإنك لترى الأزهار مغلقة أو ذابلة فوق أغصانها ، فإذا ارتوت أو أصابها طل الفجر أو ندى الصباح ، تفتحت وشمخت ، ونفحت بالطيب والشذا والعبير ، وحتى حين تقطع الزهرة ويمنع

عنها اتصالها بشرايين غذائها ومسالك مائها تذبل وتميل إلى الفناء ، فلو رشت بالماء أو أمدت به لعادت رغم انقطاعها عن أصلها إلى النضرة والبهاء .

والحيوان من الدواب العجماء إذا أصابه الظمأ يكسل ويلهث ، ويميل إلى الإعياء ، ولا يتمكن من أداء وظيفته فى معاونة الإنسان على ضرورات حياته ، ولو استمر انقطاع الماء عنه لنفق ومات ، ولكننا إذا أمددناه بالماء نشط وعاد إلى أداء ما وكل إليه من عمل فى حركة وفتاء . . . والإنسان نفسه يصيبه ما يصيبه من عناء العمل أو تعب الجهاد أو إرهاق الكفاح من أجل الحياة ، فتنكسر أجفانه وترتخى أعضاؤه ، ويتحلل جسمه ويتداعى إلى الكسل أو النوم أو الإعياء ، فإذا توضأ الإنسان أو غسل أطرافه أو استحم أو غمر جسمه بالماء فى نهر أو بحر خرج بفضل الماء نعمة الله الكبرى نشيطاً قوياً ، صالحاً لمعاودة الإنتاج ، ومن هنا كان الوضوء سلاح المؤمن لأنه يحفظه وينشطه ويقويه ويبرئه من الذنوب ويقيه من الآفات ، ولذلك قال الرسول عليه الصلاة والسلام : « من توضأ فأحسن الوضوء خرجت خطاياه من جسده حتى تخرج من تحت أظفاره » .

والثوب الملطخ والبيت الوسخ والحائط الملوث والآنية القذرة والمجرى الآسن والأرض الخبيثة ، كل هذا يسوء بمنظره ووساخته . فإذا جاءه الماء أحياه وأعلاه ، حتى الرمم فى الأجداث والأشلاء فى القبور التى يأكلها الدود ويأتى عليها الثرى تحيا بالماء ، فقد ورد فى بعض الآثار أن ماء ينزل حين البعث بإذن الله من السماء على هذه القبور العتيقة البالية ، فإذا بهذا الماء السائل الرقيق اللين يفعل فعل السحر ويؤثر تأثير الإكسير فينبت من هذه الأجداث أصحابها أحياء كما كانوا يدرجون فى مختلف الأرجاء ! .

هذا هو الماء الذى بين يديك ، والذى تراه كثيراً فتسرف فيه ولا تهتم

به، ولا تلتفت إلى العبر المنطوية فى نعمة خلقه .. إنه جليل القيمة عظيم النفع، جعل الله منه كما رأيت كل شىء حى ، فهل فكرت أيها الإنسان أن ترعى للماء حرمته فلا تغرك كثرته فتلفتك عن جلاله وعظمته، بل تستعمله فى حكمة وتدبير ، مستغلا له فيما ينفع ويفيد ، شاكراً لله أنعمه راجياً منها المزيد ؟ !

هل فكرت أن تطهر جسمك بماء الجداول والأنهار ، وقلبك بماء العظة والاعتبار ، وعقلك بماء التبصر والتدبر ، ونفسك بماء التقوى والهدى ، وبيئتك بماء التقويم ، ودنياك بماء النبل فى الخلق والشمم فى الطباع ، حتى تكون بذلك أحد الملائكة الإنسانيين الذين يمشون بين الناس مطمئنين ، لا يهولهم فزع الدنيا ، ولا يحزنهم الفزع الأكبر ، بل هم عند ربهم عباد مكرمون ؟ ! .

يا أتباع محمد عليه السلام . . .

كونوا كالماء الرائق فى صفائه فهو بلا لون ، وفى لينه فهو سهل رقة ، وفى عذوبته فهو رى العطشان ومطلب الظمآن ، وفى جريانه إلى كل جهة يريد لها الخير والبر والرى ، وفى قوته برغم رقته ، فالماء الهين اللين العذب النمير يفتت الصخور ويحطم الجلود ، وإنكم لترون فى الشلالات الهادرة والأنهار الزاخرة والأمواج المزمجرة والتيارات القاهرة عبرة وعظة . . . واتخذوا من الماء أيضاً سلاحاً سهل الاستعمال يطهر أبدانكم ويهدى عواطفكم ويخطو بكم نحو طهارة الباطن بعد طهارة الظاهر ، والله يحب المتطهرين ، وتذكروا أن الله يريد بإشاعة الماء فيكم وتسهيل استعماله بينكم أن يطهركم به بكل طريق ، وبذلك يربطكم بمصدر هذا الماء وهو السماء ، وما اتصلت أسباب عبد بأسباب السماء إلا فاز بعز الدنيا ونعيم البقاء ، واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون ، إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون . أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم ، سلوا ربكم التوفيق يستجب لكم .

ولله المشرق والمغرب

الحمد لله جل جلاله ، هو بديع السموات والأرض ، الإله الخالق والآمر تبارك الله رب العالمين . أحمده سبحانه وأشهد أن لا إله إلا الله ، بيده ملكوت كل شيء قدير ، وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، نظر فاعتبر ، وتدبر فادكر ، وكان خير العالمين فصلوات الله وسلامه عليه ، وعلى الطاهرين من عترته ، والمخلصين من صحابته والصادقين من أهل ملته ، الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ، ألا بذكر الله تطمئن القلوب .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

لا تزال الشكوى مرة من جهل شبابنا بالدين ، وإعراضهم عن مائدة القرآن الكريم ، وبعدهم عن كتاب الله عز وجل ، وما زال هذا الجهل يخلف عواقبه السود بين هؤلاء ، ويسيء إلى كرامة الإسلام بين أهله ، ويسيء إلى سمعته بين الناس ، وهذا شاب مسلم يقبل نحوى ضائعاً حانقاً يقول : إن القرآن يتناقض مع نفسه ، أو هكذا يبدو لى . فعاجلته بالسؤال : أهذا شيء أدركته بنفسك وبختك ، أم شيء قيل لك أو دس عليك ؟ . فقال : بل شيء قيل لى وليس المهم أن يكون قد قيل لى أو أدركته بنفسى المهم أن التناقض موجود فى القرآن . قلت له : وأين ؟ . أجاب : إن القرآن يحدثنا مرة عن رب المشرق والمغرب ، ثم يحدثنا مرة أخرى عن رب المشرقين ورب المغربين ، فكيف نوفق بين هذا وذاك ؟ . فقلت له — أثير انتباهه أكثر من ذلك : إن القرآن لم يكتف بذلك ، بل حدثنا عن رب المشارق والمغارب . فقال الشاب مستغرباً لقد زادت المشكلة تعقيداً ، وزاد التناقض وضوحاً ، فأجبته : ليست المشكلة إلا فى عقولنا الضيقة ، وليس التناقض إلا فى فهمنا القاصر . وإليك بيان ذلك .

إن الله تبارك وتعالى يقول فى سورة البقرة : « ولله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجه الله إن الله واسع عليم » ويقول فى سورة البقرة أيضاً : « قل لله المشرق والمغرب يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم » ويقول : « رب المشرق والمغرب لا إله إلا هو فاتخذه وكيلا » والمشرق حيث تطلع الشمس وتضىء ، والمغرب حيث تختفى الشمس وتغيب ، ومقتضى ربوبية الله للمشرق والمغرب أنه مالك لهما ولما بينهما من الموجودات ، وأنه المتصرف فيهما وفيما يحويانه من أشياء . فهو إذن مالك يؤتى الملك من يشاء، وينزع الملك ممن يشاء ، فلا يليق أن يمجد غيره ، ولا يصح أن يعبد سواه، وهو فوق الجميع ، ومع الجميع ، وهو فى كل مكان وإن لم يحوه مكان : « فأينما تولوا فثم وجه الله إن الله واسع عليم » .

ثم يقول كتاب الله الحكيم فى سورة الرحمن : « رب المشرقين ورب المغربين . فبأى آلاء ربكما تكذبان » ولا تناقض بين هذه الآية والآية السابقة فالآية الأولى تتحدث بأسلوب عام عن جهتى المشرق والمغرب اللتين يعبر بهما عما بينهما وهو يشمل الأرض كلها . وأما آية المشرقين والمغربين فتتحدث عن ملك الله الواسع بشىء من التفصيل . والمشرقان هما مشرق الشمس ومشرق القمر . والمغربان هما مغرب الشمس ومغرب القمر ، أو المشرقان هما مشرق الشمس شتاء والمغربان هما مغرب الشمس صيفاً . ومغرب الشمس شتاء . ومن الظاهر للعين أن المشرق والمغرب يختلفان فى الصيف والشتاء ، وكأن هذا التفصيل لفت للأبصار والبصائر إلى سعة ملك الله . وانفساح مداه ، وتعدد مظاهره ورؤاه . ولذلك جاء بعد آية المشرقين والمغربين قول الله جل علاه : « فبأى آلاء ربكما تكذبان » ؟

ثم يقول كتاب الله فى موضع آخر سورة المعارج : « فلا أقسم برب المشارق والمغارب إنا لقادرون على أن نبدل خيراً منهم وما نحن بمسبوقين » .

ويقول فى سورة الأعراف « وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها » ويقول فى سورة الصافات : « رب السماوات والأرض وما بينهما ورب المشارق » والمشارق والمغارب معناها المشارق والمغارب للكواكب العديدة والنجوم الكثيرة وفى طليعتها الشمس والقمر ، كما أنها قد تعنى المشارق والمغارب المتوالية على بقاع الأرض ، وهى تتوالى كل لحظة ، ففى كل لحظة أثناء دوران الأرض حول نفسها أمام الشمس يطلع مشرق ويختفى مغرب ، والتعبير بكلمتى المشارق والمغارب — وهما جمع — يوحى بضخامة الوجود ، وعظمة الخالق المبدع لهذا الوجود ، ففى كل ناحية مشرق ، وبعد كل مشرق ومغرب ، والضوابط دقيقة ، والنظام محكم ، والسيطرة الإلهية شاملة ، فتبارك الله أحسن الخالقين . «إنا كل شيء خلقناه بقدر » .

وروى أن المراد بالمشارق هو مشارق الشمس طول السنة ، وللشمس كما يقول المفسر البيضاوى ثلاثمائة وستون مشرقاً فى السنة ، تشرق كل يوم فى واحد منها ، وبحسبها تختلف المغارب ، فيكون هناك مغارب بعدد المشارق والخبراء والعلماء يقولون إن الله خالق السموات السبع وما بينهما من مختلف الأجرام السماوية وكواكبها ، وهو القيم المهيمن كذلك على مواضع شروق الشمس وشروق سائر النجوم ، فهو الذى يظهرها كل يوم فى موضع من الأفق الشرقى ، يختلف عن الموضع الذى أظهرها منه فى اليوم السابق ، وذلك بمناسبة فى النظام الشمسى من قوانين ، حيث تدور الأرض حول محورها ، من الغرب إلى الشرق كل يوم مرة ، وتجرى فى فلكها حول الشمس فى الوقت نفسه ، وكلما غيرت الأرض موضعها فى رحلتها على القبة السماوية بدت مشرقة فى مواضع مختلفة . وتستمر رحلة الشمس والقمر ، فتنبنى عليها حركة الليل

والنهار ، ومن وراء تتابع الليل والنهار تجرى الحياة الواسعة ، وينشط الأحياء الذين لا يعلم إلا الله أصنافهم وأعدادهم ، وتتسع الحركة الإنسانية الهائلة ، ونتذكر نحن — إن كنا من أهل الذكرى هذه الدقة فى نظام الكون ، وهـذه الروعة فى تدبيره وتسييره ، فتذكر قول الحق جل جلاله : « والشمس تجرى لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم ، والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم . لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل فى فلك يسبحون » . وكان الحق جل جلاله يريد — وهو أعلم بمراده — من تحديثنا عن مشاهد كونه ومظاهر ، إبداعه ، أن يوقد فى صدورنا شعلة الإيمان به ، فترتفع إلى حماه ، ونهذب أنفسنا استعداداً ليوم لقاه « والشمس وضحاها ، والقمر إذا تلاها ، والنهار إذا جلاها ، والليل إذا يغشاها ، والسماء وما بناها والأرض وما طحاها ، ونفس وما سواها فألهمها فجورها ، وتقواها ، قد أفلح من زكاها ، وقد خاب من دساها » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام ... هكذا حدثنا القرآن عن رب المشرق والمغرب ، ورب المشرقين والمغربين ، ورب المشارق والمغارب ، دون تناقض أو اختلاف . « ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً » فلنقبل على القرآن مأدبة ربنا لنزداد صلة برب المشرق والمغرب ؟ ورب المشرقين والمغربين ورب المشارق والمغارب ، وسبحان من لو شاء لهدى الناس أجمعين .

موجبات الأمن

الحمد لله عز وجل ، يزكي عباده الشرفاء بالكرامة ، ويركس اللئام الأخساء فى الخيبة والندامة ، وهو أعدل العادلين ، أشهد أن لا إله إلا الله ، هو القائل فى الأخيار من عباده : « الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله » وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، صان حقوق ربه ، فصانه الله ورعاه ، فصلوات الله وسلامه عليه ، وعلى آله وأصحابه ، وأتباعه وأحبابه : « أولئك يسارعون فى الخيرات وهم سابقون » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام :

إنما تستقيم الحياة ويستقر بالأمن ، لأن الأمن أمان واطمئنان ، وكمال يتحقق بصدق الإيمان ، ولذلك قال الله عز من قائل : « الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون » وخليل الرحمن إبراهيم عليه الصلاة والسلام قد أشار إلى هذا إشارة لها دلالتها وعبرتها : « قال ابراهيم رب اجعل هذا بلداً آمناً وارزق أهله من الثمرات من آمن منهم بالله واليوم الآخر » ، فهو قد جمع بين الأمن والإيمان ، فجعل المؤمن هو الذى يستحق أن يكون آمناً ، ولا عجب فى ذلك ، فإن معنى الأمن ومعنى الإيمان متقاربان ، فالأمن اطمئنان واستقرار ، والإيمان عماده اطمئنان القلب وثبات الاعتقاد ، وأمن الفرد جزء من أمن قومه ، لأن الفرد جزء من مجتمعه ، فإذا لم يتحقق أمان المجموع لم يتيسر للفرد أن ينعم براحة الهدوء والاطمئنان ، ولذلك كان من أوجب الواجبات وألزم اللوازم أن يتعاون الفرد والمجموع على صيانة الأمن الشامل للجميع ، وأن يحرص كل فرد على التزام الحدود والتبعات التى يستوجبها توطيد هذا الأمن ليتحقق الأمام العام ، فالفرد دائماً فى خدمة

المجموع ، والمجموع من واجبه أن يحمى الأفراد ، والله جل جلاله يقول : « وتعاونوا على البر والتقوى ، ولا تعاونوا على الإثم والعدوان ، واتقوا الله إن الله شديد العقاب » .

وتوطيد هذا الأمن يستلزم أن يؤدى كل فرد واجبه ، وأن يصون أمانته وأن يرعى كل ما يؤكل إليه حق الرعاية ، فإنه راع وهو مسئول أمام الله والناس عن رعيته ، والقرآن يصف المؤمنين الصادقين بقوله : « والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون » . وهناك كثير من الناس يظنون أن المراد بالأمانة هو ما يودع لدى الإنسان من ودائع مادية ، وهذا ظن قاصر ، لأن الأمانة تشمل كل أمر يتحمل الإنسان تبعته ، فيجب أن يجعل هذا الأمر مصوناً محفوظاً ، يؤديه إلى أهله بحق وصدق ، وبعناية ورعاية ، وقد يكون هـذا بعض ما نفهم من قول الحق سبحانه : « إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها » ، ومن أقوى ما يساعد على هذه الصيانة وهذا الأداء أن يطوى الإنسان فى عمله وقوله وتصرفاته كل ما يحتاج إلى طى وكتمان ، من المعلومات والأسرار والأمانات ، وما يتعلق فيها بيمن قومه بوجه خاص ، وقد روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « استعينوا على قضاء حوائجكم بالكتمان » وكم من أمور ذات مكانة وقيمة ، كان الجهر بها أو التحدث عنها سبباً من ضياعها أو نقصانها ، أو علم الأعداء بها من قرب أو من بعد ، ولو أنها بقيت فى الكتمان حتى بلغت مبلغها المأمول منها ، لحققت الكثير من الثمرات ، وجنبت الكثير من العثرات .

ولقد ورد فى السنة المطهرة هذا النص البليغ وهو « المجالس بالأمانة » وهو نص يعلمنا أن كل إنسان يشترك فى عمل من الأعمال ، أو يحضر مجلساً من المجالس ، أو يستمع إلى شىء من التفاصيل المتعلقة بأمور لها قيمتها ودقتها ،

يجب عليه أن يكون أميناً كتوماً لها ، لا يذيع ما سمعه ، ولا يحرف الكلم عن مواضعه . لأن المجلس الذى حضره قد أصبح أمانة بين يديه بكل متعلقاته ؛ ولقد حدث على عهد الرسول صلى الله عليه وسلم أن بدرت إشارة ضئيلة من أحد المسلمين إلى أمر لم يؤذن له فى الحدث عنه ، فجاء قول الله تعالى منذراً ومعاتباً أشد العتاب فقال : « يا أيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول وتخونوا أماناتكم وأنتم تعلمون » . وليس من شأن المؤمن أبداً أن يكشف مطوياً يكون من المصلحة أن يبقى مطوياً ، ولا أن يتحدث فى أمر ليس من اختصاصه وليس من الخير الحديث عنه ، ولا أن يحاول الاطلاع على ما ليس من شأنه أن يطلع عليه أو يتدخل فيه ، وحسبنا أن نتذكر أن القرآن المجيد قد تحدث عن المنافقين المجرمين ، فقال عنهم فيما قال : « وإذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف أذاعوا به » فليس لهؤلاء المنافقين إلا أن يتطفلوا على الأنباء والأسرار ، يقتاتون بها ويطعمون غيرهم منها فيشيعون الفتنة ، وينشرون البلبلة ، ولهم من وراء ذلك مآرب شيطانية يلقون عليها من الله أشد العقاب ، وإذا كان المؤمن مأموراً من خالقه جل جلاله أن لا يتحدث عن أمر لا يناسبه التحدث عنه ، فإنه فى الوقت نفسه مأمور بأن لا يفتح أذنه على أقاويل أو أباطيل يرددها المحرفون للكلم عن مواضعه ، أو الراغبون فى إشاعة الاضطراب بين الناس ، والله تعالى قد قال : « يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوماً بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين » . وكأن الآية الكريمة ترمز إلى أن من يهرف بما لا يعرف من الأنباء ، أو يعمد إلى التحريف والافتراء ، يكون من الفاسقين ، وأن من شأن المؤمن أن يتروى ويتثبت ، فلا يتبع كل ناعق ، ولا ينخدع بكل ناطق ، وهذا أبو بكر الصديق رضى الله عنه ، يأتيه أبو جهل ليقول له إن الرسول صلى الله عليه وسلم يقول إنه قد أسرى به من مكة إلى بيت المقدس ، فماذا كان جواب أبى بكر ؟ كان جوابه جواب

الرجل العاقل الرزين المثبت الذى لا يستقى أخباره إلا من مصادرها الصادقة الأمينة . قال لأبي جهل . إن كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال هــذا فقد صدق ، ما جربت عليه كذباً قط . فكأن أبا بكر لم يقم وزناً لكلام أبي جهل ، بل علق تصديقه للخبر على أن يكون الصادق الأمين صلوات الله وسلامه عليه هو الذى قال هذا الكلام .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام .

العاقل هو الذى يجعل لسانه من وراء عقله ، فلا ينطق بالكلمة قبــل أن يزنها ويعرف نتيجتها وأثرها ، وبهذا الاتزان يعقل لسانه عن التحدث بكثير من الأشياء ، والأحمق هو من يجعل لسانه أمام عقله ، فهو يطلقه بالثرثرة دون رؤية أو تعقل ، وهو لا يدرى أن الإنسان قد يتكلم الكلمة لا يلقى إليها بالاً فإذا هى تؤدى إلى أسوأ العواقب وأوخم الآثار ، ورضوان الله على عباده العقلاء الأطهار الذى قال فيهم : «وهدوا إلى الطيب من القول وهدوا إلى صراط الحميد» . واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون ، إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون .

عبيد الدرهم والدينار

لله الحمد ، هو القائم على كل نفس بما كسبت ، الرقيب على كل جارحة يؤاخذها بما اجترحت ، المطلع على ضمائر القلوب لا يخفى عليه ما هجست ، ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير ؟ . نشهد أن لا إله إلا أنت ، لا يعزب عن علمك مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السموات ، وتستوى عندك الظواهر والخفيات ، وأنت العليم بما فى الصدور ، ونشهد أن سيدنا ومولانا محمداً عبدك ورسولك ، استخف بمتاع الدنيا وهو على نيلها قدير ، ولم يستعبده المال وهو بربحه بصير ، وجعل الغنى فى النفوس والقلوب ، لا فى الأيدى والجيوب ، فصلواتك اللهم وسلامك عليه ، وعلى آله الهداة الأبرار ، وأصحابه المجاهدين الأطهار ، وأتباعه المتقين الأخيار : « أولئك لهم عقبى الدار ، جنات عدن يدخلونها ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم والملائكة يدخلون عليهم من كل باب ، سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار » .

يا أتباع محمد عليه السلام . . .

لاشك أن المال زينة الحياة ، وأنه محبوب مطلوب ، وأن الإسلام لا يمنع من طلبه عن طريق حله وطيبه ، بل إنه يحرض على كسبه وحسن التصرف فيه ، لتقضى به الحقوق وتؤدى الواجبات وتصان الحرمات ، ولذلك قال الرسول صلوات الله عليه : نعم المال الصالح للرجل الصالح . ولكن الممزق لنياط القلوب من الأسى أن أكثر الناس اليوم أصبحوا عبيداً للدرهم والدينار ، لا يعرفون فى الحياة ميزاناً غير ميزان الفضة والذهب ، ولا يرفعون شخصاً ولا يخفضونه إلا بحسب امتلاء كيسه أو خلائه ، ولا يعاشرون أحداً أو يقطعونه

ولا يقبلون عليه أو يعرضون عنه ، إلا بمقدار ما عنده من خير أومنفعة . . .
وأما الدين والخلق والعلم والأدب والإخلاص ، فهذه أشياء قد يحمدونها بألسنتهم ، وقد يشكرونها بعباراتهم فقط ، ثم لا شيء وراء ذلك من تمجيد أو تقدير ! . . .

ولقد طغت هذه الصبغة المالية المادية القائمة على كل معنى جميل من معانى الحياة ، وعلى كل رابطة شريفة من روابط الإنسانية ، وعلى كل خلق كريم من أخلاق المروءة ، بل وأفسدت مذاق أفضل صلة فى الوجود ، وهى صلة الزوجية والشركة الدائمة التى تعقدها يد الرحمن بين الرجل والمرأة ، فترى كل فتاة اليوم لا تريد ولا تطمع إلا فى الشاب صاحب الدار والعقار ، أو كانز الفضة والذهب النضار ، ولا تسأل بعد هذا عن أصله ولا عن خلقه ولا عن مستقبله ، ولا عن عزيمته ونشاطه . . . والفتى كذلك ، لا يسأل حين الزواج عن ذات الدين والخلق ، ولا صاحبة العلم والحجاب ، بل يسأل عن مبلغ ما لها من رصيد ، أو ميراث منتظر غير بعيد ، ومن هنا نشأت أزمة الزواج ، وتمت كذلك زيجات سريعة كان عمادها الغنى والمال ، فما تمت حتى انفضت وتقوضت ، إذ كيف تدوم وكل من الطرفين همه الانتهاب وسوء الاستغلال ؟ وكيف تتأصل علاقة بين زوجين وما اجتمع جسداهما إلا على شرعة الابتزاز والاتجار ؟ .

ولعله مما يساق هنا مساق العظة والاذكار ، ما رووا أن رجلا كان عنده أربع بنات ، بلغن مبلغ الزواج ، وفيهن الجمال والخلق ، ولكن الوالد فقير ، فمن ذا الذى يسعى إليه خاطباً ؟ . . وظل الرجل ببناته كأنهن حمل ثقيل على كتفيه ، حتى أقبلت عليه الدنيا لبعض الأسباب الطارئة ، فاغتنى وامتلك عمارتين ، وهنا سول له شيطان الاحتيال أمراً ، فباع العمارتين إلى كبرى بناته بيعاً صورياً ، وسجل البيع باسمها رسمياً ، وأشاع ذلك من طريق غير مباشر

بين الناس ، فتكاثرت الخطاب ، ولم يطل الوقت حتى أصبحت العانس زوجة لموظف كبير فى إحدى الشركات ، وبعد حين اصطحب الأب ابنته المتزوجة دون علم زوجها إلى المحكمة ، وهناك باعت العمارتين بيعاً صورياً أيضاً إلى شقيقتها التى تليها ، وأعيد تمثيل الدور متقناً مع الثانية والثالثة والرابعة ، فانتقلن من بيت الأب الحائر إلى روض الزوجية الناضر ، ولم يكتف الوالد المخادع الماكر بذلك ، بل سارع — بعد أن اطمأن إلى زواج بناته الأربع من زواج ملحوظين لا بأس بمراكزهم المادية والاجتماعية — فاسترد العمارتين سراً من صغرى بناته ، ثم انكشف السر بمرور الأيام ، فهاج الأزواج الأربعة ، وأخذوا يلعنون ويشكون ، والفتيات صامتات ، والأب هازىء ساخر ، وصدق الأثر الذى إذا لم يصح حديثاً صح حكمة بالغة : «من تزوج امرأة لعزها لم يزده الله إلا ذلا ، ومن تزوجها لمالها لم يزده الله إلا فقراً ، ومن تزوجها لحسبها لم يزده الله إلا دناءة ، ومن تزوج امرأة لم يرد بها إلا أن يغض بصره ، ويحصن فرجه ، أو يصل رحمه ، بارك الله له فيها ، وبارك لها فيه » .

قال يقال إن الرجل الماكر ابتكر وسيلة شيطانية جديدة لزواج بناته الأربع ، وقد يقال إن بناته تواطأن معه على إحكام المؤامرة وتنفيذ الخطة ، ولكن ذنبهن محدود ، وجريمتهن بالنسبة لجريمة غيرهن تخف ، فهذا والد يريد لبناته العوانس بيوتاً وأزواجاً ، وأولئك بنات فيهم الرغبة القوية والميل الشديد إلى الشريك ، وأما الذنب المتضاعف والجرم الواسع فمن هؤلاء الذين لم يعنهم حين طلبوا شريكات حياتهم أن يبحثوا عن العفة العاصمة من الزلات ، ولا عن الدين الواقى من النزوات ، ولا عن الأخلاق الكريمة تبدو فى الشدائد والأزمات ولا عن الجمال الروحى والبدنى يشبع صاحبه ويصونه عن الهفوات . . . لم يبحثوا عن شىء من ذلك ، ولو فعلوا لسعدوا أو لنالوا من الخير جانباً ،

ولكنهم بحثوا عن عجل الذهب ، فوطئهم عجل الذهب بأقدامه ، بعد أن بلغ من الكيد فيهم مأربه ، ولله فى خلقه شئون . . .

ألا إن المال قد يوجد ولا توجد الصحة فماذا يفيد المال حين ذاك؟ وقد يوجد المال ويتضاعف ثم تعصف به العواصف فكيف يعتمد المرء عليه ، وقد يوجد ولا توجد الحكمة فى إنفاقه وتصريفه فيؤدى إلى بوادر أو خسار ، وقد يوجد المال ولا توجد راحة البال ولا هدوء الضمير فما ينفع ولا يجدى ، والمال غاد ورائح ، ومقبل مدبر ، وما هو إلا وسيلة للانفاق والبذل فكيف يعبد هكذا من دون الله ؟ . . وأين ذهب الحجا حتى أعرض الناس عن الاعتزاز بخوالد الأشياء وبواقى الأمور ، من حب وإخلاص ، ودين وأخلاق ، وتوافق ووفاء ؟ . . وأين الناس من هدى رسول الإسلام محمد عليه الصلاة والسلام حين قال : « الدنيا كلها متاع ، وخير متاعها المرأة الصالحة » فلم يقل المرأة الغنية ولا المرأة العزيزة ولا المرأة الحسيبة النسيبة ، بل قال المرأة الصالحة . . . وقال : « خير النساء من إذا نظر إليها زوجها سرته ، وإذا أمرها أطاعته ، وإذا غاب عنها حفظته فى ماله وعرضه » . فذكر فى خير النساء ثلاث صفات : الجمال الذى يسر النفس ويبهجها ، والخلق الرضى الموافق الذى يجعل الرجل بيته والمرأة ريحانته ، والدين الحارس للعفة والأمانة . . . وما نراه صلوات الله عليه حببنا هنا فى ذات المال ، ولا ذات السلطان، بل قال : فاظفر بذات الدين تربت يداك ! . . والقرآن الكريم يصف عباد الرحمن فيقول عنهم : « والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين واجعلنا للمتقين إماماً » فجعل رجاءهم فى الأزواج والذريات قرة الأعين فرحة القلوب لا اتساع الغنى ولا امتلاء القلوب . . . وقال الرسول صلوات الله عليه : « إذا جاءكم من ترضون دينه وأمانته فزوجوه إلا تفعلوا تكن فتنة فى الأرض وفساد كبير » .

وتدبر إن شئت قوله تعالى ، وقارن بين ما يحبه المرء وما يحبه الله ، والله عليم خبير : « زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ، وذلك متاع الحياة الدنيا ، والله عنده حسن الثواب ، قل أؤنبئكم بخير من ذلكم ، للذين اتقوا عند ربهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها وأزواج مطهرة ورضوان من الله والله بصير بالعباد » .

يا أتباع محمد عليه السلام . . . إنما يهلك المرء إذا فرط أو أفرط ، فالذين يكسلون ولا يربحون ثم يتسولون أو يحتالون باسم الدين أو التصوف أو الشرف ليسوا على سواء الطريق ، والذين يحبون المال حباً جماً ، حتى يعميهم عن دينهم وأخلاقهم وواجباتهم الروحية وتجلواتهم القلبية ليسوا على سواء الطريق ، ورحم الله عبداً كسب فتطهر ، واقتصد فاعتدل ، وذكر ربه ولم ينس نصيبه من الدنيا ، فاجمعوا المال إن شئتم ولكن لا تضحوا فى سبيله بشهامة الرجال ، واطلبوا الراحة والنعمة إن أردتم ، ولكن لا تضيعوا الدين والعزة ، لا تكونوا كالذين قيل فيهم : « وإذا رأوا تجارة أو لهوا انفضوا إليها وتركوك قائماً قل ما عند الله خير من اللهو ومن التجارة والله خير الرازقين » . واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون ، إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون . أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم .

الورد يحجب الشمس

الحمد لله عز وجل ، هو واهب النعمة ومصدر الرحمة : « وربك الغنى ذو الرحمة » . أشهد أن لا إله إلا الله ، هو ولى المؤمنين ومؤيد المخاصين : « إن رحمة الله قريب من المحسنين » . وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، كشف الغمة وجمع الكلمة : « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين » . فصلوات الله وسلامه عليه ، وعلى ذريته وآله وصحبه ورجاله : « أولئك يرجون رحمة الله ، والله غفور رحيم » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

شغل كثير من الناس فى هذه الأيام الأخيرة بالحديث عن زيارة رئيس الجمهورية العربية المتحدة للهند ، تلك الزيارة التى نرجو أن تكون لها نتائجها وثمراتها ، والهند دولة شرقية قديمة فى تاريخها ، دخلها الإسلام منذ عهد بعيد ، وازدهر فيها عصوراً متطاولة وقروناً متتابعة . وما زال فى الهند إلى اليوم عشرات من ملايين المسلمين على الرغم من استقلال الباكستان عن الهند واحتوائها عدداً كبيراً من المسلمين . ولقد روت الأنباء فى الإذاعات والصحف أن الجماهير الهندية نسجت من الورود مظلة حجبت الشمس عن موكب الرئيس خلال طريق يزيد عن عشرة أميال . وعبرت الصحف فى عناوينها الضخمة الرئيسية عن ذلك بتعبير رقيق جميل هو : « الورد يحجب الشمس » وشمس الهند شمس صاحية قاسية ، تسيل العرق وتصهر الأبدان ، ويخيل للإنسان وهو تحتها كأن سهاماً محماة من نار تسلطت على بدنه لتذيب شحمه وتؤلم عظمه ، والورد زهر رقيق ضعيف ، يضرب به المثل فى سرعة الذبول وضعف الاحتمال ، فكيف يقوى على ستر الطريق والسائرين فيه من الشمس

المتوهجة الملتهبة هناك ؟ . . لقد أثارت هذه العبارة الذهن فجعلته يتذكر كيف يستطيع الشيء القليل أو الضعيف أن يؤثر أحياناً فى الشيء الكثير أو الجليل ، والعامة تقول « إن الله يضع سره فى أضعف خلقه » ، وما أكثر جنود ربك الخفية الضئيلة فى حجمها ومبناها القوية الخطيرة فى تأثيرها ومعناها: « وما يعلم جنود ربك إلا هو ، وما هى إلا ذكرى للبشر » .

والرجل الهندى مشهور منذ أقدم العصور بميله إلى الرفق والهدوء ، ومعالجة الأمور بالأسلوب الطيع اليسير . . . تستبد به الحرارة فيدفع شدتها بثوب أبيض خفيف الوزن رخيص الثمن ، وتتعبه معدته فيعالجها بأخف التكاليف وهو الصوم أو قلة الطعام ، ويستبد به الاستعمار فيقاومه بسلاح لا يحتاج إلى مال وهو سلاح المقاطعة ، وهذا أسلوب رفيق لا يبعد عن أسلوب اللين والرحمة الذى يألفه المجتمع الإسلامى القويم ، فالدعوة إلى الرحمة قد تكررت عشرات المرات فى كتاب ربنا تبارك وتعالى وسنة نبينا صلوات الله عليه ، ولقد علمتنا روح الإسلام أن الكلمة الرقيقة الطيبة تعمل عمل السحر فى جذب القلوب وترقيق العواطف الجامحة ، كما أن الماء الرقراق السلسال يحطم الصخور ويفتت الجبال ، ولقد حجب محمد صلوات الله عليه شمس العذاب عن قومه يوم الفتح الأكبر بطاقة من الورود المحمدية الناضرة ، تمثلت فى ألفاظ معدودة ، وذلك حينما هتف فى الجموع التى آذته وعارضت دعوته: ما تظنون أنى فاعل بكم ؟ قالوا : خيراً ، أخ كريم وابن أخ كريم . قال : اذهبوا فأنتم الطلقاء . . . فعملت هذه الكلمة عمل السحر ، وأثرت أقوى التأثير ، فانقاد الجموح وخضع المتكبر وذل المتجبر ، ودخل هؤلاء فى دين الله أفواجاً ، وذلك بفضل الله وتأثير هذه الكلمة الوردية الرقيقة التى أطلقها محمد فى آذان أعدائه وهو فى أوج انتصاره واقتداره ، فدوت بالحكمة والرحمة والنعمة ، ولا عجب فهو الذى صور نفسه بقوله : « أنا رحمة مهداة »

وحينما حرضه بعض الناس على لعن أعدائه قال : «إنى لم أبعث لعاناً ، وإنما بعثت رحمة » ! .

والله تبارك وتعالى يصف عباد الرحمن الأخيار بأنهم «الذين يمشون على الأرض هوناً وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً » وبأنهم «إذا مروا باللغو مروا كراماً » ، ويحرض الله عباده المؤمنين على أن يلاقوا السيئة بالحسنة ، وأن يدفعوا الشدة بالرحمة ، لأن هذا مفتاح من مفاتيح الإصلاح والتآلف ، ومحو الأضغان : «ولا تستوى الحسنة ولا السيئة ادفع بالتى هى أحسن فإذا الذين بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم » . . والرسول صلوات الله عليه يصور جوانب هذه الرقة فى حياة المسلم فيصف المسلم بأنه هين لين ، وبأنه هش بش ، وبأنه إلف مألوف ، ويقرر أنه لا خير فيمن لا يألف ولا يؤلف ، ولا غرابة فى هذا التصوير فإنه صادر من النبى الرفيق الرءوف الرحيم ، الذى وصفه القرآن بقوله : «لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم » . ولقد حقق محمد باللين والرحمة ما لم يحققه بالشدة والقوة ، وكانت الكلمة الرقيقة الحلوة تنبعث من شفتيه كالنور الهادى أو الماء النمير فتأسر أعداءه كما تأسر أولياءه ، ولعل هذا بعض السر فى قوله عن نفسه : « وأوتيت جوامع الكلم » .

وهذا خامس الراشدين عمر بن عبد العزيز رضوان الله عليه يدخل المسجد ليلا وهو مظلم ، ومعه تابع له ، فيعثر عمر برجل نائم فى المسجد ، فيصيح الرجل بعمر قائلا : أمجنون أنت ؟ فيجيبه عمر بهدوء قائل : لا . فيكبت الرجل بذلك ويهزمه ، ويهم تابع عمران يبطش بالرجل فيمنعه عمر قائلا : وماذا فعل حتى تبطش به ؟ إنما سألنى أمجنون أنت فقلت : لا . . . وانتهى الأمر .

إن الإسلام دين مبنى على أساس من الرفق والرحمة ، والعدل والحكمة

والرسول صلوات الله عليه يقول : « إن الله يحب الرفق فى الأمر كله » ونحن فى هذه الحياة يجب أن نحرص دائماً على أن نكون رسل محبة وسلام ، لأن ديننا الإسلام هو دين المحبة والسلام ، ويجب أن نحرص على أن نكون دائماً بين الناس ممثلين لموازين الحق والعدالة ، لأن ربنا قد جعلنا أمة وسطاً ، وجعلنا شهداء على الناس ليقوم الناس بالقسط ، فلا عدوان منا ولكن انتصاف ممن يعادينا ، ولا قسوة على مسالم أو محايد ولكن تأديب للمتجبر أو المتطاول ولا ذلة فينا ولكن رحمة بالضعفاء ورفق بالمساكين ، لأن نبى الملة يقول : « الراحمون يرحمهم الرحمن ، ارحموا من فى الأرض يرحمكم من فى السماء » !.

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

الورد يحجب الشمس ، والماء يحطم الصخر ، والريح تنحت الجبل ، والرفق يهدم الشدة . . . فليتعلم كل منا أن ينال بالرفق واللين ما لا يناله بالعنف والشدة ، ولنحاول أن نقهر ثورة الغضب بهدوء الحلم ، وأن نهزم الأرعن بالكلمة الطيبة ، وأن نؤدب السفيه بالإعراض والإغفال ، وأن نكون فى الحياة كالزهرات الجميلة يفوح شذاها ، ويطيب مرآها ، ويحسن وقعها عند الناس بشرط أن يحسن الإنسان استخدام رفقـــه ولينه فلا يسرف ولايعتسف : « ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوماً محسوراً » وسبحان من لو شاء لهدانا جميعاً إلى سواء السبيل ، واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون . . .

افتراء الباطل

أحمد الله تبارك وتعالى ، يؤيد الحق وأهله ، ويخذل الباطل وحزبه : « ويريد الله أن يحق الحق بكلماته ويقطع دابر الكافرين » . أشهد أن لا إله إلا الله ، جعل العاقبة للمتقين الصادقين ، وكتب الدائرة على المفترين المخادعين « قل إن ربى يقذف بالحق علام الغيوب ، قل جاء الحق ، وما يبدىء الباطل وما يعيد » ، وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، المعصوم من الكذب والتضليل ، والهادى بالصدق إلى أقوم سبيل : « إنا أرسلناك بالحق بشيراً ونذيراً ، ولا تسأل عن أصحاب الجحيم » فصلوات الله وسلامه عليه وعلى آله الطاهرين وصحابته الثابتين ، وأتباعه المستقيمين : « أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

فينا نحن المنتسبين إلى الإسلام داء دوى ، ذلك هو داء الافتراء على الغير ، ومرض الإشاعة بالباطل . . . فما أكثر الأخبار التى نسمعها ولا نصيب لها من الواقع ، وما أكثر الأكاذيب التى تتردد ولا ظل لها من الحقيقة ، وما أبرع الكثيرين من الفاسدين المفسدين فى التضليل والاختلاق ، وفى إشاعة الأكاذيب والأضاليل ، وما أسرع الكثيرين من العامة الغافلين إلى تصديق ما يسمعون ، وإلى ترديده مع الزيادة فيه والإضافة إليه . .

ولا يقتصر هذا التحريف للوقائع والحقائق على ألسنة الأفراد والأشخاص بل يوجد فيما له صفة الذيوع والشيوع ، فهذه مثلا غالبية الصحف والمجلات نرى أهلها فى كثير من الأحيان لا يتقون الله فيما يكتبون وينشرون ، ولا يبتغون وجه الحق فيما يبثون ويذيعون ، بل يبتغون مع الأسف وجه المال والهوى ،

ويخضعون بعوامل الرغبة والرهبة ، ويستجيبون لدواعى الإثارة والإيهام والتضليل ، فهم يحرفون الكلم عن مواضعه ، ويموهون على قرائهم ويخادعونهم ويقبلون لهم الباطل حقاً والحق باطلا ، والقراء يعجلون بالتصديق ، ويبنون على هذه الأباطيل ما يبنون من أحكام ومعتقدات .

وقد تنشر هذه الصحف أقوالا أو أحكاماً لرجال دين أو رجال دنيا فى مسائل جليلة وموضوعات خطيرة ، فيحرفون هذه الأقوال ، ويبترون تلك الأحكام ، عن عمد وقصد وترصد ، فتظهر مائلة جميلة ، أو ضالة مضلة بسبب هذا التحريف وذلك البتر ، فيكون شأنهم شأن من يقرأ : « لا تقربوا الصلاة » ويقف ، أو من يقرأ : « فويل للمصلين » ويسكت .

وننتقل من إشاعات الأفراد وأكاذيب الناشرين إلى الإذاعات المختلفة فى الشرق والغرب فنجد أكثرها قائماً على البهتان والافتراء ، والسخرية بعقول الشعوب ، والضحك على أذقان الجماهير .

وإذا كانت المفتريات العامة تؤدى إلى مصائب عامة بادية أو خافية ، فإن الإشاعات الفردية تؤدى كذلك إلى مصائب ونكبات فى أفراد أو جماعات والافتراء بالكذب أو الإشاعة هو الذى يفرق بين الأولياء والأصدقاء ، ويؤدى إلى سفك الدماء ، ويثير الأحقاد والضغائن ، ويهدم البيوت ويخرب المنازل ، ويمزق الأسر ويشتت العائلات ، ولقد يذيع أحد اللئام الوضعاء — مثلا — عن زوجة رجل غيور أنها سيئة السلوك ، فيذهب الزوج فى عماية وغواية ، فيزهق روح زوجته ، ظناً منه أنها منحرفة خاطئة ، بينما تكون هى بريئة طاهرة ، وفعل هذا المثل يعد نموذجاً لأمثلة كثيرة من عواقب الإشاعات الباطلة التى يتفنن فيها المجرمون من الناس .

والإسلام — وهو دعوة الحق المنزلة من لدن الحق لأهل الحق — لا يرضى

إلا الصدق فى القول ، والمطابقة للواقع فى الخبر وهو يحارب الافتراء والإشاعة والتضليل ، ويرى أن ذلك ليس من صفات المؤمنين المفلحين . فيقول الحق تبارك وتعالى : « وقد خاب من افترى » ويقول : « إنما يفترى الكذب الذين لا يؤمنون بآيات الله ، وأولئك هم الكاذبون » . ويقول الرسول : « كبرت خيانة أن تحدث أخاك حديثاً هو لك مصدق وأنت به كاذب » .

والقرآن الكريم ينتهز به فرصة حادثة نقل فيها شخص خبراً غير صحيح عن قوم بينه وبينهم عداوة ، فيصف ذلك بأنه فسق . ثم يقرر مبدأ التمحيص للأخبار ، والاحتياط فى تلقى الأنباء ، ويدعو إلى غربلة الإشاعات وعـــدم الاغترار بالأكاذيب ، فيقول : « يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوماً بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين » ! ! . .

إنها آية يجب أن تكتب بحروف واضحة بارزة وتوضع أمام كل مسلم ليتروى ويتأنى ، وأمام كل شخص يتولى عملا خاصاً أو عاماً ، ليتدبر ويمحص يقول الله عز من قائل : « يا أيها الذين آمنوا » . . . يا أيها العقلاء البصراء المؤمنون الذين تحقق لهم إيمانهم بعد علم وفهم ، لأن الإيمان يكون بعد معرفة وتثبت ويقين ، « إن جاءكم فاسق بنبأ » إن أتاكم ضال منحرف بخبر . . . والمجىء علامة الاحتيال والعناية ، والفاسق ماهر فى سبك الكذب ، وإتقان الاختلاق ، وإجادة التمثيل والحبك ، لأنه يستبيح كل شىء « فتبينوا » فاطلبوا البيان والحقيقة . وتأكدوا مطابقة الخبر للواقع ، ولا تسارعوا بالتصديق ، بل دققوا وتثبتوا . . . « أن تصيبوا قوماً بجهالة » لئلا تصيبوا بعض الناس بسوء الحكم عليهم ، أو بسوء الظن فيهم ، أو بسوء التصرف معهم ، عن طريق التصديق العاجل لهذا النبأ الكاذب ، فيكون ذلك تصرفاً جاهلا ، ناشئاً عن جهالة وضلالة ، وما أبعد المسلم الحقيقى عن الجهل والجهالة. « فتصبحوا على ما فعلتم نادمين » ... فستظهر لكم الحقيقة فيما بعد، وستدركون

بعد عجلتكم أنكم كنتم عجلين متسرعين مستجيبين لدفعة الشيطان اللعين فتصيبكم الندامة ، وتصيرون مغتمين غماً يلازمكم ، وتتمنون أن ذلك التصرف الشيطانى لم يكن قد وقع منكم ، وهيهات هيهات !! . . . ومن هنا قال محمد العظيم : « التثبت من الله والعجلة من الشيطان » . وقال : « التؤدة فى كل شىء خير ، إلا فى عمل الآخرة » .

وإذا كنا نستمطر اللعنات على كل مفتر كذاب ، وعلى كل إنسان يشيع فرية أو مسبة عن إنسان ، فإننا نطالب المسلم أن يكون يقظاً حذراً ، فلو لم يجد المفترون الآذان السميعة لفسد كيدهم وبارت تجارتهم ، فالواجب على المسلم أن يكون دقيقاً فى سمعه ، متحرياً فى أخباره ، لا يتبع كل ناعق ولا يصدق كل ناطق ، ولا يحكم على الناس بما يشاع عنهم أو يقال من ألسنة السوء فيهم ، بل يبحث ويفحص ويمحص ، ويطالب بالتدليل والبرهان ، ويحكم عن بينة ويقين وقد رووا عن الحاكم العادل عمر بن عبد العزيز أنه قال : إذا جاءك أحد الخصمين وقد فقئت إحدى عينيه فلا تحكم له ، حتى يجىء خصمه ، فلعل الخصم الآخر قد فقئت عيناه معاً ! ! . . .

وأن أشد الناس حاجة إلى التدقيق فى الأخبار وعدم تصديق الإشاعات هم أولئك الذين يفصلون بين الناس فى أمورهم ، قلت هذه الأمور أو جلت ، والذين توضع بين أيديهم شئون العباد فيتحكمون فيها ، لأن هؤلاء قادرون بما فى أيديهم من أسباب على أن يضروا وينفعوا ، وأن يضعوا ويرفعوا ، فلو استجابوا للإشاعات وعملوا بقاعدتها لكانت النتيجة نكبة نكباء يجل فيها العزاء . . . .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

اذكروا قول آبائكم العرب : « ما آفة الأخبار إلا رواتها » ، واذكروا

أننا نعيش فى عالم ضاعت فيه المثل والمبادىء ، واختلط الصدق فيه بالباطل ، ولم يترك ابن الحرام لابن الحلال فيه سبيلا ، وأصبح الحق فيه غريباً غربة الضعفاء الأيتام بين الأخساء اللئام ، واذكروا أن ربكم يقول : « ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد » ، ويقول : « إنا نحن نحيي الموتى ، ونكتب ما قدموا وآثارهم ، وكل شىء أحصيناه فى إمام مبين » فالتقييد موصول ، والإحصاء دقيق ، والمحاسب بصير قدير ، فلنقيد ألسنتنا بقيد الحق والصدق ، ولنقيد آذاننا بقيد التمحيص والتمييز ، ولنقض على افتراء الباطل بعدم قبوله أو الإصغاء إليه ، والله يقول الحق وهو يهدى السبيل . . . واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون ، إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون .

اذكروا أن دينكم دين الحق ، قام بالحق وللحق . . . وأن للقرآن حديثاً أى حديث عن الحق . . فهو يحدثنا بأن الله هو الحق : « فذلكم الله ربكم الحق » ، « ثم ردوا إلى الله مولاهم الحق » . وربكم خلق الخلق بالحق : « وهو الذى خلق السموات والأرض بالحق » . وهو الهادى إلى الحق : « قل الله يهدى للحق » ، وصراطه صراط الحق : « له دعوة الحق » ، وإنما ينزل ملائكته بالحق : « ما ننزل الملائكة إلا بالحق » ، وهو يرسل رسله بالحق : « لقد جاءت رسل ربنا بالحق » ونبيكم أتى بالحق : « يا أيها الناس قد جاءكم الرسول بالحق من ربكم » ، ونزل كتابه بالحق : « وأنزل إليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه من الكتاب » ، « ذلك بأن الله نزل الكتاب بالحق » وآياته بالحق : « تلك آيات الله يتلوها عليك بالحق » ، وقصص الله هو قصص الحق : « وإن هذا لهو القصص الحق » ، « إن الحكم إلا الله يقص الحق وهو خير الفاصلين » ، ووعده الحق : «ألا إن وعد الله حق ، ولكن أكثرهم لا يعلمون» وعنده كتاب ينطق بالحق : « ولدينا كتاب ينطق بالحق » ، ووزنه الحق :

« والوزن يؤمئذ الحق » ! . . .

الحق ! . . الحق ! . . . الحق ! . . الحق فى الاعتقاد ، والحق فى القول والحق فى السماح ، والحق فى الحكم ، والحق فى كل أمر . . . نحن أهله وأولى به ، ولا كيان لنا بدونه ، فأين أنتم يا أهل الحق ! . . وأين ذهبتم بالحق ماذا صنعتم الحق ؟ ! . .

الرفق فى الاسلام

الحمد لله عز وجل ، أمر بالعدل وألزم نفسه به ، فهو أحكم الحاكمين وأعدل العادلين ، «ونضع الموازين القسط ليوم القيامة ، فلا تظلم نفس شيئاً ، وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين » . أشهد أن لا إله إلا الله ، غلب ثوابه عقابه ، ووسعت رحمته كل شىء ، « إن الله بالناس لرءوف رحيم » . وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، كان الرحمة المهداة ، والنعمة المعطاة « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين» فصلوات الله وسلامه عليه ، وعلى آله وصحبه ، وجنوده وحزبه : « أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

ما زال بيننا قوم يعجبون بالغرب ، ويتغنون بمحامده ، ويفيضون فى تمجيده ، ولا يعجبهم شىء إلا إذا أتاهم من هناك وقد كتب عليه : « صنع فى الخارج » ، ونحن لا نريد أن نهضم أحداً حقه ، ولكن الأفضل هو أن نعتز بمفاخرنا ، بدل أن نكون عالة على غيرنا ، وإذا نوهنا بمفخرة لسوانا فمن الخير أن نذكر بأمثالها فى تاريخنا ، وبخاصة إذا كنا فيها سابقين متبوعين ، لا تابعين ولا مقلدين ، وهذا كاتب يكتب منذ حين فى صحيفة من صحفنا مادحاً لمدير مؤسسة فى الغرب لأنه رأى على إحدى النوافذ فى المؤسسة حمامة قد رقدت على بيضها ، فأمر بترك النافذة مفتوحة حتى يفقس البيض ، وأخذ الكاتب يصف هذا المدير بالإنسانية والرحمة وسمو الخلق ، واقتصر الكاتب على ذلك ، ولو أنه أنصف لأضاف إلى كلامه جانباً آخر يتعلق بالإنسانية والرحمة وسمو الخلق وسعة الرفق فى الإسلام وتاريخ المسلمين ، ولو كان هذا الكاتب

يعرف تاريخ الإسلام وينصف الحقيقة لقارن هذه الحادثة . بحوادث مشابهة لها سابقة عليها ، فقبل مدير المؤسسة الغربية بأكثر من ألف وثلاثمائة مئة عام أراد عمرو بن العاص الذى فتح مصر باسم الله تحت لواء الإسلام أن يفك فسطاطه فى مصر القديمة عقب فتحها ، ليتوجه بجيشه إلى الإسكندرية ، فوجد يمامة — قد باضت فى أعلاه ، فأمر جنوده بترك الفسطاط كما هو حتى لا يزعجوا اليمامة ، وحتى لا يفسدوا عليها بيضها ، وقال : « قد تحرمت فى جوارنا ، أقروا الفسطاط حتى يطير فراخها » وكذلك كان ! ! . . هاتان حادثتان بينهما من الزمن أكثر من ألف عام وقد روى التاريخ حادثة عمرو ورددتها الدنيا ، وسجلتها الكتب ، فهى ذائعة شائعة مشهورة وهى أقوى وأبهى من الحادثة الأخرى ، فهل يحسن بكاتب فى بلد عربى مسلم أن يتمدح فى الحادثة الغربية ، وينسى التنويه بالحادثة العربية الإسلامية ذات السبق والجلال ؟ . ولكن ماذا نقول وفينا مصابون بمركب نقص فظيع ، فهم لا يستحوذ على إعجابهم إلا ما جاء من هناك . . . من الخارج . . .؟ !

وهاتان الحادثتان فيهما إشارة إلى الرفق بالحيوان الضعيف الرقيق ، سواء أكان طائراً أم غيره ، والإسلام خير من علم الدنيا كلها حسن الرفق بالحيوان وحسبنا أن يخبرنا الرسول صلوات الله عليه بأن للانسان أجراً فى إطعامه أو سقيه كل ذات كبد رطبة ، أى كل دابة فيها حياة ، وأن يخبرنا بأن « امرأة أدخلت النار فى هرة حبستها فلا هى أطعمتها ، ولا هى تركتها تأكل من خشاش الأرض » كما أخبرنا بأن الله تبارك وتعالى غفر لرجل أسرف على نفسه وأدخله الجنة ، لأنه رأى كلباً اشتد به العطش فى الصحراء ، فنزل بئراً وملأ خفه وسقى منه الكلب ، والأمثلة على هذا الرفق فى الإسلام أكثر من أن تحصر ! ! . .

والرحمة بالطائر أو الدابة احترام للحياة الكائنة فيهما ، لأن الحياة صنع

الخلاق العظيم الذى يحيى العظام وهى رميم ، والذى يخرج الحى من الميت ، والإنسان هو أسمى صورة للحياة فى الأرض ، فاحترام حياته ألزم وأوجب ، والحرص على حقه وكرامته أشد وآكد ، ومن هنا جعل النبى صلوات الله عليه حرمة المسلم عند الله أكبر من حرمة الكعبة ، وقال لنا : « كل المسلم على المسلم حرام : دمه وماله وعرضه » وكما حرص الإسلام على الرفق بالحيوان لضعفه ورقته ، وعلى الرفق بالإنسان لأنه سيد هذه الأحياء ، حرص على إقامة العدل فى الحياة ، ليضمن كل ضعيف أن ينال حقه دون هضم أو ظلم ، فيأمن على حياته وماله ، ولا يخشى أن يعتدى عليه قوى مهما كانت قوته أو قدرته ، وهذا هو تاريخ الإسلام العاطر يقدم إلينا أيضاً العبر والأمثال فى هذا المجال ، فقد حدث من عمرو بن العاص حينما أراد بناء مسجده المشهور أن أخذ قطعة أرض بجواره تملكها امرأة على أن يدفع لها ثمنها ، ليستطيع أن يقيم بناء المسجد معتدلا ، ورفضت المرأة الضعيفة ، واحتكمت إلى الخليفة عمر بن الخطاب ، فكتب إلى واليه عمرو يقول : نحن أولى بالعدل من كسرى يا عمرو . . . وذلك أن كسرى لما هم ببناء إيوانه اغتصب عماله قطعة أرض من أصحابها ليجعلوا بناء الإيوان مربعاً ، ولما علم كسرى بذلك رفضه وقال : لأن يقال إن إيوانى معوج خير من أن يقال إن كسرى قد ظلم . . . وكان عمرو قد شرع فى البناء ظناً منه أن ذلك لا عيب فيه ، لأن البناء مسجد لله وليس بيتاً لعمرو ، ولكنه حينما جاءه كتاب الخليفة هدم البناء ، ورد قطعة الأرض لصاحبها وكانت قبطية ، وأعاد البناء من جديد . . . وهكذا فليكن جلال الحق وصولة واستقامة السلطان .

وقصة عمرو هذه قد ترجمت إلى الألمانية منذ عهد بعيد ، وذاعت فى ألمانيا ، والسبب فى ذلك أنه توجد بجوار مدينة برلين ضاحية تسمى «بوتسدام» ، وقد أراد الملك فردريك ملك بروسيا حينئذ أن يقيم فى هذه الضاحية مقبرة

لملوك ألمانيا ، وكان فى المكان المختار لبناء هذه المقبرة طاحونة هوائية يملكها طحان فقير ، فأراد أن يأخذ مكان هذه الطاحونة ليدخله فى المقبرة حتى تعتدل فرفض صاحبها ، فأرسل فردريك من يهدده بانتزاعها منه بالقوة ، فقال الطحان لرسول الملك : قل له إنك لا تستطيع انتزاعها منى بالقوة ، لأن برلين فيها قضاة وفيها قانون ! ! . .

وأعجب فردريك بشجاعة الطحان فكافأه وأبقى الطاحونة كما هى بجوار المقبرة إشارة إلى احترام القانون . . وبعد أن حدثت هذه الواقعة ترجم بعض المستشرقين قصة عمر مع عمرو إلى الألمانية وقارنوها بحادثة الطاحونة فتجلى لأبناء أوربا أن المسلمين قد عرفوا إجلال الحق والعدالة قبلهم بقرون وقرون . . .

ولقد فاض تاريخ الإسلام المزهر بأمثلة الانتصاف من القوى للضعيف ، ونزول الحاكم أو القائد على حكم الله والخضوع لكلمة العدالة والحق ، حتى فى المواطن التى يظهر فيها عنصر الاعتداء أو الطغيان ، فهذا رسول الله وهو خير خلق الله والمفدى من صحابته بالمهج والأرواح ، والآباء والأمهات — يضرب بعصاه الصغيرة بطن الصحابى سواد ضربة خفيفة ليستقيم فى صف المجاهدين يوم غزوة بدر ، ولكن سواداً يطلب القصاص من الرسول لأمر ينتويه ، ويستجيب الرسول لكلمة الحق ، ويكشف عن بطنه ليقتص منه سواد ، فيقبل سواد بطن رسوله ويقول ما معناه : يا رسول الله ، لقد توقعت أن أموت فى هذه الغزوة فأحببت أن يكون جسدك آخر ما يمسنى فى هذه الحياة ، وهذه خطبة الرسول فى مرض موته ترينا كيف ضرب المثل الأعلى فى العدالة والمساواة . . .

عن الفضل بن عباس قال : جاءنى رسول الله صلى الله عليه وسلم ،

فخرجت إليه فوجدته موعوكاً قد عصب رأسه ، فقال: خذ بيدى يا فضل، فأخذت بيده حتى جلس على المنبر ، ثم قال : ناد فى الناس ، فاجتمعوا إليه فقال : « أما بعد أيها الناس ، فإنى أحمد إليكم الله الذى لا إله إلا هو ، وإنه قد دنا منى خفوق (غياب) من بين أظهركم ، فمن كنت جلدت له ظهرا فهذا ظهرى فليستقد منه (فليقتص) ومن كنت شتمت له عرضاً فهذا عرضى فليستقد منه ، ومن أخذت له مالا فهذا مالى فليأخذ منه ، ولا يخش الشحناء من قبلى ، فإنها ليست من شأنى ، ألا وإن أحبكم إلى من أخذ منى حقاً إن كان له ، أو حللنى فلقيت ربى وأنا طيب النفس ، وقد أرى أن هذا غير مغن عنى حتى أقوم فيكم مراراً » .

ثم نزل فصلى الظهر ، ثم رجع فجلس على المنبر فعاد لمقالته الأولى فادعى عليه رجل ثلاثة دراهم فأعطاه عوضها .

ونحن لم ننس موقف عمر بن الخطاب يوم مكن ابن الفلاح المصرى من ضرب ابن والى مصر لأنه تطاول عليه ، وجعل عمر يقول لابن الفلاح : اضرب ابن الأكرمين ؛ ويقول لعمرو مبكتاً ولائماً : متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً ؟ . وكذلك لم ننس عهد الخليفة الراشد ، والحاكم العادل عمر بن العزيز الذى جعل ديدنه فى خلافته أن ينتصر للضعفاء على الأقوياء ، وأن ينتصف للمظلومين من الظالمين ، وأن يدق أعناق الجبارين على صخرة الخضوع لكلمة الحق ، حتى ساد العدل وذاع الرفق ، وتوسع أهل الخيال فى تصوير ذلك فقالوا إن الذئب والشاة كانا يجتمعان فى عهد عمر فلا يعتدى الذئب الجسور على الشاة الضعيفة ، لأن عمر بن عبد العزيز هناك ، وفى يده عدالة وسلطان ! ! . .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

إنما يتحقق المجتمع الفاضل بصيانة الكرامة البشرية ، واحترام حق الغير ،

وانتشار العدالة والخضوع لكلمة الحق والقسط ، والخوف من الظلم والجور ،
وإن أكرم عزة فى الإسلام هى أن تخشع الرقبة الغليظة الشامخة لسلطان العدل ،
فتردع صاحبها عن الطغيان والبهتان ، وتمنعه من سيطرة شهواته على تصرفاته
ويوم يعرف كل امرىء حقه فيناله ، وما عليه فيؤديه ، يأخذ المجتمع طريقه
الواضح نحو السعادة والهناء ، والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم ، واتقوا
الله الذى أنتم به مؤمنون . .

دعوات وشهوات

لله الحمد ، أقام معالم الخير ودعا إليه ، ونصب شواهد الحق وحرض عليه ، وأعز منزلة الإنسان فى هذا الوجود فأمده بأنوار الهداية ، وأحاطه بالتكريم والتمجيد ، وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها ، إن الإنسان لظلوم كفار ، نشهد أن لا إله إلا أنت عمت رحمتك ، وتمت كلمتك ، « وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ، ما أريد منهم من رزق ، وما أريد أن يطعمون ، إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين » ، ونشهد أن سيدنا ومولانا محمداً عبدك ورسولك ، خاتم الأنبياء ، وإمام الأتقياء ، وسيد الأصفياء أفضل أهل الأرض والسماء ، فصلواتك اللهم وسلامك عليه ، وعلى آله ذوى النهى والافهام ، وأصحابه السابقين إلى أفضل مقام ، وأتباعه السادة الأغرة بين الأنام ، كتب الله لأغلبن أنا ورسلى إن الله لقوى عزيز . . .

يا أتباع محمد عليه السلام . . .

أما من مقام ننسى فيه شغب الحياة وصخب الرعاة ، لنفىء إلى أنفسنا هذه ندرسها ونتعرف إليها ، ونتبين أين يكون موقفها من مدارج الهدى والكمال ، أو من دركات البغى والضلال ، فقد قيل : إذا عرفت نفسك فقد عرفت كل شيء . . . وما هذا الاختلال الواضح فى العاطفة والعائلة والجماعة إلا نتيجة لجهلنا بنفوسنا ، وعجزنا عن قيادتها إلى حيث يجب أن تقاد ! . . .

إن هذه النفس البشرية العجيبة ميالة بطبيعتها إلى الانطلاق من الواجبات والانعتاق من الالتزامات ، فهى أمارة بالسوء ، نزاعة إلى الفجور ، يستبد بها هواها الضال المضل ، حتى يرغم المرء على أن يتخذ من هذا الهوى إلهاً

يعبد من دون الله لا عن جهل بل على علم ، ولذلك جعل الله من علامات النبوة العظمى والرسالة الكبرى أن الرسول لا يعرف فى دعوته الهوى ، ولا يحكم فى رسالته رغبة النفس أو شهوة الذات : « وما ينطق عن الهوى ، إن هو إلا وحى يوحى » ، وأكد الحق تبارك وتعالى فى تحذير نبيه من اتباع أهواء الضالين من العبيد ، كيلا يضلوه عن سبيله ، أو يفتنوه عن بعض ما أنزل الله إليه من الهدى والإيمان . . .

ولو أطلق العنان لهذه النفس بشهواتها ورغباتها ومطامحها واستبدادها المطلق ، لدمرت ما حولها وأبادت من جاورها ، ثم عادت تقضى على ذاتها بذاتها ، فلابد إذن من صمام الأمان وضابط الاتزان وعقال الاطمئنان ، كى يكون ذلك ميداناً لتنافس الأقران ، وتسابق المجاهدين إلى قمم الإحسان وتمييز المنحطين بعيداً عن أهل التقى والإيمان ، وهنا يظهر الدين بأوامره ونواهيه ، وتعاليمه وتكاليفه ، فيكون أشبه شىء بحكيم الوثاق ، فهو تضييق للخناق وتكليف بالمشاق ، وحرمان من بعض المطلوب والمرغوب ، وردع عن أشياء ومنع من أهواء ، ويعد رب الدين من يعرض ويتأبى ، أو يكفر ويفجر ، عقاباً أليماً ومستقراً وخيماً : « فأما من طغى وآثر الحياة الدنيا فإن الجحيم هى المأوى » ، ويعد رب الدين من يستجيب للدعوة ، ويرضى بتنظيم الحرية تحت سلطان الملة ، جزاء لا يبلى ، ونعمة لا تنسى : « وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هى المأوى » .

والحقيقة أن الدين بهذا الحجر المنظم على شهوات النفس وأهواء الجسد لم يرد مضايقة الإنسان أو مكايدته ، كيف والله صاحب الدين هو أرحم الراحمين ، وهو رب العالمين ، وهو أحكم الحاكمين ؟ بل أراد به الحيلولة دون سوء الاستغلال ، وعدم التردى فى وهدة الضلال ، وما أشبه الدين فى هذه الحالة بأم شفيقة تأخذ بحجز أطفالها لتصدهم عن نار مغرية محرقة ، فمن

أطاعها وطاوعها فقد سلم ونجا ومن تمرد ونفر فقد خسر وهوى ، ولذلك اختلفت أحوال الناس بشأن الدين وتعاليمه ، فمنهم من يخضع لأوامر الدين ويتباعد عن نواهيه ، لأن نذر العقاب تقرع مسمعه بأهوال الجحيم ومخاطر السعير ، فيخاف ويرتعد ، لأنه جبان هزيل وذلك كشأن الذين يرهبون العصا فيخشون سلطانها ، ويحذرون ما يؤدى إلى استعمالها ، ومنهم من يغريه طعم الثواب ولذة النعيم ، فتأسره صور الفردوس ومطاعم الجنان التى تحوى ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، فيعبد ربه طمعاً، فى هذه الأجور وذلك الثواب ، فما أشبهه فى أمره هذا بالتجار الذين يقدرون أمورهم بمقاييس المكاسب والأرباح ، ومن الناس صفوة ممتازة ، شاهدوا جلال ربهم فى كل مظهر ، ورأوا قدرته فى كل كائن ، وأدركوا أنه رحمن الدنيا والآخرة ، ومصدر كل حياة وحركة ، ومفيض الجمال والجلال والكمال على آثاره وأسراره ، فامتلأت قلوبهم بحبه ، وفاضت نفوسهم بإجلاله ، وفنيت ذواتهم فى التقديس له ، لا خوفاً من نار فحسب ، ولا طمعاً فى جنة فحسب ، بل لما هو أهم من ذلك وأكبر ، هو أنه سبحانه أهل للحب وأهل للعبادة ، وأهل للفناء فى تقديسه ، وحسبك من الطاعة ثواباً أن رضيك لها أهلا كما يقول الحكماء ، وتلك هى عبادة الأحرار الأخيار من أهل اليقين والإيمان ! . .

والطوائف الثلاث ناجية ، أو فى طريقها إلى النجاة والسعادة ، على اختلاف فى المنازل والدرجات بطبيعة الحال ، ولكن المؤسف هو أن يوجد فريق آخر خسروا الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين ، أولئك هم الذين يستحبون العمى على الهدى ، والهوى على التقى ، وأثيم الانطلاق على حكيم الوثاق ، فيطلقون سراجهم من ربقة الدين الحنيف متبجحين متجاهرين ، فلا خجل ولا حياء ، بل ولا تستر أو ارعواء ، وقد يفوقون الأبالسة

والشياطين فى المكر والاحتيال ، فكلما جاءهم من الدين أمر يحول بينهم وبين مبتغاهم ، أو يهذب إسرافهم فى هواهم ، أخذوا يؤولون ويحرفون ، ويخضعون نصوص الدين لآرائهم وشهواتهم ، ويجعلون من أنفسهم حكاماً على الدين ، بل أن يصححوا الأوضاع ، فيخضعوا أنفسهم أولا لنصوص الدين القويمة ، ويجعلوه الحاكم الأول فى أمور الحياة ! . . وفى كل أمة من هؤلاء الشياطين شرذمة هم أخطر على الدين وأهله من المجاهرين بالإلحاد والكفران ! . . .

وثمة طائفة أخرى جنى عليها النظر الضيق والأفق المعتم والجهل الشائع فجعلها تنظر إلى الدين من زاوية واحدة ، لا تحيط برسالته الاجتماعية الشاملة ، فتراهم يضيقون الواسع ، ويحرمون الحلال ، ويوئسون من رحمة الله ، ويسدون على المخطىء طريق العودة والرجوع ، ويثورون للأمر الشكلى أو المخالفة التافهة بينما ترتكب الكبائر والعظائم من المآثم وهم بها جاهلون ، ويصورون الدين بصورة الرهبانية التى تقوم على حرمان النفس ، وتضييع الدنيا وكبت الرغبات وقتل المطامح ، مع أن شدة الضغط تولد الانفجار كما يقولون ؛ والدين الحنيف قد جاء ملة وسطاً وشريعة معتدلة ، لا إسراف فيها ولا تقتير ، ولا إفراط أو تفريط ، بل دين ودنيا ، وأولى وآخرة ، وجسد وروح ، وما لك وما عليك ، وحق ربك وحق قلبك ، وإن الدين كما يفهم أصحاب العقول النيرة لا يمنعك من أن تأكل وتشرب ، وتمزح وتطرب ، وتجرى وتلعب ، وتجمع وتكسب ، ما دمت لا تحل ما حرم الله فى أصول شريعته ، أو تحرم ما أحله الله لعباده ، أو تبغى الفساد فى الأرض أو تطغى بين العباد ، أو تضيع فرضاً من الفروض أو واجباً من الواجبات ، ورضوان الله على عائشة يوم قالت : ما تمتع الأشرار بشىء إلا تمتع به الأخيار وزاد عليه رضا الله ! . . والدين الحنيف قد جعل من العبادة كل عمل دنيوى أو أخروى ، فردى أو جماعى ، تقصد به وجه الله أو مصلحتك أو مصلحة

العباد أو مصلحة البلاد ، حتى ولو كان هذا العمل أكلا أو شراباً أو رياضة أو وظيفة أو لذة فراش أو مؤانسة زوجة أو مداعبة أطفال ، التعبير الوجيز الذى يصور لك سماحة هذا الدين ورحابته ، واتساع أفقه السامى هو ذلك الأثر الإسلامى المعروف : « اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً ، واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً » . ولو دققت النظر لما وجدت كبير فرق بين العمل للدنيا والعمل للآخرة متى توافر صفاء النفس فريه الإخلاص . ! .

يا أتباع محمد عليه السلام . . .

قد ضل من قال إن الدين فقر وذلة ، واتضاع وعزلة ، وجمود وتبلد ، وثقل فى المشية كأنها خطوات إلى الرمس ، وعبوس فى الوجه ونفور من الحياة ، بل الدين جمال وبهاء ، وتطلع وتمتع ، وعبادة ومجادة ، وأخذ وعطاء ، وحقوق وواجبات ، وإقبال على الحياة إقبال القادرين ، وتمتع بطيباتها تمتع الأصحاء الطاهرين وتعمير لها تعمير الصالحين النافعين ، مع اعتزاز بالله واتصال بحماه واستضاءة بهداه ، فلنعرف الطريق القويم ، ولنجنب نفوسنا طغيان الشهوات ، ولندرك ما فى قيود الملة الحكيمة من تقويم لنا وتشريف ، حتى نعبده عبادة الطائعين الأحرار ، لأن نخافه خوف العبيد الأشرار ، واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون إن الله مع الذين اتقوا ، والذين هم محسنون ! ..

الله جل جلاله

الحمد لله يرفع ويضع ،ويهدى ويضل،ويعز ويذل : « والذين تدعون من دونه ما يملكون من قطمير » قد يمهل ولكنه لا يهمل ، وإلى الله ترجع الأمور ، يوم لا تملك نفس لنفس شيئاً والأمر يومئذ لله ، وقد أدرك تلك الحقيقة رسوله صلى الله عليه وسلم خير إدراك ، لجأ إليه فنال الكرامة ، واستعاذ به فرزق السلامة ، وفاز فوزاً عظيماً ، وكذلك أدركها الطيبون من آله وذريته وأصحابه وجماعته ، والقائمين بأمر شريعته : « الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون » .

وإنه لمما يسعد الخاطر ويوحى بالبشائر أن رئيس الحكومة ، البطل الذى أنقذ الوطن وأخمد الفتن ، قد أمر أن تنزع صورة الملك المخلوع ، وأن توضع مكانها لوحة كتب عليها « الله جل جلاله » وهذا صنيع بديع يوحى بأن الثورة المباركة ليست للبطون والأجساد فحسب ولكنها أيضاً للأرواح وتثبيت دعائم الاعتقاد ، وما دام اسم الله يعلو رءوسنا ورقابته تسيطر علينا ، وجلاله يملأ صدورنا ، فقد سلم الطريق وتحقق التوفيق : « إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله ، يد الله فوق أيديهم ، فمن نكث فإنما ينكث على نفسه ، ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجراً عظيماً » .

إن حب الذات مع طغيان الهوى يدفعان صاحب السلطان إلى الإسراف فى التنويه بشخصه ، والإعلان عن نفسه ، والمبالغة فى فرض اسمه وطابعه على ما يستحق وما لا يستحق ، وقد يغره ذلك البريق ويخدعه ، وقد يستبد به الزهو والخيلاء حينما يتبدى له كأن الدنيا كلها طوع يديه ، فهى منه وإليه ، ولكنه لا يدرك من غفلته أن ذلك الإسراف يكون سبباً فى نكبته ، وزوال

اسمه ودولته . . وهذا هو الشاهد القريب . . فهناك ملك طاغية مستبد ، فرض اسمه على كل شىء واحتال لذلك بكل شىء ، حتى خيل إليه أنه كل شىء ، وتوهم أكثر الناس أنه حقاً كل شىء ، وفى إطراقة جفن ذهب عنه كل شىء وزال ظله عن كل شىء ، ولم يبق اسمه الطويل العريض على شىء : « فسبحان الذى بيده ملكوت كل شىء وإليه ترجعون » .

ولا تظنوا أن سفاهة الطاغين من الحاكمين فى ذلك الباب حديثة الميـــلاد ، فتلك ضلة قديمة فى البلاد وبين العباد ، إذ كان الملوك القدماء تستبد بهم الأنانية والشهرة الكاذبة وحب الذات ، فينحتون أسماءهم وأوصافهم ومحامدهم على الصخور وأحجار الهياكل والمعابد وغيرها ويخيل إليهم أن ذلك تخليد ليس بعده نسيان ، ولكن هؤلاء الملوك يصيبهم هوان الافتقار والانكسار ، أو يعدو عليهم الموت هاصر الأعمار ، فيخلفهم ملوك آخرون ، فيمحون أسماء السابقين ، ويضعون أسماءهم هم مكانها ، وينسبون الصفات المنحوتة إلى أشخاصهم ، ثم تدور الدائرة عليهم كما دارت على سواهم ويخلفهم من يمثل نفس الدور معهم ، وهكذا . . .

ثم تستقر الأمور أخيراً بأن يصبح الجميع فى وادى النسيان والعدم وتطفح من حين لحين رائحة ما أتوا من مظالم ، وما ارتكبوا من قبائح وآثام فنتذكر قول الجليل فى محكم التنزيل : « إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة ، وكذلك يفعلون » .

ذلك شأن سلاطين البشر الذين يهبهم ربهم أجزاء من ملكه لحكمة يعلمها وهو اللطيف الخبير ، وقد دلتنا التجارب والحوادث على أن سلطانهم مهما امتد لا يدوم ، وأن جشعهم وضيع مذموم ، وأن أسماءهم مهما التمعت تصير إلى ظلمات وغيوم ، وأما اسم الله العلى الأعلى فإنه دائم لا يزول ، باق لا يحول له وحده الملك والسلطان ، وبيده وحده الأمر والشأن : « قل اللهم مالك

الملك ، تؤتى الملك من تشاء ، وتنزع الملك ممن تشاء ، وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شيء قدير » . وما دام الله هو ملك الملوك وهو صاحب العزة والجبروت حقاً وصدقاً ، وما دام سلطان غيره عارية مستردة ، ومقصوراً على الظاهر والعنوان فاسم الله إذن أولى بالتكريم ووصفه أجدر بالتعظيم ، ونعته أحق بالتعميم « ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين » وفوق ما فى هذا من عدل فى التصرف ، وإنصاف فى الحكم ، سيؤدى بنا التعلق باسم الله والتطلع إليه إلى مراقبته وخشيته والخوف منه وإذا حلت الخشية فى قلوب الجماهير ، فقد استغنت عن التطهير ، والله عليم بذات الصدور .

يا أتباع محمد عليه السلام . . لقد مرت على بلادكم الغالية فترات حالكة الظلام ، سعت فيها ثعابين الإثم والمنكر بكل فسوق وكفران ، حتى عبد المجرمون من دون الله أصناماً وأوثاناً ، وهدموا بذلك للدين والإيمان أركاناً ، وكان اسم الله جل جلاله محرماً على الشفاه ، وكان بعض كلامه تمنع تلاوته وهو كلام الله ، حتى قيل متى نصر الله ؟ بل قيل أين الله ؟ . . والله معكم أينما كنتم وها أنتم هؤلاء تشهدون إقبال النور بعد تطاول الديجور ، وهذه رجعة إلى الله فانتهزوها ، وسارعوا إلى مغفرة من ربكم فطهروا قلوبكم من سواه ، وطهروا دياركم من أسماء ما عداه ، واجعلوا اسمه الكريم نبراسكم فى هذه الحياة : « وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان فليستجيبوا لى وليؤمنوا بى لعلهم يرشدون » .

شعب يريد العدالة

لله الحمد يعز ويذل ، ويكثر ويقل ، ويرفع ويضع ، ويصل ويقطع ، ويعطى ويمنع « قل الله خالق كل شيء وهو الواحد القهار » نشهد أن لا إله إلا أنت تداول الأيام بين الناس ، فتقطع دابر الطغاة البغاة فى البلاد ، وتنتصر للمقهورين المستذلين فى البلاد« ونريد أن نمن على الذين استضعفوا فى الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين ونمكن لهم فى الأرض ، ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون » ونشهد أن سيدنا ومولانا محمداً عبدك ورسولك ، فنى فيك فأبقيته ، وأعطيته فأرضيته وأمددته فأغنيته ، فصلواتك اللهم وسلامك عليه ، وعلى أغصان دوحته ونجوم صحبته وحراس شريعته ، أولئك الذين نسوا بذكر الله من سواه « فاتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة ، والله يحب المحسنين» .

يا أتباع محمد عليه السلام . . .

لقد آن والله للأمة أن تستريح بعد طول عناء وأن تجمع شملها بعد طول شتات ، وأن تضمد جراحها بعد ما فاض منها من دماء وأن تطوى آخر صفحة من صفحات ماضيها الأغبر الأسود الذى ضحت فيه الأمة بالكثير العزيز من دينها وأخلاقها ودمائها وأموالها وشبابها وسمعتها بين الأمم وما نريد أن تطوى ما تطويه من سيئات بنيها وكبائر المفسدين فيها لترقد رقدة الإعياء أو الفناء ، ولا لتستقبل وتفتتح سجلا جديداً يفيض بالمخازى ويحتشد بالمآسى ، وإلا فياخيبتاه وياضيعتاه ! . وكأننا يا بدر لا رحنا ولا جينا ! . بل لتستقبل حياة كريمة لائقة بأمة جعلها الله وسطاً ، ونصبها قوامة على الأمم فى الدنيا وشاهدة عليهم يوم القيامة ، ووصفها بأنها خير أمة أخرجت للناس ، تتواصى

بالحق والصبر وتتنافس فى ميادين الخير والبر ، وتتسابق إلى موجبات الرحمة والأجر . وتعتصم فى جميع أمورها وسائر أحوالها بمكارم الأخلاق .

آن للأمة فيما نظن ونعتقد ، وفيما نرجوا ونأمل وننتظر ، بعد أن أضناها الإذلال وثقل الاحتمال ، وعبث الاستغلال وحيف الاستعباد والاحتلال من الأجانب ، من شرذمة خبيثة من المواطنين الأنذال .

آن للأمة أن تطأ بأقدامها الفتية القوية أعناق الجلادين المفسدين ، ورقاب الفراعنة المتجبرين . وأن تسلم مقاليد أمورها إلى قوم من صميم طينتها وخالص تربتها . قد لفحتهم شمسها ونالهم أحياناً نعيمها وأحياناً بؤسها . فهم يؤمنون بأنهم منها وبها ولها . وإليها لا عليها . وهم لا يستبدون بضعفائها ، ولا يكيدون لأقويائها ولا ينكلون بأبريائها . ولا يستأثرون بخيراتها وهنائها ، ولا يمتصون العزيز الغالى من دمائها . ولا يلطخون أيديهم فى ظلام الغدر ودياجى الخسة والدناءة باغتيال الصفوة المختارة من أبنائها بل يشقون ليسعد مواطنوهم ، ويتعبون ليستريح من سواهم وينشرون العدالة والمساواة والإخاء بين الجميع ، فلا ظلم ولا طغيان ، ولا عسف أو بهتان ، ولا خسف أو كفران ، ولا استهزاء أو استخفاف بشرعة الرحمن ، ولا تطاول على قداسة القرآن ، بل محبة وإحسان . وهدوء واطمئنان . وطهارة وإيمان ، وكل من هؤلاء الرعاة قد فاء فاتخذ لنفسه شعاراً قول على بن أبى طالب رضى الله عنه لبعض ولاته وهو يوصيه خيراً بالأمة : « واخفض للأمة جناحك . وألن لهم جانبك . وآس (أى سو) بينهم فى اللحظة والنظرة والإشارة والتحية ، حتى لا يطمع العظماء فى حيفك ولا ييأس الضعفاء من عدلك والسلام » .

آن للأمة فيما نرجو أن يسوسها رجال يؤمنون بأن الرياسة تكليف لا لا تشريف . وتبعات لا شهوات . ومغارم لا مغانم . وجهاد لا إخلاد ، وتضحية لا تحلية . وميدان لا ديوان . وأعمال لا أقوال . وإيثار لا استئثار .

فهم لا يسكنون ولا ينامون ولا يقبعون فى مكاتبهم حتى تطالبهم الأمة بحقها ، أو تشكو إليهم ما يسوؤها ، بل هم يبادرون لأنهم رعاة وكل راع مسئول عن رعيته فيختارون للأمة ما يصلحها ويسعدها ، ويفتشون جاهدين عما ينفعها ، يسعون إليها قبل أن تسعى إليهم ، ويعطونها قبل أن تطلب منهم ويسهرون على مطالبها ولو لم تستعن بهم ، وكل منهم قد اتخذ لنفسه شعاراً قول عمر : « والله لو عثرت دابة بشط الفرات لخشيت أن أسأل عنها يوم القيامة ، لم لم أمهد لها الطريق » ! . ويجب على هؤلاء الرعاة أن يحذروا النعمة والرخاء أكثر مما يحذرون الشدة والضراء ، لأن النعمة تفضى غالباً إلى الإسراف والاغترار ، ومصيرهما إلى النار وأما الشدة فقنطرة مفضية إلى الفرج والرجاء وفرصة للتمحيص والتطهير وهما يؤديان إلى حسن الجزاء ! ! .

آن للأمة أن يسعفها ربها برجال بررة منصفين ، لا مسرفين ولا مجحفين يجعلون أول همهم وفاتحة واجباتهم وعنوان رسالتهم فى ولا يتهم ورعايتهم ، إنصاف المظلوم ، ونصرة المهضوم ، وقهر الغشوم ، وردع الظلوم ، ورد الحقوق إلى أصحابها ، ورفع المظالم عن كواهل المحترفين بها ، ورد الاعتبـــار والتكريم إلى الذين تطاول عليهم البغى اللئيم ، ويجب على هؤلاء أن يقوموا بذلك الإنصاف جادين عجلين صادقين مخلصين ، لا تأخذهم فيه لومة لائم ولا يصدهم عنه تعويق واهم ، وليذكروا أن ظلم شخص واحد يهتز له عرش الرحمن ، وترتج من أجله أركان الأرض ودعائم السماء ، ولأن يفلت من العقاب متهمون أخف وأهون من أن نظلم بريئاً واحداً فكيف بأبرياء وأبرياء ؟ ! . وليذكروا أيضاً أن ظروفاً ومناسبات وأوضاعاً خاطئة أو جريئة أناخت بكلكلها وهى باغية على أناس فسلبتهم حقوقهم ، أو حرمتهم من حرياتهم ، أو حالت بينهم وبين حياتهم المنطلقة العاملة الدائبة ، ثم دمغتهم بعد هذا كله بميسم كاذب مختلق من الإثم والفضيحة والعار ، وأولئك يجب

أن يعجل لهم برفع الآصار وفك الأسار ورد الاعتبار ، مهما كان للباطل من حجج ومسوغات ، فإن الحق لن ينقلب باطلا ولو قل متبعوه ، وإن الباطل لن ينقلب حقاً مهما كثر مشايعوه ، ونحن أمة إسلامية محمدية تؤمن إيماناً جازماً لا تغيره قوة فى الأرض أن الرجوع إلى الحق فضيلة ، والإسلام الحنيف لا يقبل إصراراً لباطل ولا إقراراً لبهتان مهما كان واضعوه أو مبتدعوه وها هو ذا عمر بن الخطاب يقول لأبى موسى الأشعرى : « ولا يمنعنك قضاء قضيته بالأمس فراجعت فيه عقلك وهديت فيه لرشدك ، أن ترجع عنه إلى الحق ، فإن الحق قديم ، ومراجعة الحق خير من التمادى فى الباطل » ! ! .

ولسنا نطالب بهذا الإنصاف ورد الاعتبار للأحياء دون الأموات ، بل للأموات مع الأحياء أو قبل الأحياء فلعل الدفاع عن حرمات الأموات هنا أولى وأهدى من مجاملة الأحياء واستجلاب الرضا منهم ، وهناك فى الأجداث عظام تتقلب صارخة من الأغوار تتساءل : بأى ذنب قتلت ؟ وبأى شرع أزهقت أرواحها ؟ وأين أولياؤها من حمتها أو رعاتها يطالبون بحقها وينادون بالقصاص لها . ولا نقول الثأر . فما عرف الإسلام يوماً ولا قبل يوماً شرعة الثأر المهلك المبيد ! . وإن دماء الشهداء المضيعين لتفور الآن فى قبورها ، وتصرخ صراخاً فظيعاً مؤلماً ، يسمعه كل ذى إحساس ، ويرتعد منه كل ذى ضمير . فليأخذ ولاة الأمة ورعاتها بحقوق أولئك الشهداء الذين قتلوا قتله الدناءة والوضاعة بأيدى الأدنياء الوضعاء ، وإنما يرجى المصلح الحازم فى ساعة الأصاب ، ويلتمس عنده فى الملمات فصل الخطاب ! .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام .

حبذا لو صحت الأحلام وتحققت الآمال ، وما علينا إلا أن نخلص النصيحة ونحسن الظن ونجمل الصبر ، فإن وفق الله الرعاة وهداهم . وأخذ بناصيتهم إلى

صراط الحق فاستجابوا لأماني الأمة ورغبات الجماعة وآمال المخلصين من الدعاة والمرشدين ، فذلك ما نبغى ، ولن يذهب العرف بين الله والناس ، وهل جزاء الإحسان إلا الإحسان ؟ . وإن كانت الأخرى . ونرجو أن لا تكون فقد أنذرنا وأعذرنا وما ربك بغافل عما تعملون ، فلنسأل الله العلى الأعلى القوى الأقوى ، رب السموات العلى ، ومبدع الكون والدنا ، أن يهب الولاة والرعاة صلاحاً وإيماناً ، وإخلاصاً وإحساناً ، وأن يلهم الرعية طاعة فيها عز الجماعة ، إنه على ما يشاء قدير ، واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون ! ..

أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم ، سلوا ربكم التوفيق يستجيب لكم .

اعدلوا هو أقرب للتقوى

لك الحمد يا من ترجى فى الشدائد والكروب ، وتستهدى فتهدى فى الظلمات والخطوب ، أنت الذى أضحكت وأبكيت ، وأمت وأحييت ، وأفقرت وأغنيت نشهد أن لا إله إلا أنت ، تأمر بالعدل والرحمة مع الأعداء والأخلاء على السواء ، ونشهد أن محمداً عبدك ورسولك ، الذى اصطفيته لرسالتك ، واخترته سفيراً لدعوتك ، فصنعته على عينك وأيدته بنصرك ، فكان فى الدنيا أجمل بسماتها ، وأنضج ثمراتها ، وأسطع نيرانها . فصلواتك اللهم وسلامك عليه وعلى آل بيته ، والسابقين من صحابته ، والصادقين من حزبه وكتيبته ، أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده ، وأولئك هم أولو الألباب .

يا أتباع محمد عليه السلام ...

عز والله وأفلح من جاءته موعظة من ربه ، فانتهى عن غيه ورجع إلى رشاده ، وذل والله وخسر من سمع الموعظة فأعرض عنها واستخف بها ، ولج فى طغيانه وفساده ، وإذا كانت النصيحة واجبة على القادة عليها ، فإن واجب المنصوح أن يتقبلها ويسارع إليها ويلتزم ما فيها ، لأنه الذى سيستفيد منها ، ورضى الله عن أبى بكر يوم قال : « يا أيها الناس ، إنى قد وليت عليكم ، ولست بخيركم فإن رأيتمونى على حق فأعينونى . وإن رأيتمونى على باطل فسددونى » وعن عمر يوم قال « رحم الله امرأ أهدى إلينا عيوبنا » . إن فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد ! .

إن علة الشقاء فى العـــالم اليوم هى اختلال التوازن بين الأفراد والطبقات . فحيثما قلبت النظر فى أقطار الدنيا عامة ، وفى مصر خاصة رأيت

الغنى الفاحش وبجواره الفقر المدقع ، ورأيت الترف الطاغى وأمامه الحرمان المهلك ، ورأيت الشهوات العارمة واللذات الهائمة وفى مقابلها الجوع والكبت والعرق الصبيب ، ورأيت أغنياء يعتلون من التخمة والامتلاء ، وفقراء يعتلون من المسبغة وقلة الغذاء ، وليت هذا التفاوت الفظيع أو الاختلال المريع كان من كسل الفقراء وجد الأغنياء فحسب ، إذاً لقلنا « كل نفس بما كسبت رهينة » ولكنه ناشىء مع عميق الأسف عن عوامل كثيرة منها طغيان النفوس وشح القلوب ، وسوء التوزيع ولؤم الطباع ، واستعباد القوى للضعيف فى عنت وإرهاق والاستجابة لهواتف الغرائز ودعوات البطن والجسد ، مما يجعل بعض الناس يستبيح لنفسه أن يسبح فى دماء غيره ما دام سيصل من وراء ذلك إلى نعيم زائل ، أو غانية فاتنة ، أو منصب ملحوظ .

جاء أحد أولئك الطاغين فاستلب من بعض الفقراء ما له ، ثم أوهمه بأنه سيرد إليه ذلك المال فى ميقات محدود ، وحسب المسكين أن الأمر استدانة محتملة ، فصبر حتى جاء الميعاد ، ثم ذهب يطالب الغنى المتلاف بما فى ذمته ، فأخذ يسوف ويراوغ ، فأراد صاحب المال أن يحرك فى نفس ذلك الوحشى الآدمى عاطفة الإشفاق والرحمة ، فكتب إليه رسالة باكية ، يرجوه فيها أن يرد إليه ماله لشدة حاجته وفقره ، ووضع الدائن فى سط الخطاب صورة لابنته الصغيرة وقد كتب تحتها : « هذه ابنتى وهى سبب حاجتى إلى ما عندك لى من مال » ! .

أتدرون ماذا كان الرد من الغنى المماطل ؟ . كتب إلى الفقير الذليل رسالة جافة يعتذر فيها عن الدفع . ولم يكتف بهذه الإساءة ، بل أراد أن يكون بطلا فى الوقاحة كما كان بطلا فى الاستغلال ، فوضع فى وسط خطابه صورة لخليلته الفاتنة وهى عارية ، ليس عليها إلا ثياب البحر . وقد كتب تحتها « وهذه عشيقتى . وهى سبب عجزى عن الدفع » ! ..

ولا تظنوا أنها قصة تضرب مضرب الأمثال ، وليس لها فى دنيا الواقع نظائر وأشباه ، فهناك فى مصر المسلمة كثير من أمثال هذه القصة المبكية ، ففيها قوم يحتاجون إلى القروش المعدودة ليشتروا بها طعاماً أسود يطفئون به نيران جوعهم ، أو ثوباً يسترون به ما بدا من جسمهم وعوراتهم ، أو دواء يخففون به ما استأسد من أمراضهم وعللهم ، وأمامهم على مرأى ومسمع منهم أغنياء يبذرون الأموال بذراً بالمئات والآلاف على خسيس الشهوات ووضيع الملذات ! .

وفى مصر أصحاب آلاف وملايين ليس لهم أسر أو أولاد أو أحفاد ، فهم ينفقون أموالهم على تربية الكلاب أو تدليل الحيوانات ، بينما يوجد فى مصر نفسها ملايين الأطفال المتسولين المشردين الذين ضاقت بهم آباؤهم وأمهاتهم فطردوهم ليكونوا من أبناء السبيل . فهلا فكر أولئك العظماء فى أن يتخذوا لهم من بين أولئك الأطفال أولاداً يعطفون عليهم ، ويختصونهم بعطفهم ، أو على الأقل يشركونهم مع تلك الكلاب والحيوانات ؟ !

وفى مصر الإسلامية تمد الموائد الخبيثة الحمراء ، ثم تحشد بعتيق الخمور والمسكرات ، ويلتف حولها أولئك الداعرون من الرجال والنساء ، ويسبحون فى بحار من المدام والشراب ، بينما يسبح غيرهم فى بحار من الدماء وألوان العذاب ! وفى مصر الإسلامية تنصب الموائد المجرمة السوداء ، موائد القمار والميسر التى تذهب بالأموال بلا وعى أو تحديد ، بينما تشح النفوس وتجمد الأيدى فلا تتبرع بقليل أو كثير إذا دعى الداعى إلى الإنفاق فى سبيل الله والوطن ! .

أصارحكم القول بأن هذا التفاوت الفظيع مع ذلك الشح الشنيع ، مع تلك الشهوات المنطلقة انطلاق المجانين بين الأغنياء والقادرين ، مع ذلك

الحرمان المؤلم الذى تعانيه جموع الفقراء والبائسين ، مع ضعف الرقابة وضياع التعاون بين الحاكمين والمحكومين ، مع الإعراض عن هدى رب العالمين ، أصار حكم القول بأن هذا كله سيكون سبباً فعالا لإشاعة المبادىء الخبيثة فى البلاد ، وانتشار المذاهب الهدامة بين الأفراد ، والإسلام الحنيف ورجاله العلماء يحاربون هذه المبادىء الخطيرة بكل ما أوتوا من قوة وأسلوب ، لأنها تعالج الداء بل تبتلينا بما هو أدهى منه وأمر ولكن الإسلام بجوار هذا يضع قارورة الدواء فى أيدى الأغنياء ، لا ليحتفظوا بها فى صيدلياتهم ، وليتخذوها وسيلة من وسائل الزينة والإتحاف ، بل ليشربوا منها فيستقيموا على الطريقة ، ويتجنبوا الأعاصير .

الإسلام الحنيف يبيح الملكية ويفسح المجال أمام النبوغ والكسب والله يرفع بعض الناس فى معاشهم ورتبهم فوق بعض درجات ، ولكنه بجوار هذا يوجب على الغنى القادر حقاً فى ماله وعلمه وفهمه لكل محتاج « وتعاونوا على البر والتقوى ، ولا تعاونوا على الإثم والعدوان » . وأقسم بالذى شرع الإسلام دينا للعالمين ، وضمن به السعادة والهناء للناس أجمعين ، لو أن كل غنى أعطى الفقراء ما أوجبه الله فى ماله من الزكاة لما بقى فى وطننا شقى أو محروم ! .

أرنو إلى وطنى العزيز ، وأنثنى ... بمدامع حسرى وقلب دامى
فكأننى مما أكابد من أسى ... أصبحت نضو هوى صريع غرام
حسب المشاهد للكنانة أن يرى ... ما ليس يخطر فى رؤى النوام
فرد تسربل بالثراء ، وآخر ... يحيا حياة سوائم الأنعام
ومرفه يدمى الحرير بنانه ... وأخو شقاء أغبر الهندام
وربيب قصر آنس بضيائه ... وقعيد كوخ موحش الإظلام
وحليف أطماع يود لو انه ... قاد الغنى كل الغنى بزمام
ولو استطاع إلى السماء توصلا ... سلب السماء لوامع الأجرام

من مبلغ عنى نصيحة مخلص ... هادى الفراسة ، صادق الإلهام
أدوا الزكاة إلى العفاة ، فإنها ... حق لهم فى شرعة الإسلام
داووا بها جرح الفقير ، وكفكفوا ... ذوب الأسى بمدامع الأيتام
ردوا بها الحب الذى ألقى به ... شح النفوس على شفا الإجرام
إن البلاد اليوم أمسى أمنها ... قلق المنام ، مفزع الأحلام
فى كل يوم تستجد جرائم ... كادت تقض مضاجع الحكام
عبث تعالج بالقضاء ، وحكمه ... بالسجن أو بعقوبة الإعدام
ان الزكاة هى العلاج ، وإنها ... لمراجل الأحقاد خير صمام ! ..

يا أتباع محمد عليه السلام :

اللبيب الفطن من اتقى العاصفة قبل هبوبها ، ومن استعد للأمر قبل نزوله ومن أخذ الحذر قبل أن يسبق السيف العذل ، وتوقى الداء كما يقول الأطباء خير من علاجه ، فليكفكف الأغنياء المفرطون من غلوائهم ، وليؤدوا حق الفقير فى أموالهم ، وليتق الفقراء والضعفاء ربهم ، فلا يميلوا عن طريق الله المستقيم ودينه الحنيف إلى تلك المذاهب الخبيثة الدخيلة ، واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون إن الله مع الذين اتقوا ، والذين هم محسنون ! .

قال عليه الصلاة والسلام : « إن الله يملى للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته » .

وقال عليه الصلاة والسلام : « من نفس عن مؤمن كربه من كرب الدنيا نفس الله عنه كربه من كرب يوم القيامة ، ومن يسر على معسر يسر الله عليه فى الدنيا والآخرة ، ومن ستر مسلماً ستره الله فى الدنيا والآخرة ، والله فى عون العبد ما كان العبد فى عون أخيه » ! .

طريق الاحسان

أحمدك اللهم حق حمدك ، فأنت الذى تعلم السر والنجوى ، وأنت الذى تكتب الفقر والغنى ، وأنت الذى تجزى بالحسنى . وأشهد أن لا إله إلا أنت وحدك ، لا تنسى من يذكرك ، ولا تضيع من يشكرك ، وأنت خير الرازقين وأشهد أن محمداً عبدك ونبيك ورسولك ، الذى جاهد فيك حق الجهاد ، ووطد دعائم الألفة والمحبة بين العباد ، فصلوات الله وسلامه عليه ، وعلى آله وأصحابه ، وجنده وأحبابه ، الذين يؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ، ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون .

أما بعد فيا أتباع محمد عليه السلام . . .

من الأشياء الواضحة البدهية ، التى يدركها كل متصل بالدراسات الإسلامية . أن ديننا الحنيف الطاهر قد عنى عناية كبرى بالحث على البر والصدقة ، والزكاة والإحسان ، والعطف والمساواة ، فأبان القرآن أن الله قد اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة ، ووعدهم على إحسانهم عظيم الأجر والثواب ، فى الدنيا والآخرة ، فمن جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ، بل قد يثاب عليها بسبعمائة حسنة ، والله يضاعف بعد ذلك لمن يشاء ، والله ذو الفضل العظيم ! . . .

وقد حذر الله من البخل والتقتير ، والشح وكنز الأموال ، وأعد لمن يقترف هذه الآثام شديد العقاب وأليم العذاب : « والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم ، يوم يحمى عليها فى نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم ، هذا ما كنزتم لأنفسكم ، فذوقوا ما كنتم تكنزون ! » .

ولكن مجرد التصدق والإحسان لا يكفى لرفع العقاب ، وإدخال المحسن بين أهل الثواب ، بل لا بد من أن يحسن الإنسان فى الإحسان ، ولابد من أن يرعى ما للصدقة من شروط وآداب ، حتى تحقق الغرض المقصود منها ، وتكتب رضا الله عن صاحبها ، وذلك بأن تكون الصدقة من مال حلال طاهر طيب ، لأن الله طيب لا يقبل إلا طيباً ، وأن يدفع إليها الإخلاص وحب الخير لذاته ، لا الرغبة فى عرض وجاه ، أو الرهبة من كبير وسلطان ، وأن يقصد بها وجه الله سبحانه لا وجه زيد وعمر من الناس ، مهما كانت منزلة أولئك الناس ، كى لا تكون وبالا ونكالا على صاحبها ، وأن تؤدى فى خفاء وهدوء ، لا فى تظاهر وتفاخر وإعلان ، اللهم إلا إذا أريد بذلك الإعلان حمل الناس على الاقتداء والتسابق إلى الإحسان ، وأن نبدأ بالإحسان إلى الأهل والأقارب والجيران والمواطنين ، فهم أحق بذلك من الغرباء ، والأقربون أولى بالمعروف ، وأبدأ بمن تعول ، وخير دينار أنفقته ما كان على أهلك ، والإسلام لا يبيح للمسلم أن يتصدق على الغريب قبل أن تقضى حاجة القريب ، فكيف إذا كان ذلك الغريب كافراً ؟ . والفقهاء ينفرون من نقل الزكاة من بلد إلى بلد ، ولو كانت تنقل إلى مسلمين ، فكيف إذا نقلت إلى قوم كافرين يناصبون المسلمين العداء ؟ . . . وأن توضع هذه الصدقات أولا فى أيدى مستحقيها من الفقراء والمساكين ، والأتقياء والصالحين ، والمجاهدين فى سبيل الله بأى طريق من طرق الجهاد ، فإن هؤلاء أهلوها وأحق بها ممن يقبلون على الدنيا ، أو يعتادون التسول ، أو يحترفون السؤال ، ولذلك كان بعض الأتقياء يخص بصدقته فقراء الصالحين والعلماء والعباد ، فقيل له : لو عممت بمعروفك جميع الفقراء لكان أفضل ! فقال : لا ، بل هؤلاء قوم هممهم الله سبحانه ، فإذا طرقتهم فاقة تشتت هم أحدهم ، فلأن أرد همة واحد إلى الله عز وجل أحب إلى من ان أعطى ألفاً ممن همته الدنيا... وقد ذكر

ذلك للامام الجنيد فاستحسنه . ووصف قائله بأنه من أولياء الله تعالى ! . .

هذا جانب من آداب الصدقة التى نسيها كثير من المسلمين أو تناسوها الآن ، فما نراهم يتبرعون اليوم إلا لغرض أو شهوة ، أو عن إرغام وإلزام ، ونرى الواحد منهم لا يتصدق إلا معلناً مفاخراً ، يفسد صدقته بالمن والأذى ، ويرائى الناس وينافق المجتمع ، وبعضهم لا يتحرك إلى الإحسان إلا سعياً وراء منزلة يرجوها ، أو رتبة ينتظرها ، أو لقب يريد أن يتكبر به وسط العباد ، وبعضهم ينسب إلى نفسه ما لم يفعل ، وبعضهم يتظاهر بما ليس أساس ، ويدعى أنه من المحسنين الكبار ، وهو أشبه بالمحتالين الشطار . ويحسبون ذلك هيناً وهو عند الله : « أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا ؟ وأنكم إلينا لا ترجعون ؟ » .

خذوا إليكم مثلا من الأمثلة . . . هذا أحد الباشوات المعروفين ، انتهز غفلة الشعب وضعف الرقابة ، فجمع ثروته الضخمة من ماء المصريين ، حتى غدا صاحب ملايين ، وجعل همه أن يزيد عليها يوماً بعد يوم ، لا أن ينفقها فى وجوه الخير ، أو يؤدى ما أوجبه الله فيها من حق معلوم للسائل والمحروم ، وأنشأ عدة شركات أثرى منها غاية الإثراء ، بجهود البائسين والفقراء ، ثم خطر له ذات يوم أن يضحك على عقول العامة فيظهر لهم ثياب المحسن الكبير ، والعطوف الرحيم فأنشأ مطعماً للشعب تأكل فيه المساكين ، فهلل الناس وكبروا وأثنوا وأعجبوا ، وسروا وطربوا ، وراحت الصحف تمجد شخصية ذلك المتفضل العظيم ، وتقول : يا له من ملك كريم ! .

وخيل إلى الناس أن هذا كرم صادق ، وإحسان واقع ، وأن ذلك الباشا يؤدى حقيقة ضريبة الخير ، وحق الله والفقراء من صميم ماله الجم لكثير ، ولكنهم اكتشفوا المأساة المخجلة الفاضحة بعد قليل . . إن الباشا يتبرع من ماله بل من مال غيره . . . إنه نسب إلى نفسه فضل سواه . . . إنه أخذ أموال الدولة لينفق منها على مطعمه الذى أكسبه الفخار ، ونشر صيته بين الديار . . .

فقد لاحظت مصلحة الضرائب عند محاسبتها للباشا على الحصة المخصصة لهـا من أرباحه بمقتضى القانون ، أنه ينفق على مطعمه من هذه الحصة التى لا يجوز له أن يمسها أو يتصرف فيها ، ومعنى ذلك أن الحكومة هى التى كانت تنفق على هذا المطعم دون أن تشعر ، ومع ذلك ينسب الفضل والمجد لسعادة الباشا العظيم ! . . ولما نبهته مصلحة الضرائب إلى ذلك ، ورجته أن يتبع الصراط فينفق على مطعمه من ماله أبى وتكبر ، وبعد قليل أغلق المطعم ، وطرد عن بابه من كان يرتاده من أبناء الشعب المسكين ، ورجع إلى تكديس الأموال وجمع الملايين ، كأنه يريد أن يتشبه بقارون ! !...

وبعد حين من الزمان أدركت الباشا عاطفة الحنين إلى سماع المدح والثناء ، والإعجاب والإطراء ، فوقف فى حفلة عامة وأعلن تبرعه بثلاثة آلاف من الجنيهات ، يريد أن يكسب بها ثلاثة آلاف شهادة بأنه محسن كبير وجواد كريم ، فإذا بصوت الحق يقرع سمع الباشا عن طريق رغبة سامية تنصحه بأن يفتح مطعمه المغلق ، وتفهمه أن ذلك خير له من تبرعه الذى يراد به التوسع فى الإعلان . . فكان ذلك الصوت كالصاعقة ، ردت إلى الضال صوابه .

ومن المحير للألباب أن نرى هذا الباشا الجاحد لحقوق وطنه ، المضيع للواجب عليه نحو مواطنيه ، الغافل عن شكر آلاء ربه ، سخياً كريماً فى التبرعات التى لا تمت إلى مصر أو المصريين بصلة ، فهو يجود بعشرات الألوف من الجنيهات لأغراض الدول الأجنبية ، وهو يجود بأمثالها لجهات دخيلة ومناسبات غير مصرية ، بينما نراه بخيلا كل البخل ، شحيحاً غاية الشح إذا ما دعاه كرام الناس إلى مساعدة إخوانه والعطف على بناة مجده ، مع أن الأقربين أولى بالمعروف . . . ففى أى شرعة من شرائع الوطنية والأخلاق يستبيح ذلك الباشا لنفسه أن يمد يده بالخيرات والبركات إلى أولئك الغرباء الذين لم نر منهم إلا كل ما يؤلم ويسوء ، ثم يقبضها عمن كانوا سبب ثروته

وغناه ؟ . . . وهلا علم الباشا أن تلك جريمة لا تغتفر فى حق الوطنية ؟ . . . وهلا ذكر الباشا أنه رجل مسلم ، بل من كبار الأغنياء المسلمين ، وأن المال كله مال الله وهو عبده ووكيله فيه ، وأن أمام عينه آلافاً كثيرة من المسلمين البائسين الذين يتضورون جوعاً ويئنون فقراً ويتساقطون مرضاً وإعياء ، وأن لهؤلاء حقوقاً فى ذمته ، وديناً لازماً فى أمواله ؟ . . . وهلا ذكر أن مرافق الإسلام أولى بتبرعاته وخيراته ، فلأن يبنى مسجداً للعبادة ، أو داراً للارشاد أو مصحة لفقراء المسلمين المرضى ، أو معهداً لتحفيظ القرآن الكريم ، أو مدرسة لتعليم علوم الدين ، أو مؤسسة لنشر الكتب الإسلامية والعربية ، خير له ألف مرة ومرة من أن يتبرع لأندية اللهو والمجون ، أو جهات الاستعمار والاستعباد ، أو لغير ذلك من الشئون التى لا يشرف مسلماً أن يتبرع لها أو ينسب إليها ؟ ! . . وهلا خشى ذلك المتخم المكتظ — والوطن فقد حياته بسبب الجوع والفقر والمرض والجهل — أن يستيقظ الشعب ذات يوم ، فيتنبه إلى حقوقه المغصوبة وأمواله المسلوبة ، فينهض للمطالبة بها فى رقة ولين ، أو فى عنف وإرهاق ؟ . . وإذا كان لا يخشى غضب الشعب فهلا خشى غضب الله وعقابه ؟ : « ولا تحسبن الله غافلا عما يعمل الظالمون ، إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار ، مهطعين مقنعى رءوسهم ، لا يرتد إليهم طرفهم ، وأفئدتهم هواء . وأنذر الناس يوم يأتيهم العذاب ، فيقول الذين ظلموا ربنا أخرنا إلى أجل قريب نجب دعوتك ونتبع الرسل ، أو لم تكونوا أقسمتم من قبل ما لكم من زوال ؟ وسكنتم فى مساكن الذين ظلموا أنفسهم ، وتبين لكم كيف فعلنا بهم ، وضربنا لكم الأمثال ؟ . وقد مكروا مكرهم وعند الله مكرهم ، وإن كان مكرهم لتزول منه الجبال ، فلا تحسبن الله مخلف وعده رسله ، إن الله عزيز ذو انتقام » .

أيها الناس . . اذكروا أن هؤلاء الأغنياء المتكبرين الباخلين فى حاجة إلى

تأديب وتهذيب . . هم فى حاجة إلى قوارع تذكرهم بما عليهم من واجبات ، فلا تخشوهم ولا تخافوهم وخافوا الله ، فإن الله أقوى منهم وأكبر ، وأسمعوهم كلمة الحق فى صراحة وإيمان ، وخذوهم إلى سواء الصراط بما استطعتم من وسائل وأساليب ، واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون « إن الله مع الذين اتقوا ، والذين هم محسنون » .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من آتاه الله مالا فلم يؤد زكاته مثل له يوم القيامة شجاعاً أقرع له زبيبتان يطوقه يوم القيامة ، ثم يأخذ بلهزمتيه ، ثم يقول : أنا مالك ، أنا كنزك ! ثم تلا : « ولا يحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيراً لهم بل هو شر لهم ، سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة » .

وقال عليه الصلاة والسلام : « إن الصدقة تطفىء غضب الرب ، وتدفع ميتة السوء » .

خذوا الطريق على النفاق

الحمد لله ، يحق الحق بكلماته ، ويمحق الباطل بقدرته وآياته : (وقل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً) . نشهد أن لا إله إلا أنت ، المؤمن الذى يؤيد المؤمنين ، والمتكبر الذى يبطش بالمنافقين المجرمين : (إن ينصركم الله فلا غالب لكم ، وإن يخذلكم فمن ذا الذى ينصركم من بعده ؟ وعلى الله فليتوكل المؤمنون) . ونشهد أن سيدنا محمداً عبدك ورسولك ، الذى اعتز بعزتك ، واستجاب لكلمتك . (فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين إنا كفيناك المستهزئين ، الذين يجعلون مع الله إلهاً آخر ، فسوف يعلمون) ، فصلواتك اللهم وسلامك عليه ، وعلى آله اللاجئين إلى بابك ، وأصحابه العائذين بجنابك ، وأتباعه المستمسكين بكتابك : (أولئك هم المتقون ، لهم ما يشاءون عند ربهم ، ذلك جزاء المحسنين) .

يا أتباع محمد صلى الله عليه وسلم :

الناس أمام دعوة الحق أصناف ثلاثة : أولياء مؤمنون ، أو أعداء كافرون ، أو شياطين منافقون . أما المؤمنون فهم الذين استجابوا لربهم ، وأيقنوا بدعوته . فحفظوا عهدهم وأخلصوا جهادهم ، (أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون) . وأما الأعداء الكافرون فخصوم ظاهرون مجاهرون ، استبد بهم الجحود والنكران ، فلا استجابة ولا إيمان : (سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون) فالمؤمنون ينبذون إليهم على سواء ، فإما نصر وعزة فى الحياة ، أو استنفاد للجهد وإعذار للنفس : « ومبلغ نفس

عذرها مثل منجح » ، أو استشهاد يكسب طيب الحديث بين الناس وعظيم الثواب عند الحى القيوم ، وأما الشياطين المنافقون فأولئك هم مصدر الداء وأصل البلاء ، فلا هم مؤمنون نثق بهم ونطمئن إليهم ، ولا هم صرحاء فى العداوة فنعاديهم ونحذر منهم ، بل تراهم (مذبذبين بين ذلك ، لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء ، ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلا) ، (وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا ، وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزئون ، الله يستهزىء بهم ويمدهم فى طغيانهم يعمهون) .

ولقد أدرك الإسلام خطر أولئك المنافقين المرائين ، الذين يتظاهرون بالصفاء والوفاق ، وهم يضمرون الهدم والشقاق ، ويلعبون بالنار فى الظلمات ، ويبرعون فى تأريث العدوان ، ويخادعون بالكلمات والحركات ، فتحدث القرآن المجيد عنهم فى أوله ، فى فاتحة سورة (البقرة) « فى قلوبهم مرض فزادهم الله مرضاً ولهم عذاب أليم بما كانوا يكذبون » كما تحدث عنهم فى أماكن كثيرة منه ، لافتاً الأبصار والبصائر إلى أنهم أخبث جرثومة وأخطر عدو ، ونزلت باسمهم سورة كاملة هى سورة المنافقون ، بدئت بنعتهم الأصيل ، وهو ترديدهم لكلمات الحق والعدل ، دون أن يكونوا بها مؤمنين : (إذا جاءك المنافقون قالوا نشهد إنك لرسول الله ، والله يعلم إنك لرسوله ، والله يشهد إن المنافقين لكاذبون) .

ثم أعطتنا السورة ملامح لهم : ففيهم جسامة ووسامة ، ومنظر ومظهر ، وجهارة وصدارة ، ولسان وبيان ، ولكن القلوب هواء ، والنفوس هباء : (وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم وإن يقولوا تسمع لقولهم . كأنهم خشب

مسندة ، يحسبون كل صيحة عليهم ، هم العدو فاحذرهم ، قاتلهم الله أنى يؤفكون) .

ويختم القرآن سوره بالتحذير أيضاً من المنافقين . . . أليس الوسواس الخناس الذى يوسوس فى صدور الناس ، والذى أمرنا الله بالاستعاذة منه والتنائى عنه هو أخطر من يعلم جنوده أصول النفاق ؟ ! . .

ولو تدبرنا بواعث النفاق لوجدنا أقواها وأمضاها الحقد والحسد ، فإن المنافق الرخيص النفس المهين الطبع الخبيث يسوؤه أن تجرى النعمة على يد سواه ، أو أن يتم إصلاح بوساطة غيره ، فيمتلىء صدره الحسيس حقداً ، ويفيض قلبه المخنوب حسداً ، وكذلك كان شأن المجرمين من قبل ومن بعد . .

لقد تساءلوا بالأمس البعيد : أيهبط القرآن على محمد الضعيف ولا يهبط على سيد من سادات الحكام والأمراء ؟ (وقالوا : لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم) ؟ . . . أيختص الله بالنبوة والرسالة هذا الشاب اليتيم العائل ؟ . . ألم يجد أحداً من الزعماء أو الأغنياء ليرسله ؟ (وإذا رأوك إن يتخذونك إلا هزواً ، أهذا الذى بعث الله رسولا) ؟ أيحكمنا هؤلاء الشرذمة الذين هم من سواد الشعب وجمهوره ؟ فأين إذن الأشراف والأقيال ؟ وأين الأكاسرة والقياصرة ؟ . . . (ما نراك إلا بشراً مثلنا ، وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادى الرأى ، وما نرى لكم علينا من فضل بل نظنكم كاذبين) . . . إن ذلنا وعبوديتنا على أيدى سادتنا وكبرائنا خير ألف مرة من عزنا وحريتنا على أيدى أولئك الشعبيين الذين ليس لهم دور ولا قصور ، وليس عندهم عقار ولا نضار : (ولئن أطعتم بشراً مثلكم إنكم إذن لخاسرون) !

وهكذا يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام يمضى أولئك المجرمون فى حقدهم وحسدهم ، فلا يتركون لوناً من ألوان التحريف والبهتان والافتراء إلا

اصطنعوه واقترفوه ، ولا يدعون لغيرهم إصلاحاً أو صنيعاً إلا شوهوه وانتقصوه ، وصدق محمد خير الأنام حين قال : « إياكم والحسد ، فإن الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب » .

ولقد كان الرسول صلى الله عليه وسلم أبرع الواصفين حينما حدد علامات النفاق ، فقال : « آية المنافق ثلاث : إذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا ائتمن خان » ..

نعم فإن المنافق يحرف الكلم عن مواضعه ، ويختلق الأنباء من عنـــده ، ويصور الباطل حقاً والحق باطلا ، وإذا اختلى بغافلين أو جاهلين استبد بعقولهم وعواطفهم ، فقدم إليهم أسوأ زاد من التضليل والبهتان ..

وإذا وعد المنافق أخلف ، فهو يعطى الكلمة ولا يحفظ حقها ، ويقـــدم الوعد ولا يصون حرمته ، ويرتبط بالعهد ولا يرعى كرامته ، لله فى عنقه عهد فهو يضيعه ، وللوطن فى رقبته ميثاق فهو ينقضه ، ولإخوانه فى الوطن حقوق فهو لا يرعاها .

وإذا ائتمن المنافق خان ، يخون أمانة الله بالجحود والكفران ويخون أمانة البلاد بالمروق والبهتان ، ويخون أمانة العباد بالتضييع والخذلان ، ولذلك كان الجزاء أسوأ الجزاء : (إن المنافقين فى الدرك الأسفل من النار ، ولن تجد لهم نصيراً) ، (إن الله جامع المنافقين والكافرين فى جهنم جميعاً) .

وقد يستطيع المنافق اللئيم أن ينتهز الفرصة قبل أن تصبح غصة ، فيستغفر ويتطهر ، ويخلص التوبة النصوح لربه ، ويعقد العهد الصادق مع وطنه وقومه ، ويستأنف الحياة مع المؤمنين الأوفياء شريفاً عفيفاً نظيفاً وفياً ؛ إنه إن فعل عفا الله عما سلف (إن الله يحب التوابين ، ويحب المتطهرين) ، وهو الذى يقول : (إلا الذين تابوا وأصلحوا وأخلصوا دينهم لله ، فأولئك مع المؤمنين ، وسوف

يؤتى الله المؤمنين أجراً عظيما) . فإن لم ينل المنافق الأثيم ذلك الشرف فلا أقل من أن يتوارى ويعتزل ، ولا أقل من أن يقول لنفسه : لقد صدت فى الماء العكر ، وولغت من قبل فيما استطعت من آنية ، فيجب أن أقتصر اليوم ، فقد وضح الحق وولت دولة الظلام . . . أما أن يتبجح المنافق ويتوقح ، فيحاول أن يكون بطلا من الشرفاء ، كما كان بطلا فى زمن المجرمين السفهاء، فدون ذلك ينفد صبر العقلاء الحكماء . . .

يا أتباع محمد عليه السلام . . .

الحق أحق أن يتبع ، والحلال بين والحرام بين فيجب أن نعمل ليفهم هؤلاء المنافقون أن زمان النفاق قد مضى وفات ، وأن عهد اكتسابهم من كل جانب قد ولى ومات . ويجب أن نعمل ليخلو الركب من الذين يجيدون إمساك العصا من وسطها ، ويريدون أن يطعموا من كل مائدة ، وأن يشربوا آثمين من كل ينبوع ، ويجب أن يرتدع اللئام الذين عاشوا فى عهود الظلام ، ويكفيهم ما نالوا من السحت الحرام ، فلا بقاء للخفافيش فى وضح النهار ، (يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم ومأواهم جهنم وبئس المصير) . فوالله إن من أكبر العار أن نذوق على أيدى أولئك المنافقين ألوان الهوان فى فترات المجاهدة للبهتان والطغيان ، ثم يحاولوا أن يجدوا لأنفسهم مكاناً بين كتائب الحق والإيمان . . .

وعلى الكرام الأبرار الذين تطهرت صحائفهم أن يتقدموا إلى المجال ولا يحجموا ، فإن صدهم حياء أو تورع عن الإقدام فليبحث قادة الركب عنهم فى تضاعيفه ، ليكرموهم وينتفعوا بإخلاصهم وجهادهم فى سبيل الله والوطن ، واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون ،إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون . أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم ، سلوا ربكم التوفيق يستجب لكم .

بين القمة والحضيض

لله الحمد ، هو أعدل العادلين وأحكم الحاكمين ، وهو قاصم الظالمين ونصير المظلومين ، وهو عدو المسرفين وولى المهضومين ، وهو صاحب العذاب الشديد ، والمنذر بأقسى الوعيد ، والمذكر بيوم اللقاء « يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم » « ولو ترى إذ يتوفى الذين كفروا الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم ، وذوقوا عذاب الحريق ، ذلك بما قدمت أيديكم وأن الله ليس بظلام للعبيد » نشهد أن لا إله إلا أنت تقسم ولا تظلم ، وتفاضل ولكنك لا تهضم ، وإنك لغنى عن العالمين ، ونشهد أن سيدنا ومولانا محمداً عبدك ورسولك ، خير من شكرك وأفضل من ذكرك فى السراء والضراء والنعماء والبأساء ، فصلواتك اللهم وسلامك عليه وعلى آله أئمة الهدى واليقين ، وأصحابه خيرة الراشدين المنصفين وأتباعه الذين يعتزون بعزة دينهم بين العالمين « وما عند الله خير وأبقى للذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون » .

يا أتباع محمد عليه السلام . . .

لو أنصف الناس استراح القاضى . هذه حكمة معروفة مسلمة لو عمل بها الناس وخضعوا لها لنجحوا وأفلحوا وعزوا وسعدوا ، ولم يحتاجوا إلى قانون يرهب أو عقاب يؤدب . ولكن كيف ينصف الناس والظلم من شيم النفوس وكيف نتوقع منهم عدلا وقد سولت لهم أهواؤهم الضالة الباغية وأولياؤهم المضلين المخادعين من شياطين الإنس والجن ، بأن لا يفترقوا افتراقاً مقبولا ، أو يتفاوتوا فى حظوظ الحياة تفاوتاً معقولا ، بل لابد من البون الشاسع والفرق الواسع بين هؤلاء وهؤلاء ، فكل منهم يتمنى ويعمل جاهداً ليحقق ما يرجوه

ويتمناه ، وهو أن يكون وحده العزيز الغنى الممتلىء السعيد المحظوظ ، وليكن نصيب من خلفه الحرمان أو الطوفان . . وكيف يتحقق بين الناس نصيب أو شبه إنصاف وهم قد بدلوا خلق الله وحرفوا كلمه وخالفوا نظمه وأهملوا شرعه ، فصارت منهم قلة قليلة ترتفع وترتفع ، وتجمع وتتمتع ، وتمتلىء وتتضخم ، حتى بلغت عنان السماء فهى تتبختر فى مطارف النعيم ، وهى تمشى على أفواف السعادة ، وهى تتقلب فى بحار الهناء ، فلا شقاء ولا تخوف من الشقاء ولا تصور للشقاء ، ثم هناك بعد هذا أغلبية مفزعة أبى لها الوضع المختل الشاذ إلا أن تهوى وتهوى حتى تصل أعمق أعماق الحضيض ، فهى تسير ولكن فى أوحال أو رمال ، وهى تتقلب ولكن على جمرات الحرمان ونيران الشقاء ، وهى لهذا لا تعرف نعيم من ارتفع ، ولا تطمع فيه لبعد المسافة الساحقة بينها وبينه ، ثم هناك بعد ذلك بين أهل الحضيض المعدمين وأهل الرفعة المترفين صنف ثالث قد استبدت به الحيرة ، واستولى عليه الاضطراب والزلزال ، فهو بين الفريقين حائر ، يحاول جاهداً أن يرتفع إلى أعلا ليبلغ ما بلغ أهل الترف والنعيم ، ولكن التصعيد شاق ، والارتفاع مرهق متعب ، وجاذبية الحضيض لها تأثيرها وقوتها ، فهى تشده إلى أسفل وبذلك يعانى ما يعانى من زلزلة وبلبلة ، فلا هو ارتفع فاستراح وتمتع ولا هو نزل إلى حضيض غيره فقنط ويئس ، لأن اليأس عند كمال الحرمان إحدى الراحتين كما يقولون ! .

سيعجب بهذا الأسلوب من الكلام قوم استبد بهم الفقر فطمعوا أن يكونوا أغنياء ، وسيعجب به أيضاً قوم لا يزالون فى طريق الصعود ولكنهم يأملون الوصول إلى عنان السماء ، ولكنه سيؤلم بلاشك أولئك الهائمين فى رياض نعيمهم وآفاق لذائذهم ومسارح لهوهم وملاعب ترفهم وهو أهم ، وسيحاولون أن يتفلسفوا ويحرفوا الكلم عن مواضعه والمبادىء العامة عن هديها وأهدافها ،

فيقولون أليست تلك مشيئة الله سبحانه وإرادته ؟ أليس هذا هو قضاء الله وقدره ، وهو الذى فضل بعض الناس على بعض فى الرزق ، وجعلهم درجات ومنازل ، ورفع بالغنى قوماً كما خفض بالفقر آخرين ؟ . وتلك عبارات حق يراد بها باطل ، وكلام ظاهره الصواب والنور وهدفه التضليل والظلمات وكم من كلمة حق أريد بها عند سوء استغلالها الوصول إلى الباطل فبلغت بصاحبها إلى ما يريد . . . نعم يا سادة نحن معكم فيما تقولون ولسنا معكم فيما تقصدون ، فالله قد قسم للناس حقيقة معايشهم ، ولكن بطرق سليمة قويمة لا بطرق السلب والنهب والظلم والسرقة والاغتصاب . والله قد فضل بعض الناس على بعض فى الرزق ولكن بأسلوب غير أسلوب البغى والعدوان ، وجعلهم درجات ومنازل ولكن ليبلوهم فيما آتاهم وليستبقوا الخيرات لأن مردهم إليه جميعاً ، فمن أحسن التصرف فيما سبق إليه فقد فاز فوزاً عظيماً ، ومن أساء التصرف فيما بين يديه فقد خسر خسراناً مبيناً : « لئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم إن عذابى لشديد » : والله قد أغنى وأفقر ، ولكن ليستقر بذلك التفاوت المعقول المقصود نظام الكون وليصير الفقير عاملا مجتهداً ، وليشكر الغنى متواضعاً متبرعاً ، ومن هنا يتآلف الغنى والفقير فلا عداوة ولا شحناء ، بل تعاون وصفاء : « وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان » ولذلك جعلت الحياة ميدان اختبار وابتلاء ، يقول القائل : هذا رزقى ومالى فيقال له : وأين زكاته وحق السائل والمحروم فيه ؟ . ويقول الثانى : وهذا يخصنى فلا دخل لغيرى فيه ! . فيقال له : ومن أين لك هذا وبأى طريق مشروع حصلت عليه حتى تدعى فيه الانفراد بالملكية والخصوصية ؟ . ويقول الثالث : وهذا أوتيته على علم عندى ، فيقال له : وأين حق المجتمع عليك ، وأين شكران المتفضل بسوق النعم عليك ؟ وهكذا بدون هذه الحواجز الملطفة للتفاوت المقربة للطبقات لا يسلم المجتمع

أبداً من بذور الفتن وتتابع المحن وخبيث النزعات ! .. وهل تجد الشيوعية الآثمة أو الفوضى المجرمة ، أو المكائد الظالمة ، أو النكبات الغاشمة ، أو الجرائم الآثمة جوا لها إلا فى ظلمات الحيف والظلم ، ودياجى الاختلال وعدم التكافل ؟.

هذا نبأ صغير تنشره الصحف فى عجلة وإهمال ولكنه نذير أى نذير يرينا كيف يتجسم الإجرام والفساد حينما تترك أمور الناس فى لذاتهم وأغراضهم للهوى المستبد والحرية المطلقة . . فقد اشتعلت النار فى مزرعة أحد الفلاحين وخاف الفلاح على ماله ومصدر رزقه فسارع إلى (تليفون) عام ليطلب من رجال المطافىء الإسراع لإخماد النار وكان (التليفون) حينئذ مشغولا بحديث سيدة مترفة لعلها كانت تسلى نفسها وترضى نزواتها بمحادثة عاطفية أو ثرثرة فارغة فتوسل إليها الفلاح المسكين أن تقطع محادثتها حتى يتسنى له مخاطبة المطافىء على عجل ، فرفضت السيدة ذلك لأن هذا من حقها ، وظلت تتكلم حتى أنهت محادثتها حسب رغبتها وهواها ، وكانت النتيجة أن تأخر إخطار المطافىء فلما جاء رجال الإنقاذ وجدوا كل شىء فى المزرعة قد سوى بالأرض بعد أن صار إلى رماد ! .

هكذا يتبجح الأحمق الأرعن فى استعمال حقه ، وإطلاق حريته إطلاقاً لا يحسب حساباً لسواه ، ولا يقيم اعتباراً لأبناء دنياه ، مع أن نبى الإسلام عليه الصلاة والسلام يقول « ما استحق الحياة من عاش لنفسه فقط » وكم فينا أيها الناس من أصنام متحجرة تشبه تلك السيدة المجرمة الرعناء فيفضلون أن يشبعوا وهم أفراد ، ولو كان شبعهم سبباً فى جوع الملايين أو موتهم ، ويعملون لتعمير بيت من بيوتهم ولو خرب فى سبيل ذلك آلاف البيوت ، ويجمعون ما استطاعوا جمعه من حل ومن حرمة ، وبطرق غير مشروعة فى أغلب الأحيان ، إن لم تكن غير مشرعة فى جميع الأحيان ، ثم تتصلب أيديهم الآثمة على ما جمعوا وما أكثره ، ولا ينفقونه إلا حيث يأمر الشيطان . فهو ولى لهم وسلطان !

وهذا مثل آخر . . استدان أحد العابثين بحقوق البشر وما أكثرهم ديناً من شخص متوسط الحال ومضت مدة الدين ، ولاح على المدين مظاهر النعمة والثراء فأخذ الدائن يطالبه بحقه ، فراوغ الغنى المترف فى رد ما عليه من دين، فأراد الدائن الفقير المحتاج أن يؤثر فى قلب هذا الحيوان المنسوب إلى بنى الإنسان زوراً وبهتاناً ، فأرسل إليه صورة ابنته المريضة ، وكتب للمدين تحتها هذه العبارة « تلك يا سيدى هى ابنتى وهى سبب حاجتى إلى النقود » فرد عليه المدين الغنى القادر المراوغ رداً كله عبث وإجرام إذ بعث إليـــه بصورة خليلته التى يحبها وكتب تحتها للدائن المسكين هذه العبارة الفاجرة « تلك خليلتى الجميلة وهى سبب تأخرى عن دفع المال » ! .

وهكذا أيها الناس يوجد من يمتص دماء الشاحبين المهزولين من فقراء البشر ، لا لينفق هذه الحقوق المغصوبة على ضرورة مفاجئة أو أمر لازم أو مصلحة عامة بل لينفقها على موائد الخمر أو ليالى النساء أو ميادين السباق أو وسائل الترف المهلك المبيد ! . وكم فى الدنيا من أثرياء أفحشوا فى الثراء وتطاولوا فى البناء وأسرفوا فى الكبرياء ، ولو حللنا أموالهم وثراءهم إلى الأصول الحقيقية والمنابع الأساسية لوجدنا هذه الأموال تتحول إلى دماء تصرخ وتصيح ، وكل قطرة من قطرات هذه الدماء تنادى مطالبة بالرجوع إلى جسم صاحبها المظلوم ! .

فالويل لأولئك الطغاة الظالمين كل الويل . . ألم يقرع أسماعهم قول الرسول : « الظلم ظلمات يوم القيامة » وقوله : « اتقوا الظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة واتقوا الشح فإن الشح أهلك من كان قبلكم . حملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم » وقوله : « لتؤدن الحقوق إلى أصحابها يوم القيامة حتى يقاد للشاة الجلحاء (التى بلا قرن) من الشاة القرناء » إلى غير ذلك من الأحاديث والآثار ؟ ! .

يا أتباع محمد عليه السلام .

كل لحم نبت من حرام فالنار أولى به ، والله قد حرم الظلم على نفسه فلا أقل من أن نجعله بيننا محرماً ، وإن قليلا يأتى من طريق شريف ومصدر كريم لأنفع وأبقى من كثير تجىء به يد الشيطان ثم تستبد به أهواء الشيطان ، وثقوا أن مجتمعاً يرضى بأن يموت فيه بعضه بداء التخمة بينما يموت فيه بعضه من الجوع لا يمكن أن ينهض على أساس ، ولو خيل إلى الجاهلين أنه قائم إلى حين ، وما بنا والله من هوى فى حرمان إنسان حقه ، أو بغى فرد على سواه ، أو تمرد مظلوم على نظام قائم ، أو ثورة مهضوم على وضع ناهض ، فإن للفرد أن يصبر على نظم الجماعة ما دام لها سلطانها ونفوذها ، ولكن هـــذا لا يمنع مطلقاً من السعى لإصلاح المعيب وتقويم المعوج ونفى الخبث والاستكثار من الخير ، وكل ما نطمح إليه هو أن لا نرضى بالإسلام بديلا ولا نقبل غير القرآن قانوناً . ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون ؟ . . فهل يستطيع كل منا أن يخلو بنفسه ليتعرف فى صدق وحق : من اين يأتيه ما فى يده ؟ وهل يرضى الله عن طريقة اكتسابه وأسلوب إنفاقه ؟ . وماذا يكون جوابى لوجىء بى يوم الدين إلى قيوم السموات والأرض وديان العالمين أجمعين ، وسألنى عن مالى : من أين اكتسبته وفيم أنفقته ؟ ماذا يكون يا نفس الجواب ؟ تلك والله محاسبة لازمة واجبة ، فاللبيب اللبيب من حاسب نفسه قبل أن يصير الحساب إلى غيره ، والعاقل كل العاقل من تجنب العاصفة الهوجاء قبل قبوبها ، وما بعد شرعة الإسلام العادلة المنصفة المقربة للطبقات من هدى أو رشاد ، فعودوا إن أردتم صلاحاً وإصلاحاً إلى الإسلام ، ففيه الدواء وفيه الشفاء وفيه الغذاء وفيه المنقذ من مخوف الزلازل ومرهوب البلاء . واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون ، إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم .

بين الدرجات والدركات !!..

جاء الإسلام إلى هذه الحياة فكان يقظة كبرى للعالم الذى كان يغط يومئذ فى نومه العميق ، وكان غيثا مدراراً نزل على الأرض القاحلة الجرداء ، فأحيا مواتها ، وبعث فيها الخصب والنماء ، وكان نوراً ساطعاً بدد غياهب الظلمات التى كانت تسيطر يومئذ على العقول والقلوب والأرواح ، وكان صراطاً مستقيما ظهر ظهور الشمس الساطعة بين طرق كلها الاعوجاج والالتواء والمعاطب والمصائب ، وكان غذاء كافياً ودواء شافياً صادف الأجسام الهزيلة فقواها ونماها ، ورد عليها الصحة والعافية والفتاء ، وصادف النفوس المريضة فشفاها من دائها العضال ، وجعل لها من وسائل المناعة والوقاية والمقاومة ما يصونها فى حرز حريز لو أخلصت فى التمسك به والحرص عليه : صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة ، ونحن له عابدون » .

وكان أهم غرض تهدف إليه مدرسة محمد العظيم عليه الصلاة والتسليم هو أن تكون المسلم تكويناً عملياً ، يقوم على الوقائع ، وينهض على الحقائق ولا يستسلم للخيال أو الأوهام ، ولا يطاوع كاذب الشعور وخادع الإحساس بل يواجه مشكلات الحياة بحلولها العملية ، ويطوى عليه هذا اللسان الطويل العريض ، فلا يمكنه من الكلام إلا حيث يجب الكلام ، ويطلق العنان بعد هذا لعزيمته تتصرف تصرف الرجال ، وتجاهد جهاد الأبطال وتنهض بمكارم الأعمال ، ولذلك رأينا الصفوف الأولى من مدرسة هذا النبى الأكرم والرسول الأعظم صلى الله عليه وسلم لا يؤثر عنها الكثير من الكلام والأقوال ، ولكن يؤثر عنها الذى لا يعد ولا يحصى من كريم الفعال وشريف الخصال وباقى المآثر وروائع الأعمال ، وما حاجتهم إلى الأقوال وهناك رب جليل عظيم ،

محيط بكل شيء عليم بذات الصدور ، يعلم خائنة الأعين ، وخطرات القلب ، ووساوس النفس ، ولا يضيع عنده قليل أو كثير ، ولا يغيب عن علمه ضئيل أو كبير : « يا بنى إنها إن تلك مثقال حبة من خردل فتكن فى صخرة أو فى السموات أو فى الأرض يأت بها الله ، إن الله لطيف خبير » ، « ونضع الموازين القسط ليوم القيامة ، فلا تظلم نفس شيئاً ، وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها ، وكفى بنا حاسبين » ، « فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره » .

ولم تفكر المجموعة الإسلامية الأولى أن تخالف بين قولها وعملها ، أو أن تعتمد على دعاويها بألسنتها ، ثم لا يكون لها بعد ذلك « رصيد » يوازى هذه الادعاءات ، بل حذرت ذلك كل الحذر ، لأن الله تبارك وتعالى قد حذرها من ذلك أشد تحذير حين قال : « يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون ؟ كبر مقتاً عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون » . وهكذا رأينا أن الميزة التى امتاز بها المسلمون على عهد رسول الله عليه صلوات الله أنهم كانوا يعملون ولا يقولون ، ويتصدقون ولا يتحدثون ، ويجاهدون ولا يفتخرون ، ويحسنون ولا يمنون ، ويحفظون العهد والميثاق ويوعدون لا يتباهون ، ويؤدى الواجب ولا يسألون عليه جزاء ولا شكورا ، فهم منطلقون فى ميادينهم المختلفة يجاهدون ويكافحون ويناضلون ، ولا تسمع لهم همساً ، ولا عجيجاً أو ضجيجاً ، وهل لديهم من الوقت متسع للثرثرة الفارغة ، أو الكلام التافة ، أو الحديث المعاد ؟ وهل تركت لهم تعاليم دينهم ، وواجبات شريعتهم ، وسعة آمالهم ، وانفساح مدى مثلهم العليا فى الحياة ، ساعة من نهار أو جانباً من ليل ليتحدثوا أو يقولوا ؟ . . كلا بل هم قوم يرون أن دستورهم هو : «الواجبات أكثر من الأوقات » وأن الحياة القصيرة الفانية لا تتسع للقول والعمل فلابد من اختيار أحدهما ، فاختاروا العمل ، وجعلوا نصب أعينهم على الدوام

قول خالقهم ، والمسيطر عليهم : « وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون وستردون إلى عالم الغيب والشهادة ، فينبئكم بما كنتم تعملون » .

ثم انطوى عهد الرسول بما فيه من خيرات وبركات ، وانتهى قرنه الشريف وهو خير القرون كما نبأنا بذلك وهو الصادق المصدوق ، وتبعه قرن آخر أقل منه مكانة وأخف شأناً ، ولكنه كان على كل حال عصرا له فضائله ومزاياه ، وحسناته وخيراته ، فكان الناس فيه أقل أدرجة أو درجات من صحابة رسول الله عليه السلام ، إذ بدأ هؤلاء الناس يقولون ، ولكنهم لايقتصرون على القول بل يجمعون بينه وبين العمل ، فكان ذلك العهد مرتبة تالية لعهد النبوة الكريم ، ولكنه على أى وضع كان محتملا ، إذ أن اقتران القول بالعمل يخفف ما قد يكون فى القول من فخار أو ازدهار .

ولكن المسلمين بعد أن كانوا يصعدون قديماً فى درجات العلو والسمو والرفعة ، بدأ وبعد ذلك ينزلون دركات بعد دركات فى مهاوى الضعف والانحلال ، فبعد أن كان الأمر فى العصر التالى لعصر النبوة مشطور إلى شطرين مقسومين بين القول والعمل ، كل منهما له النصف أو ما يقاربه ، بدأنا نرى كفة العمل تخف وتشيل ، وينقص قدرها ويتضاءل نصيبها ، وبدأنا نرى كفة القول تثقل وترجح ، وتزيد على أختها زيادة تهول وتروع حتى وصل الأمر أخيراً بالذين يسمون أنفسهم مسلمين ويدعون أنهم ورثة الدين العظيم ، إلى أنهم يقولون بلا انقطاع عن القول ، وينقطعون عن العمـــل بلا تفكير فى الرجوع إليه فدستورهم هو : قل قولا جميلا ، ولا عليك بعد ذلك أن تعمل ، فليس هناك من يعمل ، ولكن هناك من يقول ! ! . .

نعم إنها لعلة عليلة وقرحة دفينة فى أعماق قلب العالم الإسلامى ، فالألسنة والأقلام والمنابر والصحف والمجلات والجمعيات كلها أصوات وأقوال ، ثم لا شيء بعد هذا ، واكتفينا بذلك الكلام الذى يتبخر فى الهواء دون أن

نلتفت إلى مدى ما وصلنا إليه من انحدار مريع يصوره ما روى فى بعض الأحاديث عن الرسول حين قال : كيف أنتم إذا طغى نساؤكم ، وفسق شبابكم وتركتم جهادكم ؟ . قالوا : وإن ذلك لكائن يا رسول الله ؟ . قال : نعم والذى نفسى بيده وأشد منه سيكون ، كيف أنتم إذا لم تأمروا بالمعروف ولم تنهوا عن المنكر ؟ . قالوا : وإن ذلك لكائن يا رسول الله ؟ . قال : نعم والذى نفسى بيده وأشد منه سيكون ، كيف أنتم إذا رأيتم المنكر معروفاً والمعروف منكراً ؟ قالوا : وإن ذلك لكائن يا رسول الله ؟ . قال : نعم والذى نفسى بيده وأشد منه سيكون ، كيف أنتم إذا أمرتم بالمنكر ونهيتم عن المعروف ؟ قالوا : وإن ذلك لكائن يا رسول الله ؟ قال : نعم والذى نفسى بيده وأشد منه سيكون يقول الجليل : وحلفت لأتيحن لهم فتنة يصير الحليم فيها حيران ! ! . .

ولا يشك عاقل بصير بأحوال مجتمعنا الحاضر فى أننا قد صدقت علينا معجزة هذا الحديث ، فأصبحنا فى تلك الحيرة العامة الطامة التى يفقد فيها الحليم كل رشاد . . . بل ويصور مجتمعنا هذا قول الرسول الكريم عليه الصلاة والتسليم فى حديث آخر يقول : يكون فى آخر الزمان أناس يختلون الدنيا باسم الدين ، يلبسون للناس جلود الضأن من اللين ، ألسنتهم أحلى من العسل ، وقلوبهم قلوب الذئاب ، يقول الجليل سبحانه : أبى تغترون ؟ أم على تجترئون ؟ . فبى حلفت لأتيحن لهم فتنة يصير الحليم فيها حيران ! . . .

وهكذا ترى أن أمر المسلمين بعد أن كان صعوداً فى الدرجات ، أصبح نزولا فى الدركات . فكان الناس يعملون ولا يقولون ، ثم صاروا يقولون ويعملون . ثم صاروا أخيراً يقولون ولا يعملون ، ونحن حين نحرض المسلمين على أن يستأنفوا الصعود فى الدرجات مرة أخرى لا نريد منهم أن يبلغوا قمة السلم أو نهاية المصعد دفعة واحدة ، ولكننا نريد أن نستعيد قوتنا وعزتنا درجة درجة فلنقل كثيراً مع قليل من العمل ، فإذا تعودنا ذلك استطعنا أن نقول

قليلا مع كثير من العمل ، فإذا تعودنا على ذلك ، استطعنا أن نطمع فى الدرجة العليا من درجات الكمال الإنسانى فى هذه الحياة وهى أن نعمل ولا نقول ، فمتى يكون ذلك العهد الميمون ؟ ومتى يبلغ ركب المسلمين ذلك الهدف المجيد ؟ ومتى تهب على الحاضر نسمات عطرات من رياض الماضى البعيد ومتى يرجع عهد الأسلاف ؟ . . يا إلهى ! . . لقد نسيت ، أننى أنا الآخر لا أجد وسيلة سوى أن أقول ؟ ! !

داء الوساطة

لك الحمد يا بديع الأرض والسموات ، وميسر الطاعات وكاشف الكربات ، سبحانك لا يحمد على المكروه سواك ، ولا يقصد فى الشدائد إلا حماك وأنت الرءوف الرحيم ، نشهد أن لا إله إلا أنت دنوت بعلمك وقدرتك ، فكنت أقرب إلينا من حبل الوريد ، وتعاليت بصفاتك وعظمتك ، فكنت أسمى من كل بعيد ، ليس كمثلك شىء وأنت السميع البصير ، ونشهد أن سيدنا ومولانا محمداً عبدك ورسولك ، الذى شمل عدله العدو والحميم ، والصغير والعظيم ، فصلواتك اللهم وسلامك عليه ، وعلى آله الذين كانوا كواكب الإنصاف بين العباد ، وأصحابه الذين بثوا أنوار العدالة فى سائر البلاد ، وأتباعه الذين استجابوا لربهم خشية يوم المعاد ، أولئك لهم البشرى ، ولهم حسن العقبى فى جنات النعيم . . .

يا أتباع محمد عليه السلام . . .

إذا فقد الفرد من أفراد الأمة الشعور بسيادة الدالة والمساواة بين سائر الناس ، اختل توازنه وضل ضلاله ، وانقلب معول هدم وجرثومة فساد والباحث فى أحوال أمتنا المسكينة يرى أن داء الوساطة والشفاعة والمحسوبية والمحاباة قد ذاع وشاع ، حتى سبب للشعب كثيراً من الأمراض والأوجاع ، وأحال الأفراد إلى وحوش تتعامل بشرعة الغاب ، لا بشرعة أكرم كتاب ، وقد قيل إن إحدى « المصالح » فى مصر أعلنت عن وجود وظائف خالية فيها ، فقدمت إليها عدة طلبات ، وكل طلب كان معه توصية من وزير أو وكيل وزارة أو مدير أو مأمور ، أو موظف كبير ، أو نائب أو شيخ فى البرلمان ، ولكن أحد الذين تقدموا بهذه الطلبات كان فقيراً مقطوع الأسباب ، ليس

له بين الكبراء شفيع أو وسيط على الرغم من ذكائه ونبوغه ، وبحث عن إنسان له منزلته وسمعته ليأخذ منه بطاقة يرفقها بطلبه فتزكيه فلم يستطع ، فما كان منه إلا أن أحضر بطاقة بيضاء وكتب فى أعلاها بخط مجوف جميل كلمة «الله» ثم سطر تحتها هذه العبارة : « الله جل جلاله ، وعزت كلمته ، وتعالت قدرته ، يوصيكم خيراً بعباده الضعفاء ، وخاصة هذا العبد المسكين الذى لا ناصر له سواى ولا معين » ! . .

وتكدست الطلبات أمام الموظف الكبير المختص ببحثها والتصرف فيها ، وأخذ يستعرضها ليهيىء حكمه عليها ، فهذه توصية من الوزير الخطير ، فيجب أن تقبل على العين والرأس ، وإلا فالمصير المشئوم معروف ! . . . وهـذه توصية من عضو بارز فى الحزب الذى يتولى الحكم ، فيجب أن تقبل على العين والرأس ، وإلا فالنفى والتشريد أو النقل البعيد ! . . وهذه توصية من حضرة النائب المحترم ، ويجب أن تقبل بلا تردد ، وإلا دس له دسيسة عند رئيسه ، وحينئذ يحق عليه الويل والثبور ! ! . . وهذه توصية من مطربة مشهورة . . إى والله مطربة ، ولكنها معروفة ، ولها كلمة مسموعة ، وتأثيرها فى الكبراء والعظماء والسادة معلوم غير مجهول ، وإذن فلتقبل على العين والرأس ، وليكن بعد ذلك ما يكون ! ! . .

وأخذ حضرة الموظف الكبير ، الذى ائتمنه ربه على مصالح عباده ، وجعله ظله فى أرضه ، ومكن له من القوة والقدرة ما لم يمكن لسواه ، أخذ يرتب هذه الطلبات الكثيرة ترتيباً مسلسلا على حسب الأهمية والمكانة التى تكون لشخصية الموصى أو الوسيط ، فالوزراء مثلا يأتون أولا ثم الوكلاء ثم الكبراء والنواب ومن بعدهم . وهكذا ظلت الطلبات تتأرجح بين يدى الموظف الكبير ، فهذا يتقدم ، وذاك يتأخر ، وذلك يتوسط ، حتى وصل بعد لأى إلى بطاقة « الله » عز وجل . . . فما كاد يقرأ ما فيها حتى استلقى

على قفاه من الضحك ، ولكنه ، لم يسقط إلى الأرض ، فقد استند رأسه حين استلقائه على مسند مقعده الفخم الوثير ، وظن حضرته أن المسألة لا تزيد عن كونها ملهاة بينما هى فى الواقع مأساة ، وحسبها قصة هازلة ، بينما هى فى الواقع مشكلة معضلة ، وخيل إليه أن صاحب هذا الطلب الغريب المضحك لابد أن يكون مجنوناً أو مخبولا ويجب أن يقدم طلبه إلى مستشفى المجاذيب ، بينما هو فى الواقع رجل فقير أراد أن يذكر ظلمة البشر بعدالة السماء ! . . وهم الموظف الكبير بأن يلقى الطلب وبطاقته فى سلة المهملات ، فقد كان كما يظهر من الصنف الذى أظلم قلبه ومات ضميره ، وذهب عنه دينه ، فلا خلق ولا إيمان ، ولكن قشعريرة من الخوف البشرى ، والذل الإنسانى الدفين فى أغوار كل مخلوق مهما كان عربيداً ، انبعثت فيه فهزته ، وجعلته يتردد فى ذلك ، وحدثته نفسه أن يحاول إيجاد مكان لهذا الطلب بين الطلبات المقبولة ، وعاد يراجعها طلباً بعد طلب ، فلم يستطع أن يضع هذا الطلب المسكين فى أى مكان . . . أيمكنه أن يتغافل عن توصية الوزير ؟ . . هذا غير معقول ! . . أيتغافل عن توصية المدير ؟ . . هذا عسير ! ، أيتجاهل توصية المطربة المشهورة ؟ . . أيضاً لا ، بل ألف مرة لا ، فهى حقيقة امرأة ، ولكنها خطيرة ، ونحن نعيش فى دولة النساء ! ! . .

إذن ما يصنع ، وكيف يخرج من هذا المأزق ؟ فليخترع الرجل لنفسه عذراً بأن يقول : إن هؤلاء العظماء الذين أوصوا على الطلبات بشر لا يصبرون ولا يغفرون ، بل يتعجلون ويعاقبون ولكن الله صبور حليم ، وهو غفور رحيم ، ورحمته وسعت كل شيء ، فغضبه سيزول ، ولكن غضب هؤلاء لن يزول ، وخدع المغفل نفسه ، فألقى بطلب ذلك المسكين ، مع البطاقة التى كتب عليها اسم العزيز الجبار ، إلى جانبه ، ظاناً أنه قد نجا وخلص ، وأحسن التماس المعاذير ، مع أنه قد زل ووقع : «ولا تحسبن الله غافلا عما يعمل

الظالمون ، إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار ، مهطعين مقنعى رءوسهم ، لا يرتد إليهم طرفهم وأفئدتهم هواء ، وأنذر الناس يوم يأتيهم العذاب فيقول الذين ظلموا ربنا أخرنا إلى أجل قريب نجب دعوتك ونتبع الرسل ، أو لم تكونوا أقسمتم من قبل ما لكم من زوال وسكنتم فى مساكن الذين ظلموا أنفسهم وتبين لكم كيف فعلنا بهم وضربنا لكم الأمثال ، وقد مكروا مكرهم وعند الله مكرهم ، وإن كان مكرهم لتزول منه الجبال ، فلا تحسبن الله مخلف وعده رسله إن الله عزيز ذو انتقام » .

يا أتباع محمد عليه السلام . . . :

هكذا انتشر داء الوساطة فى بلادنا ، فأفسد كل صالح وأضاع كل حق وجعل الأمة تحس بأنها تعيش بين ذئاب وثعالب فهى لن تستطيع نيل حقوقها إلا بالأظافر والمخالب ، وأنت اليوم لا تستطيع أن تقضى حاجتك إلا بوساطة أو قرابة ، أنت لا تستطيع أن تعالج نفسك وأنت فقير فى المستشفيات المجانية إلا بتوصية من طبيب أو كبير وفى أكثر الأحيان تكون هذه التوصية بأجر معلوم ، وأنت لا تستطيع أن تنال لصبى مسكين مجانية فى مدرسة إلا بوساطة ، ولا تستطيع أن تجد لابنك مقعداً فى مدرسة الحى إلا بوساطة ، وهكذا نسى القانون والعدل والإنصاف والأمانة والإخلاص ، وأصبحت الوساطة هى قطار الوصول فى أغلب الأحيان . . . فأين الذين يخشون ربهم ، ويخافون يوماً كان شره مستطيراً ؟ . . وأين ولاة الأمور الذين يدخلون المكاتب والدواوين . والوزارات والمصالح ، والمدارس والمستشفيات ، وكل دار عامة ليحاربوا هذا الاستهتار ، والإسراف فى التهاون والطغيان ؟ . . أين الذين يرعون مصالح العباد ليرعى الله مصالحهم وليكون معهم ، فإنه هو الذى يقول : « إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون » ؟ ! .

قال عليه الصلاة والسلام : من نفس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة ، ومن يسر على معسر يسر الله عليه فى الدنيا والآخرة ، ومن ستر مسلماً ستره الله فى الدنيا والآخرة ، والله فى عون العبد ما دام العبد فى عون أخيه .

وفى الحديث القدسى يقول الله تبارك وتعالى : أنا العزيز ، من أراد عز الدارين فليطع العزيز ! . .

أقول قولى هذا ، وأستغفر الله لى ولكم ، ادعوا الله وأنتم موقنون بالإجابة .

همسات فى آذان الأغنياء

لك الحمد يا من كتبت على نفسك الرحمة . فكنت العادل الذى لا يظلم ، الرحمن الذى لا يبخل ، الرحيم الذى لا يمنع سبحانك ، خلقت الخلق ، وأجريت الرزق ، وأمرت بالقسطاس المستقيم ، ونشهد أن لا إله إلا أنت جعلت عبادك مستخلفين فيما متعتهم به من نعم وآلاء ، فإن أحسنوا وأدوا فيها ما أمرتهم بأدائه تفضلت عليهم بجزيل العطاء وكريم الجزاء ، وإن أساءوا أخذتهم أخذ عزيز مقتدر ، وحاسبتهم حساب من يعلم الجهر والخفاء : « لئن شكرتم لأزيدنكم ، ولئن كفرتم إن عذابى لشديد » ونشهد أن محمداً عبدك ورسولك، جعل الناس إخوة بعد طول خصام ، وأضاء قلوبهم بنور الرحمة والشفقة بعد طول ظلام ، فعليه منك الصلاة والسلام ، وعلى آله الهداة الأعلام ، وأصحابه السابقين إلى الإسلام ، ومن دعا بدعوتهم إلى يوم المعاد .

يا أتباع محمد عليه السلام :

العاقل من اتعظ بغيره ، واللبيب من اعتبر بحوادث الأيام ووقائع الليالى ، والحصيف من توقى الداء قبل نزوله ، واحترز من المرض قبل حلوله فهم يقولون إن الوقاية خير من العلاج ، ولا يستطيع باحث فى أحوال الشرقيين عامة ، والمصريين خاصة ، أن يتجاهل تلك الفروق الواسعة الشاسعة بين الأغنياء فينا والفقراء ، فبينما تحيا فئة قليلة حياة كلها ترف ورفاهية ونعيم، تتقلب فى الدمقس والحرير ، وتجلس إلى شهى المآكل والمطاعم وتمتلك الدور والقصور ، والضياع والعقار ، وتمتلىء إلى حد التخمة والإسراف الفظيع نرى آلافاً أو ملايين من عامة الشعب لا يجدون القوت الأسود إلا بشق الأنفس ، ويحرقون أعصابهم ويمزقون أجسامهم ويزهقون أرواحهم فى المزارع أو المصانع

أو المعامل أو الشركات ثم لا يفوزون من الحياة بعد ذلك إلا بنصيب ضئيل قد لا يفى بالضروريات ، فهم أقرب إلى حياة الحيوان منهم إلى حياة الإنسان

ولا شك أن مثل هذه الفوضى الاجتماعية والمفارقات الاقتصادية توجد زلزلة واضطراباً بين أفراد الشعب وتخلق بغضاً وكراهية فى نفوس الفقراء للأغنياء ، ولا نأمن فى المستقبل أن تضيق فى وجوه أولئك المعوزين سبل الحياة فلا يطالبون بإصلاح الحال فى رفق وأناة ، بل يندفعون فى حماسة ثائرة ، وموجة طاغية إلى تصرفات لا يقرها دين ولا عقل ، بل النذر الخبيثة الخطيرة قد لاحت أخيراً فى صورة هتافات أو مبادىء ليس فيها إصلاح للحال ، ولا استرشاد بالدين ، ولو لم نسارع بعلاجها والقضاء على أسبابها لاستشرى الداء وعم البلاء . .

إننا لسنا بحاجة إلى تشريع جديد . أو مذهب أوربى طريف أو علاج اجتماعى دخيل ، فحسبنا القرآن شفاء ، وحسبنا هدى الرسول الأعظم صلى الله عليه وسلم ضياء ، وحسبنا قانون السماء بلسما ودواء ، فها هوذا الإسلام الحنيف يبيح للمسلم حرية الملك وحرية الكسب وحرية الربح الحلال ، ولا يمنعه أن يكون غنياً يتمتع بطيبات الله فى الأرض ولكنه بجوار ذلك فرض على الأغنياء نصيباً معلوماً من أموالهم يدفعونه للفقراء والمساكين ، فتزول الأمراض وينعدم الفقر ويسود الحب والإخاء بين الأغنياء والفقراء ، وقد نص القرآن على هذا النصيب : « وفى أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم » . ثم لم يكتف بفريضة الزكاة ، بل حبب فى الصدقة والبر والإحسان فى عشرات من الآيات ومن ذا الذى لا يسارع إلى الخير حين يسمع : « مثل الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل فى كل سنبلة مائة حبة ، والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم » ؟ ! .

إن الزكاة هى صلاح هذا المجتمع الفاسد ، وهى الوقاية من خبيث المبادىء

وخطير الدعوات ، ولو أن كل قادر أنفق على المحتاجين ما فرضه الله عليه في ماله لهم لما شكونا فقراً أو إجراماً أو بلبلة ، والشاعر يصف ذلك فيقول :

ارنو إلى وطنى العزيز وأنثنى ... بمدامع حرى ، وقلب دامى
حسب المشاهد للكنانة أن يرى ... ما ليس يخطر فى رؤى النوام
فرد تسربل بالثراء ، وآخر ... يحيا حياة سوائم الأنعام
ومرفه يدمى الحرير بنانه ... وأخو شقاء أغبر الهندام
وربيب قصر آنس بضيائه ... وقعيد كوخ موحش الإظلام
من مبلغ عنى نصيحة مخلص ... هادى الفراسة ، صادق الإلهام
أدوا الزكاة إلى العفاة ، فإنها ... حق لهم فى شرعة الإسلام
آسوا بها جرح الفقير ، وكفكفوا ... ذوب الأسى بمدامع الأيتام
فى كل يوم تستجد جرائم ... كادت تقض مضاجع الحكام
عبثاً تعالج بالقضاء ، وحكمه ... بالسجن ، أو بعقوبة الإعدام
إن الزكاة هى العلاج ، وإنها ... لمراجل الأحقاد خير صمام

لذلك نهمس فى آذان الأغنياء بتلك النصيحة الخالصة ، راجين أن يتعاون الجميع على البر والتقوى ، ولا يتعاونوا على الإثم والعدوان ، واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون ! . أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم .

دعوة للعمل

الحمد لله عز وجل ، ارتضى لعباده الجد فى الصالحات ودعا إليه ، ونفرهم من الخوض فى الباطل وعاقب عليه : « أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وأنكم إلينا لا ترجعون » ؟ . أشهد أن لا إله إلا الله ، جعل الجزاء من جنس العمل : « من عمل صالحاً فلنفسه ، ومن أساء نعليها ، وما ربك بظلام للعبيد » ، وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، عمر بالصالحات دنياه ، وأخلص لربه أولاه وأخراه ، فصلوات الله وسلامه عليه ، وعلى آله الطاهرين ، وأصحابه السابقين ، وأتباعه العاملين : « ومن يعمل الصالحات وهو مؤمن فلا يخاف ظلماً ولا هضماً » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

ليس هناك داء كالترف يهلك الأفراد والأمم ، ويقوض بنيان الجماعات والمجتمعات ، لأنه يشيع البطالة وينشر الكسل ، ويجرىء على التحلل والفسوق ولذلك يقول الله عز وجل : « وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها (أى كثرناهم) ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميراً » . والأمة فى فترات تخاذلها وتضعضعها تأخذ فى أسباب من اللهو والعبث والتبطل ، فتزيدها خبالا على خبالها ، وضلالا فوق ضلالها ، ولكن الأمة الناهضة من سباتها ، الصاعدة نحو مجدها ، الراغبة فى ترسيخ قواعدها ، تقبل على الجد ، وتعرض عن اللهو ، وتمضى فى التشييد والبناء . . ولقد خطب رئيس الدولة أول أمس خطابه السنوى المعروف ، وفيه حمل حملة صريحة واضحة على المتبطلين العاطلين بالوراثة الذين لا يحسون بشرف العمل ولا يتقنون إلا توافه الأمور كالرقص والغناء واللهو الباطل ، وقال إن الاحتلال الأجنبى قد علمنا أن

نعد العمل اليدوى نقيصة مع أنه مصدر الخير للوطن ، وعماد البناء فيه ، ودعا إلى العمل والاعتزاز به ، ونحن نريد هنا أن نتبين كلمة الإسلام فى العمل وشرف العمل ومكانة العاملين ، فإذا فتحنا كتاب ربنا جل جلاله ، وجدنا فيه عشرات من الآيات تتحدث عن العمل والعاملين حديث التكريم والتعظيم: « وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون » « إنا لا نضيع أجر من أحسن عملا » ، « فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره » . ونجد الرسول صلوات الله عليه يكرم العمل والعاملين ، فيقول : « إن الله يحب العبد المحترف » ويقول : « من أمسى كالا من عمل يده أمسى مغفوراً له » . ولقد روى أن الرسول رأى رجلا من الأنصار قد عمل حتى خشنت يده أو تورمت ، فسأله النبي عن سبب ذلك ، فقال الرجل إنه من أثر المسحاة التى يعمل بها حتى ينفق من عمله على عياله ، فقال الرسول : « هذه يد لا تمسها النار » وفى رواية : هذه يد يحبها الله ورسوله » . وهذا عمر الفاروق رضوان الله عليه ، كان يرى الرجل من الرجال ، فيعجبه شكله أو منظره أو منطقه ، فإذا قيل لعمر إن هذا الرجل لا عمل له ، سقط الرجل من نظر عمر ، واحتقره بعد إكبار ، لأنه من « العاطلين بالوراثة » الذين يعتمدون على عمل سواهم ، ويستغلون عرق غيرهم ، فهم كدود العلق الذى يمتص الدماء . . . ثم هؤلاء هم الأنبياء وهم خيرة خلق الله تبارك وتعالى . وقادة البشرية فى متتابع أجيالها وعصورها ، كانوا يعملون ويحترفون ويشتغلون بأيديهم ، ويسعون فى فجاج الأرض طلباً للرزق وتشرفاً بالعمل ، فمحمد إمامهم وقائدهم رعى الغنم وتاجر ، وجمع الحطب ورقع النعل وخاط الثوب وخدم أهله بما استطاع ، ونبى الله داود كان يأكل من عمل يده ، ويقول عنه ربه : « وعلمناه صنعة لبوس لكم لتحصنكم من بأسكم فهل أنتم شاكرون » ؟ وكذلك جميع الأنبياء قد عملوا ورعوا الغنم كما أخبر الصادق المصدوق صلوات الله عليه . . .

والإسلام الحنيف المجيد الخالد لا يكتفي بتحريضنا على العمل فقط ، بل يطالبنا فوق ذلك بأن يكون عملنا عملا متقناً لا عيب فيه ولا نقص ، فيقول الرسول : « إن الله يحب من العبد إذا عمل عملا أن يتقنه » ، ويريد منا بعد هذا أيضاً أن يكون العمل موصولا مستمراً ، حتى يدوم ثمره ونفعه فيقول الرسول : « أحب الأعمال إلى الله أدومها وإن قل » ، فالدين الذى ندين الله به ونعبده عن طريقه يأمرنا بأن نعمل ، وبأن نتقن ما نعمل ، وبأن ندوم فيما نعمل ، فأية قوة محرضة تكون أقوى أو أبقى من هذا الصوت الإلهى البـــاقى الذى يتردد فى الأسماع والقلوب والعقول قائلا : « ونعم أجر العاملين » ؟ ! ..

إنى من فوق هذا المنبر أقترح أن يكون للعمل يوم مشهود فى العام نسميه « يوم العمل » أو « عيد العمل » ، وإذا كنا قد أقمنا أياماً وأعياداً للربيع والأم والعلم والفن والرياضة ، فيجب أن يكون للعمل يوم أو عيد فى مقدمة هـــذه الأيام والأعياد ، ويجب أن نزكى هذا اليوم بكل ما نستطيع من وسائل التزكية والتقوية من ناحية الدين والعلم والمادة ، حتى يكون ذكرى تنفع المؤمنين ، وحتى يكون باعثاً ومحرضاً على الثبات فى مجالات العمل طيلة العام إلى أن يقبل يوم العمل من العام التالى فتتجدد الذكرى وتقوى العزائم ، وفى يوم العمل هذا ينزل رئيس الدولة والوزراء والعلماء والكبراء والموظفون إلى المصانع والمعامل والمزارع والشوارع ، كل منهم يباشر عملا مهما قل ، أو ضعفت مكانتهم الاجتماعية أن العمل فى حد ذاته شرف يرفع صاحبه وشرفه بطريقة مادية محسوسة ، ويدرك الذين يعملون مهما قل شأنهم المادى أو ضعفت مكانتهم الاجتماعية أن العمل فى حد ذاته شرف يرفع صاحبه ولا يضعه ، وأن العمل وسام تزدان به صدور العاملين ، ثم يتنبه الغافلون المتبطلون الذين لا يعملون . . . يتنبهون إلى أنهم محرومون من هذا الشرف وذلك الوسام ، فيخرجون من تعطلهم وتبطلهم إلى ميدان من ميادين العمل

لينالوا شرف الانتساب إلى أمتهم العاملة المجاهدة ، فإن العضو الذى لا يتحرك ولا يعمل لا يستحق البقاء ، ونحن نريد فى دور البناء من يحمل المكتل ، ومن يضرب بالمعول ، ومن يدير الآلة ، ومن يحمل الأحجار والرمال ، ومن يزيد فى البناء ، والذى لا يخدم أمته لا يحق له أن ينتسب إليها أو ينتفع بخيرها . . .

ولقد حمل رئيس الدولة أيضاً حملة صادقة على الصحافة المتميعة ، لأنها تهتم بأنباء العاطلين الذين ورثوا المال ولا يعملون ، بل يلهون ، وقال إن هذا انحراف من رواسب المرضى ، ولا يمثل المجتمع الذى نريده ، ويجب أن تعنى الصحافة بغير هذا الكلام الفارغ العابث ، وأن تهتم بأنباء العمل والجد ، والتنويه بالعاملين والمنتجين ، وقال إن الحكومة يمكنها أن تمنع هذا الانحراف فى الصحافة بسلطانها ، ولكنه من الخير أن يزول بالوعى ، والوعى هنا يراد به وعى الشعب نفسه الذى يجب أن يعلم هؤلاء العابثين والماجنين أن المجتمع السليم ليس فيه متسع للهو أو اللغو أو العبث ، ويراد به أيضاً وعى الصحفيين أنفسهم الذين يجب عليهم أن يتقوا الله فى أمتهم ، وأن يتنبهوا لرسالتهم ، وأن يحسنوا التصرف فى هذه الأداة الخطيرة هى الصحافة ، فلا يجعلوها معول هدم أو تحطيم للعقائد والفضائل والمبادىء الخلقية والنزعات العملية الصالحة ، كما يراد بهذا الوعى أيضاً وعى هؤلاء العاطلين بالوراثة العابثين بالليل النائمين بالنهار ، لعلهم يرتدعون ويستقيمون ، وإذا لم تسارعوا إلى إصلاح هـذا الانحراف من أنفسهم فمن واجب الدولة أن تصلحه بقوتها وسلطانها ، والله يزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن ، والإسلام ينفر أشد التنفير من تضييع الجهد أو الوقت فى كلام فارغ أو حديث باطل أو قصص هازل أو ما أشبه ذلك من التوافه التى نراها مبثوثة فى كثير من الصحف والمجلات ، والله عز وجل يقول : « لا خير فى كثير من نجواهم إلا من أمر بصدقة أو معروف

أو إصلاح بين الناس » ويقول : « إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه » ، والرسول يقول : « من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه» ويقول : « إن الله يحب معالى الأمور ويكره سفسافها » ، فلعل هذا الدرس يكون واعظاً وزاجراً للذين يقوضون الدعائم بما خبث وانحرف من الكتابة هنا وهناك . . .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . . كلما تطلعنا إلى جوانب دنيانا ، ووجدناها تحتاج إلى إصلاح أو تقويم ، ثم فزعنا إلى الإسلام وجدناه المسعف السباق بالعلاج والدواء ، ذلك لأنه هدية الخالق الحكيم العليم إلى الدنيا كلها ، ليصلحها من فساد ، ويقومها من عوج ، ويسعدها بعد شقاء : « قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين ، يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ، ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم » . وسبحان من لو شاء لهدانا جميعاً إلى سواء السبيل . . .

هذا هو البعث

لك الحمد يا علام الغيوب ، وكاشف الكروب ، أنت فالق الحب والنوى ومخرج الأحياء من الموتى سبحانك سبحانك ! ! أنت الذى تبعث الأمم الغافية من رقادها ، وتحيي الأرض الهامدة حين معادها ، نشهد أن لا إله إلا أنت ، لا عز إلا بك ، ولا نصر إلا منك ، ولا معول إلى عليك ، ونشهد أن سيدنا ومولانا محمداً عبدك ورسولك ، وصفيك وخليلك الذى أكرمته برسالتك ، وأيدته بعنايتك ، فجعلت رزقه تحت ظلال رمحه وسيفه ، وجعلت الذلة والصغار على من خالف أمره ، فصلواتك اللهم وسلامك ، وتحياتك وبركاتك عليه ، وعلى آله الذين كانوا فى سبيل الله سيوفاً باترة ، وأصحابه الذين جمعوا فى حياتهم بين العريكة اللينة والعزة القاهرة ، وأتباعه الذين أحسنوا العمـــل والاستعداد للدنيا والآخرة ، « والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا ، وإن الله لمع المحسنين » ! ! .

يا أتباع محمد عليه السلام :

إذا تركت السكين بلا استعمال صدئت ولم تصلح للقطع كما كانت قبل الإهمال ، والسيف المصقول البتار إذا وضع فى غمده زمناً طويلا فقـــد لمعانه وبريقه ، وأصيب بالضعف والكلال ، والجندى إذا ركن إلى الراحة وانخرط فى النعيم نسى المعارك وفنون القتال ، والأمة إذا طال عليها الأمد وهى لاهية واهية كرهت الجهاد ، واستبشعت صورة الموت ، وتصورته غولا مخيفاً وسبعاً ضارياً مع أن رسول الله عليه صلوات الله يقول : « ما يجد الشهيد من مس القتل إلا كما يجد أحدكم من مس القرصة » .

ونحن قد ظللنا فى حياة رخيصة تافهة ، عشرات وعشرات من السنين ، جهادنا كلام ، ومعاركنا سباب وخصام ، وأسلحتنا أوراق وأقلام ، وأسيافنا قطع من الخشب العتيق البالى يمسكها الخطباء فوق المنابر ليقيموا الدليل العملى على أن المسلمين قد فقدوا روحهم ويقينهم . فصاروا أيضاً قطعاً خشبية لا تنفع ولا تفيد ! .

نعم ظللنا عشرات وعشرات من السنين بفضل الاحتلال الأوربى اللئيم لا نكتوى بنيران معركة ، ولا نفخر بحمل سلاح فى ميدان ، ولا نقدم ضحايا للحرية فى سوح الجهاد والنضال ، ولا نذوق الموت الأحمر فى سبيل الله والوطن فبعد العهد والأمد بيننا وبين الكفاح ، حتى أصبحنا نهاب الموت ونخافه ، ونجزع من رؤية الدماء ، ونفزع إذا شاهدنا آلة من آلات القتال ، ونفر من كل ما يتصل بالتضحية فرار الظباء الناعمة من الأسود الضراغم ، حتى كاد يخيل إلينا أننا أحط من غيرنا من الشعوب ، فهم يتقدمون ونحن نتقهقر ، وهم يضحون بالملايين ونحن نجبن ، وهم يحاربون ونحن نأكل وننام ، وهم يستأسدون ونحن نؤسر ونضام ، وذلك جزاء الاستكانة والاستسلام ، سنة الله فى خلقه ولن تجد لسنة الله بديلا ! .

ثم جاءت محنة فلسطين فأيقظت النائمين ، ونبهت الغافلين ، وطال من الخطباء والكتاب حبل التحريض والتشجيع على الجهاد بالحديد والنار ، لا بالثرثرة وتناقل الأخبار ، وحينما خيل إلينا أن الأزمة قد استحكمت حلقاتها وأن الأمة قد ضاعت مميزاتها ، وأن اليأس قد أخذ ينشر جلابيبه السوداء ، وإذا بالأشبال تحطم القيود ، وإذا بنا نستيقظ فنسمع النفير الجدى الصادق يدعو الأسود العرب إلى الزحف الجدى الصادق وإذا بنا نرى ما كنا نعد بالأمس خيالا من الخيالات ، أو وهماً من الأوهام ، فهذه طائراتنا المنصورة تدك معاقل العدو دكاً ، وهذه مدافعنا تقذف بحممها فتزلزل الأرض زلزالا ،

وهؤلاء جنودنا المظفرون لا يقدمون على الموت الكريم الشريف لأنهم قد أمروا بذلك . أو أرغموا عليه ، بل يسارعون إلى مصارعهم كأنهم يرون من خلال الغبار ضوء الجنان وكأنهم يشمون من بين العثير ريح الفردوس الأعلى ، وكأنهم قد فرحوا بإتمام الصفقة الرابحة التى يتحدث عنها ربهم فيقول « إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة ، يقاتلون فى سبيل الله فيقتلون ويقتلون ، وعداً عليه حقاً فى التوراة والإنجيل والقرآن ، ومن أوفى بعهده من الله ، فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به ، وذلك هو الفوز العظيم » .

حقاً ما أشبه الجندى العربى اليوم بعملاق جبار خدعه اللص الأوربى الماكر ، فسقاه مخدراً صرعه وألقاه خائر القوى على الأرض ، وظل هـذا العملاق يغط فى نومه ، لا يتحرك ولا يفيق ، فقد كان المخدر شديداً عميق المدى بليغ الأثر والمفعول ، وكانت الشعوب الأخرى تمر بهذا العملاق سريعة أو معتدلة أو بطيئة فى سيرها نحو الأيام ، وهو لا يحرك ساكناً ، وفجأة نزلت بهذا العملاق النائم صدمة عنيفة هزت كيانه وزلزلت أركانه ، فإذا به يفيق ، وإذا هو يسترد اتزانه وتفكيره ، فيهب واقفاً على قدميه ، ويتلفت ذات اليمين وذات الشمال ، فإذا الكل قد سبقوه وفاتوه بمراحل ، وإذا باللصوص قد اعتدوا على ممتلكاته وحقوقه ، فسرقوا متاعه ، وانتهكوا حماه ، واحتلوا دياره ، وأشعلوا النار فيما بقى من ذخائره وذماره ، فنفض عن جسمه فضلات الونى والكسل ، وامتشق الحسام البتار وأقبل يجاهد لإخماد النار وتأديب الأشرار ! ! . .

والعملاق العربى المجاهد اليوم لا يحفظ كرامة نفسه فحسب ، بل يرد إلى أمته كلها اعتبارها وفخارها ويحفظ لها سمعتها ونخوتها ، وإذا كنا بالأمس نندب وننوح ، ونخجل أن نتحدث عن المعارك والميادين ، فإن كل عربى اليوم يستطيع أن يرفع رأسه موفور الكرامة ، وأن يسير بين الناس شامخ

الأنف ، فقد صار له جيش يحارب ، وأشقاء يجاهدون ، وما من مجتمع من مجتمعات العرب والمسلمين تمر عليه اليوم أو تجلس إليه ، إلا وتجده فرحاً غاية الفرح من خوض المعركة ، وكأن الشعب العربى مزمار تنفخ فيه هـذه العصبة المباركة من الجنود المجاهدين فتهز الأوتار وتتلاعب بالقلوب ، وكيف لا وقد ودع العرب حياة الدعة والخمول ، والكلام والادعاء وبدءوا يعملون فى أشرف ميدان ، وكل مجاهد منهم يقول صادقاً :

أبت لى شيمتى ، وأبى تلادى ... وأخذى الحمد بالثمن الربيح

وإقدامى على المكروه نفسى ... وضربى هامة البطل المشيح

وقولى كلما جشأت وجاشت ... مكانك تحمدى أو تستريحى

لأدفع عن مآثر صالحات ... وأحيا بعد عن عرض صحيح !

ولقد تحدث بعض العائدين من جبهات القتال فى فلسطين المقدسة فقالوا إن الجنود والضباط المصريين الذين يحاربون هناك قد أتوا من ضروب الشجاعة وأفانين البطولة ما يعتبر قصصاً رائعة تروى للأجيال بعد الأجيال ، فتعلمهم أن الخير لن ينقطع أبداً من أمة محمد عليه الصلاة والسلام ، وأن الشعوب العربية لا تزال منطوية على سلائقها العليا التى ورثتها عن أسلافها ، ولا ينقص هذه السلائق السامية لكى تظهر وتؤثر إلا أن تبعث من رقادها وتشحذ من كلالها وتهيأ لها السبيل ! .

اللهم ربنا لك الحمد . حمداً كثيراً حتى ترضى ، حمداً ملء السموات وملء الأرض وملء ما شئت من شىء بعد ، فهذا هو البعث الذى تفضلت به على عبادك وهذا هو اليوم الموعود الذى أحييت فيه مواتهم ، وأعدت إليهم روحهم ، وبعثت الحمية فيهم وأقسم لكأنما الإنسان يشهد بعين الحقيقة والواقع تصديق أحلام جميلة ورؤى عذبة شاهدها فى سبحات الخيال ، ثم

شاء العلى القدير أن يجعلها حقيقة تسعى بين الناس ، وها هوذا الإنسان يتناول فى يده خريطة فلسطين ، وبوده لو نقشها بموانيها ومدنها وقراها على صفحات قلبه ، وطوى عليها حنايا صدره حتى يحفظها من كل سوء ، وإنه ليتطلع إلى المواقع المختلفة فيها ، ويتتبع المعارك الدائرة فوقها ، فيستحيل جسمه وعقله وكل ما حوله إلى عواطف ومشاعر تفيض بالرجاء الخالص والدعاء العميق أن يبارك الله هذا الجهاد وأن ينصر أولئك المجاهدين ، وأن يحفظهم من فجاءة الأيام ، وبغتات الأقدار ، فإن الغد غيوب وأسرار ، وإنها لأول معركة لنا بعد طول وهجوع ، وهنيئاً للذين أسعدهم ربهم فكتب لهم السبق إلى ذلك الميدان الكريم فما أشبه أبطال اليوم بأبطال الأمس الذين سارعوا إلى فاتحة المعارك الاسمية فى غزوة بدر ، فصدقوا ما عاهدوا عليه ، ونصروا ربهم بالملائكة مردفين ، ثم أكرمهم فغفر لهم ما تقدم من ذنوبهم وما تأخر ، وحسبكم أن تعلموا أن حاطب بن أبى بلتعة كان من بين الذين شهدوا بدرا وجاهدوا فيها ، ثم اضطر بعد ذلك فى بعض المواقف الحرجة إلى نقل أخبار المسلمين إلى المشركين ، وضبط متلبساً بفعلته ، فاغتاظ الفاروق عمر من ذلك ، واستأذن رسول الله أن يضرب عنقه بالسيف ، لأنه قد نافق فى رأى عمر ، ولكن الرسول الكريم عليه الصلاة والتسليم يقبل من من حاطب عذره ، ويعارض عمر فيما يريد قائلا له : إنه شهد بدرا ، وما يدريك لعل الله اطلع على أهل بدر فقال : اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم ! ! . .

يا أتباع محمد عليه السلام . . .

إذا كنا قد حرمنا من شرف الاشتراك المباشر فى المعركة فإن علينا واجباً عظيماً يبلغنا ما نطمع فيه من الثواب وحسن الجزاء ، فمن ذلك الواجب أن نكون خير خلفاء للذين يدفعون بدلا عنا ضريبة الدم ، فنرعى أسرهم وأولادهم ونحفظ غيبهم ، وأن يقدم كل منا ما يستطيعه لهم ، فمن وجد سعة فى المال

فليتبرع للترفيه عن الجنود ، ومن وجد سعة فى الثياب أو الطعام أو الحلوى أو الكتب المفيدة أو القصص المسلية فليقدم من ذلك ما يجده ويستطيعه ، وتذكروا دائماً أن المرابطين من إخوانكم فى خطوط القتال أحق الناس برعايتكم وعنايتكم ، ودعائكم وحسن رجائكم ، ومن أنفق نفقة فى سبيل الله كانت له بسبعمائة ضعف ، والله لا يضيع أجر من أحسن عملاً ، واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون إن الله مع الذين اتقوا ، والذين هم محسنون .

سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم : أى الناس أفضل ؟ فقال : مؤمن يجاهد فى سبيل الله بنفسه وماله . قالوا : ثم من ؟ . قال : مؤمن فى شعب من الشعاب ، يتقى الله ويدع الناس من شره ! .

وقال عليه الصلاة والسلام : من لم يغز ، أو يجهز غازياً ، أو يخلف غازياً فى أهله بخير ، أصابه الله بقارعة قبل يوم القيامة ! .

من عيون الحكم

نحمدك اللهم ونستعينك، ونشهد أن لا إله إلا أنت، ونشهد أن محمداً عبدك ورسولك، ونصلى ونسلم عليه، فهو صفوتك من خليقتك، وهو الذى آتيته جوامع الكلم، وأنزلت عليه كتابك المبين، معجزاً لجميع العالمين، وعلى آله وصحبه وأتباعه الذين، قاموا بهديه خير قيام، فأشرقت بهم أنوار المدنية الصحيحة على جميع الأنام..

أما بعد فيا أيها الإخوان:

إن رسول الله الذى أوتى جوامع الكلم، وكان أفصح العرب وأبلغهم فى الحديث والخطاب، قد استطاع أن يغرس الملكة العربية القويمة فى نفوس أصحابه وأتباعه، وأن يخرج منهم الوعاظ الصادقين، والمرشدين المجربين، والناصحين المخلصين، والخطباء البلغاء، والحكماء الفصحاء، وفى مقدمة هذه النخبة إمام المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله عنه وكرم الله وجهه، فله فى الكتاب المنسوب إليه والمسمى بنهج البلاغة عظات وعبر، وكلمات بالغات وآيات من عيون الحكم يقف المرء حيالها ليتدبرها ويحيط بمعناها ومغزاها فيسبح فى آفاق من الحكمة وفصل الخطاب، وهأنذا أنقل إليكم شيئاً من هذه الحكم ثم أقفى عليها بما فصله بعض العلماء لها من شرح مبين للدقائق والأسرار [1]

قال الإمام على:

« من نظر فى عيب نفسه اشتغل عن عيب غيره، ومن رضى برزق الله لم يحزن على ما فاته، ومن سل سيف البغى قتل به، ومن كابد الأمور عطب، ومن اقتحم اللجج غرق، ومن دخل مداخل السوء اتهم، ومن كثر

كلامه كثر خطؤه ، ومن كثر خطؤه قل حياؤه ، ومن قل حياؤه قل ورعه ، ومن قل ورعه مات قلبه ، ومن مات قلبه دخل النار ، ومن نظر فى عيوب الناس فأنكرها ثم رضيها لنفسه فذلك الأحمق بعينه ، ومن أكثر من ذكر الموت رضى من الدنيا باليسير ، ومن علم أن كلامه من عمله قل كلامه فيما لا يعنيه ».

هذه جملة من عيون الحكم رويت عن الإمام على منظومة فى سلك واحد ، كأنها جداول من معين الحياة الفاضلة صدرت عن ينبوع النبوة المحمدية ، واتصلت بالإمام من بحرها الزاخر ، فأفاضها على الناس تحيي موات قلوبهم ، وتشفى علل نفوسهم ، وتضيء طرق الحياة السعيدة أمامهم . . .

يقول الإمام : « من نظر فى عيب نفسه اشتغل عن عيب غيره » ، نعم . فإن من يرى الفساد يتغلغل فى نفسه شغله إصلاحه عن النظر فى فساد غيره ، ولكنه لو أهمل النظر فى نفسه ، وقصر همه على النظر فى أحوال الناس . غفل عن حال نفسه وهى أولى بعنايته من سواها ، فبقى على ما هو عليه حتى يرد موارد الهلكة . فإذا كان المشتغل بعيوب الناس صادقاً فى حبه لخلاصهم منها ، فلا يعقل أنه يعنى بغيره ولا يعنى بنفسه ، ولو أنه عنى بنفسه مع عنايته بغيره لقل الخطب وهان الأمر ، ولكن ماذا تقول وأكثر الناس اليوم لا هم لهم إلا أن يتظاهروا بمظهر المصلحين المجاهدين ، وهم أحوج الناس إلى المجاهدة والإصلاح ، فبيوتهم من زجاج رقيق لا يتحمل مر الرياح ، ويأبون إلا أن يقذفوا بيوت الناس بالحجارة والصخور :

يا أيها الرجل المعلم غيره	هلا لنفسك كان ذا التعليم
تصف الدواء لذى السقام وذى الضنى	كيما يصح به وأنت سقيم
ونراك تصلح بالرشاد عقولنا	أبداً وأنت من الرشاد عديم
ابدأ بنفسك فانهها عن غيها	فإذا انتهت عنه فأنت حكيم !

ويقول الإمام على : « من رضى برزق الله لم يحزن على ما فاته » . نعم ، إذ كيف يحزن على فوت ما ليس من حظه ، وقد صرفه الله عنه إصلاحاً لنفسه ، والأرزاق بيد الله ، فلله فوق تدبيرنا تدبير ، وهو الخبير بالناس ، وهو العليم الحكيم ؟ .

ويقول : « من سل سيف البغى قتل به » . كيف لا والباغى يحارب الله بعدوانه على خلقه ، فهل يعقل أن يسلم من بطش المنقم القهار ، ومن حفر حفرة لأخيه وقع فيها ، وعلى الباغى تدور الدوائر ؟ ! .

ويقول : « من كابد الأمور عطب » . أى من عالجها بغير الوسائل المؤدية إليها لم يزل يرتطم بالعقبات التى تصادفه حتى يدركه العطب ، ولكنه لو اتخذ لكل أمر عدته ، واتبع الوسائل المؤدية إليه ، كان جارياً على سنة الله ، وكان جديراً بالفوز والنجاح .

ويقول : « من اقتحم اللجج غرق » . وكيف لا يغرق ولابد من أن يدركه التعب وهو فى وسطها تتقاذفه أمواجها ، فلا هو بواجد ساحلا ينحاز إليه ، ولا بملاق سنداً يعتمد عليه ، والعاقل لا يفعل ذلك . . . والمراد باللجج هنا هو كل ما يخرج عن حد الطاقة من الأمور والمطالب ، وإن المنبت لا أرضاً قطع ، ولا ظهراً أبقى ، وارض بما قسم الله لك تكن أغنى الناس كما قال الرسول الكريم .

ويقول : « من دخل مداخل السوء اتهم » فمن أوى إلى حانة ، أو جلس حيث يكثر مرور النساء ، أو مر فى شارع موبوء ، أو ماشى من اشتهر بالمعاصى ، اتهمه الناس ولو كان بريئاً ، فالفطن يحذر من ذلك كله ، ولا يعرض نفسه لقالة السوء ، وما أسرع بنى آدم إلى ظن السوء ! . .

ومن دعا الناس إلى ذمه ذموه بالحق وبالباطل !

ويقول : « من كثر كلامه كثر خطؤه ، ومن كثر خطؤه قل حياؤه ، ومن قل حياؤه قل ورعه ، ومن قل ورعه مات قلبه ، ومن مات قلبه دخل النار » .

وأقول : إن هذه من الكلم النوابغ الجوامع حقاً ، وهى تتناول خصلة شائعة فى الناس ، عجز الآباء والمربون عن تخليص النفوس من شرها ، وهى كثرة الكلام . وقد قرنها الإمام هنا بما تؤدى إليه من ذميم الخصال ، فكان كلامه عنها من أنجع الوسائل للخلاص منها ، إذ صور نتائجها السود أبشع تصوير . . نعم إن من كثر كلامه كثر خطؤه ، لأن الثرثار مندفع متطرف متهور بطبعه ، يلتمس القول من جميع مظانه صواباً كان أو خطأ ، ويضطر للمبالغة والاختلاق ، ويتصيد الغث والسمين ، وكل هذا يعرف عنه ، لأن السامعين يدركون كذبه ولو بعد حين ، ثم يعرف المختلق ما يلاحظه النـــاس عليه فلا يبالى به ، بل يقل حياؤه ويتبجح ، فإذا وصل إلى هذه الدرجة قل ورعه لأن الورع ينافى الخبط والخلط والتكلم بغير علم ، ومن قل ورعه مات قلبه ، لأن كثرة الآثام التى يرتكبها ترين على فؤاده فتحجب عنه النور فيموت ، ومن مات قلبه استوجب النار ، قال تعالى « يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم » .

قال الإمام : « ومن نظر فى عيوب الناس فأنكرها ثم رضيها لنفسه فذلك الأحمق بعينه » والواقع أنه لو كان بعد الحمق دركه من الغباوة لاستحقها من كان هذا شأنه . أفلا يكون من أحط دركات الحمق أن يرى الإنسان النار تشتعل فى داره فيتركها طعمة لها ، ويشتغل بالكلام عن النار التى تشتعل فى دار غيره ؟ . . . ولكن الناس قد أغرموا بالتحدث عن نقائص غيرهم مع تلبسهم بمثلها أو أكبر منها :

لا تنه عن خلق وتأتى مثله   عار عليك إذا فعلت عظيم

قال الإمام : « ومن أكثر من ذكر الموت رضى من الدنيا باليسير » . ؛ وقد صدق ، فإن المنهومين بجمع حطام الدنيا لا يذكرون الموت قط . وليس المقصود من هذا الكلام أنه يجب أن يكثر الإنسان من ذكر الموت حتى يرضى من حطامها باليسير ، فيعيش الناس كلهم فقراء ، ولكن المراد به زجر المبالغين فى طلب الدنيا على غير أساس من الأخلاق ، ولا أصل من الدين ، ولا فضيلة من القصد فى الطلب ، فتراهم يتكالبون على جمع الدرهم والدينار من كل سبيل ، لا يفرقون بين مشروع منه وغير مشروع ، ولا بين حق وباطل ، والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم ، يوم يحمى عليها فى نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم ، هذا ما كنزتم لأنفسكم ، فذوقوا ما كنتم تكنزون .

قال الإمام : « ومن علم أن كلامه من عمله قل كلامه إلا فيما يعنيه » ، وهذا حق واقع ، فإن الإنسان خلق حريصاً على نفسه ، يكره أن يوردها موارد الهلاك ، فإذا ذكر نفسه كلامه من عمله وهو محسوب عليه ، قصر كلامه على ما يعنيه ، ولم يتجاوزه إلى لغو القول ، خشية أن يجره الكلام إلى ما ليس بحق فيأثم ، أو إلى ما يضره فيندم ، اللهم إلا الذين لا يبالون بشىء فقد ساءوا مستقراً ومقاماً . . ولذلك عد الصمت من سمات كبار العقول ، وندب إليه الشرع ، فقال عليه الصلاة والسلام : « تكلم بخير وإلا فاسكت » .

أيها الإخوان :

لعل فى هذه النصائح الإسلامية الغالية التى يسوقها إلينا الإمام على فى هذا الأسلوب المؤثر الباهر ما يحملنا على النظر فى أخلاقنا وطباعنا ، وأن نعرضها على هذا « المسبار » الدقيق الصادق ، لكى يعرف كل منا مقامه ومجهوده فى ميدان الأخلاق ، والله أسأل أن يوفق كلا منا إلى تقويم نفسه وتهذيب أخلاقه ،

إنه هو الهادى إلى سبل الرشاد .. واتقوا الله أيها المؤمنون ، إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « طوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس ! » .

وقال عليه الصلاة والسلام : « يا معشر من آمن بلسانه ولم يدخل الإيمان قلبه ، لا تغتابوا المسلمين ، ولا تتبعوا عوراتهم ، فإنه من اتبع عوراتهم يتبع الله عورته ، ومن يتبع الله عورته يفضحه فى بيته » ..

كيف نقضى على الشيوعية ؟ !

لك الحمد يا أكرم مسئول ، وأفضل مأمول ، كل كثير غيرك قليل ، وكل عزيز سواك ذليل ، سبحانك سبحانك ، لا يضل من هديته ، ولا يفتقر من كفيته ، نشهد أن لا إله إلا أنت الرءوف الرحيم ، لا يذل من والاك ، ولا يعز من عاداك ، ونشهد أن محمداً عبدك ورسولك ، الذى عمل لدنياه كما عمل لأخراه ، والذى جاهد الطاغين المبطلين حتى أنصف الضعفـــاء المستذلين ، فعليه سلامك وصلاتك ، وتحياتك وبركاتك ، وعلى أغصان دوحته المثمرة ، وجنود دعوته الظافرة ، والمستضيئين بأنوار شريعته الباهرة ، أولئك حزب الله . وحزب الله هم الغالبون ! . .

يا أتباع محمد عليه السلام . . .

أحسن ولاة الأمور فينا بخطر الشيوعية الداهم ، الذى أخذ يتسرب إلى مجتمعنا ، تسرب الداء الخبيث إلى الجسم العليل الذى خلا من المناعة والمقاومة فأخذوا يهاجمون أوكارها وخلاياها ، ويحاربون أنصارها ورفقاءها ، بما فى أيديهم من سلطة القانون ورهبة العقاب ، ثم رأوا أن هذا لا يكفى ، فأرادوا الاستعانة بالقوة الدينية الغلابة ، لعلمهم بأن فطرة الأمة المصرية لا تزال رغم الاحتلال والانحلال فطرة إسلامية فلجأوا إلى الأزهر الشريف وهو حصن الإسلام وبقية معاقل الشريعة ، يطلبون إليه أن يفتيهم بأنه لا شيوعية فى الإسلام . واستجاب الأزهر الرسمى لذلك الطلب ، فسارع بإصدار فتواه التى أوضح فيها أن الإسلام يحترم الملكية الفردية ، وأن لكل امرىء أن يتخذ من الوسائل المشروعة ما يشاء لاكتساب المال وتنميته حتى يتملك بهذه

الوسائل ما يشاء ، وهاجمت الفتوى مذهب أبي ذر الغفاري رضي الله عنه ، وقالت إنه لم يعلم أن أحداً من الصحابة قد وافقه عليه ، ووصفته بأنه مذهب غريب بعيد عن مبادىء الإسلام والحق الواضح ! . .

ونحن نسارع فنحمد للأزهر الرسمي هذه الفتوى ، لأن الشيوعية خطر وبلاء وعلة أشر مما نحن فيه من داء ، ونظام لا يرضى عنه الإسلام ، ولا تقبله العقول السليمة أو الأفئدة الطاهرة ، ولكننا لن نستطيع القضاء على الشيوعية بهذا القول الذى عالج ناحية وترك نواحى بلا علاج ، وصرح فى جهة ولمح فى جهات ، إذ يخيل إلينا أن فساد الحال وشيوع الاختلال وسوء التوزيع فى العقار والأموال هو الذى جعل الجهلاء يتخلصون من عنائهم ولو بالفناء ، شأنهم فى ذلك شأن المريض الذى يضيق بمرضه ، فلا يحاول الصبر عليه أو معالجته ، بل يفكر فى الانتحار وبئس القرار ! .

لقد قلتم عن الشيوعية أيها السادة إنها إجرام وإلحاد ، وضلال وفساد ، وقد صدقناكم واستجبنا لكم ، ولكن قد بقى عليكم أن تقولوا أقوالا أخرى لأناس آخرين ، حتى يكون العلاج تاماً ، والإصلاح شاملا ، فإن منهاج الإسلام كل لا يتجزأ ، وحلقة مفرغة لا يدرى أين طرفاها من شدة الأحكام ودقة الصنع ، فلا يجوز التمييز أو التفريق ، وإلا كنا كمن يؤمن ببعض الكتاب ويكفر ببعض ، وما جزاء من يفعل ذلك إلا خزى فى الحياة الدنيا ، ويوم القيامة يردون إلى أشد العذاب ، وما الله بغافل عما تعملون !

قولوا بجوار هذا للأغنياء الأشحاء ما قاله فاطر الأرض والسماء : «والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم ، يوم يحمى عليها فى نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم ، هذا ما كنزتم لأنفسكم ، فذوقوا ما كنتم تكنزون » .

وقولوا للذين يسطون على حقوق الضعفاء ، ويسلبون الأموال والعقار بوجوه الضلال والحرام ما قاله محمد عليه الصلاة والسلام : « كل لحم نبت من حرام فالنار أولى به » وقولوا للذين توضع فى أيديهم الأمانات فيضيعونها ، وتوكل إليهم أمور الناس فيفسدونها ، وتسند إليهم رعاية الأيتام والأرامل والعجزة فيأكلون أموالهم أكلا لما ، قولوا لهؤلاء : « وليخش الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافاً خافوا عليهم ، فليتقوا الله وليقولوا قولا سديداً ، إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً إنما يأكلون فى بطونهم ناراً ، وسيصلون سعيرا » !

وقولوا للظالمين جميعاً ، سواء أكانوا حكاماً أم أصحاب أموال أو مزارع أو مصانع أو شركات : « ولا تحسبن الله غافلا عما يعمل الظالمون ، إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار ، مهطعين مقنعى رءوسهم ، لا يرتد إليهم طرفهم ، وأفئدتهم هواء » وقولوا للطاغية الذى لا تهمه إلا شهوات حسه ولذائذ نفسه ، وتكتيل المال لشخصه ، ولا يعنيه أسعدت الأمة أم شقيت قولوا له :

أيها المالىء كأس النصر من دمع اليتـــامى
ومغذى النشوة الــكبرى بأنات الأيامى
فوق أشلاء ضحاياك تبختر وتسامى !
أيها الظالم هل خلت دم الشعب مداما ؟
وحسبت الناس فى الأرض قطيعاً وسواما
إن تنم يوماً فعين الله يقظى لن تناما !

وقولوا للذين أعرضوا عن هدى السماء ، وصموا آذانهم عن كريم الدعاء

وتركوا شرعة الإسلام الوافية الواقية إلى قانون أرضى قاصر ، إن نظم الظواهر والأشكال عجز عن إصلاح النفوس والرجال ، قولوا لهؤلاء أيها السادة « ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون » وقولوا لهم : « أفحكم الجاهلية يبغون ، ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون » .

يا أتباع محمد عليه السلام . .

الواجب على جماعة المسلمين ، وخاصة الولاة والموجهين ، أن يكونوا عقلاء بصراء ، لا يعالجون المشكلة من جهة واحدة ، ولا يخادعون أنفسهم وإخوانهم ، فيكون موقفهم كموقف النعامة حين ترى الصياد مقبلاً لاقتناصها ، فتخفى رأسها بين فخذيها ، وتظن المغرورة بذلك أن الصياد لن يراها ما دامت هى لا تراه ! ! أو كموقف المحرف لكتاب الله الذى يقول : « لا تقربوا الصلاة » ويترك : « وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون » ، أو كموقف الذى يعالج الجائع المتهالك بمخدر ينسيه الجوع إلى حين ثم يستيقظ فإذا هو مشرف على الهلاك ؟ ؟ بل يجب أن نصلح أمر الفقراء وأمر الأغنياء فى وقت واحد ؟ .

أيها الناس أنتم حيارى والإسلام هو الهادى فسارعوا إليه ، وأنتم مرضى والإسلام هو الدواء فخذوا منه ، وأنتم ضعاف والله هو العلى القادر فاعتمدوا عليه ، واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون ، إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون .

قال عليه الصلاة والسلام : « اتقوا الظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة ، واتقوا الشح فإن الشح أهلك من كان قبلكم حملهم على أن سفكوا دماءهم ، واستحلوا محارمهم ، » .

اكرموا هذا الجيش !!

لك الحمد يا معز الثابتين على دينك بنصرك الذى لا يهون ، ومؤيد المؤمنين الموقنين بوعدك الذى لا يخون ، سبحانك سبحانك نعوذ بك من غدرات الأيام وشطحات الأوهام ، ونسألك الرشاد عند الزلازل ،والاطمئنان لدى الحوازب والنوازل ، ونشهد أن لا إله إلا أنت ، إليك أمر الدنيا تورثه من تشاء من عبادك والعاقبة للمتقين ونشهد أن سيدنا ومولانا محمداً عبدك ورسولك ، سيد الأوفياء والمخلصين ، وقائد الغر المحجلين يوم يقوم الناس لرب العالمين ، فصلواتك اللهم وسلامك عليه ، وعلى آله الخيرة الأبرار ، وأصحابه المتقين الأطهار ، وأتباعه الذاكرين عظمتك بالليل والنهار ، أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة ، وأولئك هم المهتدون ! .

يا أتباع محمد عليه السلام :

يقولون إن قيمة كل امرىء ما يحسنه ، وإن الإنسان بصحيفته وأعماله ، لا بسلسلة نسبه وعريض أقواله ، ورضوان الله على عمر بن الخطاب ، فقد كان يتطلع إلى الفرد من الرعية ، فيرى له جسماً وشحماً ، وطولا وعرضاً ، وبدانة وفراهة ثم يسأل عن عمله فى المجتمع ، فإذا قيل لعمر أنه بلا عمل ، سقط ذلك الشخص من نظر الفاروق ، ولم يقم له حساب .

ولقد أتى علينا نحن المصريين حين من الدهر لم نكن فيه شيئاً مذكوراً ، بل خبطنا فيه خبط العشواء خلال ظلمات الاحتلال والاعتداء ، وكنا لا تقيم لجيشنا كبير اهتمام ، فالحواجز توضع بينه وبين النمو والامتداد ، والدسائس تحاك للحيلولة بينه وبين التسلح والاستعداد ، والذين كانوا يدخلون فى صفوفه

هم الفقراء من الفلاحين والضعفاء الذين يعجزون عن دفع البدل العسكرى الهزيل ، ولذلك كانت الخدمة العسكرية مبغوضة، يحتال للفرار منها ، ويترفع أبناء السادة عنها ، ولا يفكرون فى الانتساب إليها ورد شرفها المجيد عليها ، ولذلك رأينا الجندى فينا خلال هذه العهود البائدة لايحترم الاحترام الواجب ، بل لعله كان يلقى من الإهانة والسخرية والتسخير المعيب ممن يتحكمون فيه ويشرفون عليه ما كان يجعله فى ضيق من حاله ونفور من وضعه ، فإذا تحرك أو نفذ أمراً من الأمور ، فإنما هو آلة مسخرة ، تسمع وتطيع لأنها تدرك مبلغ ما يصيب عليها من ألوان العذاب حين التمرد والعصيان وأضيف إلى هذا أن ذلك الجيش العزيز مع قلة عدده وضآلة سلاحه ووضع العراقيل أمامه ، وتحكم الغاصبين فيه ، وكبتهم لحماسه وحميته ظل بلا عمل حاسم فترة طويلة من الزمن ، حتى ضل الرأى ببعض الناس فقالوا : ما بقاء أولئك الجنود ما داموا يقاتلون؟ وما حاجة الأمة إلى الجيش والسلاح ؟. وكدنا والله نستجيب لعوامل التراخى والخمول ، ونرضى بحياة الذل والهوان ! ! .

ولكن الله الرحمن الرحيم أراد فى نهاية الشوط أن يضع أمام أبصارنا ضوء الرجاء ونور الأمل فإذا بمعركة فلسطين تبدأ لتكون محكاً لسيوفنا . وتجربة لجنودنا ، وبعثاً لجيشنا ، وأوجسنا فى أنفسنا خيفة عميقة . وأمسكنا قلوبنا بأيدى الخشية والرهبة ، وابتهلنا وتضرعنا إلى الله إعلاناً وأسراراً وليلا ونهاراً ، وأراد الله أن لا يخزى عباده المؤمنين ، أو يضيع جماعة المسلمين ، فإذا بجيشنا الظافر لا تعييه قلة سلاحه ، ولا تؤثر فيه طول راحته ، بل يندفع الجيش المصرى سريعاً رزيناً ، جريئاً وقوراً ، عزيزاً رحيماً ، فيأتى من ألوان البطولات ما يعيد الآمال إلى النفوس القانطة ، ويبعث الرجاء فى القلوب اليائسة ، ويخلق من أطفالنا أبطالا فى يوم وليلة، فكيف بصنيعه مع الرجال ؟!

هذه فرقة من فرق جيشنا المظفر تجرى القرعة بينها وبين فرقة أخرى

منه ليعرف الرؤساء من التى سيقع عليها الحظ لتتقدم إلى خط النار الأول ، وحينما حرمت هذه الفرقة من ذلك الشرف الجليل أرادت أن تحتج عليه ، فلم تجدسوى الصوم تتقرب به إلى الله ، لكى يهىء لها ما هيأه لأختها من فضل السبق إلى ميادين الشهادة والجهاد ! ! .

وخصص لكل فصيلة من فصائل الجيش المجاهد فى فلسطين ست ساعات كل يوم وليلة لتجاهد فيها بسلاحها ثم تلجأ إلى الراحة ، ولكن الفصائل المناضلة تمر عليها الساعات الست كأنها لحظات خاطفات ، وهم لم يشفو غليلهم بعد من ذلك العدو القذر الزنيم ، فهم يواصلون النضال ، وتصدر إليهم الأوامر بإخلاء أماكنهم لسواهم فلا يستجيبون ، بل يتمردون تمرداً خيره أكثر من شره ، ولو كان تمرد المأمورين على الآمرين بمثل هـذه الصورة المخلصة الطاهرة لتمنينا أن تكون الدنيا كلها فى تمرد وعصيان ! ! . .

وهذا جندى مصرى مقدام ، يلتحم مع العدو الأثيم فتسيطر على روحه وجسمه نشوة القتال ، فلا يذكر سوى ربه ، ولا يرى غير وجهه ، وتصيبه من أعدائه رصاصة فلا يبالى بها ولا يتأوه منها ، بل يواصل النضال ، وتصيبه رصاصة ثانية وثالثة ورابعة حتى يصاب بخمس عشرة رصاصة ، ويبلغ به الألم مبلغه ، وتؤثر الجراح الكثيرة والدماء المتدفقة فى قوة احتماله فيغمى عليه ، وتنقله طائرات الإسعاف المحروسة بحراسة فاطر السماء والأرض من الميدان إلى مكان العلاج فى مصر وهو لا يشعر ، قالت الأنباء : فلما أفاق الجندى المصرى البطل ، حفيد إبراهيم ، وصلاح الدين ، وسليل الأمجاد الفاتحين عمرو وخالد وعلى وعمار وطارق ، التفت يميناً وشمالا ، وجعل يسأل : أين أنا ؟ . وأين زملائى الجنود ؟ . . وأين سلاحى الذى كنت أقاتل به ؟ ! . . فلما أنبأه القوم بما حدث أخذه الشوق إلى استئناف القتال ، وجعل يصرخ :

لا يهود بعد اليوم ، لقد قتلوا الأطفال وسبوا النساء وهتكوا الأعراض وهدموا المساجد ، فدعونا نشرب من دماء أولئك الأنجاس !

وهذا ضابط مصرى يشهد معركة من المعارك مع جنوده المغاوير البهاليل فتصيبه قنبلة تشوه جسمه وتقطع أطرافه وتنقله ملائكة الرحمة إلى مكان العلاج فى القاهرة ويسعى إليه قائد الجيش الأعلى – أعز الله بجهاده كلمة الإسلام والمسلمين – ليشكره ويكرمه ، فلا يتحسر الضابط ولا يشكو ، بل يصارح قائده ومليكه بأنه كان يتمنى أن يبذل آخر قطرة من دمه فى سبيل الله ، ولكن هكذا شاءت الأقدار ، فيفتح المليك أمام ضابطه باب الأمل على سعته ، ويقول له : لا تيأس فستؤدى واجبك بعد العلاج فى مكاتب الجيش ، وبذلك لن تحرم من الاستمرار فى الجهاد ! .

وهذه فرقة مصرية رائعة ، تضطرها ظروف القتال فى فلسطين المقدسة أن يظل أفرادها أربعة أيام موصولة الصباح بالمساء ، دون أن يستريحوا دقيقة أو يتركوا السلاح لحظة ، فإذا أغفوا فى ظلمات الليل خضوعاً لسلطان الكرى المهاجم ، فإنما هى هنيهات يتخطفون فيها النوم خطفات ، ثم يعودون من جديد للجلاد والجهاد مستخفين بأثقال التعب والوصب ، وكانوا لا يتناولون خلال هذه المعركة الدائرة خلال الأيام الأربعة ، سوى وجبة واحدة من الطعام كل أربع وعشرين ساعة من الزمان ، وكان من نتيجة هذا الصبر الجميل والثبات العجيب أن أيدهم الله بروحه ، ورزقهم بنصره ، وأمدهم بمعونته « ولينصرن الله من ينصره ، إن الله لقوى عزيز » . . ففعلوا وهم عشرات معدودات مالا تفعله المئات والمئات ! ! . .

وهذا مراسل من مراسلى الصحف الأجنبية يتحدث عن الجندى المصرى فيقول فى حديثه إن ذلك الجندى الشجاع لا يهاب الموت ولا يخاف النـــار ،

وتدركه أثناء المعركة الحامية الوطيس هزة حماس وحمية تنسيه كل ما حواليه إلا الغرض الذى ينشده ، وهو سحق عدوه وبلوغ النصر المبين ، وإذا ما مشى الجندى المصرى إلى هدفه تبختر كأنه الأسد الهصور ، ويثنى للذين تتبعوا حركات المدفعية المصرية على نشاط هذا السلاح ، فيقولون إن المدفعية المصرية من أفضل المدفعيات ، لا نقول فى البلاد العربية . أو الأقطار الشرقية فحسب بل فى سائر أنحاء العالم ! .

ومن المطرب العجيب أيها الإخوة الأحباب أن تتردد الأخبار والأنباء بأن جنودنا المحاربين فى فلسطين لا يلهون لهواً ذميماً فى أثناء راحتهم ، ولا يقارفون ما يغضب الله والرسول ، بل إنهم يهرعون إلى الصلاة كلما وجدوا فرصة لذلك ويستغرقون فى مناجاة خالقهم الأعلى عز شأنه وتباركت آلاؤه وهذا هو اللائق بورثة محمد عليه الصلاة والسلام ، وإذا استباح الكافرون قديماً وحديثاً أن يرفهوا عن جنودهم بالبغايا والخمور والمكيفات والمخدرات وغير ذلك من الموبقات . فإن جيش الرحمن يجد فى حمى الفضائل كل متاع ! .

الله أكبر ، الله أكبر الله أكبر ، بعثنا والله من جديد ، وكأنما ولد المصريون ميلاداً جديداً يوم بدأت منهم المعركة فى فلسطين ، فلتكن تضحيتنا قليلة أو جليلة ، وليطل حبل المعركة أو فليقصر ، ولنحتمل فى سبيل الحرية ما نحتمل فلأن نعيش كراماً ونحن جياع وجرحى وشهداء ، خير من أن نعيش لئاما وقد امتلأت منا البطون وهدأت الحال .

ذل من يغبط الذليل بعيش ‏ ‏ ‏ رب عيش أخف منه الحمام

يا أتباع محمد عليه السلام :

لقد أثبت جيشكم المظفر أنه بخير وإلى خير ، وقد أدى واجبه فأحسن

الأداء ، فاحنوا هاماتكم لأولئكم الجنود ، تكريماً وتمجيداً وقدموا الجنود المجاهدين على أنفسكم فى كل شىء فى الترام والسيارة والمطعم والمشرب ، وقوموا إجلالا واحتراماً حينما ترون المجاهد وعليه غبار الميدان مهما كان فقيراً أو صغيراً ، وأسمعوهم كلمات الثناء والشكران ، لتشعروهم بأنكم قوم لا يضيع عندهم صنائع الرجال ولتحفزوهم على مواصلة الكفاح والنضال ، وإذا كنتم قد تعودتم أن تقولوا للجندى بالأمس « يا دفعة أو يا عسكرى ، أو يا نفر » فنادوه منذ اليوم قائلين له : « يا مجاهد ، يا بطل ، يامظفر ، يا مقدام » فلن تقوم للأمة قائمة إلا بهذا الجيش الصالح المجاهد ، وتذكروا دائماً أننا هنا نلهو ونلعب ، والجنود هناك يذقون الموت الكريم الأحمر ، فكونوا لهم خير الأعوان والأنصار بالمال والطعام والثياب والدعاء وحسن الرجاء ، واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون ، إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون .

قال عليه الصلاة والسلام : من اغبرت قدماه فى سبيل الله حرمهما الله النار .

وقال عليه الصلاة والسلام لعبد الله بن عمرو : إن قاتلت صابراً محتسباً بعثك الله صابراً محتسباً ، وإن قاتلت مرائياً مكاثراً بعثك الله مرائياً مكاثراً .

ماذا نريد فى العهد الجديد ؟!

لله الحمد : يقول الحق وهو يهدى السبيل ، ويحب التناصح ويبغض التضليل (تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً) نشهد أن لا إله إلا أنت ، تؤيد الحق ودعوته ، وتمحق الباطل وشيعته (الله ولى الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور ، والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات ، أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون) ونشهد أن سيدنا ومولانا محمداً عبدك ورسولك ، لم تضعفه البأساء والضراء ولم تغره النعمة والسراء ، بل كان خير الثابتين وأفضل الموقنين ، فصلواتك اللهم وسلامك عليه ، وعلى آله ذوى التقى والرشاد وأصحابه الداعين إلى شرعة الهدى والسداد وأتباعه القائمين بالقسط بين العباد (أولئك يسارعون فى الخيرات وهم لها سابقون) .

يا أتباع محمد عليه السلام . . .

إن للنصرة لذة وللغلبة نشوة ، والفائز القاهر يستشعر هزة قد تلهيه أو تغطيه ، وهو لذلك أحوج ما يكون فى غمرة الانتصار ورجة الانبهار إلى صديق يذكره وشفيق يحذره ، ولا يراد بالتذكير والتحذير إثارة عناد أو ذر رماد أو سعى فى فساد ، بل يراد بهما إبقاء ما يسر الله من خير أو استثمار ما ساق القدر من نعمة . حتى تتضاعف وتدوم : (لئن شكرتم لأزيدنكم ، ولئن كفرتم إن عذابى لشديد) وقد أراد من لا راد لقضائه ولا معوق لآلائه أن تختار الأمة رعاتها وقادتها ،وأن تسلم إليهم مقاليد أمورها فى فرحة كمهرجان الفاتحين وموكب السائدين ، ولعل بعض هؤلاء الفائزين قد أخذ يداعب خياله ويسعد نفسه بتصور الأوشحة والأوسمة ، والحفلات الفخمة المنظمة والمرتبات

الضخمة والحظوظ المقبلة ، مع أن الجدلة تبعاته المرهقة والسيادة لها تكاليفها القاسية ، ومن حمل أمر نفسه فحسب هان عليه الخطب وسهل أمامه الطريق ، وأما من حمل أمر الناس فقد نهض بالعبء الجليل وتعرض لمعاطب السبيل ، ولا يزال المرء فى فسحة من أمره حتى يلى شئون الناس فيلقى من الحساب العسير ! .

فهل لنا ونحن أمة إسلامية محمدية ديدنها التناصح والتواصى بالحق أن نسعى هادئين مخلصين إلى رحاب أولئك المختارين الممثلين ، لنحمد إليهم الله الذى لا إله إلا هو على ما أعطاهم من خير ونعمة ، ثم نحرضهم على حفظ الرسالة وأداء الواجب وصيانة الأمانة بأن يوفوا بما عاهدوا الله والأمة عليه ، ثم نحذرهم من عثرات الأقدام وشطحات الأوهام وفجاءات الأيام ، ثم نبتهل معهم إلى الحق تبارك وتعالى وهو ديان العالمين ، ورحمن الدنيا والآخرة وقيوم السموات والأرض أن يكتب النجاح والفلاح لمن وفى واهتدى ، وعمل لرفعة كلمة الدين والتقى وأن يكتب اللعنة إلى يوم الدين على من طغى وآثر الحياة الدنيا ! .

إن تغيير الاتجاه العام فى الأمة بذهاب دولة ومجىء أخرى ، معناه أن الماضى كان يلف فى طواياه المظلمة أخطاء وجرائم ، وأن الذين بيدهم إعطاء الثقة للرعاة وسحبها قد ضاقوا ذرعاً بما كان ، وآمنوا بأنه يجب أن لا يكون فخفضوا قوماً ورفعوا آخرين ، ولكن الماضى الثقيل الآثم قد خلف وراءه آثاراً لا تزال توقد ناراً وتولد أضراراً ، ولذلك نؤمن بأن أول واجبات الذين ملكوا أزمتنا هو واجب التطهير لحمى الوادى الكريم من الجراثيم والأوشاب التى خلفتها شرعة الغاب وحياة الذئاب ولعله من البدهى الواضح أن رد التيار وصد الأعصار وإطفاء النار أولى بالسبق من زيادة البناء وتجديد الرواء ؛ فنريد من الأيدى المصلحة الحكيمة القويمة الرحيمة أن تمتد إلى جراثيم التموينات

وفظائع التعذيبات وعجائب التحقيقات ومخازى المعتقلات ومآسى الاتهامات فتمسح بالإصلاح والتقويم والتعويض خطايا الاستغلال والاستبداد والافتراء والضلال . . فكم من آمن شرد وضعيف ظلم وكريم هضم وبرىء عذب ! . . وكم من أسر عزيزة شردت ، وبيوت كانت عامرة عصف بها فخربت ، وعائلات شريفة كان مر النسيم يجرح كرامتها فديست ، وقلوب مؤمنة تآلفت على كلمة الله فشتتت ، كم من أواصر وروابط مقدسة قطعت وفصمت وذلك لأن الجاسوسية المجرمة والسعاية الدنيئة والمكايد الخسيسة أخذت سبلها الواسعة إلى دنيا الناس ، فجعلت المشتركين فى الإنسانية والوطنية واللغة والدين يتربص كل منهم بأخيه الدوائر ويسوق إليه حتفه بلا رحمة أو إشفاق ! . ولم لا والسلطة مطلقة والذهب كثير والضمائر رخيصة والقطيع مستسلم ؟ ! . وإذن فلابد فى مطلع هذا النور وبعد زوال ذلك الفجور من إعادة المياه إلى مجاريها وإعطاء القوس لباريها ، وتسليم التركة لجامعيها ، ولابد من إنصاف شامل كامل لكل مظلوم ومحروم ومهضوم ، وأن يعوض جميع المصابين فى كراماتهم أو أسرهم أو مرتباتهم أو وظائفهم أو أماكن عملهم أو غير ذلك من وجوه الحيف والطغيان التى تعددت وتكاثرت حين استطال الغرور وضاقت الصدور ، ولأن ننصف المظلومين ونطلق سراح المأسورين ، ونرد إلى الحياة الحرة بقية المعزولين خير ألف مرة من أن نسعد الطامعين ، أو نستجيب لرغبات الآملين أو نضاعف الخير للمطمئنين ! ! .

ونريد من الرعاة والولاة أن يطلعوا إلى الأمة شموساً قوية ساطعة لا يضيرها السحاب ولا يصدها حجاب ، فهم لا يعملون فى الظلام ولايخافون من الحساب ، ولا يغضبون من صوت النقد أو همس العتاب ، لأنهم يجب أن يعتمدوا على مميزاتهم وأعمالهم وسجلات نضالهم ، فهم بغير حاجة إذن إلى سواعد مفتعلة أو سواند شاذة أو حوافظ مصطنعة ولذلك يجب أن يلغوا فى

سرعة وحزم وصرامة جميع النظم والأوضاع القرارات والتصرفات الخاطئة الجائرة التى نبتت خلال الأيام المظلمة والفترات المجرمة ، وأن يلغوا ما ترتب عليها من آثار سابقة أو لاحقة ، وعليهم أن يعودوا بالأمة كلها إلى المساواة الحقة والحرية الصحيحة والاحتكام إلى مألوف العدالة ومعروف القانون وأن يمكنوا كل فرد من أفراد الأمة بأن يتمتع فى ظل النظام بكامل حريته على أوسع صورها ، فتلغى الأحكام العرفية ، ويزول التجسس والرقابة ، وتطلق الألسنة من عقالها ، ويباح الاجتماع والكلام والنقد والتوجيه ، فإن أخطاء الحرية الطفيفة أخف بكثير وأهون من أخطاء الكبت والطغيان ! .

والدعوة الإسلامية أيها السادة ، الدعوة الإسلامية التى حوربت فى كل مكان ، والتى ظهر لمقاومتها فى كل جيل شيطان ، والتى تآمر الطواغيت على وأدها حين رأوها تعم الآفاق وتطوق الأعناق . . إنها تناديكم وتناجيكم وماأنتم عنها بغرباء . ولستم لها بأعداء فلكم فى الإسلام أجداد وآباء . وما من منكم إلا من يثور أكبر الثورة لو نسب إلى دين غير دين الإسلام ، ولذلك ليس بغريب أبداً أن تنتظر الدعوة الإسلامية منكم ، وأنتم أهل الحل والربط أن تنصروا كلمتها وتؤيدوا دعاتها ، وأن تعزوا شأن الذين أصيبوا فى سبيلها ، وأن تخلدوا ذكرى الشهداء الذين سقطوا من أجلها ، وأن تخلفوهم بالرعاية والعناية والتكريم فى أسرهم العانية وأولادهم المفجوعين ! . وما أجدركم بأن تبذلوا غاية الوسع والمجهود فى الانتصار لحقوق أولئك الشهداء فإن فى طليعتهم من يمد يديه من عالم الغيب ليطبق أظافره فى عنق كل مسئول صارخاً فيه : أين دمى المضيع ؟ وأين حقى المهضوم ؟ وأين الذين تكاثروا على قتلى بليل الدناءة والإجرام ؟ ! . وإنا لنرجو أن يكون الانتصاف هنا عاجلا حاسماً فما يجوز لأمة تريد أن تستقر وتهدأ ويأمن أفرادها العزل على حياتهم وأعمارهم ، أن تغض الطرف عن هذا الضلال البعيد ! .

يا أتباع محمد عليه السلام :

قولوا للمختارين منكم الممثلين لكم : إننا لا نريد منكم أن تستجيبوا لشهوة التشفى والانتقام ، أو تسرفوا فى التنكيل بالذين أصبحوا مجردين من السلطان ولو كانوا خاطئين ، بل استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لمـا يحييكم ، فليكن منكم حساب دقيق لـكل مفرط ، وتأديب رادع لـكل باغ ، وإنصاف كامل لـكل مظلوم ، فإنكم إن فعلتم نلتم عز الدنيا ونعيم الآخرة . . فستذكرون ما أقول لكم : وأفوض أمرى إلى الله . والله بصير بالعباد واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون ، إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون : أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم سلوا ربكم التوفيق يستجب لكم .

أمة صاحبة عقيدة ووحدة وجهاد

الحمد كل الحمد لله تبارك وتعالى ، أحمده سبحانه وأشهد أن لا إله إلا الله هو ولى النعمة ومصدر الرحمة : « إن رحمة الله قريب من المحسنين » . وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، نبي الرحمة وقائد الملحمة : « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين » . وأصلى وأسلم على جميع أنبياء الله ورسله ، وعلى خاتمهم سيدنا محمد ، وعلى آله وأصحابه ، وأتباعه وأحبابه ، ومن دعا بدعوته بإحسان إلى يوم الدين ، وأستفتح بالذى هو خير : « ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير » .

إن شعار الأمة المؤمنة هو صدق الاعتقاد ، ودوام الاتحاد ، واتصال الجهاد ، حتى النصر أو الاستشهاد ، فهذه الأمة الراشدة الماجدة المهتدية بهدى ربها وكتابها ، السائرة على طريق نبيها ، تعرف منهجها وتوطد دعائم إيمانها وعلمها ، وتستجيب لأمر قرآنها : «قل إننى هدانى ربى إلى صراط مستقيم ، ديناً قيماً ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين » . وهى تحرص على اجتماعها ووحدتها ، لأن خالقها جل جلاله جعل أفرادها أبناء أسرة واحدة : « إنما المؤمنون إخوة » وطالبهم بألا يعرفوا طريق التفرق أو التمزق : « واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا » . ثم فرض عليهم الجهاد الخالص المخلص إلى يوم لقائه ، كلما دعا إليه داع أو اقتضاه موجب : « إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا ، وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله أولئك هم الصادقون » . وعلمهم أن صدق الجهاد يؤدى إلى إحدى الحسنيين : النصر أو الشهادة : « والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين » .

ولقد ضرب المسلمون الأوائل أروع الأمثال فى صدق الإيمان وعمق العلم وصفاء الأخوة وسمو الجهاد ، والاستمساك بمبادىء الوفاء والفداء ، حتى صنعوا – بفضل الله أولا ، ثم بإخلاصهم وطهارة نفوسهم – نموذجاً للأمة العاقلة الفاضلة المناضلة : « كنتم خير أمة أخرجت للناس ، تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر ، وتؤمنون بالله » .

وهذا واحد من هؤلاء المحقين الصادقين لعزة الإسلام ووحدة المؤمنين ، الذين جعلوا شعارهم قول ربهم : « من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا » . إنه الصحابى الجليل ، والمجاهد القائد الشاب ، الناشىء فى طاعة الله وطاعة رسوله ، والعمل لخدمة الإسلام ورفعة المسلمين : أسامة بن زيد بن حارثة الذى ولد بمكة ، ونشأ على الإسلام ، لأن أباه كان من أوائل الناس إسلاماً ، فشب أسامة حتى أدرك ، ولم يعرف إلا الإسلام لله تعالى ، ولم يدن بغيره ، وعاش فى أسرة مؤمنة مجاهدة مضحية ، فأبوه مات شهيداً فى غزوة مؤتة وأخوة لأمه « أيمن ابن عبيد » مات شهيداً فى غزوة حنين ، وأمه هى أم أيمن حاضنة رسول الله عليه الصلاة والسلام ، وهى من السابقات إلى الإسلام ، ومن أهل الهجرتين وهى التى اشتركت فى أكثر من غزوة كأحد وخيبر ، وهى التى كان الرسول يقول عنها : « أم أيمن أمى بعد أمى » . ويقول عنها : « هذه بقية أهل بيتى » .

ولذلك ولغيره كان أسامة حبيباً لرسول الله صلوات الله وسلامه عليه ، قربه الرسول إليه ورعاه ورباه ووجهه ، وكان يحبه حباً شديداً ، ويعامله كبعض أهله ، وينظر إليه كما ينظر إلى سبطيه وريحانتيه من الدنيا الحسن والحسين رضوان الله على الجميع . ولقد روى أسامة فقال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يأخذنى والحسن بن على ثم يقول : « اللهم أحبهما فإنى

أحبهما » . وكان الرسول يقول : « من كان يحب الله ورسوله فليحب أسامة »
وأسامة هذا كان أفطس الأنف أسود اللون كأنه الليل كما ذكر التاريخ ،
ولكنه كسب هذه المكانة بطهارته وصفائه ، وصدقه ووفائه ، ونضاله وفدائه
فقد آثر الإسلام واهتدى بهديه ، وهاجر مع النبي واحتمل فى سبيل الله
ما احتمل ، وتفقه فى دينه ، وروى ما يزيد عن مائة وسبعة وعشرين حديثاً ،
وكان يتطوع بالقربات والنوافل ، حتى إنه حرص خلال حياته على صوم
الاثنين والخميس من كل أسبوع ، حتى بعد أن تقدمت به السن ، اقتداء
برسول الله عليه الصلاة والسلام ، وعرف أسامة طريق النضال وهو ما زال
فتى يافعاً ، وكان لا يفخر بمال أو نسب أو عمل ، بل كان يعتز كل الاعتزاز
برضى الرسول عنه وحبه له ، لأن حب الرسول عنوان على حب الله ، ولذلك
جعل أسامة نقش خاتمه هكذا : « أسامة حب رسول الله » . ولم يكن هـذا
الحب العظيم إلا لله وفى الله وعلى صراط الخضوع الكامل والخشوع الشامل
أمام أمر الله ونهيه ، ومما يدل على ذلك أن القوم أرادوا من أسامة أن يشفع
عند النبي فى أمر المرأة المخزومية التى سرقت حتى لا يقام عليها الحد ،واستجاب
أسامة لرجائهم ، وهنا لم يذكر الرسول شيئاً سوى أمر الله وحقه ، لأن
حق الله فوق كل حق ، فقال الأسامة غاضباً أو عاتباً : « أتشفع فى حد من
حدود الله يا أسامة ؟ إنما أهلك الذين من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم
الشريف تركوه ، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد ، وأيم الله
لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطع محمد يدها » ! .

ومن الدروس الموجهة المرشدة أن نرى رسول الله عليه الصلاة والسلام
قبيل وفاته بقليل يعين أسامة قائداً على جيش المسلمين المتهىء للذهاب إلى غزو
الروم ، وكان أسامة دون العشرين من عمره ، وكان فى هذا الجيش أمثـال
أبى بكر وعمر وأبى عبيدة وسعد بن أبى وقاص وقتادة بن النعمان وغيرهم من

كبار الصحابة ، ولكن الرسول المعلم أراد بذلك أن يدرب الشباب على القيادة أولا ، وأن يمجد ذكرى والد أسامة المجاهد الشهيد ، وأن يعلم الأمة أن القائد إنما هو رمز ، فإذا أصبح فى موطن القيادة وجب على الجميع أن يسمعوا ويطيعوا ، وأن يكونوا معه ومن ورائه يداً واحدة ووجهة واحدة وقلباً واحداً ، ولذلك نشهد الرسول يلحق بربه بعد قليل ، وقبل أن يتحرك جيش أسامة إلى غايته ، ويتولى الخلافة أبو بكر رضى الله عنه ، فيكون أول ما يقدم على تنفيذه هو أن يحرك الجيش إلى المسير بقيادة المجاهد الشاب ، وزاد الخليفة فى التكريم فخرج يودع الجيش ماشياً على قدميه ، والقائد الشاب فوق صهوة جواده ، وحينما كبر على القائد أن يركب والخليفة يمشى ، قال لأبى بكر : يا خليفة رسول الله ، إما أن تركب وإما أن أنزل ، فأجاب الخليفة قائلا فى عزم وإصرار : والله لا تنزل ولا أركب ، وما على أن أغبر قدمى فى سبيل الله ساعة . ومضى القائد بالجيش إلى غايته ، وحقق لهم ما أرادوا من نصر وفوز ، بسبب اجتماع الكلمة ، وإخلاص الأمة ، والاعتزاز بالله خير الناصر

فلنثبت فى القلوب عقيدتنا ، ولنعرف فى جلاء ووضوح خطتنا وطريقتنا ولنحصن بالإيمان والعلم أركان أمتنا ، ولنصن بالنفائس والنفوس وحدتنا ، ولنعد لتحقيق الحرية والعزة والكرامة عدتنا ، ولنجعل النصر أو الشهادة غايتنا ، ولنمض فى طريق النضال باذلين جهدنا وطاقتنا ، « وعلى الله قصد السبيل ومنها جائر ولو شاء لهداكم أجمعين » . واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون ، إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون . أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم .

الخطبة الثـــانية

الحمد لله تبارك وتعالى ، أحمده سبحانه وأشهد أن لا إله إلا الله هو ولى الهداية والتوفيق ، وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، هدى بفضل ربه إلى أقوم طريق ، فصلاة وسلاماً وبركة عليه وعلى آله وأصحابه ، وأتباعه وأحبابه ، ومن دعا بدعوته بإحسان إلى يوم الدين .

إن الله جل جلاله قد علم عباده أن طريق الخير والفوز هو طريق الاجتماع والاتحاد ، ولذلك ذكرهم بأن الصبغة الأساسية لأمتهم المؤمنة هى صبغة الوحدة والألفة ، فقال : « وإن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون » ، وحذرهم الفرقة والشتات فقال لهم : « ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم واصبروا إن الله مع الصابرين » . وإن المرحلة الحاسمة التى تمر بها أمتنا الآن تستوجب اعتصامنا بحبل ربنا ، وتمسكنا بأسباب وحدتنا واجتماعنا ، وإلا طمع فينا أعداؤنا ، وضاعت من أيدينا أوطاننا ومقدساتنا : «واعتصموا بحبل الله جميعاً ، ولا تفرقوا ، واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون » .

اللهم اغفر للمؤمنين والمؤمنات ، والمسلمات والمسلمين . . . إلى آخر الدعاء .

نحن اليوم

الحمد لله تبارك وتعالى ، هو رب الأرباب ، وواصل الأسباب ، ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين أحمده سبحانه وأشهد أن لا إله إلا الله : « إن الله فالق الحب والنوى ، يخرج الحى من الميت ، ويخرج الميت من الحى ، ذلكم الله فأنى تؤفكون » وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله إمام المجاهدين وخير المكافحين ، فصلوات الله وسلامه عليه ، وعلى آله وذريته ، وأصحابه وشيعته ، والثابتين على طريقته : « وما كان الله ليضيع إيمانكم ، إن الله بالناس لرءوف رحيم » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام .

إن المرحلة الحاضرة من تاريخنا الطويل تعد نقطة تحول بارزة ملحوظة فى مسيرة النضال لهذه الأمة المؤمنة ، فقد كانت حرب العاشر من شهر رمضان العظيم المبارك نفحة إلهية كريمة ، غيرت النفوس والمشاعر ، وبدلت الأوضاع والأحوال ، بعد ست سنوات عجاف مريرة ، ذقنا فيها الآلام ألواناً ، وشهدنا كيف كانت جراحنا تمزق كياننا وتهدد بنياننا ، فجاء اليوم العاشر من رمضان فجراً يقطع ظلمات الليل الطويل الحزين ، مما يستحق معه ذلك اليوم أن يكون ميلاداً لعهد جديد نؤرخ به للنصر ، واستكمال الفوز بإذن الله وحده « والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون » . ولا غرو فقد عبرت قواتنا المظفرة القناة الصامدة ، واستردت جزءاً كبيراً من ترابنا الوطنى الغالى المغتصب ، وحطمت تحصينات الأعداء التى كانوا يفاخرون بها ويغترون ، ويحسبون أنها أقوى من طاقة البشر ، وكان غير ذلك من ألوان النضال الباهر الذى وصفه الناس شرقاً وغرباً بأنه يكاد يشبه الخوارق والمعجزات

وتذكر المتذكرون قول العلى الكبير : «حتى إذا استيأس الرسل وظنوا أنهم قد كذبوا جاءهم نصرنا فنجى من نشاء ولا يرد بأسنا عن القوم المجرمين».

وكانت صيحة « الله أكبر » أقوى وأزكى من صوت أى سلاح ،وكانت شعاراً خيراً من أى شعار ، وكان لهذه الصيحة صداها العجيب الرائع فى نفوس قائليها ، وتثبيت قلوبهم ، ووصل أسبابهم بحمى قيوم السموات والأرض ورحمن الدنيا والآخرة ، ومالك الملك سبحانه ، وكانت كلمة « بسم الله الرحمن الرحيم » فى طليعة البيانات بشيراً إلهياً كريماً للاعتصام بحبله . والالتجاء إلى فضله ، والخضوع لأمره ، والاستحقاق لنصره ، وهو سبحانه خير الناصرين وكان هناك مع هذا ، بل وقبل هذا وبعد هذا ، ذلك الحدث التاريخى الجليل ، بل ذلك الفضل الإلهى العظيم ، فلأول مرة فى تاريخنا منذ صدر الإسلام تقريباً ، أو منذ البطل الإسلامى الفاتح صلاح الدين الأيوبى : محرر فلسطين ومسترد القدس ، ومنقذ المسجد الأقصى ، منذ ذلك العهد الميمون المبارك ، توحدت الأمة العربية المؤمنة من خليجها إلى محيطها ، حقاً وصدقاً . وعملا واقعاً ، حتى حسبنا أنها أطياف أحلام ، وتذكر البصراء منا قول الحق تبارك وتعالى يخاطب رسوله الأكرم صلى الله عليه وسلم : « وإن يريدوا أن يخدعوك فإن حسبك الله ، هو الذى أيدك بنصره وبالمؤمنين ، وألف بين قلوبهم لو أنفقت ما فى الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم ، ولكن الله ألف بينهم ، إنه عزيز حكيم » .

يارب ، ما أعظمك وما أكرمك ، وما أوسع فضلك إن الأمة الكبرى ذات العشرات أو المئات من الملايين ، التى شبعت جراحاً وتصدعاً ، بسبب الخلاف والشقاق ، والتمزق والافتراق ، قد شاء لها ربها الكريم أن تتلاقى قلوبها وعزائمها وأيديها ، وطاقاتها وإمكانياتها ، على هدف واحد ، وغرض واحد ، هو غسل العار ، وأخذ الثأر ، وتحرير الديار ، وقد اجتمعت كلمتها

على مسيرة الوفاء والفداء ، واستجابت لدعوة ربها القاهر من فوق سبع سموات : « انفروا خفافاً وثقالا وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم فى سبيل الله ، ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون » . فياصنع الله العجيب لهذه الأمة التى آن لها أن تسترد مكانتها ، وتستعيد عزتها ، وتصون كرامتها ، وفوق تدبيرنا لله تدبير ، فقد شاء ولا راد لمشيئته أن تسارع شعوب هذه الأمة المؤمنة إلى أداء واجبها : سارع صاحب المال بماله ، وصاحب النفط بنفطه ، وصاحب السلاح بسلاحه ، وصاحب الأفراد بجنده ، وأحست الأمة بنفسها وذاتها ، وكيانها وبنيانها ، وكأنما هى قد عادت فوعت خير الوعى قول رسولها العظيم عليه الصلاة والتسليم : «مثل المؤمنين فى توادهم وتعاطفهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر » .

لقد رأيت بعينى خارج مصر المجاهدة ، وفى ساحات الأمة العربية المناضلة كيف خلق الله عزيمتها ووحدتها خلقاً جديداً ، فتبارك الله أحسن الخالقين ، لقد قضيت أيام المعركة خلال شهر رمضان على شاطىء الخليج العربى فى الكويت ، ورأيت بعينى كيف تجاوب شعب كريم من شعوب هذه الأمة مع روح المعركة ، فكأنه هو الذى يحارب ويقاتل ويخوض المعركة ، فالإذاعة كلها تتحول إلى إذاعة معركة ، والتبرعات المالية والعينية من الحكومة والشعب تتوالى وتتكدس بروح عالية سامية ، والتبرع بالدماء موصول ليلا ونهاراً ، والرجال والنساء ، والشباب والشيوخ ، يمجدون مصر وجنود مصر بصورة أزالت ركام الماضى البئيس التعيس ، والنفط عصب الحياة يمنع عن حلفاء الأعداء وأشباه الأعداء ، وسرت هذه الروح المؤمنة هنا وهناك فى شعوب متكاثرة ، عرفت نفسها ، واسترجعت حسها ، وعاودت مسيرتها على طريق الوحدة والائتلاف .

يارب لك ، إن أمتك قد عرفت طريقها ، والمهم هو أن تثبت عليــه

وتصابر فيه : « يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون » . فلنظل جبهة واحدة ، وغاية واحدة ، ووجهة واحدة ، وقيادة موحدة ، فلنظل يقظين حذرين : « يا أيها الذين آمنوا خذوا حذركم » ، فلنحذر الخداع والمراوغة : « ود الذين كفروا لو تغفلون عن أسلحتكم وأمتعتكم فيميلون عليكم ميلة واحدة » . فلنستدم من رب الأرباب ما أنعم به علينا من توفيق : « وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب » فلنستزد من فضل الله علينا بطاعته وعبادته : « وإن جندنا لهم الغالبون » ، والاستظلال بلوائه ووحدته : « وإن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون » والاعتزاز بالإسلام واخوته : وإنما المؤمنون إخوة » ، والاستمساك بالتعاون على بره وتقواه وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان واتقوا الله إن الله شديد العقاب » . والإصرار على وحدة الصف ووحدة الهدف لنضمن من ربنا استمرار النصر والفوز : « ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم واصبروا إن الله مع الصابرين » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام :

إن أيامنا الحاضرة أيام مشهودة يرقبها الناس فى الشرق والغرب ، فلنكن أهلا للتبعة والمسئولية ، ولنكن أهلا لنصر الله الذى يعد به من يحفظ عهده ويصون معه وعده ، « ومن أوفى بعهده من الله » واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون .

امة تتداعى !!

لك الحمد يا فاطر السموات والأرض ، ومتنزهاً عن حدود الطول والعرض ، أنت الذى تخرج الحركة من الجماد ، وتبعث الحياة فى الرماد ، وأنت على كل شىء قدير ، نشهد أن لا إله إلا أنت ، تولج الليل فى النهار ، وتولج النهار فى الليل ، وتخرج الحى من الميت ، وتخرج الميت من الحى ، وترزق من تشاء بغير حساب ، ونشهد أن محمداً نبيك ورسولك ، وصفيك وخليك ، سيد الأولين والآخرين ، وإمام الدعاة والمرشدين ، فعليه منك الصلاة والسلام ، وعلى آله صفوة الأنام ، وأصحابه الهداة الأعلام ، وأتباعه الموفين بعهدهم على الدوام ، أولئك الذين ثبتوا ، « فما وهنوا لما أصابهم فى سبيل الله ، وما ضعفوا وما استكانوا ، والله يحب الصابرين » ! . .

يا أتباع محمد عليه السلام . . .

إذا وجد المرء فى حياته عملا عظيماً يشغله ، انصرف إليه وفنى فيه ، ووقف جهوده كلها عليه ، فهو يقوم له ويقعد ، ويفكر من أجله ويقــدر ، وكلما اتسع العمل وسما الغرض وطهر المقصد ، ازدادت التبعات وتضاعفت المسئوليات ، ولعل هذا هو السر فى أننا نرى أصحاب المبادىء العالية والدعوات الرفيعة ، والغايات الكبيرة والعزائم الجبارة ، لا يعرفون للنوم طعماً ، ولا للراحة مذاقاً ، بل هم فى دأب ونصب ، ومشقة وتعب ، وقد يحرضهم سواهم على ساعة لهو أو فترة هدوء ، فيغضبون ولا يستجيبون ، لأنهم بعظائم الأمور هائمون ، أما إذا كان المرء وضيع النفس حقير الهمة ضيق الأفق ، فإنه لا يجد وسيلة يبدد بها أيام حياته . إلا التمنى الخادع والوهم الكاذب

والأحلام العريضة ،وأحمق الناس من اتبع نفسه هواها ، وتمنى على الله الأمانى بلا أعمال أو نضال ! . . .

وكذلك شأن الأمم سواء بسواء ، إذا جدت الأمة فى حياتها ، وعزت فى حريتها وكرامتها ، وقويت فى رجالها وفتيتها ، وهيأ الله لها التوفيق والسداد ، ما تنطلق به عاملة جاهدة فى ميادين الهدى والرشاد ، انصرفت إلى الجهود المثمرة ، وأتت بالعجائب الباهرة ، ففتحت البلاد وسيطرت على العباد ، أما إذا ذلت وخنعت ، وهانت وخضعت ، انطلقت إلى الباطل تلهو به ، وإلى الخرافات تقتات منها ، وإلى الأحاديث الفارغة والأباطيل المكشوفة تتخذ منها بضاعة وتجارة ، وقد تهتم بتوافه الأمور وسخافات الأفراد ، وترهات الأوهام والخيالات ، أكثر مما تهتم بمبادئها وعقائدها ، وأهدافها وواجباتها ، وكذلك إذا حقت كلمة ربك على أمة قيض لها من أبالسة الهوى وشياطين الباطل ما يأتى على بنيانها من الأساس ! . . .

ويلوح لى أن أمتنا الذليلة العليلة ،قد فقدت مقوماتها، وأضاعت إيمانها بقوتها ، وأحست بفشلها الذريع ، وخيبتها الفاضحة فى أغلب ميادين النشاط والعمل ، فتركت ما يجب أن تشتغل به ، وأغلفت ما يلزمها الجهاد من أجله ، وتركت النار الأثيمة تلتهم هيكلها ، وتحيل عامرها خراباً ، ومجدها تراباً ، وشامخها يباباً ، ثم أقبلت تنفق نشاطها وطاقتها إنفاق السفهاء الأذلاء فيما لا يجديها نفعاً ، ولا يرأب لها صدعاً ، من موضوعات صبيانية ، وخرافات يصبغونها بصبغة دينية ، مع أن لسان الدين ينطق بأفصح بيان قائلا : إن الإسلام برىء مما يصنعون ، « ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين » .

ها هوذا الشعب التافه مثلا يشغل نفسه ويشغل الناس معه بخرافة طويلة عريضة ، هى أن القيامة قد جاء ميعادها ، وحان ميقاتها ، وأنها ستقوم فعلا بعد سنوات معدودات ، بل ستقوم فى سنة١٩٥٣ بالذات ، ويصدق الكثيرون

هذا القول ويتردد فيه كثيرون ، ويكذبه كثيرون ، وتظل الأمة فى ثورة ثائرة حول هذه الخرافة ، كأنه ليس وراءها ما يعنيها إلا هذا ، وتمر الأيام والليالى والموضوع الجليل الخطير يستولى على الألباب ، مع أن الله يقول فى القرآن : « يسألك الناس عن الساعة ، قل إنما علمها عند الله ، وما يدريك لعل الساعة تكون قريباً » . ولقد سأل جبريل عليه السلام أعلم أهل الأرض محمداً صلوات الله عليه عن الساعة فأجابه متوقفاً : « ما المسئول عنها بأعلم من السائل » ! . . ولكن جهلة الناس ودواب البشر يظنون أنهم أعلم من جبريل ومن محمد ، ولذلك حددوا للساعة ميعاداً ، وأطالوا حوله الجدال والنقاش ! . . .

ولا تكاد تخمدنا نار هذه الثورة أو تخف حدتها ، حتى يبحث الشعب التافه الفارغ عن خرافة أخرى يشتغل بها ، إذ ليس له فى دنياه ما يشغله ، فإذا بنا نسمع ما يذاع حقاً أو باطلا عن نبي آخر الزمن والرسول المرجى فى المحن ، ويشاع أن هذا النبي قد ظهر فى مدينة من مدن مصر ، ويفترق الشعب فى أمره فرقتين ، فنهم المدافع عنه المكذب لما ينسب إليه من إدعاء النبوة ، ومنهم من يؤكد حدوث هذا ويحكم عليه بالكفر ووجوب القتل ، وتقوم قائمة الأمة وتقعد ، وينشغل الرأى العام بالموضوع أكثر من انشغاله بأمور أخرى لها جلالها وخطرها ، مع أن أصغر ملم بقواعد الإسلام يعلم أنه لا نبي بعد محمد عليه الصلاة والسلام ، فهو خاتم النبيين ونهاية المرسلين ، وهو المبعوث رحمة للعالمين ، والباقى شرعه إلى يوم الدين ! . . ولا يكاد يبرد وقود هذه الفتنة ، حتى تنهض للشعب مشغلة أخرى تلهيه وترديه ، فهذه فتاة يصيبها إنحراف فى نفسها أو أعصابها ، فتزعم للشعب السماع للتوافه الولوع بالسفاسف ، أن جبريل ينزل عليها من عند الرحمن ، وينبئها أنها البتول العذراء ، وأنها ستلد المهدى المنتظر ، بلا زواج أو والد ، مثل عيسى المسيح

تماماً ، وتتسع أنهار الصحف ويكثر الحديث حول هذا الموضوع ، ويجد الشعب فيه غذاء يقتات به ، فيقبل عليه فى حرص وشغف ، متسائلا مجادلا ، باحثاً منقباً ، مع أن المسلم الصحيح يعلم أن النبوات قد انتهت ، وأن نزول جبريل بالوحى قد انقطع ، وأن ميلاد عيسى كان معجزة إليه اختصه الله بها ، وأقام ناطق الأدلة وصادق الشواهد عليها ، ولكن لمن تقول القول وأكثرهم لا يفقهون ؟ . . ثم تتعدد الخروق ، وتكثر الفتون ، وتتضاعف المهازل ، فيظهر نبي جديد ، ومهدى منتظر آخر ، يتحكم فى أعمار الناس كما يشاء ، فيفرق من يريد فى النيل ، ويجىء من يريد ، ويعد بالخير والبشرى من يرضى عنه ، ويوعد بالخسار والبوار من يغضب عليه ، ولم لا يفعل وهو فى أمة عليلة مأفونة ، تتضح آذانها لكل تافهة ، وتقبل باهتمامها على كل مهزلة ، إذ هى أمة فارغة ليس وراءها من واجب تؤديه أو مهمة تنهض بها ! .

ليتك أيتها الأمة الضالة تهيئين وجهك ليبصق فيه الباصق ، أو يصفعه الصافع ، فإنك أمة لا تستحقين الحياة ! . . . أفما كان الأولى بك وأنت تدعين أنك أمة محمد عليه السلام أن تشغلى نفسك مثلا بقضية الوطن أو فضيحة فلسطين أو مهزلة السودان ، أو السعى من أجل الأبرياء المظلومين ، ورد الحقوق إلى المضيعين الخائفين ، وإثابة المجاهدين المجهولين ، ودفع العدوان عن المشردين المؤمنين ، أو مراجعة الذين يأتمرون بحياتك ، ويقتسمون بينهم خيراتك ، وأنت عنهم من الغافلين ؟ ! . . اللهم اشف أمة محمد من أمراضها وأوجاعها وعللها المزمنة المستعصية المستوطنة يارب العالمين ! . . .

يا أتباع محمد عليه السلام . . .

إن غضب الغيور على دينه ووطنه يجب أن نحسن به الظنون ، وما بنا والله من رغبة فى هدم أو تقويض ، ولكننا نبصر ناراً تأتى على الأخضر واليابس

فى الأمة الإسلامية فنريد أن ننبه إليها ونحذر منها ، حتى تنصرف الأمة عن صغائرها ، وتنطلق إلى جلائل أعمالها ونصرة دينها ، وتأييد الدعاة الهداة إلى شريعتها ، والغضب لحرماتها المضيعة وحقوقها المبددة ، فإنه يخيل إلينا أن الذين يحلو لهم الصيد فى الماء العكر ، والذين ينتهزون غفلات الأمم ليسودوا فيها ، ويستبدوا بها ويسرقوا منها ، يعملون بكل وسيلة لبقاء هذا الجهل العام فى الأمة حتى تظل لهم سيطرتهم ، فالذئب لا يسطو على الأنام ولكنه يسطو على الأغنام ، فلندفع عن أمتنا هذا العار ، ولنأخذ بزمامها إلى ميادين المجد والفخار ، والله ولى الذين لا يهزلون بل يجدون ، ونصير الذين يعملون لا الذين يتهاترون ، ففروا إلى الله إنى لكم منه نذير وبشير ، واتقوا الله لعلكم تفلحون . . . أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم ، ادعوا ربكم يستجب لكم .

غفوات وصحوات

الحمد لله عز وجل ، أقام عباده على شرعة سواء ، وجعل صلاح أمرهم فى الاتحاد والإخاء : « وإن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون » . أشهد أن لا إله إلا الله ، عز من اهتدى بهداه ، وضل من ابتعد عن حماه ، « وإلهكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم » . وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، حقق لقومه مجد الدنيا ونعيم العقبى ، « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين» .فصلواتك اللهم وسلامك عليه وعلى آله وذريته ، السابقين من صحابته ، والقائمين بأمر دعوته : « وإن جندنا لهم الغالبون » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . . .

للأمم – كما للأفراد – غفوات تعقبها صحوات ، وصحوات قد تعرض خلالها غفوات ، وإذا كانت غفوة الفرد تعد بالساعات ، فإن غفوة الأمم تحسب بالسنوات ، لأن السنة فى حياة الأمة تقوم مقام اليوم أو بعضه فى حياة الفرد من الأفراد ، وهذه هى الأمة العربية كانت فى عهد الجاهلية قبل الإسلام غافية منطوية على خصائصها ومميزاتها ، تطوف حولها وهى فى سباتها رياح تصفو حيناً فتحركها ، وتتعكر أحياناً فتكظم أنفاسها وتزيد نعاسها ، ثم هتف بها هاتف السماء متردداً فى القرآن الكريم على لسان محمد العظيم عليه الصلاة والتسليم ، فإذا الأمة الغافية تتحرك من نومها وتنهض من سباتها ، وتتناول الدعوة السامية من يد داعيها وقائدها ، وتتجلى فيها المواهب التى كانت مطمورة ، والعبقريات التى كانت مستورة تتبدى منها المفاخر والمآثر ، وتخرج إلى الناس هادية وراعية وموجهة ، ولا عجب ، فقد بعث الله فى أبنائها رسولا منهم يزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة ، ويجعلهم أمة وسطاً ،

شهداء على الناس ، قائمين بينهم بالقسط ، داعين فيهم إلى دار السلام ، والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم .

وإذا كنا نفهم من قوله تعالى : « الله أعلم حيث يجعل رسالته » إن الله يختار على عينه من يرسله إلى الناس ويصطفيه لهدايتهم وإخراجهم من الظلمات إلى النور ، لأنه الأمين المأمون ، ولأنه الصادق المصدوق ، ولأنه الطهور المعصوم ، فإن الله عز وجل يختار كذلك البيئة الصالحة لشريعته ، حتى تكون منبتاً طيباً لها ، ومنبعثاً كريماً لأضوائها ، وينبوعاً صافياً لمائها العذب النمير . ؟ ولحكمة بليغة اختار الله جل جلاله لمنزل وجهة بلائحة العرب وأمة العرب لتحمل هدية إلى الناس فى المشارق والمغارب .

وامتدت صحوة الأمة العربية التى آمنت بربها ، وأسلمت بالقياد لنبيها ، وأيقنت بقرآنها ، واعتزت بمبادئها وأخلاقها ، واتسعت سماحتها فشملت بين جنباتها إخواناً كثيرين لها فى الإنسانية آمنوا كما آمنت ، واستقاموا كما استقامت ، وجمعتهم كلمة التوحيد وأظلهم لواء الإسلام ، فأشرقت أضواء المجد أيام الرسول الأمين ، وفى عهد الخلفاء الراشدين ، وفى عهد من صلح من الأمويين والعباسيين فى المشرق والمغرب ، وكانت الأمة العربية المؤمنة فى تلك العهود الرءوم التى أحسنت القيام على تراث الإنسانية ، وأجادت القيادة للناس ، أو كالأم الحنون التى صدقت عطفها على البشرية فرأبت صدوعها وأرشدت جموعها . وكأنما أدرك هذه الأمة كلال أو ملال من طول الصحوة ، وسوء ما عرض فى هوى وشهوة ، وكأنما أرادت الأقدار أن تعجم أعوادها ، وتجدد سنادها ، فابتعثت لها عوامل الابتلاء ، وتعرضت مكائد الأعداء ، حتى زحزحت هذه الأمة شيئاً فشيئاً عن ساحة الحركة الدائبة والحياة المخصبة ، وزاحمها على الطريق من لا يستحق المزاحمة ، فمالت هـــذه الأمة إلى الدعة والراحة ، وركنت إلى السبات والنوم ، وامتدت بها الغفوة

ما شاء الله أن تمتد ، وسبقها من سبق فى هذا الميدان أو ذاك ، واستبد بمواريثها وخيراتها من استبد ، ثم قرعت أسماعها النذر المدروسة والأصوات الباعثة ، فإذا هى تنهض وتتوثب كالعملاق الذى يشرئب ليسترد مكانته وحقوقه ، وينتصف من الذين خدروه وأبعدوه عن مجالات اليقظة والكفاح ! . . .

هذه دمشق مثلا ، كانت غافية قبل الإسلام ، يخدر شعورها ويمتص خيرها بغى الرومان وطغيان الدخلاء ، ولكنها أشرقت بما أشرقت به فى عهود الإيمان ، ثم أصابتها الغفوة زمن العثمانيين والفرنسيين ، ثم صحت على الوعى الجديد قوية فتية تستعيد تاريخها ، وتسترد مكانتها . . . وكانت القاهرة فى مثل هذا السبات قبل أن يبعثها عمرو بن العاص وصحبه على نداء القرآن وصوت الآذان وهتاف الإيمان ، وكانت لها أمجادها فى صحواتها خلال عصور الإسلام ثم نالها الكساد أو الرقاد على أيدى العثمانيين والفرنسيين والإنجليز ، ثم ثارت على القيد فحطمته ، وعلى الذل فسحقته ، وعادت تحقق شخصيتها من جديد ، وقل مثل هذا أو قريباً منه عن بغداد التى كان لها من الأمجاد فى عصور اليقظة الإسلامية ما كان ، مما تعطرت به صفحات التاريخ وسجلات الذكريات ، وقل مثل هذا عن تونس والجزائر والرباط وبلاد المغرب العربى المؤمن الذى فتح صدره لأضواء الإيمان وأشعة العقيدة فاهتدى بها واعتلى بنيانها بين الناس ، منتقلا بها عبر البحار والأنهار وهذه هى اليمن . . اليمن التى قال فيها رسول الإسلام عليه الصلاة والسلام : « الإسلام يمان والحكمة يمانية » ويقول : « أتاكم أهل اليمن هم أرق افئدة وألين قلوباً » ويقول : « إنى لأجد نفس الرحمن من قبل اليمن » يعنى الأنصار ، لأن الله نفس بهم الكرب عن المؤمنين ، وهم يمنيون ، لأنهم من قبيلة الأزد اليمنية . . هذه اليمن كانت فى غفوتها قبل الإسلام ، ثم بعثها القرآن من مرقدها فكان من شأنها ما كان ، ثم انطوت

على نفسها حيناً من الزمان ، ثم ها هى ذى تنفض عنها رداء الوسن ، وتنهض لتأخذ مكانها المأمول من جديد . . .

وحينما كانت اليقظة متحققة فى هذه العواصم لم تكن يقظة فى قوميتها ومعيشتها وماديا‌تها فقط ، بل كانت كذلك يقظة لعقائدها الربانية ، ومبادئها الروحية ومثلها العالية ، فحينما توثب الأشبال والأبطال بأرجاء تلك البـلاد ازدهرت فيها دعوات الحق ومبادىء الصدق ، وانتصرت فيها هداية الرحمن على ضلالة الشيطان ، وحينما أصابها ما أصابها من الغفوات كان لذلك تأثيره الظاهر وتعويقه البين لدعوات الخير وعقائد البر فى هذه الديار وفى غيرها من الأمصار ، ولعل هذا مما يشير إليه قول الرسول صلوات الله عليه : « إذا ذل العرب ذل الإسلام » . ولذلك لا يريد أبناء الإسلام وأتباع محمد عليه الصلاة والسلام أن يذل العرب لكيلا يذل الإسلام ، ونحن نعمل لكى يعز العرب ، ويجب أن يكون هدفنا من عزة العرب إسعادهم وإعلاء كلمةالإسلام ونشر العدالة بين الناس بلا تعصب أو تحزب أو انحياز أو تطوف ، وإذا عز العرب وعز الإسلام ، فلتثق الدنيا فى شرقها وغربها أن هاتين القوتين المتمازجتين : قوة العرب وقوة الإسلام لن تكونا يوماً من الأيام من أسلحة البغى أو معاول الهدم والطغيان ، بل ستكونان ميزانين كبيرين من موازين العدالة والرحمة والسلام ، ولسنا نقول هذا عن أنفسنا بل إن إمام العرب ونبى الإسلام ورسول الرحمة محمداً صلوات الله عليه هو الذى يوفق بين عزة القومية والعدالة الإنسانية التى أقبل بها الإسلام ، فقد سأله رجل فقال : يا رسول الله ، أمن العصبية أن يحب الرجل قومه ؟ . قال النبى : لا ، ولكن العصبية أن ينصر الرجل قومه على الظلم . . . وهذا عمار بن ياسر يروى لنـا ما ينسبه إلى النبى وهو قوله : ثلاث خلال من جمعهن فقد جمع خلال الإيمان :

الإنفاق من الإقتار (أى التضييق) والإنصاف من نفسك ، وبذل السلام للعالم » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام : : : إن الحركة بركة ، وإن اليقظة حياة ، والغفوة لون من ألوان الموت ، وفى ديارنا آثار يقظة نرجو أن تباركها يد الله ، وأن يزكيها دين الله ، وأن يقودها هدى رسول الله ، « صبغة الله ، ومن أحسن من الله صبغة ونحن له عابدون » : واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون :

الوحدة قوة

الحمد لله عز وجل ، هو الذى ألف بالإسلام بين قلوب المؤمنين ، وجمع على التقوى كلمة الموقنين الموحدين ، « والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم » . أشهد أن لا إله إلا الله الواحد الأحد ، الفرد الصمد ، « ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين » ، وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، جمع الكلمة ووحد الأمة ، وهو « بالمؤمنين رءوف رحيم » ، فصلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وصحبه ، وأتباعه وحزبه : « أولئك هم خير البرية » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام :

إن حلائل الأمور تحتاج إلى التثبت فى الأذهان ، والتأكيد فى القلوب والبصائر ، ومن هنا رأينا القرآن الكريم لا يجد بأساً فى أن يعيد القول ويكرره فيما يحتاج إلى تأييد وتوطيد ، ولقد كان سيدنا رسول الله يعود إلى الموضوع الهام المرة بعد المرة ، ويذكر بالأمر الجليل الكرة بعد الكرة ، ليشد من العزائم ويجدد فى الهمم ، ويواصل حث أتباعه على الإنابة والاستجابة ، والارتباط بما يجب عليهم الارتباط به من المثل العليا والقيم الرفيعة والخصال المجيدة والأعمال الكريمة ، ولقد تردد الصوت من فوق هذا المنبر متحدثاً أكثر من مرة عن جمع الكلمة ووحدة الأمة ، وهو لا يجد اليوم بأساً ولا حرجاً فى أن يعود إلى هذا الموضوع بمزيد من التفصيل والتحليل ، فقد حدث منذ يومين حدث جليل فى تاريخ أمتنا التى نرتجى لها الخير والرشد ، ونريد لها العزة والمجد ، وهو إعلان قيام الدولة الاتحادية الكبرى المكونة من ثلاثة أقطار من أقطار والعروبة والإسلام هى مصر وسورية والعراق ، فكانت هذه بداية لها ما بعدها بمشيئة الله .

وكل عاقل يتدبر يدرك أن الوحدة قوة ، لأنها التقاء همم وإجتماع عزائم ، والمثل العربى القديم يقول : المرء قليل بنفسه كثير بإخوانه ، والمثل الآخر يقول : اليد لا تصفق وحدها ، والرسول من فوق الجميع يقول : « إن الشيطان مع الواحد ، وهو من الاثنين أبعد » . ونحن نعرف من قصصنا الرمزى البليغ أن رجلا كان على فراش المرض ، وأحس بدنو الأجل ، وكان له أبناء يحبهم ويحرص على خيرهم ، فاستدعاهم إليه وقد أعد لهم حزمة من العصى ، فلما التأم جمعهم عنده دفع بالحزمة إلى أكبرهم ، وطلب منه أن يكسرها وهى مجتمعة ، فحاول فاستعصت عليه ، فأبدى عجزه لوالده ، فدفعها الوالد إلى الثانى فكان نصيبه كنصيب أخيه ، وهكذا دارت الحزمة عليهم جميعاً ، وهى مستعصية لكثرة أعوادها ، متأبية بتجمعها واتحادها وهنا قال الرجل لأولاده : أنتم يا بنى كهذه الحزمة إذا اتحدتم استعصيتم على أعدائكم ، ولم يغلبكم غالب ولم يعبكم عائب ، وإن تفرقتم واختلفتم هنتم على أنفسكم وعلى الناس ، وطمع فيكم القوى والضعيف ، ثم أنشد :

تأبى الرماح إذا اجتمعن تكسرا ... فإذا افترقن تكسرت آحادا

وماذا كان البناء الوثيق المتين فى أول أمره ؟ ألم يكن ذرات من التراب والمواد الأخرى ، ولكن تلاقيها وتداخلها واتحادها أكسبها قوة هيأت لنا منها هذا البناء الباسق والصرح الشاهق . والخيط الضعيف المفرد نراه لا يغنى ولا يفيد ، لأنه سريع التقطع والتمزق ، ولكنه إذا انضم إلى أمثاله من الخيوط والتحم بها واتحد معها صار حبلا قوياً متيناً يغنى ويفيد . وفى جو هذه الأمثلة الحسية الملموسة نستطيع أن نعى ما أراده سيدنا رسول الله عليه الصلاة والسلام من توجيهه البليغ حين قال : « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً » .

ولقد أوحى الله تبارك وتعالى إلى رسله وأنبيائه صلوات الله وسلامه

عليهم أجمعين أن مفتاح العزة والقوة والسيادة هو طريق الوحدة والجماعة ، المزدان بطيب الكسب ، وصالح العمل ، وصادق التقوى ، وأن التمرد على الوحدة بسبب الهوى أو الشهوة أو خبيث الأغراض والأمراض ، يؤدى إلى النكبة التى تعم صاحبها وتغمره فكأنها طوفان مهلك مدمر ، فقال القرآن الكريم : « يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحاً إنى بما تعملون عليم ، وإن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون ، فتقطعوا (أى الضالون من الناس) أمرهم بينهم زبرا (أى فرقاً) كل حزب بما لديهم فرحون ، فذرهم فى غمرتهم حتى حين » . والنبى صلى الله عليه وسلم يقول : « ثلاث لا يغل عليهن قلب امرىء مؤمن (أى لا يصيبه معهن خلل) : إخلاص العمل لله ، والمناصحة لأئمة المسلمين ، ولزوم جماعتهم ، فإن دعاءهم يحيط من ورائهم » . وإذا كان الأثر الإسلامى يقول : لا تجتمع الأمة على ضلالة ، فمعنى هذا أن الوحـدة تؤدى إلى الرشاد والسداد ، وتباعد عن الخطأ والفساد ، ولذلك يقول الشاعر :

رأى الجمـاعة لا تشقى البلاد به رغم الخلاف ، ورأى الفرد يشقيها

وإذا كان الإسلام يؤكد فى أذهان أبنائه وقلوبهم أن الوحدة قوة ، فإنه لا ينسى التحذير من الصورة المقابلة ، وهى صورة الفرقة والتمزق ، فهو يكرر الإشارة إلى سوء العاقبة ووخيم المآل عند التشتت والتحزب ، فيقول القرآن : « إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً لست منهم فى شىء » . ويقول : « ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات وأولئك لهم عذاب عظيم » ويقول : « ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيراً » .

والإنسان إذا انفرد أحس بالوحشة والقلق ، ولكنه إذا صار جزءاً من كل ، وعضواً فى جماعة ، ولبنة فى بناء ، اطمأن فى حسه ونفسه ، وأدرك

أنه يأوى إلى قوة تسانده وتحميه ، وتدافع عنه وتقيه ، ويكون هو فى خدمتها كما تكون هى فى حمايته ووقايته ، ومن هنا جاء الشعار التعاونى الحكيم : الفرد فى خدمة المجموع ، والمجموع لحماية الفرد . وما أبلغ رسول الله عليه الصلاة والسلام حين يقول : « إنما يأكل الذئب من الغنم القاصية » وفى رواية « إن الشيطان ذئب الإنسان يأخذ القاصية والشاذة » . والقاصية الشاذة هى الشاة المنفردة عن القطيع البعيدة منه ، والمعنى أن الشيطان يتسلط على الخارج من الجماعة فيضله ضلالا بعيداً ، ومن يكن الشيطان له قريناً فساء قريناً .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . من أجل هذا نستبشر خيراً بالبيان التاريخى الذى أعلن ميلاد الدولة الموحدة الكبرى . وإذا كان هذا البيان قد اشتمل على كثير من القيم الوطنية ، فإنه يسعدنا نحن المؤمنين بالله وهديه أن يبدأ البيان بقوله : « بسم الله الرحمن الرحيم ، بسم الله العلى القدير » لأن هـذا معنى أن صانعى البيان لأمتهم يستلهمون الهدى من خالقهم ، كما أن البيان جعل من مقومات الوحدة الدين والعقيدة وعبر عن ذلك بقوله « وحدة القيم الروحية والإنسانية النابعة من رسالة السماء » . كما أنه يسعدنا أن يقرر البيان أن الإسلام هو دين الدولة الكبرى ، ولا شك أن هذا يقتضى من الدولة أن تستضىء بنور الله ، وأن تهتدى بهديه ، حتى تنال رضاه فتحظى برعايته وتوفيقه ، والله ولى العاملين المخلصين ، وسبحان من لوشاء لهدى الناس جميعاً إلى سواء السبيل ، واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون .

فى طريق الوحدة

الحمد لله عز وجل ، له دعوة الحق ، وكلمة الصدق ، ومن أصـــدق من الله قيلا ؟ أحمده سبحانه وأشهد أن لا إله إلا الله ، حدد معالم الطريق ، وأبان أسباب التوفيق ، ومن يعتصم بالله فقد هدى إلى صراط مستقيم ، وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، جمع الكلمة ووحد الأمة ، فكان خير المصلحين ، فصلوات الله وسلامه عليه ، وعلى آله وأصحابه وأتباعه وأحبابه ، ومن تعلق ببابه ، ومن تزكى فإنما يتزكى لنفسه وإلى الله المصير .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام :

يقول الله تبارك وتعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم : « وأن هذا صراطى مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون » وهذا الصراط المستقيم الجدير بالاتباع دون غيره ، هو طريق الوحدة والاجتماع ، لأن جوهر الإسلام هو كلمة التوحيد وتوحيد الكلمة ، وكأن هذا الدين الإلهى بأصوله ومبادئه يذكر المؤمن بالوحدة فى كل جانب من جوانب عقيدته ودنياه ، فالرب واحد ، والرسول واحد ، والقبلة واحدة ، والكتاب واحد ، ولذلك دعا الله عباده المهتدين إلى الاستظلال بظل الوحدة والجماعة . فقال عز من قائل : « واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا » ، ولفت رسول الله صلى الله عليه وسلم الأبصار والبصائر إلى ما فى هذا الاعتصام من نعمة وثمرة ، فقال : « لا تجتمع أمتى على ضلالة » . وقال : « يد الله مع الجماعة » .

واختار الله لعباده المؤمنين طريق المشاركة فى الرأى ، والمشاورة فى

الأمر ، والاستعانة بفكر كل مفكر ، ليكون من وراء ذلك تجنيد الأمة بطاقاتها مجتمعة موحدة ، لتصون حياتها ، وتحمى حريتها ، وتحقق عزتها ، فقال جل جلاله : « وأمرهم شورى بينهم » وقال : « وشاورهم فى الأمر » . واقتنع بذلك العقلاء البصراء من أبناء هذه الأمة المؤمنة ، حتى قال قائلهم .

رأى الجماعة لا تشقى البلاد به رغم الخلاف ورأى الفرد يشقيها

وقال قائلهم الآخر : « شورى من الحجاج ، خير من رأى الفرد لو كان عمر » !

ولقد وضع الله لأمته العابدة الماجدة المجاهدة هذا الشعار الإلهى الرائع : « وإن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون » . وقوله : « إن هذه أمتكم » فيه إشارة إلى الأمة المؤمنة الموحدة التى يجب أن تقوم ، ويلزم أن تقوى وتدوم ، وكأنه من الأمور الطبيعية المسلمة أن تكون هذه الأمة قائمة شامخة مرئية يشار إليها ، كما يشار إلى الأمور الظاهرة المحسوسة ، والحقائق الواقعة الملموسة : « إن هذه » .

وكلمة « أمتكم » فيها تذكير واعظ مرشد ، لكى يتذكر الإنسان أنها أمته ومنبته ، وقومه وعشيرته ، وأحباؤه وإخوته ، إنها ليست أمة غريبة عنكم يا أبناء الإسلام إنها أمتكم أنتم ، إنها منكم وبكم ، إنها فيكم ولكم ، إنها معقد عزتكم ومجمع قوتكم ، إنها أمة الإيمان ، إنها أمة القرآن ، إنها أمة الرحمن . وقوله : « أمة واحدة » فيه تجسيد لوصف هذه الأمة الأساسى فشأنها وحالها أن تكون دائماً وأبداً أمة واحدة ، أمة التوحيد ، أمة الوحدة ، أمة الجماعة ، أمة كلمة التوحيد وتوحيد الكلمة ، لا فرق فيها ولا أحزاب ، ولا تمزق فيها ولا تشقق ، وهى لا تعز إلا بالحرص على هذه الوحدة ، ولا تتعرض للأمن والمحن إلا فى ظلمات الفرقة والشتات .

والمحن إلا فى ظلمات الفرقة والشتات ، « وأنا ربكم » : أنا الله الواحد الأحد ، أنا الفرد الصمد ، الذى يدعوكم إلى الوحدة والتوحيد ، أنا الذى جمعكم على كلمته فلا تتفرقوا ، ووحد هدفكم فلا تتمزقوا : « ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم واصبروا إن الله مع الصابرين » ، «ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات وأولئك لهم عذاب عظيم » يقول : أنا ربكم الذى أوجدكم بقدرته ، وألف بين قلوبكم برحمته ، وجمعكم على طريقه وملته ، وأخرجكم من الظلمات إلى النور ، وهداكم إلى سواء السبيل : « الله ولى الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور ، والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت ، يخرجونهم من النور إلى الظلمات أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون » .

« فاتقون » فاحذروا غضبى الذى ينزل بكم إذا تفرقتم ، وتجنبوا نقمتى التى تحل عليكم إذا تمزقتم ، فقد كتبت عزتى للمؤمنين المتضامنين ، المجتمعين المتكافلين : « إن الله يحب الذين يقاتلون فى سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص» والتقوى فيها معنى القوة والوقاية ، القوة بالإيمان والإخلاص والاتحاد ، والوقاية بتجنب عوامل الفرقة والشتات ، وها نحن أولاء نرى عواقب الفرقة والشتات ، فقد أصبحنا هدفاً لكل طامع وموطناً لكل ابتلاء ، حتى صدق فينا قول رسولنا : « يوشك أن تتداعى عليكم الأمم كما تتداعى الأكلة إلى قصعتها ، قالوا : ومن قلة نحن يومئذ يارسول ، قال بل أنتم حينئذ كثير ، ولكنكم غثاء كغثاء السيل ، ولينزعن الله من قلوب أعدائكم المهابة منكم ، وليقذفن فى قلوبكم الوهن . قالوا وما الوهن يا رسول الله ، قال حب الدنيا وكراهية الموت .

إن طريق السلامة لهذه الأمة هى أن تكون أمة موحدة ، قائمة على الإيمان متينة البنيان وطيدة الأركان ، ليس لها إلا إله واحد ، وصف واحد ، وهدف

واحد ، وهى حين تتدثر بتقواها تلجأ إلى حصن حصين ، وركن ركين ، « ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب ، ومن يتوكل على الله فهو حسبه ، إن الله بالغ أمره قد جعل الله لكل شيء قدراً » .

ولن تعز هذه الأمة إلا إذا بذلت جهدها لتكون صورة من أمة محمد التى رسم القرآن ملامحها حين قال : « محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعا سجدا يبتغون فضلا من الله ورضواناً ، سيماهم فى وجوههم من أثر السجود ، ذلك مثلهم فى التوراة ومثلهم فى الإنجيل كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجراً عظيماً » .

امة تحطمها المخدرات

الحمد لله عز وجل ، يدعو إلى الطيبات ، وينفر من المنكرات : « قل من حرم زينة الله الذى أخرج لعباده والطيبات من الرزق ، قل هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة ، كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون قل إنما حرم ربى الفواحش ما ظهر منها وما بطن » . أشهد أن لا إله إلا الله ، فصل الخطاب لأولى الألباب ، وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، أغناه الحلال عن الحرام ، فعليه من ربه الصلاة والسلام ، وعلى آله وأصحابه ، وأتباعه وأحبابه ، أولئك جند الرحمن وشيعة الرضوان : «فستعلمون من أصحاب الصراط السوى ومن اهتدى » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام :

كم من الآلاف فى أمتنا يعكفون على المخدرات ، ويهلكون أنفسهم بأيديهم عن طريق هذه « الكيوف » السامة القتالة ؟ . لقد انهتك المستور وانكشف المقبور ، فأفزعتنا الحقيقة المؤلمة ، إذ حدثتنا الأيام والأنباء أن كثيرين لم يكتفوا بالإسراف فى شرب القهوة والشاى والدخان ، بل أبو إلا أن يهدموا ما بناه لهم الخالق الوهاب ، فأخذوا يزهقون أرواحهم ، ويحفرون قبورهم ، فآثروا التهلكة فى جحيم الخمر والحشيش وغيرهما من السموم ، حتى صاروا أشباحاً بلا أرواح ، مع أن سيد الخلق محمداً يقول : « الإنسان بنيان الله ، ملعون من هدم بنيانه » . ويغالط هؤلاء الذين خضعوا لشهواتهم ، وضعفوا عن مقاومة أهوائهم ، فيفترون على الله الكذب وهم يعلمون ، فيقولون إن « الحشيش » مباح لم يحرمه الإسلام ، مع أن الإمام أحمد رضى الله عنه يروى

فى مسنده أن رسول الله صلى الله عليه وسلم «نهى عن كل مسكر ومفتر» والمفتر هو كل ما يحدث الفتور والخدر فى الأعضاء والأطراف ، والحشيش بشهادة الدارسين والمجربين يحدث هذا بوضوح فى أجسام الشاربين ، وقد عد الإمام ابن حجر شرب هذا المخدر من كبائر الذنوب ، وذكر الإمام ابن تيمية وغيره أن الإجماع قد انعقد على تحريم الحشيش ، وأن من استحل استعماله وشربه فقد كفر وقد أفتى شيخ الإسلام الإمام ابن تيمية بأنه لا يجوز أن يولى الإمامة بالناس من يأكل الحشيش ، ومثله من يشربه ، أو يفعل شيئاً من المنكرات المحرمة مع إمكان تولية من هو خير منه ، وذكر أن الأئمة مع اتفاقهم على كراهية الصلاة خلف الفاسق قد اختلفوا فى صحتها فذهب مالك وأحمد فى إحدى الروايتين عنهما إلى عدم صحتها . وذهب أبو حنيفة والشافعى وأحمد ومالك فى الرواية الأخرى عنهما إلى صحتها .

وأما ما اشتهر من قول : « صلوا خلف كل بر وفاجر » فلم يثبت أنه حديث عن النبى صلى الله عليه وسلم بل فى سنن ابن ماجه عنه «لا يؤم فاجر مؤمناً إلا أن يقهره » .

ولو فرضنا جدلا أنه لا يوجد نص صريح فى تحريم « الحشيش » بالذات ، لكانت أضراره البادية من النواحى المادية والصحية والاجتماعية مما يجعله نكبة تستحق مع غيرها من نكبات الخمور والفواحش والمنكرات حملة الصدق للقضاء عليها والتخلص منها ، فقد أثبت الأطباء العدول أن تعاطى هذا المخدر يضر ضرراً بليغاً بالصدر والقلب والرئتين وعملية التنفس ، وهى أهم عملية فى حياة الإنسان ، ويكاد العاقل يجزم بأن انتشار هذا المخدر فى ديارنا منذ عشرات السنين كان مؤامرة استعمارية أراد ذئاب الاستعباد أن يحطموا عن طريقها قوى الشرق والعرب والمسلمين ، كما ارتكب الاستعمار اللئيم هـذا

الجرم الأثيم مع أهل « الصين » من قبل ، حين نشر فى ربوعها الأفيون المهلك ، فأتى به على قواعد البلاد من الأساس .

ومخدر « الحشيش » يبعث فى نفوس شاربيه الحطة والدناءة والجبن والخور ، ويثير فى صدورهم الهلع والفزع من أتفه الأشياء ، وللمرضى المصابين بدائه قصص كثيرة فى هذا الباب تثير البكاء والرثاء ، ولعل هناك من يعجب حين يسمع أن تعاطى هذا المخدر كان سبباً من الأسباب التى أضاعت فلسطين من أيدى العرب والمسلمين ، وأعطتها غنيمة باردة لليهود ، فقد كان بعض الذين كلفوا بالقتال هناك يعمرون ليلهم بتعاطى الحشيش بدل تلاوة القرآن أو الاستعداد لمعركة الإيمان ، فإذا بدأ القتال فر أولئك المهازيل المساطيل فرار العصافير ، ومن المؤلم — كما قيل — أن اليهود الأنجاس قد أدركوا هذا العيب فينا ، وعرفوا مدى تسيطر هذا المخدر على الضالين منا ، فأخذوا يضعون مواد ضارة فى كميات الحشيش التى يهربونها بمختلف الوسائل إلى بلادنا ، ليقضوا علينا القضاء الأخير ، فمن ذا الذى يرضى لنفسه أو وطنه أو دينه أن يموت مختاراً بأيدى أعدائه ميتة الخسة والهوان التى توجب عليه المقت والغضب فى الأولى والآخرة ؟ .

إن العجب لا ينقضى أبداً من ذلك الآدمى الجلف ، الذى يهدم إنسانيته ، ويحطم صحته ، ويخالف شريعته ، فيجعل من نفسه ثوراً يعلف بالمخدرات أو الخمور أو المكيفات الضارة ، ثم لا يستقيم أمره ولا يسلس قياده فى زعمه ووهمه إلا بهذه المثيرات الوضيعة ، وفى سبيل هذا الإثم يضيع ما ساقه الله إليه من نعم الأموال والجهود والشباب والصحة والسمعة والشرف ، ويعرض نفسه لمقاومة الشرطة وكراهية المجتمع وازدراء الناس وعقاب القانون ، ويتسبب فى خسارة أمته كثيراً من الأموال والجهود تضيعها فى مقاومة المدمنين والقضاء على هذا الداء ، وبعض الثيران البشرية يفعل هذا الإجرام على حين

أنه من الفقراء ، وقد يكون أولاده فى حاجة إلى ما يستر عورتهم أو يسد جوعتهم ، بل قد تكون زوجته فى حاجة إل سروال أو غطاء ، وقد يكون مديناً فى الإيجار ، أو للبقال أو الجزار ، ولكن « الكيف » اللعين عنده فوق الجميع ، ومقدم واحسرتاه على الجميع ، وكأن هذا الحيوان لم يسمع قول ربه جل جلاله : « ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة وأحسنوا إن الله يحب المحسنين » وقوله عز من قائل : « يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم واشكروا لله إن كنتم إياه تعبدون » وقوله وهو أصدق القائلين : « يا أيها الرسل كلوا من الطيبات ، واعملوا صالحاً ، إنى بما تعملون عليم » .

ومن المخجل أن أولئك المدمنين يدعون الاستعانة بذلك المخدر على غرفة النوم ومتعة السرير ، كأنهم ثيران لا تفكر إلا فى السفاد ، ولا يهمها إلا الوقاع والجماع ، وهذا وهم كاذب وتصور باطل كما قرر الأطباء ، ولو صح هذا جدلا لما جاز أن نهدر فى سبيل اللذة المعربدة مالنا وصحتنا وأخلاقنا ، ونحن نرى الأمم من حولنا تغوص فى الأعماق وتصعد إلى أعلى الآفاق ، وتبتدع المخترعات ، وتتسع فى الحضارات ، وتستنبط الأسرار والطاقات ، من الماء والهواء ، فى الأرض وفى السماء ، ويهيم شبابها وشيبها بالعلم والفن والأدب والحياة العاملة الجادة ، ونبقى نحن معاليل مساطيل ، لا نفكر إلا فى شهوات البطن ولذات الفرج ، وغير ذلك من توافه الأمور التى لا يقام لها ميزان إلا عند أحقر الشعوب ، فأين نحن إذن من هدى سيد البشرية وإمام الإنسانية محمد عليه الصلاة والسلام الذى يقول : « إن الله تعالى يحب معالى الأمور ويكره سفسافها » . وأين نحن من قول قائلنا الحكيم :

وإذا كانت النفوس كبارا تعبت فى مرادها الأجسام

وقول الآخر :

ولو أن ما أسعى لأدنى معيشة كفانى — ولم أطلب — قليل من المال

ولكنما أسعى لمجد مؤثل   وقد يدرك المجد المؤثل أمثالى

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام : ماذا يكون موقفنا إذا تقدمت كل أمة رافعة رأسها قائلة : هاؤم اقرءوا كتابيه ؟ أنقدم حينئذ جيشاً مخيفاً من ضحايا الخمور والكيوف والمخدرات ، أم بضعة أطنان من الحشيش والمسكرات أفما آن لنا أن نبحث عن اللذة الرفيعة فى العلم أو الأدب أو الرياضة النزيهة أو الفنون الجميلة أو الطيبات الكثيرة ؟ أفما آن لنا أن نرى فينا أجساماً قوية تضبطها إرادة سوية ، وعزيمة فتية ، وأخلاق نقية ، حتى تستحق قول خالقنا : « كنتم خير أمة أخرجت للناس » ؟ . والله يقول الحق وهو يهدى السبيل ، واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون .

دعوة الفتنة نائمة

الحمد لله ، يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم ، ويسوق أهل الضلال إلى سواء الجحيم : « بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق ، ولكم الويل مما تصفون » . نشهد أن لا إله إلا أنت ، الأمر كله إليك ، والاعتماد كله عليك : « قل إن ربى يقذف بالحق علام الغيوب ، قل جاء الحق ، وما يبدىء الباطل وما يعيد » : ؟ ونشهد أن سيدنا ومولانا محمداً عبدك ورسولك ، أسر الناس بمكارمه وخلاله ، ووسعهم بآدابه وأفضاله ، فصلواتك اللهم وسلامك عليه ، وعلى آله وصحبه ، وجنوده وحزبه « رضى الله عنهم ورضوا عنه ، أولئك حزب الله ، ألا إن حزب الله هم المفلحون » ؛

يا أتباع محمد عليه السلام . . .

الفتنة نائمة ، لعن الله من أيقظها . . . فى هذا الوقت العصيب الملىء بالحوادث والأحداث ، والذى يتطلب التئام الشمل واجتماع الكلمة وتضافر القوى لإنقاذ ما يمكن إنقاذه ، وترميم ما نستطيع ترميمه ، من الشقوق والفتون ، يخرج علينا من يفترى على الله ورسوله وملته وكتابه ، فيصف الفتوح الإسلامية بأنها غارات للسلب والنهب ، ويدعى أن الإسلام يوغر صدور أبنائه ضد أتباع الأديان الأخرى ، وأن تاريخ المسلمين يفيض بمواقف الطغيان والاعتداء على غير المسلمين ، إلى آخر ما هناك من افتراءات وادعاءات . . . فكيف يا قوم والإسلام هو دين الأمان والسلام ، وملة الرحمن والوئام ، وكتابه يقول : « لا إكراه فى الدين » ويقول : « لكم دينكم ولى دين » ويقول : « وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله إنه هو السميع العليم » ويقول : « ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين » ؟ . وما كانت

فتوحات الإسلام إلا نوراً يستفيض على أيدى المؤمنين ، فيفتح الصدور قبل الثغور ، ويجذب العباد قبل البلاد ، والإسلام فى قوته وعدالته يقف موقف المسالم أو المدافع دائماً ولا يقف موقف البغى أو الطغيان أبداً ، ولا يقاتل إلا من وقف فى طريقه ، أو عاق دعوته ، أو حارب أهله : « إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم فى الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون » . « أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا ، وإن الله على نصرهم لقدير ، الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز ، الذين إن مكناهم فى الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور » .

والإسلام يعتبر أبناء الأديان السماوية الأخرى الذين يجاورونه ويعاشرونه أهل ذمة وميثاق ، لهم ما لنا وعليهم ما علينا ، لا يضارون فى قليل أو كثير ، ولا يعتدى عليهم فى جليل أو حقير ، ما داموا للعهد حافظين ، وكم أظهر الإسلام بنصوصه وتطبيقه من مظاهر السماحة والإكرام لهؤلاء الجيران ، فهذا هو الرسول عليه السلام يقول : « من ظلم معاهداً أو انتقص حقه أو كلفه فوق طاقته أو أخذ منه شيئاً بغير طيب نفس فأنا خصيمه يوم القيامة » . ويقول : « من آذى ذمياً فأنا خصمه ، ومن كنت خصمه خصمته (أى غلبته) يوم القيامة » . فكيف يتطاول بعد هذا متطاول فيدعى أن الإسلام يحرض أهليه على هضم حقوق المخالفين لهم فى الدين ؟ . .

بل وهذا موقف للإسلام يرينا كيف ينتصر للحق المهضوم فى يد رجل يهودى ، ويثور على الباطل المزعوم فى يد رجل مسلم ، لأن العدالة يستوى فى رحابها جميع الناس . . . لقد حدث فى عهد الرسول أن سرق رجل مسلم

يسمى طعمة بين أبيرق درعاً من أهل بيت من المسلمين ، ثم أخفى الدرع عند رجل يهودى ، ثم ضبطت الدرع فى بيت ذلك اليهودى ، فاتهموه بسرقتها فنفى ذلك وذكر أن طعمة أودعها عنده أنه لا يدرى أنها مسروقة ، وتبرأ طعمة من ذلك ، وأنكر السرقة والإيداع ، وأخذ يقسم على ذلك الأيمان ، وتضافرت الأدلة الظاهرية ضد اليهودى ، وزاد الطين بلة أن أهل طعمة حاولوا أن ينتصروا لأخيهم ، وأن يثيروا الرسول ضد اليهودى ، ولكن الله من وراء الجميع محيط ، وهو لا يقبل أن يضام يهودى برىء لينجو مسلم مذنب ، فأعلم رسوله بطريق الوحى حقيقة الأمر ، وطالبه بإنصاف اليهودى ومؤاخذة المسلم ، وأنزل فى ذلك آيات فى سورة النساء ستظل تتلى على ممر الأيام ، وفى مطلعها يقول سبحانه : « إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله ، ولا تكن للخائنين خصيماً واستغفر الله إن الله كان غفوراً رحيماً ، ولا تجادل عن الذين يختانون أنفسهم إن الله لا يحب من كان خواناً أثيماً ، يستخفون من الناس ولا يستخفون من الله وهو معهم إذ يبيتون ما لا يرضى من القول وكان الله بما يعملون محيطاً » إلى آخر ما قال ، فهل بعد ذلك عدل أو إنصاف ؟ . . .

ولقد سار خلفاء الرسول وولاة الإسلام على هذا النهج القويم ، حفظوا للذميين والمعاهدين والمخالفين لهم فى الدين حقوقهم ومواثيقهم وأرزاقهم ، ولم يفكروا يوماً أن تطغى الأغلبية المسلمة بكثرتها أو قوتها أو سيادتها على أقلية من الأقليات ، بل كثيراً ما أعطوا هذه الأقليات فوق حقها ، تحاشياً للتهم ، وتباعداً عن الظنون ، ونحن نجد هذه السماحة حتى فى عصور الضعف والظلمات ، وفى الأجيال التى تفرقت فيها كلمة المسلمين ، فهذا مثلا أحمد ابن طولون الذى اشتهر بالقسوة وشدة البطش ، والذى كان يغضب فيسرف فى التنكيل ، يحدثنا التاريخ عنه بأنه حفظ سنة الإسلام فى معاملة غير المسلمين

وضرب خير الأمثلة فى السماحة مع المخالفين فى الدين ، فكان يتردد على أديرة الرهبان ويأنس بهم ، وسألوه يوماً أن يرفع عنهم جزية الرءوس فنفذ لهم ما أرادوا ، وحدث أن اغتصب أحد قواده من راهب مسيحى خمسمائة دينار لظنه أنه يملك كنزاً ، وجاء الراهب إلى ابن طولون شاكياً ، فقابله حاجبه وكان صديقاً للقائد ، فأعطى الراهب الخمسمائة دينار من جيبه وأرضاه وأعاده بلا تبليغ الشكوى ، وعلم ابن طولون بعد ذلك بالخبر ، فأحضر القائد والحاجب والراهب ، وآخذ الحاجب مؤاخذة شديدة لكتمانه الأمر عنه ، ثم لان معه لحسن نيته فى تصرفه ودفعه المال للراهب ثم قال للقائد غاضباً : أفى رزقك تقصير عن مؤنتك ؟ قال القائد : لا . قال : فهل أخر عنك استحقاقك تأخيراً يضطرك إلى ما أتيته ؟ . قال : لا . قال : فبأى حال استحللت أن تأخذ من هذا البائس الضعيف ما تقطع به قلبه ، وتبكى عينه ، وتفقره وأهله ؟ ألك حاجة أوجبت ذلك عليك ، أو ضرورة دعتك إليه ؟ . . ثم حكم عليه بالسجن فى « المطبق » وهو سجن له رهيب ، وأعاد ذلك الراهب إلى بلده بعد أن أرضاه وأكرمه . . . واستخدم ابن طولون رجلا غير مسلم فى بناء مقياس النيل والصهريج والجامع المشهور ، وأمر له بعشرة آلاف دينار وهذه ثقة فيها تكريم ، وأكثر من هذا أننا نرى ابن طولون يتخذ له طبيباً نصرانياً هو سعيد بن توفيل ويأتمنه على صحته وحياته ، وذلك مثلما كان يفعل كثير من الخلفاء والولاة فى مختلف العصور ، ولو شئنا أن نعدد الشواهد والأمثال لضاق المجال وطال المقال . . .

يا أتباع محمد عليه السلام . . .

لسنا علم الله دعاة فتنة ولا هواة شغب ، ولكننا أهل حق وسلام ، نبشر فى العالمين بملة كلها صفاء وسناء ، لا نبتغى الجاهلين ، ولا نرتضى ضلال المبطلين ؛ وإذا ما أثار حسود أو حقود أو جحود غبار فتنة أو ظنة ، جلوناها

بحق مواطن الاختبار والابتلاء ، ثم عاودنا سيرة الوئام والصفاء ؛ فليحذر اللاعبون بالنار ، وليربع على أنفسهم مثيرو الغبار ، وليكن لنا من مشكلاتنا ومعضلاتنا ما يشغلنا عن داء الجدال والشقاق ، وصدق رب العالمين : « فاستقم كما أمرت ومن تاب معك ، ولا تطغوا ، إنه بما تعملون بصير » .
واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون ، إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون .
أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم ، سلوا ربكم التوفيق يستجب لكم .

التضامن بين المسلمين

الحمد لله عز وجل : « له الحكم وإليه ترجعون » أشهد أن لا إله إلا الله ، يؤيد القائمين بطاعته ومرضاته ، ويخذل الباغين الخارجين على صراطه وهدايته « ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز » . وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، جمع الكلمة ، ووحد الأمة ، فكان خير المصلحين ، فصلوات الله وسلامه عليه ، وعلى ذريته وآله ، وصحبه ورجاله ، والمقتدين بأعماله وأقواله « والذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

إننا نعيش في عصر أكبر سماته وأوضح علاماته هو أنه عصر تجمعات وتكتلات ، تحاول فيه كل مجموعة ضخمة من البشر أن تتلاقى وتتضام وتتحد لتصد الأخطار عنها بقوة ، وتحقق آمالها الكبار بعزيمة ، وأمة الإسلام والإيمان هى أجدر الناس بذلك ، وأحوج ما تكون إلى تحقيق التجمع والتوحيدوالتكتل أمام أعدائها وقوى الشر الخبيثة التى تقف لها بالمرصاد من كل جانب . ولقد كان من فضل الله علينا أن جعل شعار أمتنا كلمة التوحيد وتوحيد الكلمة ، فالله واحد ، والقرآن واحد ، والرسول واحد ، والقبلة واحدة ، والأمة واحدة : « وإن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون » .

ولقد علم الرسول أتباعه أن يكونوا يداً واحدة وقلباً واحداً ، فى مادياتهم ومعنوياتهم ، وحركاتهم وسكناتهم ، حتى يروى أن الصحابة رضوان الله عليهم كانوا فى أول أمرهم إذا نزلوا منزلا فى أثناء سفرهم توزعوا فى الشعاب والأودية ، فقال لهم الرسول : « إن تفرقكم هذا من الشيطان » فصاروا بعد

هذا لا ينزلون منزلا إلا انضم بعضهم إلى بعض حتى يقال فيهم : لو بسط عليهم ثوب لعمهم . ولم لا وقد جاءت الآيات القرآنية الكريمة تترى .لتؤكد هذه الوحدة وذلك التوحيد ، فيقول الله تبارك وتعالى ممتنا على أمته المؤمنة الموحدة : « واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا . واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون » . ويقول : « وأطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم واصبروا إن الله الصابرين » . ويقول : « إنما المؤمنون إخوة » ولا يحقق هؤلاء المؤمنون معنى الأخوة إلا إذا كانوا صفاً واحداً وهدفاً واحداً وغاية واحدة ، هى العزة فى هذه الحياة والفوز فى الآخرة بنعيم الله .

ولقد عمل سيدنا رسول الله على وحدة أتباعه ، وقضى فى تحقيق ذلك السنوات الطوال ، ولم يكن طريقه معبداً ، ولا مفروشاً بالورود والرياحين ، بل كانت فيه صعاب ومتاعب ، وأهوال وأخطار ، ولكنه تدرع بالإيمان والصبر ، وأقبلت عناية الله فباركت الجهود وحققت المأمول ، فكان التوحيد وكانت الوحدة ، وكان تلاقى الأرواح والقلوب والعزايم على وجهة واحدة ومسيرة واحدة ، وامتن الله بذلك على رسوله فقال له : « هو الذى أيدك بنصره وبالمؤمنين ، وألف بين قلوبهم لو أنفقت ما فى الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم إنه عزيز حكيم » . وأرشد رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى ما فى التضامن بين المسلمين من قوة ونعمة وعزة فقال : « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً » . وقال : « المسلمون تتكافأ دماؤهم ، ويسعى بذمتهم أدناهم ، وهم يد على من سواهم » . ويقول : « يد الله مع الجماعة » .

وإذا راجعنا تاريخ أمتنا الطويل العريض الحافل بجلائل الأعمال وخوالد

المواقف ومفاخر الزمن نجد أن أمتنا لم تحقق نصراً له قيمته ومكانته إلا بروح التضامن والتكتل والوحدة، وأنها لم تتعرض للزلازل والنكبات إلا فى ظلمات التفرق والتمزق والشتات، ولذلك كان أعداؤها دائماً وأبداً هو أن يأخذوا معها بطريقة « فرق تسد » وهم لا يغيظهم شىء كأن يروا هذه الأمة المؤمنة متآلفة متماسكة متضامنة ، ولا يسرهم شىء كسرورهم حين يرونها متفرقة متمزقة ، لأنهم حين ائتلافها ، واتحادها لا يستطيعون أن ينالوا منها منالا ، أو يكيدوا لها كيداً ، ولكنهم حين تفرقها وتمزقها يجدون الثغرات التى ينفذون منها إلى مآربهم الخسيسة الخبيثة التى يريدون ، ولذلك فزع الرسول صلى الله عليه وسلم فزعاً شديداً حينما وجد اثنين من عامة المسلمين ينسيان هذه الحقيقة الأساسية ، فيناديان بنداء العصبية والحزبية ، فيقول أحدهما : يا للأنصار ، ويقول الآخر : يا للمهاجرين ، فيغضب الرسول من ذلك ويقول : « أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم ؟ دعوها فإنها منتنة » ! .

وإذا كنا قد ذقنا الصاب والعلقم فى الماضى بسبب التفرق والتمزق ، وقاسينا من جراء ذلك ما قاسينا ، فى نفوسنا وأوطاننا وخيرات بلادنا ،فقد آن الأوان كى نفقه هذا الدرس العصيب ، فنترك روح العصبية والإقليمية ونزعة الجاهلية وننتظم جميعاً تحت لواء الوحدة والتضامن ليكون كل منا عضواً فى جسم واحد ، وجزءاً من بنيان واحد ، فهذه هى الصورة الكريمة التى رسمها رسول الله عليه الصلاة والسلام لأمة الإسلام ، حين قال :«مثل المؤمنين فى توادهم وتعاطفهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر » وإن من فضل الله علينا فى حاضرنا أن نشهد بواكير طيبة ميمونة لجمع الصفوف وتوحيد الأهداف وتحقيق التضامن بين أبناء الأمة المؤمنة ، حتى نواجه الأخطار المحيطة بنا فى قوة وصلابة ، وحتى نقف وقفة الحزم والعزم أمام أعدائنا الذين يتربصون

بنا الدوائر عن يمين وشمال ، والله جل جلاله هو المأمول فى أن يبارك هذه الجهود ، وأن يحقق ثمراتها ، وأن يجعلها طليعة لحرية شاملة ، وعزة كاملة ، ونصر مؤزر .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام :

إن العدو على الأبواب ، وإنه آكلنا جميعاً إن لم نكن أمة صفاً واحداً وهدفاً واحداً ، وصدق العلى الكبير إذ يقول « إن الله يحب الذين يقاتلون فى سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص » . واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون .

علة الثقافة المنحرفة

الحمد لله عز وجل : « يؤتى الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيراً كثيراً ، وما يذكر إلا أولو الألباب » . أشهد أن لا إله إلا الله ، يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم ، وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، صنعه ربه على عينه ، وأضفى عليه من آلائه ومننه : « وعلمك ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيماً » . فصلوات الله وسلامه عليه ، وعلى ذريته وآله ، وصحبه ورجاله ، « فأولئك مع المؤمنين ، وسوف يؤتى الله المؤمنين أجراً عظيماً » . . .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

من الأمور التى تحتاج إلى بحث وعلاج مشكلة الثقافة المختلة المنحرفة التى يتباهى بها أصحابها ويغترون ، فيضلون ويضلون ، لأنها ثقافة لا توجد فى الإنسان تواضعاً ، ولا فى الذهن رشاداً ، ولا فى الروح إيماناً ، ولا فى الدنيا سعادة ، بل هى شوهاء مبتورة ، تكشف شيئاً وتجهل أشياء ، ومع ذلك يخيل إلى صاحبها أنه قد بلغ الغاية وأوفى على النهاية ، بينما يوجد بينه وبين هذه النهاية أشواط ومراحل : « وما أوتيتم من العلم إلا قليلا » . ولله در ابن المبارك حين قال : « لا يزال المرء عالماً ما طلب العلم ، فإذا ظن أنه قد علم فقد جهل » ، ويذكرون أن الخضر ركب مع موسى فى السفينة ، وشاهدا عصفوراً يلتقط بمنقاره قطرة من الماء ، فقال الخضر لموسى : هل ترى هذا العصفور ؟ وهل ترى مبلغ ما التقطه بمنقاره من الماء ؟ أجاب موسى : نعم . قال الخضر : فبلغ علمى وعلمك بالنسبة إلى علم الله كمبلغ ما التقط هذا العصفور بالنسبة إلى الماء والمأثور فى القصص الدينى أن موسى قد بحث عن

الخضر ليتعلم منه . وموسى نبي من أنبياء الله ، فهو يعلم الكثير بفضل ربه ، والخضر يعلم ما لا يعلمه موسى ، وقد اتبعه موسى ليكون كتلميذ له يتلقى عنه علم ما لم يعلم . ولذلك قال للخضر : « هل اتبعك على أن تعلمنى مما علمت رشدا » ؟ وصدق العلى الكبير : « ... ولو أن ما فى الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله ، إن الله عزيز حكيم » .

والثقافة كلمة تفيد حتى من الناحية اللغوية معنى الاستقامة والاعتدال ، فالرجل الذى يجمع فى ذهنه دون قلبه وروحه معلومات ثم لا تنفعه فى تقويم اعوجاجه الحسى والنفسى لا يكون مثقفاً حقاً ، لأن العرب تقول عن الرمح إنه مثقف إذا استقام عوجه ولم يكن فيه انحراف فكأن الرجل المثقف هو الرجل المستقيم فى حسه ونفسه ، وعقله ودينه ، ولذلك قال معلم الإنسانية وسيد البشرية محمد صلوات الله وسلامه عليه : « نعوذ بالله من علم لا ينفع » وقال : « من ازداد علماً ولم يزدد هدى لم يزدد من الله إلا بعداً » . وفى حديث أبى الدرداء : « قليل من التوفيق خير من كثير من العلم » . وإذا لم تكن الثقافة على أساس من قوة الروح وسطوح الإيمان وهداية الطريق فإنها تكون زاداً مادياً كثيفاً مزلزلا ، ونحن حينما نجمع فى أذهاننا أمشاجاً من هذه الثقافة الغليظة تضطرب خطواتنا فى حياتنا ، فنكون كالغراب الذى أراد أن يقلد الطاووس ، وحاول ذلك فى سفه ، فلا هو استطاع أن يكون طاووساً ، ولا هو بقى كما كان غراباً ، فصار بين بين : «لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلا » . ولذلك نجد أن الذين يعملون عمل السوس النافر فى المجتمع أغلبهم من الذين يدعون الثقافة ، وتتوهمون أنهم قد صاروا أقطاباً فى العلم والمعرفة . . . فمن هم مثلا الذين يشككون فى وجود الله جل جلاله ، ويزعزعون قواعد التدين والإيمان فى نفوس الناس ؟ . إنهم الذين يسمون أنفسهم بالمثقفين العارفين . ومن هم الذين يبثون تيارات الانحلال

والتمتع ؟ إنهم الذين يسمون أنفسهم بالمثقفين العارفين ، ومن هم الذين يعملون ليل نهار لجعل المرأة سلعة بتاع أو فاكهة مبرحة لكل من هب ودب ؟ إنهم الذين يسمون أنفسهم بالمثقفين العارفين . . . فبعداً لثقافة تبلغ بصاحبها مبلغ الغرور والكفران ، ولا تحفظ على المرء دينه وخلقه وتماسكه فى المجتمع ، لأن الأمية الفطرية الصافية خير من مثل هذه الثقافة المأفونة الخبيثة . . . وهنا نتذكر الدعاء المأثور : « اللهم إيماننا كإيمان العوام » .

هذه أمة محمد صلوات الله وسلامه عليه يصفها القرآن بأنها كانت أمة أمية لم تتعلم الكتابة والقراءة : « هو الذى بعث فى الأميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة ، وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين » والرسول يقول عن أمته : « إنا أمة أمية لا نكتب ولا نحسب » وفى الحديث أيضاً : « تبعث إلى أمة أمية » ومع ذلك استطاعت هذه الأمة بفطرها السليمة وقلوبها المؤمنة وعزائمها الموقنة أن تهدى العالمين ، وأن تنتقل من رعى الإبل والغنم إلى قيادة الشعوب والأمم ، ولقد وصف الله نبيه فى القرآن بالنبي الأمى أكثر من مرة فقال : فى سورة الأعراف « الذين يتبعون الرسول النبي الأمى الذى يجدونه مكتوباً عندهم فى التوراة والإنجيل » وبعد قليل قال : « فآمنوا بالله ورسوله النبي الأمى الذى يؤمن بالله وكلماته ، واتبعوه لعلكم تهتدون » . وقال ابن عباس : « كان نبيكم صلى الله عليه وسلم أمياً لا يقرأ ولا يكتب » وكانت أمية الرسول دليلا أى دليل على معجزته وصدق نبوته ، فإن هذا النبي الذى لم يدخل مدرسة ، ولم يتخرج فى جامعة استطاع بفضل ربه وهداية خالقه ، أن يكون معلم العلماء ، ومخرج الفقهاء وكانت له فى مجتمعه الإسلامى مدرسة كبرى ضن الزمان بمثلها . وبقيت الدنيا حتى اليوم — وإلى ما شاء الله تعالى — ينتفع بخيراتها وثمراتها ، وكأن الله أراد أن يعطى الناس مثلا واقعياً ، وهو أنه يستطيع أن يمد القلب الإنسانى السليم بما يجعله مشعاً

مضيئاً يفيض على ما حوله ومن حوله بفيوض الهداية والضياء .

وهناك أناس لم يتعلموا كثيراً ، ومع ذلك نراهم أطهر قلباً ، وأذكى عقلا ، وأصدق إيماناً من بعض المتعلمين ، وبعض هؤلاء الذين لم يتخرجوا فى جامعات ، نجحوا فى ميادين الحياة ، وخدموا دينهم وبلادهم ، وشاركوا بجهودهم فى ميادين الخير والإصلاح ، فأى الفريقين أهدى سبيلا ؟ أهؤلاء الذين قضت ظروفهم أن يعيشوا على فطرتهم فاعتدلوا واستقاموا ، أم أولئك الذين غرتهم ثقافتهم المئوفة فضلوا وأضلوا عن سواء السبيل ؟ . .

معاذ الله أن يفهم من ذلك فاهم معنى التنفير من العلم أو التحقير لشأنه ، فدين الإسلام هو دين العلم ، ولكنه العلم الصحيح النافع الواعظ الزاجر ، وأمة الإسلام مدعوة من خالقها إلى أن تعب من ينابيع المعرفة السليمة بقدر ما تستطيع ، وأول كلمة نزلت من القرآن المجيد كانت مفتاحاً أى مفتاح للعلم ، وهى قوله تعالى: « اقرأ باسم ربك الذى خلق » . وتعود الآيات الأولى نزولا من القرآن إلى التحدث عن شأن العلم فتقول : « اقرأ وربك الأكرم ، الذى علم بالقلم ، علم الإنسان ما لم يعلم » والله يقول لنبيه : « وقل رب زدنى علماً » والرسول يقول : « إنما بعثت معلماً » . . ولكننا نريد أن نقول إن الغرور الذى يركب كثيراً من المتعالمين يوردهم موارد الجهالة والضلالة ، فيجعلهم يتوهمون أنهم قد بلغوا وعرفوا كل شىء . وإذا أدرك هذا الغرور الإنسان حرمه الانتفاع بما لديه ، وحال بينه وبين الكثير من الحقائق ، فتكون الفطرة السليمة أفضل من هذا التعالم الجاهل . . . والعالم الحق هو الذى كلما نال قسطاً كبيراً من العلم أدرك أنه ما زال مبتدئاً فى أول الطريق » وأن أمامه من الطريق ما لا يستطيع قطعه ، وكلما اتسع علمه ازدادوا تواضعه وازداد شعوره بضآلته أمام خالق هذا الكون جل جلاله .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

الثقافة التى نريدها هى التى تعلم وتقوم ، وتهدى وتعصم ، ونحن لا نريد ثقافة مستوردة ولا ثقافة فاسدة ، ولا نريدها ثقافة يتبجح بها صاحبها ويتوقح ، بل يعرف بها قدر نفسه ، ويهتدى بها فى حياته ، وينفع بها من حوله ، وتستقيم هذه الثقافة فى ديارنا إذا نبعت فى أساسها من مصدرهما الإسلام والعروبة ، فالإسلام بمبادئه وتعاليمه وقيمه ، والعروبة المؤمنة بلغتها وأدبها ومحامدها ، هما المصدران اللذان يعصمان ثقافتنا من الطيش والنزق ، ومن الإلحاد والفسوق ، وسبحان من لو شاء لهدانا جميعاً إلى سواء السبيل . . .

امة طبيعتها التجدد

الحمد لله عز وجل ، هو الذى يحيى الهامد ، ويبعث الخامد : « إن الله فالق الحب والنوى ، يخرج الحى من الميت ، ومخرج الميت من الحى ، ذلكم الله فأنى تؤفكون » . أشهد أن لا إله إلا الله « كل يوم هو فى شأن » « يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب » . وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، أخرج الناس بعناية ربه من الظلمات إلى النور ، فكان رحمة الله للناس أجمعين ، فصلوات الله وسلامه عليه ، وعلى آله وذريته ، وأصحابه وأتباع ملته : « أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الألباب » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

هذا يوم تلقاه بلادنا حكومة وشعباً بالتخليد والتمجيد ، إذ اتخذته عيداً للنصر ، ففى مثل هذا اليوم منذ عشر سنوات تأذن الله القوى القادر ، فكشف عن بلادنا غمة نزلت بها ، متمثلة فى ذلك العدوان الأثيم الذى اشتركت فيه إنجلترا العجوز عدوة العرب والمسلمين ، وفرنسا الداعرة (التى ارتكبت بالمذابح فى أرض الجزائر وهى من صميم الوطن الإسلامى الغالى) ، والصهيونية التى اغتصبت فلسطين وفيها أولى القبلتين وثالث الحرمين ، وإليها كان إسراء الرسول الأمين . ولا شك أن هذا العدوان الغاشم قد كبدنا خسائر ثقيلة فى الأرواح والسلاح والبناء، فقد أبى إجرام الطغاة إلا أن يصبوا قنابلهم وقذائفهم على المدن وعلى الآمنين فى وحشية وطغيان ، وخيل لبعض الجاهلين أن هذه الضربة ستقصم الظهر ، وستحنى الهام مدى الدهر، ولكن خاب ظنهم ، فقد أرادت رحمة الله أن نقوم من العثرة وأن ننهض من الكبوة ، فإذا بالحملة تفشل ، وإذا العدو يرحل ، وإذا الحال تتحول ، وإذا نحن نعود لنبنى ما

تهدم ، ونجدد ما تحطم ، ونمضى على الطريق نعمل لكى نعيش أعزة أحراراً ، أو نموت كراماً أخياراً . . .

ولقد تكرر نزول الكوارث على هام هذه الأمة العربية المسلمة ، وتكرر ظن الجهلاء أو الأعداء أنها انتهت أو فنيت ، ثم تكرر النهوض منها والاستواء على الطريق ، كأن فيها طبيعة التجدد الدائمة ، أو صفة الانبعاث المستمرة ، وكأن سر هذا هو ما فى شخصية هذه الأمة من صبر وجلد ، ومن إيمان بالله ولجوء إلى حماه ، ومن مقومات للحياة ودعائم للبقاء ، ومن مواريث كريمة تلقيناها من فيض عقيدتنا وقوميتنا ومبادئنا ، وأمة لهذه الأمة لا تفنى ولاتزول ما دام ربها العلى الأعلى يريد لها البقاء .

لقد أحرقت القاهرة مثلا فى سنة ١٩٥٢ حتى صارت أنقاضاً بأيدى المجرمين من الدخلاء ، ولقد شاهدت عمائرها تتهاوى يومئذ من خلال ألسنة اللهب ، ومن خلال دموعى تفيض حسرة وأسفا ، ولكن هذه القاهرة عادت فنهضت من ركوعها ، فتجددت وازدهرت ، ونهضت فيها شوامخ العمائر ودبت فيها الحياة والعمران والإنشاء أقوى مما كان ، وهذه بورسعيد —واسعة عقد الاحتفال اليوم — تركها العدوان الثلاثى منذ عشر سنوات أنقاضاً وأطلالا ، ولكن بورسعيد عادت فتجددت ونهضت ودبت فيها الحياة وتواصل فيها البناء ، (وسيأتى يوم بمشيئة الله تكون فيه أوسع مما كانت وأجمل مما كانت ، ولقد كنا منذ عشر سنوات تقريباً نسىء الظن بأنفسنا ومجتمعنا ، ونعتقد أن فساد الحكم لا يمكن إصلاحه ، وأن الطغيان لا يمكن إزاحته ، ولكن عناية الله أقبلت فأيقظت الشعب وبعثت فيه الحياة ، وجددت نهضته وثورته ، فإذا بهذا الشعب يعصف بالفساد ، ويلقى بالطغيان فى البحر ، وينهض لإقامة مجتمع جديد عزيز) .

وليس هذا التجدد صفق لعصرنا الحاضر وحده ، بل نحن نرى بأبصارنا

عبر تاريخنا الطويل المدى العميق الجذور ، فنشاهد هذا التجدد موصولا متكرراً ، فقد أصبنا بغارات الهكسوس والفرس والرومان والتتار والفرنسيس والانجليز ، ولقينا من هذه الغارات ما لقينا ، وبلينا منها بما بلينا . وامتد بعضها عصوراً أو أجيالا ، ومع ذلك صبرت الأمة وصابرت حتى أكلت مستعمريها أو هصرتهم أو أزاحتهم ، وعادت بعد كل مرة تبنى نفسها من جديد . . . وهذه هى الأمة العربية مثلا كانت غافية فى جاهليتها منطوية على خصائصها ومواهبها ، كالتربة القوية الخصبة المهملة ، فجاء الإسلام العظيم فأحيا مواتها ، وجدد إرهابها ، وأعاد شبابها ، وبعث فيها الحركة والنماء ، بعد أن ألقى إليها الرى والغذاء : « ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت إن الذى أحياها لمحيي الموتى ، إنه على كل شىء قدير ».

وتمضى سنة التجدد فى هذه الأمة المؤمنة ، فنكبة الانكسار تعقبها فرحة الانتصار ، وخطوة الإحجام تتلوها خطوات الإقدام ، ووقت الشدة والضيق تقبل بعده أوقات للفرح والتوفيق ، ولقد اضطر الرسول صلى الله عليه وسلم للهجرة مثلا ، وخيل إلى المشركين يومئذ أن الدعوة قد وئدت فى مهدها أو انهزمت ، ولكن هذه الهجرة التى ظنوها فراراً كانت فاتحة تجديد لشباب المسلمين ، وبداية لازدهار الإسلام وامتداد تياره ، فإذا المدينة التى هاجر إليها المستضعفون فى الأرض تصبح مركزاً للقيادة ، ونقطة انطلاق للبعث الثورى الإسلامى الصالح المصلح ، ذلك البعث الذى حمل القرآن فى يمناه ليكون ضياء ونوراً لكل عاقل ومنصف ، وحمل السيف فى يسراه ليكون زاجراً ورادعاً لكل طاغية أو متجبر ، فمن كان يظن يومئذ أن الخطوات المهاجرة ستكون هى الخطوات الفاتحة ؟ . ومن كان يظن أن الذى اختبأ فى الغار سيسطع سطوع البدر ، ويحطم أصنام الشرك والبغى وهو يردد : « جاء الحق

وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا » ؟ . . . ولكنه التجدد الذى يهيئه الله للأخيار المصطفين من عباده ، والعاقبة للمتقين .

وفى غزوة أحد رأينا أن الدائرة قد دارت على المسلمين بسبب الإخلال بالطاعة والنظام ، وبسبب التطلع إلى الغنيمة ، وانهزمت جموعهم ، وفر كثير منهم بسبب الهول القاسى ، وثبتت قلة حول الرسول الذى تعرض لألوان من الأذى ، فجرح وسال دمه ، وكسرت رباعيته ، ودخلت حلقتان من المغفر فى وجنته ، وظن المشركون بالإسلام الظنون ، وتوهموا أن دين الله قد انتهى ، وأنهم قد قضوا على المسلمين القضاء الأخير ، حتى هتف زعيم المشركين يومئذ فقال : « اعل هبل ، لنا العزى ولا عزى لكم » ! . . . ولكن المسلمين عادوا فنهضوا من الكبوة ، وتجدد الإسلام فى عزته ، فإذا الغزوات التـالية تكون انتصافاً وانتصاراً ، وإذا هبل واللات والعزى وأصنام كثيرة معها تصبح حطاماً تحت نعال أقدام محمد وأصحابه . . .

بل إن الله تبارك وتعالى يجدد هذه الأمة فى دينها ، فقد قال الصادق المصدوق صلوات الله عليه : « إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مئة سنة من يجدد لها دينها » . فالناس ينحرفون ويضلون ، وقد تنبهم أمامهم المعالم والطرق ، وقد يلتبس على طائفة منهم أمر الحلال والحرام ، وفجأة يبزغ الفجر ، ويسطع النور ، ويأتى المجدد الذى يهيئه الله عز وجل فيذكر الناس بأحكام ربهم ، ويعيدهم إلى هدى الكتاب والسنة ، فيكون ذلك تجديداً للأمة فى إيمانها ، وبعثاً لها فى مبادئها وتعاليمها ، وأخذاً بناصيتها إلى الصراط الذى انحرفت عنه أو تنكرت له .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . . إن مغزى هذا كله ألا نستشعر

الضعف أو الاستسلام أو القنوط : « ومن يقنط من رحمة ربه إلا الضالون » بل علينا أن نتذكر دائماً أن الذى يفلق الحب والنوى ، وأن الذى يحيي الأرض بعد موتها ، وأن الذى يبعث من القبور ، قادر على أن يفيض من عنايته وفضله ما يجدد حياة عباده ، ويقيمهم به من جديد على سواء السبيل ، واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون .

وحدة الأمة

الحمد لله عز وجل له الحكم وإليه ترجعون ، أشهد أن لا إله إلا الله ، يؤيد القائمين بطاعته ومرضاته ويخذل الباغين الخارجين على صراطه وكلمته «ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز » وأشهد أن سيدنا محمدا رسول الله جمع الكلمة ووحد الأمة فكان خير المصلحين وإمام المجاهدين فصلوات الله وسلامه عليه وعلى ذريته وآله وصحبه ورجاله ، والمقتدين بأعماله وأقواله : «ومن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا يخاف ظلماً ولا هضماً » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

إن أمتنا المؤمنة ذات تاريخ طويل حافل بمواقف البطولات ومواطن الكفاح ، ولقد كانت هذه الأمة فى أول أمرها فرقاً وشيعا ثم هبت عليها نفحة من نفحات الله بين عباده فجمعت شتاتها ووحدت كلمتها وانطلقت إلى غاياتها بعد أن عرفت طريقها وأحكمت خطتها فجنت أطيب الثمرات من وراء الوحدة والاتحاد وأدركت عملياً بعد أن — آمنت عقلياً بأن الوحدة قوة وأن الفرقة ضعف وأنه ما من شدة تعرضت لها إلا كان لها منفذ من بين الاختلاف والانقسام ، ولذلك كان هم أعدائها الدخلاء أن يتبعوا معها سياسة (فرق تسد) وما زال هؤلاء الأعداء يتربصون بها الدوائر عن يمين وشمال ، وهم لا يغيظهم شيء كأن يروا هذه الأمة متآلفة متماسكة ، ولا يسرهم شيء كسرورهم حين يرونها متفرقة متمزقة ، لأنهم حين ائتلافها واتحادها لا يستطيعون أن ينالوا منها منالا أو يكيدوا لها كيداً ، ولكنهم حين تفرقها وتمزقها وموالاة بعضهم لأعداء الله وأعدائها الطامعين فيها يجدون الثغرات التى ينفذون منها إلى مآربهم الخسيسة الخبيثة التى يريدونها والله تعالى يقول : « لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم

/أو عشيرتهم» كما يقول: «يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوى وعدوكم أولياء» .

ولذلك أرسل الله رسوله ليكون نبي الوحدة والتوحيد ، فيثبت كلمة التوحيد ويحقق توحيد الكلمة ، وقال فى محكم تنزيله: «واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقو » وقال : «وأطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم واصبروا إن الله مع الصابرين » . وعلم الرسول أتباعه أن يكونوا يداً واحدة وقلباً واحداً فى مادياتهم ومعنوياتهم وحركاتهم وسكناتهم لا يمكنون أعداءهم منهم أو الشيطان للسيطرة على الضعفاء بينهم حتى روى أن الصحابة كانوا فى أول أمرهم إذا نزلوا منزلا أثناء سفرهم توزعوا فى الشعاب والأودية فقال الرسول لهم: «إن تفرقكم هذا من الشيطان» فصاروا لاينزلون بعد هذا منزلا إلا انضم بعضهم إلى بعض حتى يقال : «لو بسط عليهم ثوب لعمهم» . وليس من صفة الأمة المؤمنة بربها المعتزة بوطنها الحريصة على وحدتها وتوحيدها أن يشذ فيها شاذ أو ينحرف منحرف ، أو تخرج منها طائفة على جماعتها وكتلتها أو تمد يدها إلى أعدائها بل واجب المسلم فى الأمة المسلمة هو أن يعد نفسه لبنه فى بناء وجزءاً من كل ، مصداقاً لقول الرسول عليه الصلاة والسلام : «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً» وواجبه أن يسمع ويطيع فى الشدة والرخاء وفى الرضا والكراهية ما دام غير مأمور بمعصية ولذلك قال عبادة بن الصامت رضى الله عنه : «بايعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم على السمع والطاعة والعسر واليسر ، والمنشط والمكره وعلى ، أثرة علينا (أى ولو آثروا غيرنا علينا) وعلى ألا ننازع الأمر أهله وعلى أن نقول الحق أينما كنا لا نخاف فى الله لومة لائم» وقد حث النبي أقوى الحث على الجماعة كما حارب التفرق أشد المحاربة فقال : «عليكم بالجماعة وإياكم والفرقة ، فإن الشيطان مع الواحد ، وهو من الاثنين أبعد ، من أراد بحبوحة الجنة فليلزم الجماعة وقال : «من فارق الجماعة قيد شبر خلع ربقة الإسلام من عنقه»

وقال : « من فارق الجماعة شبراً فمات مات ميتة جاهلية ؛ قال : « لكل غادر لواء يوم القيامة يعرف به « يقال : هذه غدرة فلان » .

ولقد عمل سيدنا رسول الله على وحدة قومه وقضى فى ذلك السنين الطوال ولم يكن طريقه معبداً ولا مفروشاً بالورد والرياحين ، بل كان فيه صعاب ومتاعب وتمرد عليه متمردون وتآمر به متآمرون ، وكاد له كائدون ولكنه تدرع بالصبر والمرابطة ، وجاءت يد الله العلى الأعلى تبارك هذه الجهود وتبلغ به غايتها لتثمر ثمرتها فكان التوحيد وكانت الوحدة ، وكان تلاقى القلوب والأرواح والعزائم على وجهة واحدة وغاية واحدة واعتبر الله جل جلاله ذلك نعمة كبرى ، فامتن بها على رسوله صلى الله عليه وسلم فقال له : « هو الذى أيدك بنصره وبالمؤمنين وألف بين قلوبهم ، لو أنفقت ما فى الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم ، ولكن الله ألف بينهم وإنه عزيز حكيم ».

والأمة الواعية العاقلة البصيرة بمسالك الرشاد وسبل السلام التى تريد لنفسها السعادة والسيادة فى هذه الحياة يحرص أبناؤها الحرص كله على رأب صدعهم إذا ثلم ولم شملهم إذا تعرض للتفرق ، وتوحيد كلمتهم إذا حال محاول أن يعددها وقد يدب بينهم دبيب الوسواس الخناس الذى يوسوس فى صدور الناس من الجنة والناس وقد يستطيع الشيطان اللعين أن يحدث بينهم فتنة أو محنة ولكنهم يفيئون بسرعة إلى رشدهم ووحدتهم فيمسحون بيد الإصلاح والوفاق ما أحدثته نزعات الفساد والشقاق وإن لج الشر يوماً بينهم صارعوه فصرعوه وهم يحرصون فى الوقت نفسه كل الحرص على صيانته دمائهم أن تراق وحرماتهم أن تهان وصلوات الله وسلامه على رسوله يوم كرم ذات المسلم ، وصان حياته ودمه ، وأمر الأمة أن تحذر ما يؤدى إلى الفتن التى تراق فيها الدماء أو تزهق الأرواح ، فقال : «كل المسلم على المسلم دمه وماله وعرضه » ، أن الوحدة هى درعنا الواقية لنا من النكبات وكل

مقاومة لها تعد خيانة لله والوطن ، وأعداؤنا هنا وهناك من المستعمرين وأذنابهم يودون بجدع أنوفهم أن يجعلونا شيعاً وأحزاباً ، وفرقاً ودولا ، التى كسبناها بالعرق والدم والصبر إلى مغارم وكل فرد فى الأمة — سواء أكان جندياً فى الجيش ، أم عاملا فى مصنع ، أم زارعاً فى حقل ، أم موظفاً فى ديوان — مسئول عن العمل لهذه الوحدة ورعايتها ، وصدق الله العلى الكبير حيث يقول : « وإن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام ... .

إننا على طريق جهادنا المؤامرات والمكائد من عدة جهات من الاستعمار الباغى ومن الصهيونية المتبجحة ومن الفاسدين المفسدين فى الأرض ومن المنحرفين الباغين الشر بنا من الداخل والخارج وكل عدو من هؤلاء الأعداء لا يجد له ثغرة بيننا إلا إذا — تفرقت الصفوف وتمزقت الجماعة ، وأما حين تتكتل الأمة ويتحد أبناؤها فإن أعداؤها لا يجدون إليها منفذا ولا ينالون منها نيلا وكيف والله حينئذ معهم وناصرهم ، والرسول يقول صلوات الله وسلامه عليه « يد الله مع الجماعة . ومن شذ شذ إلى النار » اتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون . أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم ، سلوا ربكم التوفيق يستجب لكم . . .

الخطبة الثانية

الحمد لله تبارك وتعالى ، هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم ، أحمده سبحانه وأشهد أن لا إله إلا الله هو ولى الهداية والتوفيق وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله هدى بفضل ربه إلى قوم طريق ، فصلاة وسلاماً وبركة عليه وعلى آله وصحبه وأتباعه ومن دعا بدعوته بإحسان إلى يوم الدين .

الحقائق البديهية أن الاتحاد قوة وأن الفرقة ضعف ، وما اتحد قوم عن إخلاص إلا عزوا وسادوا ، وما تمزق قوم إلا ذلوا وبادوا ، ومن هنا قال الحق جل جلاله : « يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون » فواجبنا شرعاً وعقلا أن نعمل لوحدة الصف ووحدة الهدف ووحدة — الطريق ، ووحدة الشعور ، والله ولى العاملين المخلصين ومن يتولى الله ورسوله والذين آمنوا فإن حزب الله هم الغالبون .

اللهم اغفر للمؤمنين والمؤمنات والمسلمين والمسلمات الأحياء منهم والأموات إنك سميع قريب مجيب الدعوات يارب العالمين اللهم إنا نسألك أن تؤيد الإسلام والمسلمين . . . الخ .

زواج المسلمة بغير المسلم

الحمد لله عز وجل ، أنزل الكتاب وهدى إلى الصواب : « ومن يتبدل الكفر بالإيمان فقد ضل سواء السبيل » . أشهد أن لا إله إلا الله ، أحل وحرم ، وأبدع وأحكم : « لا مبدل لكلماته ولن تجد من دونه ملتحداً » . وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، « وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى » . فصلوات الله وسلامه عليه وعلى آله الصادقين فى يقينهم ، وأصحابه الثابتين على إيمانهم وأتباعه الخاضعين لدينهم ، « إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً وعلى ربهم يتوكلون » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

لقد اتسعت الجرأة على القول فى دين الله بغير علم ، حتى رأينا فى آخر الزمان أن الفتوى فى الدين يقوم بها نساء غير متخرجات فى رحاب الدين ، وكأنه لم يبق إلا أن يتلقى المسلمون دينهم عن امرأة لم تدرس الشريعة ولم تفقه أحكامها ، فهى تلقى الكلام فيها جزافاً دون تحقيق أو تمحيص ، ومتى تراءى لها الرأى ولو بدافع الهوى والميل فهى تبديه على أنه تشريع وتوجيه ، مع أن عمر رضى الله عنه يقول : « إياكم والرأى ، فإن أصحاب الرأى أعداء السنن ، أعيتهم الأحاديث أن يعوها ، وتفلتت منهم أن يحفظوها ، فقالوا فى الدين برأيهم » .

وهذه امرأة تنشر على الناس أن رجلا غير مسلم يستفتيها فى زواجه بفتاة مسلمة تعرف إليها واختلط بها وأحبها لأنها « جميلة فاتنة » وفيها خصال أعجبته فتنصحه المفتية « الناعمة » أن يأخذ بالزواج المدنى الذى لا يخضع للحدود

أو القيود الدينية ، وتنشر نصيحتها على الناس كما ينشر الوباء تحت أسماع المسلمين وأبصارهم من رعاة ورعايا ، مع أنه قد اتفق الفقهاء على أنه لا يجوز للمسلمة أن تتزوج غير مسلم ، سواء أكان مشركاً أم كتابياً ، ووردت الآثار الصحاح بأن المسلمين كانوا يفرقون بين النصرانى وزوجته إذ هى أسلمت ، وفرق عمر بين امرأة ورجل من بنى ثعلب أسلمت زوجته هو ولم يسلم ، وقال ابن عباس : « إذا أسلمت النصرانية قبل زوجها فهى أملك لنفسها » ، وروى البخارى عن ابن عباس أنه قال : « إذا أسلمت النصرانية قبل زوجها بساعة حرمت عليه » . كما قرر أن الزوجة إذا أسلمت وزوجها غير مسلم عرض الإسلام على الزوج فإن أسلم بقيت معه وإلا فرقوا بينهما . . . واتفقق الفقهاء على أن المسلم لا يجوز له أن يتزوج امرأة ليس لها دين سماوى كالمشركة الوثنية والمجوسية ، لأن اختلاف الدين بهذه الصورة يؤدى إلى تعارض الأفكار والعادات والتقاليد ، فإما أن يستحسن الرجل دين زوجته فيستهين بدينه وهذا بلاء ، وإما أن يعارضها ويسخر منها فيكون الشقاق بينهما وهذا عناء ، وكيف نتصور حياة زوجية مستقيمة بين امرأة تعبد البقرة مثلا وتقدسها ورجل يعبد الله ويذبح البقرة ليأكل منها ويوزع الصدقات ، وماذا يكون شأن الأولاد إذا نشأوا فى هذا الجو ؟ . ألا يتأثرون تأثراً سيئاً بهذا الخلاف الفظيع ؟ ! ..

قد يقال : فلم يصح أن يتزوج المسلم امرأة لها كتاب سماوى كالنصرانية واليهودية ؟ . ويجاب عن ذلك بأن الأصل فى الإسلام والأولى هو أن يتزوج المسلم مسلمة ، لتتم الألفة ويكمل التوافق ، ولذلك كان عمر ينهى عن الزواج بالكتابيات ، وهناك بعض الصحابة والفقهاء وحرموا زواج المسلم بالمسيحية أو اليهودية ، ولكن جمهور الفقهاء أجازوا زواج المسلم بالكتابية ، لأن الإسلام ملة الأمة المحمدية ، فيجب أن يكون المسلم فى موطن القائد ، وهو هنا زوج له القوامة والرعاية ، لأن هذا الزواج فطنة لأن تطلع الزوجة من طريق

زوجها المسلم على محاسن الدين وجمال تعاليمه فتسلم عن طواعية واختياراً ، فالحرية هنا مكفولة لها باسم الإسلام على وجه نبيل رائع ، ويضاف إلى هذا أن بين الإسلام والأديان السماوية لوناً من التقارب ، فالأديان الكتابية السماوية مثلا تدعو برغم ما نالها من تحريف الفضائل ومكارم الأخلاق العامة ، كالإسلام وهذا التقارب فطنة للتدانى والتفاهم ، كما أن الفقهاء قد ذكروا أن زواج المسلم بالكتابية ينبغى أن يكون لداع قوى يدعو إليه كارتباط سياسى له ثمراته ويراد به لم شمل أو جمع كلمة أو تأليف قلوب . والمرأة المسلمة فى صدر الإسلام كانت تأبى الإباء أن تخدعها عاطفتها الجياشة فتدفعها إلى الزواج بغير مسلم ، فهذه أم سليم زوجة أبى طلحة ، كانت مسلمة وكان أبو طلحة غير مسلم ، ولكنه يحبها وتحبه ، وتقدم إليها ليتزوجها فأبت وقالت : أما إنى فيك لراغبة ، وما مثلك يرد ، ولكنى امرأة مسلمة وأنت غير مسلم ، فإن أسلمت فذلك مهرى لا أسألك غيره ، ولا أريد منك صفراء ولا بيضاء . . ورأى أبو طلحة عزمها وإصرارها ، ففكر ودبر ، ثم شرح الله صدره للإسلام ، وذهب إلى الرسول ليعلن ذلك فى ثقة واقتناع ، ولذلك قال النبى لأصحابه حينما رآه مقبلا عليهم : جاءكم أبو طلحة وغرة الإسلام بين عينيه . وبعد ذلك قبلت أم سليم أن تتزوجه واكتفت منه فى مهرها بأنه أسلم ودخل فى دين الله وأصبح من أفاضل المسلمين .

ثم نأتى إلى هذا الزواج المدنى — أو الشيطانى بتعبير أدق — الذى تنـــادى به المفتية الناعمة . ما هو ؟ وما نتائجه ؟ ألا يؤدى بنا إلى حالة من الفوضى التى تتحطم فيها القواعد والتبعات ، فيستطيع الرجل أن يجعل الزواج لعبة يتنقل فيه من صدر إلى صدر ، ومن خدر إلى خدر ، فتصير النساء كرات فى أيدى الرجال ؟ . . أيصنع العليم الخبير لنا نظاماً عائلياً دقيقاً رفيقاً ، يحفظ كرامة الزوجين ويصون حقوقهما ، فتطلع علينا امرأة بإيحاء رجل غير مسلم

ليقول على الملأ : دعوكم من هذا النظام فعندى ما هو أحسن وأجمل ؟ ! . .
إلى متى يظل هذا التطاول من المتحللين على الدين وأحكامه ؟ أيجرؤ أحد هؤلاء المتطاولين مثلا أن يتهجم على سلطان الأرض بهذه الصورة التى يتهجم بها على سلطان السماء ؟ ! . . وكيف ينشر هذا الكلام على الناس ؟ وما نتائجه وعواقبه ونحن فى فترة نحتاج فيها كل الاحتياج إلى تثبيت العقيدة فى النفوس لا إلى النيل منها والتطاول عليها ؟ ! . . إنه لا يبعد إذا تركنا الحبل على الغارب وأبحنا القول فى الدين لكل من هب ودب أن نسمع من ينادى بجمع الزوج بين الأختين تحت عصمته ما دام الحب موجوداً ، أو من ينادى بتزوج المحارم ما دام الحب موجوداً ، أو من ينادى بأن يكون للزوجة أربعة أزواج كما سبق أن نشرت ذلك إحدى المجلات فى جرأة ووقاحة . . . ومن الغريب المضحك المبكى فى آن واحد أن تزعم هذه المفتية أن « الدين شيء شخصى بحت » و « صلة شخصية بين الخالق والمخلوق » ! . . . ومثل هذا الكلام الظنين المريب يمكن أن يقال عن دين غير دين الإسلام ، وأما الإسلام أيها الناس فليس شيئاً شخصياً كما يزعمون ، إنه نظام فردى اجتماعى عالمى ، يعم شئون الفرد والأسرة والدولة والمجتمع ، وإذا كان الإسلام شيئاً شخصياً كما يزعمون فما معنى تشريعه للزواج والطلاق ، وتشريعه للنفقات والمواريث ، وتشريعه للبيوع والمعاملات ، وتشريعه للحدود والقصاص ، وتشريعه للولاية والإمامة الكبرى ؟ . . . ألا ساء ما يحكمون . . .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

إن هذه أمة مسلمة ، وإن دينها هو الإسلام ، إن تسعين فى المائة من أبنائها أو أكثر مسلمون ، فيجب أن يقام الاعتبار الواجب لهذه الأمة المسلمة ولهذا الدين الإسلامى ، وإلا ذهبت الظنون كل ذهب فى تفسير هذا التطاول الموصول على الدين ، والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم ، واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون . . .

نعمة الزواج

الحمد لله ، هو رب الأرباب وواصل الأسباب ، ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين ، نشهد أن لا إله إلا أنت مؤلف القلوب ومقدر الغيوب ، وغفار الأخطاء والذنوب ، وحارس عباده من البلاء والكروب ، « من من كان يريد العزة فلله العزة جميعاً إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه والذين يمكرون السيئات لهم عذاب شديد ومكر أولئك هو يبور » ونشهد أن سيدنا ومولانا محمداً عبدك ورسولك ، جعلته سيد البشرية ومنقذ الإنسانية ، فكان إمام الوئام وناشر ومحقق السلام ، فصلواتك اللهم وسلامك عليه ، وعلى أغصان دوحته الناضرة وفروع صحابته المثمرة ، وأفراد عصبته الظاهرة : « الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون ».

وبعد ، فإن بركات الله على عباده لا تنفد ، ونعمه إلى خلقه لا تعد ، وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها ، ومن أظهر هذه النعم وأوضحها أن برأ الله لعباده حلائل تعمر بهن البيوت وتسهل الحياة وتدوم الذرية ، ويكمل الدين والعفاف : « ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون » . وصدق رسول الإسلام عليه الصلاة والسلام حين يقول : « الدنيا كلها متاع وخير متاعها المرأة الصالحة » . وحين يقول : « ألا أخبركم بخير ما يكنز المرء ، المرأة الصالحة ، إذا نظر إليها سرته ، وإذا أمرها أطاعته ، وإذا غاب عنها حفظته فى ماله وعرضه » .

والرجل قبل الزواج يعيش فى هذه الحياة فرداً ، ويسعى فى أرجاء الكون وحيداً ، كأنه غصن من شجرة لا يجد لنفسه استقلالا ، ولا يخصص لهمته

مجالا ، وقد يكون فى يده العمل والمال وأسباب الراحة والمتاع ، ولكنه دائماً يشعر بنقصه ، ويحس بحاجته إلى من يكمل معنى حياته ، فإذا صاحبه التوفيق وتزوج تجدد ميلاده واتسعت حياته ، وكأنه صار شجرة كاملة مستقلة ، غرست فى التربة الخصبة الطاهرة ، فامتدت جذورها فى الأعماق ، وارتفعت أغصانها نحو السماء ، « تؤتى أكلها كل حين بإذن ربها ، ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون » . وكذلك العروس فى بيت أبيها تظل زهرة ناضرة عاطرة ، [تحوطها الوحدة والحجاب] ، حتى يهيء لها مولاها شريك حياتها ورفيق دنياها ، فتصبح روضة عامرة تفيض بالأزهار والرياحين نسلا طيباً وذرية صالحة « ذرية بعضها من بعض والله سميع عليم » . وكم من فتاة كريمة جاءت بيمنها وخيرها فقضت على العداوات والأحقاد ، وغرست أصول النجاح والإسعاد ، وكان لها مع بعلها مجال العمل الصالح والسعى المشكور نصيب مذكور لا يذهب عرفه بين الله والناس . . .

وإذا كانت الذرية فى الدنيا غالية ، لأنها قطع الأكباد وثمار القلوب ، [وعماد الظهور وقرة العيون وزينة الحياة] ، ولأنها أمانة من الله سامية يودعها لدى عباده [ليصونوها حق صيانتها] ويرعوها أفضل رعايتها ، فإنها يوم القيامة ذخيرة عند الرحمن ، ومعونة عند شدائد الأحزان ، ورفقة إلى أبواب الجنان : « والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بإيمان ألحقنا بهم ذريتهم وما ألتناهم من عملهم من شيء ، كل امرىء بما كسب رهين » .

والمسلم النقى السريرة لا يحضر مشهداً من مشاهد الزواج إلا ويشعر بهزة الفرح تسرى فى جوانبه ، لأنه يرى قلبين يقتربان فيلتقيان باسم الله ،ويقتربان على بركة الله ، ويستمدان من البارىء الخلاق عونه ورعايته ، وتوفيقه وعنايته ، وبهذا يتحقق أمل [سيدنا ومولانا] رسول الله عليه صلوات الله حيث يقول : « تناكحوا تناسلوا تكثروا ، فإنى مباه بكم الأمم يوم القيامة » .

اللهم فاجعلنا ممن يفخر بهم نبيهم ، ويسعد بمرآهم يوم الحشر رسولهم : « يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم ، بشراكم اليوم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ، ذلك هو الفوز العظيم » .

اللهم أسألك يا صاحب الفضل والكرم ، وواهب الآلاء والنعم ، أن تبارك أعمالنا ، وأن تسدد خطانا ، وأن تجعل من الحق وإلى الحق أقوالنا ، وأن تظلل بالسعادة بيت الشريكين الطاهرين والزوجين السعيدين اللذين يعتزان بعزتك ويثقان بوعدك ومثوبتك ، ويلجآن إلى حصن برك وهدايتك إنك أكرم مسئول وأفضل مأمول ، وسلام على المرسلين ، والحمد لله رب العالمين .

اطلاق الرصاص فى الأفراح

الحمد لله عز وجل ، هو الطيب الذى لا يقبل إلا طيباً ، الجميل الذى يحب الجمال : « للذين أحسنوا فى هذه الدنيا حسنة ، ولدار الآخرة خير ولنعم دار المتقين » . أشهد أن لا إله إلا الله ، أقام شرعة الثواب والعقاب « ليجزى الذين أساءوا بما عملوا ، ويجزى الذين أحسنوا بالحسنى » . وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، ضرب المثل الأعلى فى جمال العمل ولطف التصرف ، فصلوات الله وسلامه عليه وعلى ذريته الطاهرة ، وأصحابه البررة ، وأتباعه الكملة : « والذين اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

فى هذه الأيام ينتظم عقد المئات من الألوف الذين سعوا إلى ربهم ، واجتمعوا حول بيته المحرم ، ليؤدوا الفريضة التى كتبها الله عليهم : « ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا ، ومن كفر فإن الله غنى عن العالمين » . ومنذ أيام ووفود الحجيج ترحل إلى حمى ربها فى أفواج متتابعة ، والأهل والأصدقاء يخرجون لوداع المسافرين متمنين لهم سلامة الطريق ودوام التوفيق ، ولكن المؤسف أن بعض المودعين كانوا يحرصون على التظاهر الأجوف والفخر الكاذب ، فيطلقون الرصاص من بنادقهم إعلاناً للفرح كما يزعمون ، وقد نشأ عن ذلك أن قتل بعض الناس ، وذهبوا ضحية هـذا التصرف الأرعن الذى لا يلائم بحال من الأحوال موقف التوديع لهؤلاء الحجاج المسافرين إلى موطن الأمان والاطمئنان ، وحمى السلام والرحمة ، مرددين فيما يرددون قولهم : اللهم أنت السلام ، ومنك السلام ، وإليك السلام ، فحينا ربنا بالسلام . . . وإذا كان هؤلاء الحجاج قد خرجوا يطلبون من

ربهم صفاء وضياء وسلاماً ورحمة ، فكيف نودعهم بإطلاق الرصاص علامة الموت والقتل والتدمير ، وبرائحة البارود الكريهة ودخانه البغيض ؟ ألا يدل هذا على انحراف الذوق وسوء التصرف ، كذلك الذى يدخل على أهل العرس وفى يده نار ، أو كالذى يبكى ويلطم فى مجلس السرور والهناء فهو لا يلبس للحالة لبوسها ، ولا يعرف ما يلائم المقام .

وهذا التصرف القبيح يذكرنا بعادة مشابهة له فى القبح والسخف ، وهى عادة إطلاق الرصاص من البنادق أو المسدسات فى الأعراس والأفراح ، وقد وقعت حوادث قتل كثيرة بسبب هذه العادة التى لا تدل على ذوق ولا إحساس بجمال الأعراس ، إذ لا يناسب فرحة العرس وجمال اللقيا بين رجل وشريكة حياته أن تنبعث رائحة البارود السيئة وصوته المزعج ودخانه المقبض ، والرصاص يذكر بالحرب والحرب خراب ودمار ، فكأن هذا التصرف من أسوأ ألوان التشاؤم ، وبينما يكون الناس فى جلوة فرحهم وحلاوة سرورهم يدخل عليهم مثل هذا الأخرق فى تصرفه فيطلق رصاصه ، فيخطىء فى إطلاقه ، فيصيب به الأبرياء الذين لا ذنب لهم ولا جريرة ، فينقلب الفرح إلى ترح ، والعرس إلى مأتم ، والنور إلى ظلام . . .

ولو أراد الناس أن يعبروا عن فرحهم وسرورهم لوجدوا الكثير من الوسائل ، فهناك مثلا إطلاق أسراب الحمام الأليف الأبيض ، أو نثر الورود الجميلة الناضرة ، أو نثر قطع النقود الفضية أو الذهبية ، أو إطلاق ألوان من البخور يكون دخانها أبيض مشرقاً عطر الرائحة ، أو نثر قطع الحلوى ، أو سقى الشراب الحلو الجميل ، أو ترديد الأغانى اللطيفة الرقيقة التى لا فحش فيها ، ولقد جاء الإسلام بألوان من مظاهر الفرح أقرها وارتضاها فى الأعراس والأفراح ، كالضرب بالدف ، وترديد الغناء ، وصنع الوليمة ، وتبادل التهنئة ، وإخلاص الدعاء ، وهذا رسول الله صلوات الله وسلامه عليه ينصح

زوجته عائشة بأن تبعث مع الفتاة المتزوجة من تغنى لها وتقول :

أتينــاكم أتينــاكم فحيــونا نحييــكم
فلولا الحبــة السمراء لم نحلل بواديكم !

نعم لو أراد الناس إظهار فرحهم حقيقة لوجدوا وسائل كثيرة لذلك ، ولكنهم صاروا عبيد المظاهر والتفاخر ، وهذه العبودية هى التى تدعوهم كما نرى عن يمين وشمال إلى التغالى فى المهور ،والإسراف فى الأثاث مما لا يستعمل وفى إقامة السرادقات والتبذير فى المال ، ولا يحملهم على هذا إلا الفخر الكاذب والتباهى المغرور ، فكل أسرة تريد أن تظهر أنها أقوى من غيرها وأغنى أو أعز ، وكل فتاة تريد أن تقول يوم زفافها : أنا ابنة من ؟ وهل فى الحى عرس كعرسى ؟ . . وهذا كله باطل وزور ، وهباء يذهب فى الهواء بلا ثمرة أو فائدة تدوم ، وصدق العلى الكبير إذ يقول : « وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور » . ومن الملاحظ أيها الناس أن أغلب الأعراس التى يقع فيها الإسراف الكاذب والتباهى المغرور تنتهى بالفشل والفراق فلا تدوم بعدها عشرة ، ولا ترفرف على أهلها ألوية سعادة باقية ، وسبب ذلك فيما يبدو أن القوم يخدعون أنفسهم ويخدعون الناس معهم بهذه المظاهر الطويلة العريضة التى لا تستطيع أن تعمر الخراب المسيطر على النفوس مما يفقدها المحبةوالانسجام والمهم هو أن تفرح القلوب لا أن السيل الجيوب ! ! . . وليت هؤلاء أنفقوا ما أنفقوه أو بعضه على ما يفيد وينفع ، أو على الفقراء والمساكين ، أو على جهات البر والإحسان ، أو على جمعيات الخير والإصلاح ، أو فى شئون الوطن الناهضة به ، أو ادخروه لليوم الأسود العصيب .

ولم يكتف القوم بهذا الإسراف ، بل دأبوا على ملء أفراحهم وأعراسهم بالمنكرات والمآتم ، فهذا رقص خليع ، وهذا غناء فاحش ، وهذا اختلاط

شائن بين الرجال والنساء ، وهذا تبرج فاضح مخجل ، وكل امرأة أو فتاة تشارك فى العرس تذهب إليه وقد سلخت جسمها ونفسها من التصون والتعفف وكأنها تهتف بمن حولها فى كل حركة أو لفتة قائلة : يا أيها الناس إنى . . . كذا أصبح من المألوف فى الأفراح والأعراس تناول الحشيش والخمور ، وصارت هذه مسألة عادية لا إنكار فيها ولا مؤاخذة عليها ، بل لو خلا العرس منها لقيل : ما السبب ؟ . . وقد يجلس المأذون فى جانب الدار يعقد العقد باسم الله واسم رسوله ، وفى الجانب الآخر تدور كئوس الخمر هاتفة باسم الشيطان ، وهكذا صار الناس إلى زمان يرون فيه المنكر معروفاً والمعروف منكراً ، والله من ورائهم محيط . . .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

إن لكل أمة عاداتها وتقاليدها التى تستوحيها من عقائدها ومبادئها ومثلها العليا ، والإسلام الحنيف قد وضع لأمته الكثير من العادات والتقاليد فى مختلف الأوضاع والمناسبات ، وهذه العادات التى وضعها تجمع بين المتعة والمنفعة ، وبين الفرحة والحكمة ، ولا شك أننا قد بعدنا كثيراً عن عادات الإسلام وتقاليد المسلمين الموروثة فى شتى مناسبات الحياة ، وإيماننا بهذا الإسلام تقتضينا أن نعود إلى هذه العادات والتقاليد ، لنصحح نسبتنا إلى هذا الدين ، ولتكون لنا شخصيتنا المتميزة بين العالمين : « صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة ونحن له عابدون » . والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم ، واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون .

قتل الزوجات

الحمد لله عز وجل ، نهى عن الفسوق والعصيان ، وأمر بالتدبر والتفكر : « إن فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد » . أشهد أن لا إله إلا الله ، الخير كل الخير فى طريقه ، والشر كل الشر فى الإعراض عنه : « أفحكم الجاهلية يبغون ، ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون » . وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، أتى بدعوة الحق والعقل ، وثبت دعائم القسط والعدل ، فصلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وصحبه ، وجنوده وحزبه : « تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً فى الأرض ولا فساداً والعاقبة للمتقين » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . .

تكررت فى الأيام الأخيرة حوادث القتل التى ارتكبها عدد من الرجال مع زوجاتهم ، ورأينا كيف كان الواحد منهم يجعل من نفسه خصما وحكماً فى آن واحد ، ويصدر قراره فى القضية كأنه لا معقب لحكمة ، ويقوم بتنفيذ هذا الحكم بيده دون أن يقيم حساباً لرأى الغير أو عقوبة القانون ، ويلوث يديه بدم ضحيته بعد أن يزهق روحها ، متجاهلا خطورة الإثم الذى يرتكبه ، وبشاعة الجريمة التى يأتيها ، وهى جريمة القتل التى تعتبر فى نظر الدين اعتداء على البشرية كلها : « من قتل نفساً بغير نفس أو فساد فى الأرض فكأنما قتل الناس جميعاً ، ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعاً » ويقول القرآن : « ولا تقتلوا النفس التى حرم الله إلا بالحق » ويقول : « ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم خالداً فيها وغضب الله عليه ولعنه وأعد له عذاباً عظيماً » ويقول الرسول : « الإنسان بنيان الله ملعون من هدم بنيانه » ويقول : « لا يزال

العبد فى فسحة من دينه ما لم يصب دماً حراماً » .

وليس من شأننا هنا أن نحدد موقف كل واحد من هؤلاء لنحكم له أو عليه ، فهناك القضاء يتولى ذلك ويقول كلمته ، ولكننا نستعرض هـذه الظاهرة الخطيرة فى ضوء الدين ، لنعرف أين يقف منها ومن أصحابها ، وأول ما نستطيع تقريره فى يسر وسهولة هو أن الخطأ لا يبرر الخطأ ، وأن الجريمة لا تعالج بالجريمة ، وأن الإنسان لا يصح له — وبخاصة فى ثورة غضبه — أن يكون خصماً وحكماً ، فكيف يستبيح رجل لنفسه أن يختلف مع زوجته لأى سبب من الأسباب ، فيأخذ فى حسم هذا الخلاف فلا يجد أمامه إلا اقتراف أشنع جريمة وهى القتل ؟ . .

يقولون فيما يقولون : إن الغيرة هى التى دفعت إلى تلك الجرائم ، وأى غيرة هذه ؟ إنها الغيرة الحمقاء الرعناء العمياء التى لا تفرق ولا تميز ولا تتدبر إن الإسلام يحب الغيرة ، والرسول كان يقدر هذه الغيرة ، ويقول : « إن الله يغار ، والمؤمن يغار ، وغيرة الله أن يأتى المؤمن ما حرم الله » . ولكن الإسلام يريد الغيرة العاقلة المتزنة التى تصون الزوجة من الزلل والعلل ، وتبعدها عن مواطن الشبهات ومواقف الريب ، وفى الوقت نفسه تحفظ لها احترامها وكيانها ، وقد نهى الإسلام الزوج عن الحرص على تلمس الهفوات للزوجة ، ونهى عن الغيرة عليها بلا موجب ، ونصح الرجل إذا أيقن بسوء السلوك من زوجته أن ينفصل عنها حرصاً على كرامته وفضيلته ، وإشعاراً لها بأنها ليست أهلا لشرف الزوجية ، وقد جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وذكر له أن زوجته « لا ترد يد لامس » فنصحه النبي بطلاقها ، فلما ذكر الرجل أنه لا يستطيع مفارقتها لأنه يحبها نصحه الرسول بأن يقيها السوء ويحصنها ويستمتع بها .

إن الإسلام العظيم قد رسم الطريق السليم القويم للعشرة الزوجية حين بقائها

وحين انتهائها ، وأوجز القرآن التعبير عن ذلك فى جملة تتكون من أربع كلمات قال : « فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان » فإذا كان الزوج راغباً فى الحياة الزوجية راضياً عنها ، وكانت الزوجة بأخلاقها واستقامتها وعفتها صالحة لهذه الحياة وحمل شرفها ، كان من الواجب على الزوج أن يبقيها فى عصمة الزوجية برفق ، وأن يعاملها خير المعاملة ، لا يظلمها شيئاً من حقها ، ولا يعتدى عليها فى قول أو فعل ، وإذا رأى الزوج أن الحياة الزوجية قد أصبحت لا تطاق ولا تحتمل . وأن الزوجة غير صالحة إطلاقاً للبقاء فيها ، كان الواجب عليه أن يسرحها أى يطلقها ، دون عدوان عليها ، بل يجب أن يكون تطليقه لها مصحوباً بحسن التصرف وطيب المعاملة ، دون أن يكون هناك تجريح أو تشهير بالحق أو بالباطل ، ولنتذكر أن أحد العقلاء أراد تطليق زوجته ، فقال الناس له : ما الذى يسوؤك منها ؟ . فأجابهم : العاقل لا يهتك ستر زوجته ، فلما أتم طلاقها قيل له : حدثنا الآن ، لماذا طلقتها ؟ فقال : مالى وللكلام فيمن صارت أجنبية عنى ؟ ! .

والقرآن الكريم يمضى فى رسم المنهاج الذى تسعد به الحياة الزوجية وتستقر ، بعد حسن الاختيار وتحقق التكافؤ والتفاهم بين والزوجين ، وبعد اعتصامهما بحبل الله وعروة الفضيلة ، فيقول : « ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف ، وللرجال عليهن درجة » أى للزوجات من حقوق الزوجية على الرجال كالنفقة والصيانة وحسن الصحبة والعشرة بالمعروف مثل ما للرجال عليهن من الطاعة فى غير المعصية ، ومن صيانة مال الرجل وعرضه ، من التعاون السليم الطهور فى ميدان الحياة ، وإنما تكون للرجال على النساء درجة ، هى درجة القوامة وقيادة الأسرة إلى ما فيه الخير ، لأن السفينة لا يمكن أن تسير بدون قائد ، وإذا كان أكثر من قائد غرقت كما تقول العامة وإذا انقلب الوضع وكانت القيادة للنساء على الرجال اختلت الأمور وتضاعفت

الخطر ، ومن هنا قال القرآن : « الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم ، فالصالحات قانتات حافظات للغيب بما حفظ الله . . . » . وليست قوامة الرجل على المرأة تجبر أو تحكما أو اعتسافاً بل هى نظام تقتنصه طبيعة المجموعة الأساسية الصغيرة وهى الأسرة ، وكيف يتصور مثل هذا المتجبر والقرآن يقول للرجال : « فلاتبغوا عليهن سبيلا » والرسول يقول : « استوصوا بالنساء خيراً » ويقول : « اتقوا الله فى النساء » ويقول : « خيركم لأهله وأنا خيركم لأهلى » ويقول : « النساء شقائق الرجال » .

ومن عجب أن يقال إن شدة الحب هى التى دفعت إلى ارتكاب تلك الجرائم . . إن الحب بين الزوجين ليس هوساً ولا جنوناً ولا سعاراً أبدياً ، بل هو رفق ورحمة ، وتعاطف وجنان ، وتوافق ووئام ، ومشاركة فى المسرة ومشاطرة فى المساءة ، والله يقول : « ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون » . وفى هذه الآية يذكر القرآن الرجال بأن الزوجة جزء من نفس الزوج ، لأن الله خلق الناس من نفس واحدة ، وخلق منها زوجها ، وتعلل الآية حكمة العشرة الزوجية بقولها : « لتسكنوا إليها » أى لتجدوا عندها السكن والهدوء والاطمئنان ، وتقول الآية : « وجعل بينكم مودة ورحمة » وما جعله الله وسواه كيف يجرؤ آثم على هدمه أو تقويضه بلاسبب أو حكمة ، وتشير الآية فى ختامها إلى « قوم يتفكرون » وهم الذين يعتبرون بالهدى فينتفعون منه ، ولا يخبطون خبط العشراء ، أو يتصرفون تصرف الحمقى فيقعون فى الإثم والجريمة . . . فماذا بعد الحق إلا الضلال ؟ وماذا بعد صراط الله إلا سبيل الشيطان ؟ ! .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . . إن ما حدث يعد نذيراً أى نذير ، ويعتبر ناقوساً يقرع الأسماع ليذكر أصحابها بما تحتاج إليه الأسرة من رعاية وصيانة ، ومن تأدب بأدب الإسلام . ومن اعتصام بالخلق والفضيلة ، ولا يحقق ذلك إلا دين يعصم النفوس من الزلل ، ويرد الجامح عن الخطأ ، ويهدى إلى سواء السبيل . . . واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون .

البر بالأمهات

الحمد لله عز وجل ، هو نصير العاملين ، وولى الشاكرين : « لئن شكرتم لأزيدنكم ، ولئن كفرتم إن عذابى لشديد » . أشهد أن لا إله إلا الله ، أمر بالوفاء عليه : « وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسئولا » . وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، حرض على محامد الآداب ، وتمم مكارم الأخلاق ، فصلوات الله وسلامه عليه ، وعلى آله وصحبه ،وأتباعه وحزبه : « الذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

لقد أقبل الإسلام على الدنيا إقبال الربيع الناضر ليصلح من فسادها ، ويشد من بنيانها ، ويقيم فيها دعائم مجتمع سليم متكافل ، يتعاون على الخير والبر ، ويتعاطف بدوافع المحبة والرحمة ، والأسرة هى بلا شك أساس هـذا المجتمع ولبنته الأولى ، وعماد هذه الأسرة هى رابطة الأبوة والبنوة وما حولهما من صلات القربى ووشائج الرحم ، ولذلك عنى الإسلام عناية كبرى برعاية روابط الأسرة ، وصيانة حقوق ذوى الأرحام والقرابة ، فالتنزيل المجيد يقول : « واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيباً » ويقول الرسول : « يقول الله تعالى : أنا الرحمن وهذه هى الرحم ، شققت لها اسماً من اسمى ، فمن وصلها وصلته ، ومن قطعها قطعته » . ويقول الرسول أيضاً : « لا يدخل الجنة قاطع رحم » .

ثم يعنى الإسلام عناية خاصة ويحث حثاً قوياً على بر الوالدين والإحسان إليهما والطاعة لهما فيما ليس بإثم أو معصية ، لأنهما السبب المباشر فى وجود

الإنسان ، وهما اللذان تعبا من أجله وسهر عليه ، وصبرا فى تربيته وتنشئته ، وشرعة الإنصاف تقتضى مجازاة الإحسان بالإحسان ، ومقابلة الجميل بالجميل وبين الولد ووالديه من الروابط أقواها وأزكاها ، ومن المشاعر أسماها وأعلاها وأى علاقة أوثق من علاقة الجزء بكله ، والفرع بأصله ، ولذلك يقول الله جل جلاله : « وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحساناً إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أفّ ولا تنهرهما وقل لهما قولاً كريماً واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربيانى صغيراً» ونحن نرى من حفاوة القرآن بمكانة الوالدين وتساميه بحقوقهما الكريمة لشأنهما أنه يقرن تارة بين عبادة الله الواحد الأحد وبين الإحسان إلى الوالدين فى مجال واحد ، فيقول : «وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحساناً » أو يقول : « لا تعبدون إلا الله وبالوالدين إحساناً » ، وتارة يقرن شكر الله بشكر الوالدين حيث يقول الحق عز من قائل : «أن أشكر لى ولوالديك إلى المصير » . ولقد سأل رجل النبي : أى العمل أحب إلى الله عز وجل ؟ . قال : الصلاة على وقتها . قال: ثم أى ؟ قال : ثم بر الوالدين . قال : ثم أى ؟ قال : الجهاد فى سبيل الله ! . . .

وأهم وقت يطالب فيه الإسلام الولد بالإحسان إلى الوالدين هو وقت كبرهما وشيخوختهما ، لأنهما فى هذه الحالة يصيران فى حاجة ماسة إلى الرعاية والعطف ، ولأن تصرفاتهما حينئذ قد تحتاج إلى جميل الصبر وقوى الاحتمال ، ولذلك طالب الإسلام الابن بأن يحسن إلى والديه إيذاءهما وبأقل الألفاظ الدالة على الملل أو التقزز ، وأن يخاطبهما بالخطاب الرقيق اللين ، وأن يدعو لهما متذكراً سابق إحسانهما إليه وسابغ فضلهما عليه ، فإن الصنيع الكريم لا يضيع عند أحرار الرجال ، ولقد قال نبي هذه الأمة : « رغم أنفه ، ثم ثم رغم أنفه ، ثم رغم أنفه ، قيل : من يا رسول الله ؟ قال : من أدرك والديه

عند الكبر أحدهما أو كليهما ثم لم يدخل الجنة » أى عن طريق إكرامهما والإحسان إليهما . .

ولقد بالغ الإسلام فى تكريم شأن الأم والوالد، فطالب ابنهما بأن يتبعهما البر والتكريم حتى بعد موتهما ، استدامة منه لهذا المظهر النبيل السامى ، وهو مظهر الوفاء لكونهما صاحبي الفضل والإحسان فى أول الأمر ، فقد جاء رجل يسأل النبي : هل بقى على من بر أبوى شىء أبرهما به بعد وفاتهما؟ فقال صلوات الله عليه : «نعم الصلاة عليهما والدعاء لها ، وإنفاذ عهدهما ، وإكرام صديقهما .

ومع هذه العناية كلها بشأن الوالدين معاً ، فإنه يعود فى الوقت نفسه فيخص الأم بمزيد من الرعاية والاهتمام ، لأنها كان يتمثل فيها أكرم ما فى الحياة البشرية من معانى الإنسانية ، وهو معنى الأمومة السامى الرفيع ، وأى امرىء يستقيم منه الحس والنفس ، ويستقيم فيه العقل والعاطفة ، يموج فى نور ، ويسبح فى بهجة وحبور ، حين يناله التوفيق فى تكريم الأم وتقدير الأمومة ؟ . الأم التى حملت عبء الحياة وعملت على وصل أسبابها ، وجاهدت فى سبيلها ، وتعبت وسهرت ، وكافحت وناضلت ، والأمومة التى غمرت مدخل الحياة وموكب الأحياء بأفضل ما يدفعها إلى مواطن الخير والفضل ويصدها عن مباءات الشر والانحراف ! ! . .

ولقد قال رجل لرسول الله صلى الله عليه وسلم : من أحق الناس بحسن صحابتى ؟ قال : أمك . قال : ثم من ؟ قال : أمك . قال ثم من ؟ قال : أمك . قال ثم من ؟ . قالوا : أبوك . فذكر الأم وحقها ثلاث مرات ، ثم ذكر الأب وحقه فى المرة الرابعة ، ومن هنا قال الفقهاء : إن حق الأم مقدم وزائد على حق الأب بدرجة أو درجتين فى مجال البر والعطف والإحسان ، وذلك لضعفها ورقتها من جهة ، ولأنها تحملت مصاعب الحمل والوضع والرضاع

والتربية والرعاية العاطفة من جهة أخرى « ووصينا الإنسان بوالديه ، حملته أمه وهنا على وهن [أى ضعفاً على ضعف] وفصاله فى عامين أن اشكر لى ولوالديك إلى المصير » . ولقد حدثنا تاريخ الإسلام فى صدره الأول أن سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه أسلم وأمه كافرة فحرضته على ترك الإسلام فأبى ، فأضربت عن الطعام لتحمله على ما تريد ، فأبى وقال لها : والله لو كانت لك مائة نفس لخرجت قبل أن أودع دينى هذا . . . وحينئذ نجـد القرآن المعلم يهدى فى هذا الباب للتى هى أقوم ، فيطلب إلى المسلم أن يحسن معاملة أمه وأبيه ولو كانا كافرين ، وأن يصاحبهما بالمعروف ، وأن يؤدى إليهما حقهما دون استجابة لها فيما يغضب الله من كفران أو بهتان : « وإن جاهداك على أن تشرك بى ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما فى الدنيا معروفاً واتبع سبيل من أناب إلى ثم إلى مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون » .

ولقد آثر الإسلام أن يخدم المسلم أمه المحتاجة إليه على خروجه إلى الجهاد فى غير وقت الزحف العام ، فقد جاء رجل إلى رسول الله يستشيره فى الجهاد فقال له صلوات الله عليه : ألك والدة ؟ قال : نعم . قال : فالزمها فإن الجنة تحت رجليها ... وهذا لون رائع من التكريم الحسى والمعنوى يحق للإسلام أن يفاخر به فى مجال التحريض على محامد الخصال ومكارم الفعال . ولا عجب فرسول الإسلام عليه الصلاة والسلام هو الذى كرم الأمومة خير تكريم ، حتى تحدثنا سيرته العاطرة وسنته الباهرة أنه كان ذات يوم يقسم لحماً بين أصحابه ، فأقبلت عليه امرأة فقام إليها محتفياً بها مكرماً لها ، وبسط رداءه وأجلسها عليه . فقيل : من هذه ؟ . فأجابوا : هذه أمه التى أرضعته ! ! . . وعند محمد لا يضيع معروف ولا يجحد صنيع ، وأى الناس أحق أنبياء الله بتكريم الأمومة وبر الأمهات وهذا روح الله عيسى يعد بره بأمه نعمة من نعم الله التى يتحدث بها ويفاخر : « وبراً بوالدتى ولم يجعلنى جباراً شقياً » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . . إنما يقوم الإسلام على الوفاء والشكران ، ومن أجمل مواطن الوفاء والشكران أن يحرص للإنسان على الإحسان والطاعة والبر بأب هو أصله ومنيته ، وأم هى صاحب الفضل الأكبر عليه فى هذه الحياة ، فلنكن من أهل الوفاء المستحقين لخير الخبراء : « أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون » . واتقوا الذى أنتم به مؤمنون ، إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون .

واجب الأبناء نحو الآباء

الحمد لله عز وجل هو العليم بالضمائر ، المطلع على السرائر «إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بمن اهتدى ، ولله ما فى السموات وما فى الأرض ليجزى الذين الذين أساءوا بما عملوا ويجزى الذين أحسنوا بالحسنى» نشهد أن لا إله إلا الله ، دعا عباده إلى نور اليقين والإيمان ، وشرع لهم طريق الإصلاح والإحسان : «ما على المحسنين من سبيل والله غفور رحيم» ، ونشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، هدى قومه إلى الفضائل العظيمة ، وثبت فيهم دعائم الأخلاق الكريمة ، فصلوات الله وسلامه عليه ، وعلى آله وذريته ، وخلفائه وصحابته والقائمين بأمر دعوته ، أولئك أهل التقوى وأهل المغفرة : «لهم ما يشاءون عند ربهم ، ذلك جزاء المحسنين» .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

لعل أقوى الروابط بين الأحياء هى الرابطة العميقة الباقية بين الآباء والأبناء ، ولذلك يجب أن نعنى بتوثيقها وإقامتها على أساس وطيد من الخير والبر ، وتبادل الحب والإخلاص ، وإذا كنا نطالب الآباء بأداء واجباتهم نحو فلذات أكبادهم وثمرات قلوبهم ، فلابد لنا من مطالبة الأبناء بواجباتهم نحو هؤلاء الآباء ، وأول هذه الواجبات فيما نظن هو أن يتذكر الأبناء على الدوام أن آباءهم كانوا السبب المباشر فى وجودهم والأصل الحسى لحياتهم والواسطة البادية فى خلق الله تبارك وتعالى لهم ، وأن آباءهم قد شقوا فى سبيلهم ، وتعبوا من أجلهم ، وذاقوا المر والعلقم لتنشئتهم وتربيتهم ، وصبروا على ذلك صبراً جميلا ، وتحملوا من أجله تحملا طويلا ، وبذلوا من حسهم

ونفسهم بذلا جليلا ، وشرعة العدالة تقتضى التماثل والتبادل والقرآن يقول : « هل جزاء الإحسان إلا الإحسان » ؟ .

وهنا حقيقة يلزم أن نتنبه إليها جيداً ، وهى أن الآباء يمثلون جبهة المحافظة والمقاومة والدفاع ، لأنهم أهل جيل قد مضى أكثر زمنه ، وأخذوا ينكمشون على أنفسهم وأحاسيسهم ، بينما الأبناء يمثلون جبهة الاندفاع والتجديد ، لأنهم أهل جبل مقبل بشبابه وحيوية وآماله ، والحياة تسير فى تطورها وتغيرها ، ولابد فيها من الفريقين ، فلو تصادما أو تخاصما ، لكانت عوامل الهدم والتحطيم أضعاف عوامل البناء والتعمير ، فلابد لهما من حسن التفاهم وكريم التعاون ، حتى يلقيا فى منتصف الطريق ، ولما كان الآباء من الناحية الحسية فى موطن الضعف بحكم الكبر والقدم ، وكان الأبناء فى مكان القوة ، بحكم الشبيبة وإقبال الحياة ، وجب على الأبناء أن يتحلوا بكرم المعاملة وحسن الصحبة لهؤلاء الآباء الذين قدموا ما قدموا ، وبذلوا ما بذلوا ، وجاهدوا فى سبيل هؤلاء الأبناء ما جاهدوا ، والفضل للمتقدم والآباء يبعد منهم أن يهملوا الأبناء ، بينما الأبناء فطنة الإهمال للآباء ، ومن هنا نستعرض آيات القرآن الكريم فنجد أن الله قد أمر الولد بأن يحسن إلى والديه إحساناً فى عدة آيات ، بينما لا نجد فى القرآن أمراً للوالدين بالإحسان إلى الولد ، وذلك لأن إحسان الوالدين إلى والدهما أمر محقق واقع مطبوع عليه الوالدان ، لا يحتاج إلى تذكير ، بينما نلاحظ أن الكثير من الأبناء لا يتقون ربهم فى معاملة آبائهم ، فيسيئون إليهم ويغلظون معهم حينما يكون الآباء بحاجة إلى الرحمة واللين ، مع أن أول سمات الإنسانية الصحيحة أن يجحد المرء الفضل ، وأن لا يتنكر للجميل ، ومن هنا جعل الله الإحسان إلى الوالدين قضية إنسانية عامة ، فقال :

فى القرآن « ووصينا الإنسان بوالديه » ، فلم يقل : ووصينا المسلم ، أو لم يقل : ووصينا المؤمن ، بل قال : « ووصينا الإنسان بوالديه » ، كأن حسن الأدب مع الوالدين ، وحسن الرعاية للوالدين ، وحسن التفاهم مع الوالدين ، أمر إنسانى بشرى ، يجب أن يقوم به الإنسان بمقتضى أنه إنسان وأنه بشر ، فكيف إذا كان هذا الإنسان صاحب إسلام وربيب إيمان ؟ ! . .

وللقرآن الحق كل الحق فى أن يجعل الوصية بالوالدين قضية إنسانية ، لأنها قضية مقابلة الجميل ،ومجازاة الإحسان بالإحسان ، وعلى هذا الأساس صورها القرآن تلك الصورة الإنسانية المؤثرة فقال : « وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحساناً ، إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ، ولا تنهرهما ، وقل لهما قولا كريماً ، واخفض لهما جناح الذل من الرحمة ، وقل رب أرحمهما كما ربيانى صغيراً » .

فالله عز وجل قد قضى وأمر أمراً مقطوعاً به أن لا نعبد غيره ، لأنه لا رب سواه ، ثم ذكر بعد عبادته الأمر بالإحسان إلى الوالدين ، ولا يكاد القرآن يذكر الإحسان إلى الوالدين إلا بجوار ذكر الدعوة إلى عباده الله وشكرانه [1] ، كأن العناية بأمر الوالدين تأتى عقب الإيمان بالله والاستجابة

---

(١) فى البقرة « لا تعبدون الا الله وبالوالدين احسانا » وفى النساء : « ولا تشركوا به شيئا وبالوالدين احسانا » وفى الأنعام : « الا تشركوا به شيئا وبالوالدين احسانا » وفى الاسراء : « وقضى ربك الا تعبدوا الا اياه وبالوالدين احسانا » وفى لقمان : « أن اشكر لى ولوالديك الى المصير » .

له . . . وانظر كيف خص الله بالذكر فى الآية حالة كبرهما وطعنهما فى السن لأن هذا الوقت هو مظنة ضيق الولد بهما ، واستثقاله لظلهما ، واشمئزازه منهما ، وهما حينئذ أشد احتياجاً إليه بعد جهادهما الطويل من أجله وفى سبيله ، ولذلك بالغ القرآن فى الوصية والنصيحة ، فأمر الولد بألا يضايقهما ولو بأقل ما يشير إلى التضجر وهو كلمة : أف وألا ينهرهما أو يغلظ عليهما ، وأن يخاطبهما خطاباً رقيقاً لطيفاً كريماً ، وأن يبالغ فى الأدب معهما والخضوع لهما ، حتى يبدو أمامهما ذليلا رحيماً ، ويالها من عزة أن يذل الابن بوالديه ، وأن يتوج بتاج الدعاء لهما ، متذكراً دائماً سابق فضلهما وقديم إحسانهما ، فأوصى القرآن هنا بخمس درجات للإحسان : « فلا تقل لهما أف ، ولا تنهرهما وقل لهما قولا كريماً ، واخفض لهما جناح الذل من الرحمة ، وقل رب ارحمهما كما ربيانى صغيراً » .

وارتفع الإسلام بقضية الإحسان إلى الوالدين إلى قمة السماحة الإنسانية ، فأمر الولد بأن يحسن معاملتهما ولو اختلف معهما فى الرأى أو الدين أو منهاج الحياة ، فقال القرآن يخاطب الولد : « وإن جاهداك على أن تشرك بى ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما فى الدنيا معروفاً » .

وجاء محمد عليه الصلاة والسلام ، وهو نبى الوفاء ورسول الإحسان فزاد هذه القضية رعاية وعناية ، فأخبرنا بأن رضا الله فى رضا الوالدين ، وأن المرء وماله لأبيه ، وأن الجنة تحت أقدام الأمهات ، وأن أكبر الكبائر الإشراك بالله وعقوق الوالدين ، ولقد سأله أحد صحابته : أى العمل أحب إلى الله عز وجل ؟ فقال : الصلاة على وقتها . قال : ثم أى ؟ . قال : ثم بر الوالدين . قال : ثم أى ؟ قال : ثم الجهاد فى سبيل الله . فجعل بر الوالدين بعد الصلاة

التى هى أعظم دعائم الإسلام وكذلك ، وجعل بر الوالدين وسطاً بين الصلاة التى هى جهاد نفسى ، والقتال فى سبيل الله الذى هو جهاد حسى ، لأن بر الوالدين يشمل الاثنين ، فهو جهاد نفسى بالأدب معهما ، وهو جهاد حسى بالبر إليهما وإحسان المعاملة معهما ، وليس وراء ذلك تكريم ! ! . .

ولقد ضرب السابقون أروع الأمثال فى تكريم الآباء ، فهذا على بن الحسين كان لا يأكل مع أمه فى صحفة خشية أن تمتد يده إلى شىء تكون عينها قد تطلعت إليه ، وهذا عمر بن ذر يقول عن ابنه : ماشيت نهاراً قط إلا مشى خلفى تأدباً ، ولا ليلا إلا مشى أمامى خشية مكروه يلقانى ، ولا رقى سطحاً وأنا تحته حتى لا يعلونى ، وهذا هو الفضل بن يحيى البرمكى كان سجيناً مع أبيه ، وكان أبوه لا يطيق استعمال الماء البارد فى ضوء الفجر ، وقد منع السجان عنهما الحطب ، فكان الفضل يمسك بإناء الماء ويدنيه من المصباح ، ويسهر به إلى الفجر ، حتى يسخن الماء لوضوء أبيه ! ! . .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . . قد يقول الأبناء اليوم : إنك تحدثنا عن عهود سلفت ومضت بما لها وما عليها ، ونحن الآن فى عهود الحرية والمساواة ! ! . . ويعلم الله أنه مهما ترخصنا فى رفع الكلفة والتحفظ بين الآباء والأبناء ، فلن نستطيع بحال من الأحوال أن نستسيغ تفريط الأبناء فى حقوق الآباء ، ولن يطيق عاقل أو وفى أن تتنكر الذرية بهذه الصور المروعة لمن أتوا بها وسهروا عليها ، وإذا كنا ندعوا الوالد إلى أن يكون بولده رحيماً ومعه كريماً ، وأن يلاعب الأب أبناءه ويداعبهم ، ويستجيب لرغباتهم ، ويتعرف اتجاهاتهم ، ويحترم شخصياتهم ، ولا يستبد بهم كاستبداد الملك الأرعن فى ملكه ، فإننا مع هذا لا ننسى مطالبة الوالد بأن يكون صاحب

أدب ووفاء وتوفير ، ولو عرف الأبناء مبلغ الحسرات التى تأكل قلوب الآباء وهم يتخوفون على مصائر أولادهم ، ويخشون فشلهم فى الحياة ، ويحرصون على نجاحهم بين الناس ، لما أضاف الأولاد إلى هذه الأحمال أحمالا أخرى من الجحود والنكران . . . وسبحان من بيده الأمر كله . .

واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون .

الزواج السرى والزواج العرفى

الحمد لله عز وجل ، أبان الحقائق وأوضح الطرائق ، فكان صراحة مستقيماً ، وكان هديه قويماً : « قد جاءكم بصائر من ربكم ، فمن أبصر فلنفسه ومن عمى فعليها ، وما أنا عليكم بحفيظ » . أشهد أن لا إله إلا الله ، يحق الحق ويبطل الباطل ، وهو السميع البصير ، وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، ترك الناس على المحجة البيضاء ليلها كنهارها ، لا يزيغ عنها إلا هالك ، فصلوات الله وسلامه عليه ، وعلى آله وذريته ، وأنصاره وأهل صحبته ، والداعين إلى هديه وطريقته ، « ومن تزكى فإنما يتزكى لنفسه وإلى الله المصير »

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام :

ذكر بعض السائلين أنه قد كثر بين الناس أخيراً لجوؤهم إلى الزواج السرى والزواج العرفى ، وطلب تبيان الحكم الشرعى فى هذا الزواج .والواقع أن هذه ظاهرة مخيفة ، إن استترت وراء الحجب والأستار ، فإن رائحتها تزكم الأنوف وتقلق الضمائر ، ومن الواجب علينا جميعاً أن نتعرف إلى موقف الإسلام العظيم من هذه الظاهرة لعلنا نتعاون فى ميدان التناصح بالخير والتواصى بالحق والتواصى بالصبر على علاجها ، وكل من الزواج السرى والزواج العرفى يلجأ إليه أصحابه فى تكتم واستخفاء ، حتى لا يعرفه الناس ، ولا تحيط الدولة به علماً ، وإذا كان العرفى يتميز عن السرى بأن فيه ورقة عرفية مكتوبة ، فإنه مثل السرى غالباً ، فإن كان له شكل الزواج فإنه فى هدفه وروحه بعيد عن منهج الإسلام الواضح المستقيم ، إذ كل دارس للإسلام يدرك أنه قد جعل لعقد الزواج قداسته وجلالته ، وحاطه بشروط وقيود وضوابط ، حتى يبدو كعقد إلهى دينى ، تأتى يد الله القوى القادر من فوق

أيدى الذين يعقدونه لتوثق هذا الرباط ، وتباركه برضا الله ورضوانه . والسبب فى ذلك أن استحلال الفروج المحرمة هو أعظم أمر فى نظر الإسلام ، لأن المرأة الأجنبية تصير بهذا حلا لزوجها يعاشرها ويضاجعها ، وتصبح مقصورة عليه وترتبط به ، ويترتب على هذا الارتباط نسب ومصاهرة ، وائتلاف وذرية ، ونفقة وميراث ، ولعل هذا هو السر فى أن الإسلام جعل الاعتداء على الأعراض والفروج دون عقد الزواج الإلهى المقدس أكبر جريمة فى نظره ، وجعل عقوبتها أشد عقوبة ، بل لقد رمز الإسلام إلى أن خطورة هذه الجريمة تبلغ حداً يجعل ثبوتها محتاجاً إلى قواطع الأدلة وتعدد الشهود بصورة تزيد عما فى أى جريمة أخرى .

ولذلك أحاط الإسلام عقد الزواج — الذى يؤدى إلى استباحة الفروج — بكل الضمانات المبعدة له عن الشبهة وسوء الظن ، فهناك عقود كبيرة أو صغيرة ، مالية أو معنوية ، يبيح الإسلام أن تتم بمجرد التراضى بين طرفيها ، ويبيح أن تتم هذه العقود فى السر والكتمان ، أو فى الخفاء والاستتار ، ولكنه لم يبح هذا فى عقد الزواج ، بل أراد لهذا العقد أن يتم فى وضح النهار وعلى ملأ من الناس ، وأن يكون هناك فوق رضا الطرفين به ضوابط تظهر للعيان حتى لا يلتبس الحلال بالحرام ، فكأن من هدى الإسلام فى الزواج أن تسبق الخطبة عقد العقد ، وهى إبداء الرغبة من الرجل فى زواج المرأة ، وذلك يتم فى غير مخادعة ولا مسارقة ولا سواء استغلال . ثم كان من هدى الإسلام إذا أراد الطرفان أن يعقدا عقد الزواج أن يوجد معهما شهود يتحقق بوجودهم أمران : الأول هو الشهادة على الزواج ، حتى يصير بين الناس أمراً معلوماً بعيداً عن فطنة الفاحشة أو شبهة الزنى ، والآخر هو أن يثبتوا صحة العقد وقيام الزوجية بين الطرفين إذا ما احتاج الأمر فى المستقبل إلى هـذا الإثبات ، ومع الشهود يكون هناك أيضاً ولى الفتاة ، إذا كانت صغيرة

أو عاجزة عن القيام بعقد العقد ، وها نحن أولاء نعود إلى سنة سيد الخلق وإمام المرسلين محمد عليه الصلاة والسلام ، فنجده يقول فى حديثه : « لانكاح إلا بشاهدين » وفى حديث ثان يقول : « لا نكاح إلا بشهود » وكأن من هؤلاء الشهود اثنين لواجب الشهادة ، والبقية تكون حاضرة هذا العقد لتتوافر له صفة الإظهار والإعلان ، ويقول فى حديث ثالث : « لا نكاح إلا بولى وشاهدى عدل » والشاهد العقل لا يقبل لنفسه أن يكتم ما دعا الدين إلى إعلانه ، ويقول فى حديث رابع : « كل نكاح لم يحضره أربعة فهو سفاح : خاطب وولى وشاهدان » .

والإسلام لم يكتف فى إعلان الزواج بالشهود ، بل دعا إلى إظهار الزواج وإعلانه على نطاق أوسع من ذلك ، فقال الرسول عليه الصلاةوالسلام : « أعلنوا النكاح ولو بالدف » وفى رواية أخرى : « أعلنوا النكاح ، واضربوا عليه بالدف » . كما سن الرسول لأتباعه أن يسمعوا الغناء فى العرس ، والغناء شىء يستهوى الأسماع ، وكأنه لا يراد به التمتع بالسماع فقط ، بل يراد به أيضاً اجتذاب الأسماع إلى مكانه فيعلم القريب والبعيد أن هنا عقد زواج يتم باسم الله تبارك وتعالى وعلى سنة رسوله صلى الله عليه وسلم . ومع الغناء فى العرس شرع الإسلام خطبة الزواج التى تقال عند عقد العقد ، والخطبة من شأنها أن تقال بين مستمعين حاضرين ، لا أن يهمس بها وراء الحجب والأستار فكأن الإسلام أراد أن الخطبة أيضاً أن تعاون على تحقق الإعلان ؛ وكذلك سن الإسلام الوليمة فى العرس ، وإنما تقام الوليمة لآكلين يكونون حاضرين وشاهدين على هذا الزواج ، والزواج السرى أو العرفى لا تتوافر فيه عادة هذه الأمور . بل إن هذا النوع من الزواج — حتى مع استيفاء الشروط الظاهرة للعقد — لا يحقق معنى المودة والسكن الذى يشير إليه القرآن الكريم فى قوله : « ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل

بينكم مودة ورحمة ، إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون » فكل من الزوجين يمارس الحياة الزوجية فى تلصص واستخفاء ، كأنه يرتكب إثماً تحرص على ستره عن الناس، فكيف تتحقق مع هذا معانى المودة والمحبة والسكن والمعاشرة الزوجية الهادئة المطمئنة ؟ . ثم إن مسألة الكتمان هنا لا يقتصر ضررها على الزوجين ، بل يمتد هذا الضرر إلى الذرية التى تنشأ عن هذا الزواج ، فإن الولد الذى يولد فى ظل الزواج السرى يشب حائراً الذهن معقد النفس ، يتطلع إلى والديه فإذا هما يحيطان حياتهما الزوجية بظلمات وشبهات ، ويتساءل الولد عن هذا ويحاول أن يعرف ، فإن عرف غرق فى طوفان من الظنون والريب ، وإن لم يعرف ازداد حيرة واضطراباً ، فما ذنب هذه الذرية البريئة المسكينة حتى تحمل منذ بداية الطريق أوزار سواها من الآباء والأمهات ؟ .

والغالب على الزواج السرى أن يكون الزوج فيه مخادعاً لا ينوى الدوام عليه أو الوفاء له إلى الأبد ، وتكون الزوجة هى كبش الفداء ، والضحية ، الرخيصة التى تباع بيع السلع ، فما هى إلا فترة من الزمن تقضى فى خوف وحذر وقلق واضطراب ، ثم يكشف الذئب عن أنيابه ، ليترك ضحيته فريسة همومها مثقلة بآثار زواجها السرى ، وتذهب المسكينة تحاول أن تثبت هذا الزواج رسمياً ، أو تأخذ حقوقها المترتبة على هذا الزواج ، فتجد الأبواب فى وجهها موصدة ، لأن القانون يمنع سماع دعواها فى هذه الحالة ، إذ أنه يشترط لسماع مثل هذه الدعوى أن تكون الزوجية ثابتة بوثيقة زواج رسمية على يد موثق رسمى كالمأذون أو القاضى أو الموظف المختص فى المحكمة ، وحينما تجد الضحية الطريق مسدوداً أمامها تفزع من الندم ولات ساعة مندم ، ولعلها تردد بينها وبين نفسها حينئذ قولها : « يا ليتنى مت قبل هذا وكنت نسياً منسياً » ولو أنها استعصمت بهدى القرآن وطريق الإسلام وسنة سيد البشر محمد عليه الصلاة والسلام لسلكت سبيلها فى الحياة واضحاً مضيئاً مشرقاً إشراق الشمس ،

لا تكثر من حولهـا الهمزات والغمزات ، ولا تحاط سيرتها بالأقاويل والافتراءات ، وما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام : إن الإسلام صراط مستقيم ، له مظهره ومخبره ، وله معناه ومبناه ، وبعض الناس يحاولون أن يستوفوا الظاهر ويهملوا الباطن ، أو يوجدوا المبنى ويتركوا المعنى ، وهذا لا يلتقى مع أهداف الإسلام التى ترمى إلى تحقيق حياة سعيدة هانئة للناس ترفرف عليها ألوية العدل والاعتدال ، وتضيئها أنوار الاستقامة والشرف ، فمن أبصر فلنفسه ، ومن عمى فعليها وما أنا عليكم بحفيظ ، واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون ، إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون .

كراهية الإناث

الحمد لله عز وجل ، له الحكم وبيده الأمر ، « إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون » . أشهد أن لا إله إلا الله ، لا راد لقضائه ولا معقب لحكمه : « والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون » . وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، ابتلاه ربه فصبر ، وأعطاه فشكر ، فكان أفضل الراضين وخير الحامدين ، فصلوات الله وسلامه عليه وعلى آله ذوى النهى ، وأصحابه أهل التقى ، وأتباعه الداعين إلى الهدى : « إنه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين » . . .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

لقد كان أسلافنا رضوان الله عليهم يستعيذون بالله من الضلال بعد الهدى ، ومن الكفر بعد الإيمان ، ومن الجاهلية بعد الإسلام ، ومن الجزع بعد الرضا بالقدر ، وكانوا يرون الرجوع عن الحق بعد معرفته غاية الغايات فى الفساد والضلال ، فمن فعل ذلك فقد خسر الدنيا والآخرة ، ذلك هو الخسران المبين . . ثم خلف من تنكروا لتلك المبادىء ، بعد أن استعبدتهم الأهواء ، وصرفتهم المطامع تصريف العبيد الأرقاء ، فأصبحوا يدعون لأنفسهم ما ليس ، فإن جرت الأقدار يوماً بغير ما يشتهون فويل للزمان وأهل الزمان ، فتراهم وقد استبد بهم التمرد والنكران ، فنكصوا على أعقابهم ، ومن نكص على عقبيه فلن يضر الله شيئاً ، وسيجزى الله الشاكرين . . .

دارت هذه الخواطر بالذهن وأنا أقرأ بالأمس فى الصحف اليومية أن رجلا محامياً حلف على زوجته الحامل بأن يطلقها إذا ولدت بنتاً ، لأنه يريد الذكور ولا يريد الإناث ، وظلت الزوجة المسكينة تقضى أيام حملها حزينة

كئيبة كاسفة البال ، ثم جاء يوم المخاض ، ووضعت الزوجة ، ولكنها لم تضع ذكراً ، ولم تضع بنتاً فقط ، بل وضعت له بنتين ، « وربك يخلق ما يشاء ويختار » ، وقامت المشكلة ، واحتد الخلاف . . . يالله ، أجاهلية بعد إسلام ، وضلال بعد هدى ؟ « أفحكم الجاهلية يبغون.؟ ومن أحسن من حكماً لقوم يوقنون » ؟ . . لقد قرأت هذا النبأ فثارت نفسى ودارت بى الأرض الفضاء ، ولم أكد أصدق أن هذا يحدث فى عصر النور والمدنية ، ومن رجل مثقف عاقل ، وبعد أكثر من ألف سنة ظل فيها صوت الإسلام الحنيف يتردد مذكراً الناس بأن الأمر لله من قبل ومن بعد ، وأن المرأة المسكينة لا ذنب لها ولا جريرة فى هذا المقام . وخطر ببالى أمر تلك المرأة العربية القديمة التى تزوجت رجلا اسمه « أبو حمزة » ، وشاء الله أن تلد له عدة بنات ، دون أن تلد له صبياً واحداً ، فغضب عليها ، وهجرها إلى بيت أخرى له ، ثم سمع الأولى ذات يوم وهى تداعب بناتها فى وحدة ووحشة فتقول :

ما لأبى حمزة لا يأتينا   يظل فى البيت الذى يلينا

غضبان ألا نلد البنينا   وما كان ذلك فى أيدينا

فنحن كالأرض لزارعينا   ننبت ما زرعوه فينـــا !

فاستحيا الرجل من الله ومن نفسه ومن زوجته وتذكر أن زوجته كانت أحرص على البنين منه ، وأنها أكثر شوقاً إليهم منه ، ولكن الأمر ليس بيدها ، فندم على ما فرط منه ، وعاد إلى زوجته وهو يردد لها عبارات الاعتذار والاستغفار . . . بل لقد ذكرت الجاهلية وما كان من شأنها . يوم كان أهلها الغلف القلوب الغلاظ الأكباد يعترضون حكم القدر ، ويختارون على الله ، فيستحلون لأنفسهم أن يئدوا فلذات أكبادهم من البنات ، فيدفنوهن فى التراب

فجاء الإسلام فحرم ذلك الجرم الفظيع ، وأوجعهم تأنيبا وزجرا ، وسخر منهم حينما يضعون عن النهوض بتبعات الحياة ، فيزهقون تلك الأرواح البريئة ، فقال عز من قائل : « وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسوداً وهو كظيم ، يتوارى من القوم من سوء ما بشر به ، أيمسكه على هون أم يدسه فى التراب ، ألا ساء ما يحكمون » ! . . .

على أننا لو قارنا بين العربى الجاهلى والإنسان منا اليوم لأمكننا أن نتخيل للعربى ما يشبه العذر فى كراهته للبنات ، فقد كانت الحياة العربية قاسية مرهقة ، بل كانت جهاداً عنيفاً فى سبيل الحصول على القوت ، وكانت البنت بطبيعتها لا تصلح لهذا النضال ، وكانت حياتهم سلسلة من الحروب والمعارك التى تثور لأتفه الأسباب ، وكان المنتصر منهم يستحل لنفسه أن يسبي النساء والبنات وذلك أمر يشق تحمله على نفس العربى المخذول ، كما أن الفاحشة كانت شائعة فى الجاهلية ، فكان العربى يخاف أن تنال الرذيلة ابنته فيناله العار ، فكان يندفع فى ثورة حمقاء مجنونة إلى وأد ابنته فى التراب . . . أما اليوم فأى داع يدعو إلى هذا الحمق فى التصرف ، وقد تغيرت الأحوال ، وتبدلت الأوضاع ، وأشرق نور الإسلام على الناس ، فهداهم إلى سواء السبيل ؟ . . « إن الإنسان لظلوم كفار » . . .

ثم إننا نجد رسول الله صلوات الله عليه يحث المسلم على الرضا بما قسم الله له فيقول : « وارض بما قسم الله لك تكن أغنى الناس » . ويحث المسلم على أن يعامل بناته بالرفق والرحمة ، وأن يعتبرهن سبب مثوبة ونعمة . فقد قالت عائشة : « جاءتنى امرأة ومعها بنتان تسألنى شيئاً من الإحسان فلم أجد عندى غير تمرة واحدة فأعطيتها ، فقسمتها بين ابنتيها ، ثم قامت فخرجت فدخل النبى صلى الله عليه وسلم فحدثته بذلك ، فقال : من ابتلى منكن من هؤلاء البنات بشىء فأحسن إليهن كن له ستراً من النار » ! . وقال أيضاً :

« من كانت له أنثى فلم يئدها ولم يهنها ، ولم يؤثر ولده عليها ، أدخله الله الجنة » وكان النبي يحب ابنته فاطمة أكثر من أى شخص ، ويفرح إذا رآها ، وحينما بشروه بولادتها قال : « ريحانة أشمها ، ورزقها على الله » ! . .

ولو ذهبنا نستمع إلى صوت العقل لأرشدنا إلى أن كراهيتنا للإناث حمق وسفاهة ، فلا ذنب لهن فى أمرهن حتى تنالهن منا هذه الكراهية ، والله أعلم ونحن لا نعلم ، والإنسان لا يدرى أين يكون الخير ، فكم من أبناء جلبوا الخراب والدمار لآبائهم فكانوا وبالا ونكالا عليهم ، وكم من بنات عشن صالحات طاهرات فحققن الكثير من الطيبات ، والفتاة تستطيع — إذا أحسن وليها تنشئتها وتربيتها — أن تسابق الفتى فى ميادينها الصالحة لها ، وقد تسبقه بخيرها وعملها حتى يقال فيها :

ولو كان النساء كمثـــل هذى لفضلت النساء على الرجال

وللبنات رسالتهن فى الحياة ، وأعمالهن العظيمة التى لا يستطيع الرجال أن ينهضوا بها ، فمن للبيت وأعماله ، ومن للأولاد وتنشئتهم ، ومن للرجال وحفز هممهم وتقوية عزائمهم ، ومن للبر وشئونه ، والتمريض وفنونه ، والإحسان وألوانه ، ومن للمواساة والرحمة ، والعطف والشفقة ، وكيف يأتى الذكور والرجال إذا لم تكن هناك النساء والفتيات ؟ . . ألا ساء ما يحكمون ! . . .

ثم ما دخل الطلاق حتى « يحشره » ذلك الرجل فى غير موطنه ، ويسىء استغلاله فى غير مكانه ؟ . . إن الطلاق دواء خاص حدد الإسلام وقت استعماله وهو وقت الانتهاء الحياة من الزوجية إذا لم يمكن أن تستمر أو تدوم فما بال أقوام يخرجون بالطلاق عن نظامه وقوامه ، فيتخذونه ألعوبة وملهاة ، مع أن الإسلام قد هددهم على ذلك بالوعيد الشديد الوجيع ، فقال نبى الإسلام

عليه الصلاة والسلام : « لعن الله كل ذواق مطلاق » ! . .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . . إن الإيمان بالله جل جلاله هو قارورة الدواء وسفينة الإنقاذ ، ففي ظله ومن وراء حصنه يشعر المؤمن بالرضا ويحس بالاطمئنان ، ويلقى أحماله وأثقاله في رحاب رب عظيم قادر ، فيمده بالعون والرعاية ويشعره بالأمان والاطمئنان وبدون هذا الحصن لا يستطيع المرء التغلب على هموم الحياة ، فلنعد إلى الله ، ولنتفيأ ظلال حماه ، ولنستضيء بنور هداه ، نكن من الفائزين ، والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم . . .

المسلم بين أهله

لك الحمد « تبارك الذى بيده الملك وهو على كل شىء قدير ، الذى خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا وهو العزيز الغفور » ، نشهد أن لا إله إلا أنت ، جعلت الدين إحساناً وبراً ، وإليك تصير الأمور ، ونشهد أن سيدنا ومولانا محمداً عبدك ورسولك ، الذى أدبته فأحسنت تأديبه ، وبعثته متمماً لمكارم الأخلاق ، فصلواتك اللهم وسلامك عليه ، وعلى آله أحاسن البشر أخلاقاً ، وأصحابه البررة الموطئين أكنافاً ، وأتباعه الذين يألفون ويؤلفون . . . أولئك فى جنات يحبرون ! .

يا أتباع محمد عليه السلام . . .

الاعتدال فى الحياة هو طريق وسط بين الإفراط والتفريط ، وهو شرعة القرآن والإسلام ، قال تعالى : « ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولاتبسطها كل البسط فتقعد ملوماً محسوراً » ، ولكن بعض الرجال فينا يبدون كأنهم لا يؤمنون بتلك القاعدة ، فهم لا ينزلون على حكمها ولا يتقيدون بقانونها ، وخاصة فيما يتعلق بمعاملتهم لنسائهم وبسلوكهم داخل منازلهم . . . ترى الواحد من أولئك البعض بعضنا يحسب أن رياسته للمرأة بحكم الدين معناها السيطرة عليها والاستبداد بها ، وإلغاء شخصيتها ، ، وقد ترى هذا الرجل مثلا فى الخارج يفشل فى سعيه ، أو يناله ما يناله من الخيبة والمذلة ، فيعود إلى البيت حزيناً كاسف البال ، مغيظاً محنقا ، فما يكاد يلمح زوجته المسكينة حتى يبدأ فى إرضاء غروره ومركب نقصه ، فيتخذها فريسة له ، وكأنه يتشفى من المجتمع الذى بغى عليه حين يتشفى منها ، وذلك أسلوبِ إن دل على شىء فإنما يدل على ضعف الهمة وانعدام الشخصية الكريمة القوية . وما هكذا يكون

الكرام من الرجال ، بل الرجل كل الرجل من قابل الحياة خارج البيت برباطة جأش وثبات قلب ، وصدق رجولة ورزانة نفس ، فإذا ما انقلب إلى بيته وهو عشه الصغير وجنته الخاصة صار مثالا للفرح والبهجة ، والبشاشة والسهولة والدماثة وكرم الأخلاق ، ولذلك قال عمر رضى الله عنه : ينبغى للرجل أن يكون فى أهله الصبى ، فإذا التمسوا ما عنده وجد رجلا ! . . . وفوق هـــذا لو اقتضت الحياة منه أن يغضب فى الخارج أو يثور ، لتنافس فى عيش، أو ضبط عمل ، لوجب عليه أن ينسى ذلك عند باب بيته ، وأن يدخل إلى أهله وأولاده بنفس منشرحة ومظهر جديد ، وأن يكون ضحاكاً بساماً ، ولو تكلف ذلك فى بعض الأحيان ، لأن زوجته قد ظلت طيلة غيبته تنتظره ، ليؤنس وحدتها ، ويزيل وحشتها ، فليس من نبل الأخلاق ولا كرم الشمائل أن يسود المرء حياته هنا وهناك ! . . .

هذا رسول الإسلام عليه الصلاة والسلام ، وهو إمام المرسلين وسيد النبيين وأفضل العالمين ، كان يجاهد فى سبيل الله ما يجاهد،ويلاقى من الأعداء ما يلاقى ، ويحمل من هموم الدعوة والناس والحياة ما يحمل ، فإذا عاد إلى بيته ارتدى ثوب الزوج الحنون الرحيم ، فإذا هو أكرم الناس فى بيته ، ومن أفكههم مع نسائه ، (كثير التبسم والمداعبة) ، أعذب الخلق كلاماً وأحلاهم منطقاً ، يسبي بحديثه الأرواح ويأخذ بالقلوب ، ونراه يتناسى (مقام النبوة وجلال الرسالة) وهيبته الفذة بين أصحابه ، فيساعد أهله فى خدمة البيت ، يخصف النعل ويرقع الثوب ، ويصلح الدلو ويحلب الشاة ، ويميل الإناء للهرة حتى تشرب ! ! .

وكان يحاول أن يدخل السرور والبهجة على أهله ، فهو مثلا يركب الحسن والحسين ــ وهما حفيداه وحبيباه ــ على ظهره إرضاء لهما ، وهو يحضر نبات الأنصار لعائشة ليلعبن معها ، ويرى عندها عرائس مختلفة وتلعب بها

فلا ينكر ذلك عليها ، بل يضاحكها فى أمر هذه العرائس ويداعبها ، وكان يتلمس الوسائل لإظهار حبه لها ، وميله إليها واهتمامه بأمرها ، فهو مثلاً إذا رآها شربت من إناء أخذ الإناء ووضع فمه فى موضع فمها وشرب ، وكذلك إذا أكلت من موضع أكل منه أو مما جاوره ، وكان يتكىء فى حجرها ، وربما قرأ القرآن وهو على هذا الوضع تكريماً لها وإعزازاً لشأنها ولا عجب فهو الرءوف الرحيم ! . . ومن آدابه العالية أنه كان يدخل على قلب زوجته بالترويح والتسلية ، ويعطيها من الحركة والمتعة ما لا يتعارض مع دين أو خلق فها هوذا مثلا يرى فرقة من أهل الحبشة أمام بيته تلعب بالسيوف وتمايل فى حركات رياضية بريئة ، فيأذن لها بأن تتكىء على كتفيه وتتطلع إلى لعب هؤلاء ، وبعد مدة يقول لها : حسبك يا عائشة . فتقول له : لا تعجل ! . . فينتظر مدة ويقول لها : حسبك ، فتقول له : لا تعجل ! . . وفى الثالثة يقول لها مثل ما قال فتجيبه وقد اكتفت قائلة . نعم ! . وتعود إلى داخل حجرتها ! . . وها هوذا يسابقها فى أول عشرتها معه ، وكانت خفيفة اللحم يومئذ نشيطة الحركة ، فتسبقه فى الجرى ، وبعد سنوات يدعوها وقد خلوا إلى السباق مرة أخرى ، وكانت قد امتلأت لحماً وثقلت حركتها ، فشدت درعاً على وسطها تأهباً للسباق ، ورسماً خطاً وقفا عليه علامة الابتداء وتسابقا فسبقها ، ثم داعبها قائلا : هذه بتلك ! . . ولا يكتفى صلوات الله وسلامه عليه فى دعابته بزوجة دون أخرى ، بل هو يداعب الجميع ، ويحتمل منهن المراجعة فى القول والهفوة من التصرف . ويوجد بينهن إذا تلاقين هذه الروح الصافية المرحة . . . صنعت حبيبته عائشة ذات يوم نوعاً من الحلوى يسمى «الحريرة» وجاء إليها الرسول صلوات الله عليه ، وجاءت زوجته الأخرى السيدة سودة بنت زمعة ، فقالت عائشة لسودة : كلى ! . فقالت : لا أحبه .

فقالت عائشة : والله لتأكلن أو لألطخن به وجهك ! . . فقالت سودة : ما أنا بذائقة ! . . فأخذت عائشة بيدها شيئاً من الصحفة فمست به وجه سودة على سبيل المداعبة ! . . وكان الرسول بينهما فخلى الطريق لسودة فتناولت هى الأخرى شيئاً من الصحفة ومست به وجه عائشة ، وجعل الرسول يضحك مسروراً لروح الألفة والمحبة السائدة فى أهل بيته الكريم . . بل كان كرم الرسول ولطف شمائله وأصالة نبله تظهر حين ينتظر الغضب ويخشى الغيظ. . . يحدث بينه ذات يوم وبين إحدى نسائه نزاع طفيف فتدفعها موجة الغضب إلى أن تقول له : أنت الذى تزعم أنك نبي ! . . ومع ما فى هذه العبارة من شدة لم يزد إلا أن تبسم ضاحكاً من قولها ، فكأنما ألقى على نار الغضب صبياً من الماء فأحالها إلى رماد . . وتنازع مرة مع السيدة عائشة ، واحتكما إلى والدها أبى بكر ، فقال الرسول لها : تتكلمين أو أتكلم ؟ . فقالت مندفعة : بل تكلم ولا تقل إلا حقاً . فلطمها أبوها من شدة عبارتها ، وقال : يا عدوة نفسها ، وهل يقول إلا الحق ؟ . . فتألم النبي من ضربها وحال بينه وبينها ، وقال لأبى بكر : ما دعوناك لهذا ! . . وبعد قليل عاد الصفاء كاملا إلى دنيا الزوجين الطاهرين . . ولا عجب ولا غرابة فى ذلك ، فمحمد هو الذى يقول : « خيركم خيركم لأهله ، وأنا خيركم لأهلى » ويقول : « حبب إلى من دنياكم النساء والطيب وجعلت قرة عينى فى الصلاة » . ويقول : « اللهم كما أحسنت خلقى أحسن خلقى » .

يا أتباع محمد عليه السلام . . .

تذكروا وأنتم الرجال القادرون العقلاء أن الله يقول : « ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة ، إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون » . ويقول : « وعاشروهن بالمعروف »

ويقول رسوله عليه السلام : « اتقوا الله فى النساء » فإذا كنا قد نقرع أسماع النساء عشرات المرات بطلب الطاعة والخضوع لكم والائتمار بأمر الله فى حقوقكم ، فإن واجب القسطاس يدعونا أيضاً إلى تذكيركم بعدم الإسراف فى التحكم والبغى ، فليست المرأة عند الرجل الطاغية أثاثاً يقتنى ، أو متاعاً يشرى ويباع ، ولكنها إنسانة لها حقوقها وكرامتها بحكم الإسلام وحكم القرآن. فراقبوا الله واعدلوا مع النساء [ورفقاً بالقوارير] ، واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون . . .

اسس بناء الأسرة فى الاسلام

جعل الإسلام الأسرة هى اللبنة الأولى فى بناء المجتمع ، ونظر إلى الأسرة على أنها مجتمع صغير ، كما نظر إلى المجتمع على أنه أسرة كبرى ، وأحكم الإسلام العلاقة بين الأسرة والمجتمع ، كما أحكم العلاقة بين الفرد والمجموع ، فجعل الفرد فى خدمة المجموع ، والمجموع لحماية الفرد ، فقال القرآنالكريم: « إنما المؤمنون إخوة » وقال رسول الله عليه الصلاة والسلام : « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً » . وجعل الإسلام عماد الأسرة الزواج الذى ينشأ عن عقد تباركه يد الله عز وجل ، وتربط به بين الزوج والزوجة ، وتزكيه بروابط الألفة والمحبة ، فقال التنزيل المجيد : « وعن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة ، إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون » .

وقد وجهت شريعة الله إلى طائفة من التوجيهات التى تعاون على توطيد دعائم الأسرة وإسعاد أفرادها ، فدعا الإسلام الزوج إلى حسن الاختيار لزوجته وشريكة حياته ، فقال رسول الله : « تخيروا لنطفكم فإن العرق دساس » أى أحسنوا اختيار الزوجة الطاهرة الفاضلة ذات المنبت الكريم حتى يرث عنها أبناؤها الطهارة والفضيلة والتقوى ، وقد قال صلى الله عليه وسلم : إياكم وخضراء الدمن ، قالوا : وما خضراء الدمن يا رسول الله ؟ فقال : المرأة الجميلة فى المنبت السوء ، أى التى تخدع بجمالها وتسىء بأفعالها . وقال عليه الصلاة والسلام : « تنكح المرأة لأربع : لمالها ولجمالها ولحسبها ولدينها ، فاظفر بذات الدين تربت يداك » . والمرأة كذلك قد أعطاها الإسلام حق اختيارها لزوجها ، فلايجوز شرعاً إكراهها على من لا تقبله أو لا تريده .

وأوصى الإسلام الزوجين أن يتذكرا على الدوام أن حكمة الزواج فى شريعة الله عز وجل هى التعاون المثمر على مطالب الحياة ، مع المشاركة الوجدانية القائمة على المودة والرحمة ، والهونة لمتاعب العيش ، مع إرضاء غريزة الجنس بأسلوب مشروع كريم ، يرتضيه الدين الحنيف والعقل السليم والذوق الكريم ، مع إنجاب الذرية المناسبة الصالحة الطيبة فهذا هو نبى الله زكريا عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام تتقدم به السن ، ويبلغه الكبر ، وامرأته عاقر ، ولكنه يؤمن بقدرة الله على كل شىء ، ولذلك يدعو ربه أن يرزقه ذرية يرجو أن تكون طيبة خالصة من الآفات ، متحلية بجميل الصفات : «هنالك دعا زكريا ربه قال رب هب لى من لدنك ذرية طيبة إنك سميع الدعاء» وكذلك تحدث القرآن عن عباد الرحمن ، فكان من حديثه عنهم : « والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين واجعلنا للمتقين إماماً » . وإنما تكون الذرية قرة للعيون ، وسبباً للمسرة والبهجة ، إذا كانت سليمة فى حسها ونفسها ، قويمة فى سلوكها وحياتها ، آمنة فى بيئتها ودنياها ، وإلا كانت قذى فى العيون وهما فى النفوس .

وبناء الأسرة على الوجه السليم الرشيد ليس أمراً سهلا ، بل هو واجب جليل يحتاج إلى إعداد واستعداد ، كما أن الحياة الزوجية ليست لهواً ولا لعباً ، وليست مجرد تسلية أو استمتاع ، بل هى تبعات ومسئوليات وواجبات ، من تعرض لها دون صلاح أو قدرة كان جاهلا غافلا عن حكمة التشريع الإلهى ، ومن أساء استعمالها أو ضيع عامداً حقوقها استحق غضب الله وعقابه لأنه أحكم الحاكمين وأعدل العادلين : « إن الله لا يظلم مثقال ذرة » ، ولذلك ينبغى أن يكون الإنسان صالحاً لهذه الحياة ، قادراً على النهوض بتبعاتها ، ومن هنا يقول سيدنا رسول الله صلوات الله وسلامه عليه : « يا معشر الشباب ، من استطاع منكم الباءة (أى القدرة على مسئوليات الزواج) فليتزوج ، ومن

لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء » أى وقاية وحصانة ، والحق جلاجلاله يقول : « وليستعفف الذين لا يجدون نكاحاً حتى يغنيهم الله من فضله » .

وإذا كان الإسلام قد رفع مكانة الوالدين فى نظر الأبناء ، وجعل الإنسان إليهما فرضاً يأتى عقب عبادة الله جل جلاله ، فإن قد علم الآباء أن أولادهم أمانة بين أيديهم ، يجب عليهم أن يرعوها حق رعايتها ، وأن يصونها أفضل صيانتها ، ولا يليق بالوالدين أن يفرطا فى ذلك ، بل عليهما شرعاً تربية أولادهما ، وتعليمهم وحسن توجيههم وتنظيم شئونهم ، بل والادخار لهم بما ينفعهم بعد وفاة الوالد الراعى لهم ، ولذلك يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لأن تذر ورثتك أغنياء خير من أن تذرهم عالة يتكففون الناس » أى فقراء يسألون غيرهم المعونة والعطاء .

وليست العبرة فى نظر الإسلام أن يتكاثر عدد الأولاد ، فتتكاثر تبعاتهم بلا اقتدار أو إعداد ، بل الأهم من ذلك هو سلامتهم وقوتهم وحصانتهم واستقامتهم على طريق الخير والهدى ، ولا ينبغى أن ننسى هنا قول رسول الله عليه الصلاة والسلام : « المؤمن القوى خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف والقوة هنا تشمل قوة العقيدة ، وقوة الأخلاق ، وقوة الجسم ، وقوة الفهم ، ورب قلة صالحة مصلحة ، قوية سوية ، تكون خيراً من كثرة هزيلة عليلة ، والقرآن الكريم يشير إلى هذا حين يقول : « قل لا يستوى الخبيث والطيب ، ولو أعجبك كثرة الخبيث » ، ويقول أيضاً : « كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين » .

فليتذكر الفرد المسلم فى المجتمع المسلم أن من تكريم الله له أن يهيىء أمامه

الأسباب ليقيم دعائم أسرة يتكون منها ومن سواها ، المجتمع الفاضل العاقل العادل ، الذى يستحق عن جدارة ألوان التكريم الإلهى للإنسان مما يشير إليه قوله تعالى : «ولقد كرمنا بنى آدم ، وحملناهم فى البر والبحر ، ورزقناهم من الطيبات ، وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا » . فليحسن الإنسان دعم أسرته بأسباب القوة والعزة والحصانة ، وعلى الله قصد السبيل .

بنك لبن الأمهات

الحمد لله عز وجل هو الذى أعلى شأن الإنسان ، وتفضل عليه بالتكريم والإحسان ، « إن الله لذو فضل على الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون ». أشهد أن لا إله إلا الله ، زان العقل بالفكرة ، وأحيا القلب بالعبرة : « إن فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد » . وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، كان أتقى الأتقياء وأوفى الأوفياء ، فصلوات الله وسلامه عليه ، وعلى الطيبين من آله وذريته ، والسابقين من أنصاره وصحابته المستمسكين بدينه وملته ، أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

تردد فى بعض الصحف والمجالس أن هناك تفكيراً فى إنشاء بنك يسمى « بنك لبن الأمهات » تجمع فيه الألبان من الأمهات اللواتى يقبلن بيع ألبانهن لتعبأ فى زجاجات تستعمل فى إرضاع الأطفال الذين تشتغل أمهاتهم فى فى الوظائف والأعمال المختلفة . وهذا أمر يدعونا إلى مراجعة تعاليم الإسلام فى هذا المقام ، فالقرآن الكريم يذكر المحرمات على الإنسان فى الزواج ، ومن بينها قوله : « وأمهاتكم اللاتى أرضعنكم وأخواتكم من الرضاعة » . ويقول الرسول عليه الصلاة والسلام : « يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب » والفتوى الآن على أنه إذا اشترك اثنان فى خمس رضعات متفرقات مشبعات متيقنات فى زمن الرضاع صارا أخوين من الرضاع . وقد جعل الإسلام حرمة الرضاع كحرمة النسب فى الزواج لأمرين : الأول يتعلق بالناحية الجسمية أو الفسيولوجية ، فهو لا يريد أن يجعل الولدين المشتركين فى الرضاع مقترنين بالزواج عند كبرهما ، حتى لا يتعرضا لما يتعرض له

الأقرباء إذا وقع الزواج بينهم من ضعف الذرية ، ولذلك نهى الإسلام عن قصر الزواج فى دائرة القرابة القريبة ، وجاء الحديث النبوى الذى يقول : « اغتربوا ولا تضووا » أى تزوجوا العزائب دون القرائب ، فإن ولد الغريبة أنجب وأقوى من ولد القريبة ، ومعنى « لا تضووا » لا تأتوا بأولاد ضاوين ، أى ضعفاء نحفاء ، وجاء الحديث الآخر الذى يقول : « ولا تنكحوا القرابة القريبة ، فإن الولد يخلق ضاوياً » .

والحكمة الثانية هى إعطاء الأمومة والروابط الأسرية — ولو كانت ناشئة عمن طريق الرضاع — نصيبها من التوقير والتكريم ، فهذا طفل اجتمع مع طفلة على ثدى واحد ، وهو ثدى أمه مثلا ، فاعتبرهما الإسلام أخوين لسبب اشتراكهما فى لبن واحد جرى فى عروقهما ، أوثر فى لحمهما ودمهما وأعصابهما ، وهذه الأم للطفل من النسب صارت أماً للطفلة من الرضاع ، لأن هذه الطفلة لقمت ثدى هذه المرأة ، وشربت من لبنها وهو خلاصة ما فيها من أغذية وأعصاب ، واشترك معها الطفل فالتقى فمه مع فمها ، وصدره مع صدرها على قلب أم واحدة وحنان أم واحدة ، وهما فى وقت الطفولة القابلة للتأثر والتكيف ، وهما كالبراعم الفضة اللينة التى لم تتفتح بعد ، فالإسلام يعطى هذا الاشتراك نوعاً من التكريم والتقدير ، فيعد الفتى أخاً للفتاة ، ينبغى أن ينظر إليها نظرة فيها أخوة وترفع عن الصلة الجنسية التى تكون بين الذكر والأنثى ، ولذلك قال القرآن : « وأمهاتكم اللاتى أرضعنكم وأخواتكم من الرضاعة » ولم يقل : والنسوة اللاتى أرضعنكم والنبات اللاتى اشتركن معكم فى الرضاعة .

ونحن لا نعرف مدى الضرورة الملجئة إلى هذا المشروع ، ولكنا نخشى إذا تم وشاع بوساطته الإرضاع الصناعى الآلى أن يكون خطراً جديداً يضاف إلى الأخطار التى تتعرض لها الأسرة والأمومة والطفولة ، لأن المرأة بحكم

أوضاعها الاجتماعية المستحدثة أصبحت لا تبقى فى البيت إلا قليلا ، لأنها مشغولة بالوظيفة والعمل ، وقد تركت الأم المشغولة ذريتها من خلفها لا تجد الراعى الأمين ولا المربى الحنون ، وقد أرادوا معالجة ذلك ببيوت الحضانة التى تترك فيها الأم ولدها إلى أن تنتهى من عملها ، ولكن هذا لا يخلو من أخطار ، فالأمهات يتركن أولادهن حينئذ للخادمات الجاهلات أو الفاسدات ، أو إلى موظفات تؤدين عملهن أداء آلياً ، لأنهن لا يملكن حينئذ قلوب الأمهات ولا حنان الوالدات ، والرضاع المتكرر كل يوم لمدة عامين أساس هام لتأكيد العلاقة العاطفية بين الوالدة وابنها ، والأمومة غريزة محتاجة إلى ممارسة والتعبير عنها ، وإلا ضعفت وتقلصت ، وكيف تقوى الأمومة لدى والدة تلفظ ولدها من رحمها ، ثم تسلمه إلى يد خادمة أو موظفة لترعاه بطريقة آلية لا انفعال فيها ولا عاطفة ، ثم تأتى الوالدة آخر النهار متعبة منهوكة ، لا تجد من وقتها ولا من قوتها ما توثق به الرابطة بينها وبين ولدها ، وقد تلقى عليه نظرة أو تداعبه بكلمة أو تجود عليه بقبلة ، ولكن هذا كله سيكون فى حالة الإرهاق والتعب ، وهو لا يعوض بحال حنان الأم وهى تحمل طفلها وترضعه ومعنى هذا أن الأمومة والطفولة تتعرضان لتجربة قاسية إذا شاع هذا الإرضاع الصناعى هنا وهناك .

قد يقال إن الأم تحرض أحياناً أو تصاب بجفاف لبنها فتحتاج إلى إرضاع ولدها بلبن صناعى فلم نجيز هذا ؟ والجواب أن اللبن الصناعى غير لبن الأم فهو لا يعرض المشتركين فى شربه إلى حرمة فى التزاوج لحرمة النسب ثم إن هذه حالات فردية لا تصل إلى أن تكون قاعدة عامة أو أمراً شائعاً ، وفوق هذا فالأم التى ترضع ولدها بلبن صناعى بعذر أو ضرورة هى التى تتولى فى العادة عملية الرضاع ، فهى التى تعد اللبن وتطمئن إلى نظافته ، وهى التى تهيىء الزجاجة وتضمن طهارتها وهى التى ترضع الولد بنفسها ، وفى

الغالب تحتضنه إلى صدرها أو الزجاجة فى الرضاع بين ثدييها فكأنها تسقيه منهما ، فهناك إذن عوامل تعويض بخلاف ما لوجعلنا الرضاع عملية آلية تباشر فى غيبة الأمهات وعلى أيدى سواهن ، ألا رفقاً بالطفولة ورفقاً بالأمومة أيها الناس ، ولا تعرضوهما للمزيد من خطير التجارب .

وهناك بعد هذا مسألة بيع الأمهات لألباهن. إن المثل العربى القديم يقول : « تجوع الحرة ولا تأكل بثدييها » فالمرأة العربية الأصيلة ترى الاتجار بلبنها عيباً فاضحاً لا تقبل ارتكابه ، ولو أدى ذلك إلى أن تجوع . ومن واجبنا أن نتساءل : لماذا تضطر المرأة إلى بيع لبنها ؟ إنها تفعل ذلك لاحتياجها إلى ثمن هذا اللبن ، ومعنى هذا أنها فقيرة ، والفقر يصاحبه الضعف ، والضعف الصحى يصحبه اللبن ، فكأن إشاعة هذا النظام تؤدى إلى إشاعة استعمال الألبان الضعيفة ، والأم التى تبيع اللبن تفعل ذلك على حساب أطفال لها هم محتاجون إلى هذا اللبن وأولى به ، بل هم فى الغالب أشد احتياجاً إليه من غيرهم بحكم الفقر الذى يحيط بهم ، والذى جعل أمهم تبيع لبنها بدل أن ترضعه لفلذات كبدها ، فكأننا لو اتبعنا هذه الخطة سنجنى على الأم التى تبيع اللبن ، وعلى الأم التى ستشتريه ، سنجنى على الأم البائعة ، لأنها ستعرض أولادها للجوع والمرض ، وستحاول تقديم أكبر قدر ممكن من لبنها لتفوز بأكبر قدر ممكن من الثمن ، وفى هذا هدم لكيانها أو إضعاف لبنيانها ، وسنجنى على الأم المشترية ، لأننا بهذا سنجعلها إما صناعية ، ونحرمها متعة الأمومة الأصيلة التى تفيض بالشفقة والحنان . فرفقاً بالأمومة ورفقاً بالطفولة أيها الناس ! .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام :

إن موضوعاً كهذا ينبغى أن يبحث بحيطة وحذر ، وأن يعالج بحكمة وأناة ولقد سبق أن طلبت إحدى الصحف رأى الدين فى الموضوع فأجبتها بقدر

ما أعرفه من روح الإسلام ونزعته الإصلاحية ، ولكن الصحيفة حرفت الكلم عن مواضعه ، ونشرت الإجابة مبتورة مقلوبة ، وما زلنا نؤمن بأن موضوعاً كهذا يلزم أن تجتمع لبحثه طائفة من علماء الإسلام ورجال الإصلاح لكى تجمعوا بين الخضوع لدين الله تعالى وتحقيق الفائدة اللازمة للمجتمع ، والله يقول الحق وهو يهدى السبيل ، واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون ، إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون .

المراة فى حياة موسى

الحمد لله عز شأنه ، هو البارىء المصور ، المقدر المسيطر « تبارك الذى بيده الملك وهو على كل شىء قدير » أشهد أن لا إله إلا الله ، خلق الذكر والأنثى ، وشرع للآخرة والأولى ، وهو الولى الحميد ، وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، أنقذ البشرية وكرم الإنسانية ، فكان إمام المصلحين فصلوات الله وسلامه عليه وعلى آله الغر الميامين ، وصحابته المنصفين العاملين ومن اهتدى بهديه واستن بسنته إلى يوم الدين ، أولئك لهم عقبى الدار .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام :

يقول ربكم جل جلاله : « يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة ، وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيراً ونساء ، واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيباً » وهكذا خلق الله الإنسانية من رجل وامرأة ، وسوى بينهما فيما يقبل التسوية ، ولكن الرجل بظلمه أو جهله هضم المرأة فى كثير من العصور حقها ، وأنكر عليها شخصيتها ، وانحرف احياناً بها أو معها ، وجاء الإسلام فعدل وأنصف ، وأخذت المرأة فى ظلاله الكريمة الرحيمة تظهر بكرامتها ومكانتها ، ونحن نتذكر جيداً مكانة المرأة فى حياة خاتم الأنبياء محمد عليه الصلاة والسلام ، فهناك أمه التى حملت ، وحليمة التى أرضعت ورعت ، وخديجة التى شاركت ووفت ، وأسماء التى أعدت الطعام وشقت النطاق ، وجماعة بنات التجار التى رحبت واستقبلت ، وعائشة التى أحبت وأعزت ، عليهن رضوان الله عز وجل .

وحين نرجع إلى سير الأنبياء والمرسلين نجد للمرأة تاريخها الكريم المجيد ،

فى ظل الإيمان بالله والاتجاه إلى حماه ، وحسبنا فى مقاضاة هذا أن نستعرض ما كان للمرأة من أثر فى حياة كليم الله موسى عليه السلام ، وأول ملحظ لها نلمحه يتمثل فى « أم موسى » ، فقد قيل لفرعون المتكبر الجبار : إن مولوداً من بنى إسرائيل سيولد ، وسيكون على يديه إزالة ملكه ، فأبى فرعون إلا أن يهلك الألوف المؤلفة فى سبيل الإبقاء على ملكه وسلطانه ، وقرر بجبروته وطغيانه أن يقتل الذكور من المواليد ، وتحمل أم موسى بوليدها ، وكلما دنا موعد الميلاد زاد قلقها وخوفها ، فلما وضعته كان خوفها عليه أضعاف أضعاف فرحها بقدومه ، ولكن الله جل جلاله يلهمها بما يثبت فؤادها « وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه فإذا خفت عليه فألقيه فى اليم ولا تخافى ولا تحزنى إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين » . وتستجيب أم موسى الطاهرة الطيبة ، وتصنع لابنها صندوقاً وتلقيه فى ماء النهر ، وكأنها ألقت معه عقلها وقلبها ، فأصبح صدرها خالياً من الطمأنينة ، خالياً من الراحة والاستقرار ، ولولا أن الله سبحانه ربط على قلبها بالإيمان ، وشد عزمها باليقين ، لكشفت السر وأفسدت التدبير « وأصبح فؤاد أم موسى فارغاً إن كادت لتبدى به لولا أن ربطنا على قلبها لتكون من المؤمنين » ، ولم يكن أمامها من حيلة أو وسيلة بعد ذلك إلا أن تأمر ابنتها بمراقبة الصندوق من وراء ستار وقالت لأخته قصيه فبصرت به عن جنب وهم لا يشعرون » ، وهنا جاء واجب الأخت الشقيقة فى حياة موسى عليه السلام ، فأخذت تتابع الصندوق وبداخله الوليد ، تعلو به موجة وتنزل به أخرى ، وهو وهو لا يغيب عن لحظها ، وإن كانت لا تشعر أحداً أبداً بأنها تتابعه أو تلاحظه .

ويمضى الموج بالوليد الضعيف الرقيق داخل الصندوق حتى يبلغ قصر فرعون ويلتقطه أهله ، والأخت ترى وتنظر وترقى من بعيد ، وهم جبروت

البغى أن يعصف بالوليد الضعيف ، ولكن رب الأرباب ومهيء الأسباب يلقى فى قلب آسية زوجة فرعون فيضاً من الرحمة والرقة والحنان والانعطاف إلى هذا الرضيع الجديد« وقالت امرأة فرعون قرة عين لى ولك لا تقتلوه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً وهم لا يشعرون » « وحرمنا عليه المراضع من قبل » فترجو زوجها أن يبقى عليه ، ليله ينفعهم أو يتخذونه ولداً لهم ، وبعد لأى يستجيب الطاغية الجبار ، ولكن الطفل المحفوف بعناية الله يفاجئهم بأنه لا يقبل ثدى امرأة ليرضع ، برغم أنهم عرضوا عليه مختلف النساء ومختلف الأثداء ، وهنا تقبل الأخت فى مظهر الناصح الشفيق ، « فقالت هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم وهم له ناصحون » ؟ ففرحوا بذلك وطربوا له ، فقد صار هذا الوليد شغلهم الشاغل : وألقيت عليك محبة منى ولتصنع على عينى » فدلتهم الأخت على بيته وبيتها ، على أمه وأمها ، وهكذا تأبى عناية الله إلا أن يحمل آل فرعون بأيديهم موسى الوليد إلى أمه التى خافت عليه منهم . « فرددناه إلى أمه كى تقر عينها ولا تحزن ولتعلم أن وعد الله حق ولكن أكثرهم لا يعلمون » .

ويكبر موسى مع الأيام ، ويبلغ أشده ، وتضطره بعض الأحداث إلى الخروج من موطنه إلى مكان بعيد : إلى مدين ، وهناك وجد بئراً تجتمع حولها الرجال يسقى الدواب والأغنام ، ومن ورائهم فتاتان لا تستطيعان سقى أغنامهما لشدة الزحام ، فتتحرك رجوليته وفتوته ، ويسقى لهما بعزمه وقوته وأدبه ، وتلمح الفتاتان براءة الشاب الطهور ، وتعودان إلى أبيهما « شعيب » أو ابن عمه ، وتخبرانه بما حدث ، وتقول إحداهما قيل إن اسمها : صفيراء منوهة بقوته وفضلية وأمانته : « « يا أبت استأجره ، إن خير من استأجرت القوى الأمين » وتكون النتيجة أن يتزوج موسى من هذه الفتاة الحازمة ، وتشاركه

أعباء الارتحال والانتقال ومتاعب الحياة ، فتكون نعم الحليلة ونعم الشريكة وتعطى صورة أخرى من صور كفاح المرأة فى سير الأنبياء والمرسلين .

وتدور الأيام وتتوالى الأعوام، ويدعو موسى إلى ربه ، مؤيداً بالمعجزات والبراهين ، وتشهد آسية امرأة فرعون شواهد الحق والصدق من موسى عليه السلام ، فتؤمن به وتتابعه على الرغم من تهديد زوجها الطاغية ، وصبه ألوان العذاب والبلاء عليها ، وهنا يبدو موقف جديد من مواقف المرأة فى حياة كليم الله موسى عليه السلام ، يخلده القرآن حين يشير إلى إزهاق فرعون لحياة زوجته المؤمنة فيقول : « وضرب الله مثلا للذين آمنوا امرأة فرعون إذ قالت رب ابن لى عندك بيتاً فى الجنة ونجينى من فرعون وعمله ونجنى من القوم الظالمين » .

ثم تدور الأيام وتتوالى الأعوام ، ويشتد الصراع بين موسى وقارون الذى طغى وبغى بماله وكنوزه ، وحاول أن يتخلص ولو بأحط الوسائل وأخس الطرق من موسى ومكانته وزعامته ، فاتفق مع امرأة بغى على أن تتهم موسى أمام الناس بأنه راودها عن نفسها ، وارتكب معها الفاحشة ووعدها على ذلك مالا كثيراً ، ويتجمع الناس ويتبجح المجرم الأثيم ، ويتوقح الاتهام الدنىء ، وتقف المرأة لتقول كلمتها ، ويحس موسى بدقة الموقف وخطورته ، فيناشد المرأة بالله الذى خلقها ، وقدرته التى تحيط بها ، أن تقول الحق وتنطق بالصدق ، فيتزلزل كيان المرأة ، وتذكر ربها وسلطانه ، فتعترف بالحق ، وتقرر أن قارون هو الذى دفعها إلى هذا الافتراء ، ويحق الله الحق بكلماته ، ويكون عاقبة قارون : « فخسفنا به وبداره الأرض » .

قيل : جاء فى الحديث « أصدق النساء فراسة امرأتان تفرستا فى موسى

فأجابتا . إحداهما امرأة فرعون حين قالت قرة عينى لى ولك . والأخرى ابنة شعيب حين قالت يا ابت استأجره إن خير من استأجرت القوى الأمين .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام : إن المرأة حين تستقيم طبيعتها وتحيا فيها عقيدتها تمثل الأمومة بحنانها وعطفها كما فعلت أم موسى ، وتسارع إلى الانفعال والتأثر أكثر من الرجل ، كما فعلت آسية امرأة فرعون حين شاهدت موسى الرضيع ، وتتعب المرأة فى سبيل أخيها ، كما فعلت أخت موسى حين قصت أثره وأسهمت فى عودته إلى أمه ، وتدرك بسهولة وشرعة أمانة الرجل وأخلاقه كما فعلت بنت شعيب « إن خير من استأجرت القوى الأمين » ، وتضحى المرأة فى سبيل عقيدتها ولو بحياتها كما فعلت آسية امرأة فرعون فقد فضلت الموت على ترك الإيمان ، وتخاف المرأة وترتدع إذا ذكرت بخالقها وبارئها ، كما فعلت المرأة التى تآمر معها قارون ، فهل من سبيل لكى تعود المرأة فينا إلى صراط ربها العلى الكبير ؟

ما ذنب الأجنة فى البطون ؟ !

لك الحمد يا قويا لا يعجزه شيء فى الأرض ولا فى السماء ، وقديراً لا يستعصى عليه أمر أو قضاء ، ومبدعا يصور الأجنة فى الأرحام كيف يشاء ، نشهد أن لا إله إلا أنت ، لا شريك يعاونك ، ولا مليك يفاخرك ، أنت الأول والآخر ، والظاهر والباطن ، وأنت بكل شيء عليم ، ونشهد أن سيدنا ومولانا ، ونورنا وهدانا محمداً عبدك ورسولك ، عرف عظمتك فخضع لها خضوع المؤمنين العابدين ، لا خضوع الأذلاء المهينين ، وعرف رحمتك الواسعة فاستمد منها استمداد المقتصدين ، ولم يتكل عليها اتكال المسرفين المبطلين ، فصلواتك اللهم وسلامك عليه ، وعلى آله مصابيح الهدى ومشاعل الإيمان ، وأصحابه الذين رفعوا كلمة ربهم فى كل مكان ، وأتباعه الذين لا يزالون حتى قيام الساعة مناراً لكل إنسان ، أولئك الذين سعدت بذكر الله نفوسهم ، وسمت إلى الملأ الأعلى أرواحهم ، ألا بذكر الله تطمئن القلوب !

يا أتباع محمد عليه السلام . . .

هذا الإنسان صنعة الرحمن ، هو الذى خلقه من سلالة من طين ، ثم جعله نطفة فى قرار مكين ، ثم خلق النطفة علقة ، فجعلها مضغة ، فخلق المضغة عظاماً ، ثم كسا العظام لحماً ، ثم أنشأه خلقاً آخر فتبارك الله رب العالمين وتبارك الله أحسن الخالقين ، وما دام الإنسان عملا من أعمال الله الخالق الوهاب فهو إذن حرمه وحماه ، وملكه ومجتباه ، له مطلق التصرف فيه والتسلط عليه منذ كان فى عالم الذر ودنيا الغيب ، فأى عاقل عنده قليل من الإيمان ،

أو شعاع من نور الإسلام ، يفكر فى هدم ما بناه الله ، وتقويض ما شيده خالق الحياة ؟ ! :

ولكن القوم فى مصر – عفا الله عنهم ، وهداهم إلى سواء الصراط – أبوا إلا أن يكونوا آلهة يشاركون الله فى ملكه ، ويعترضون على قدره ، ويثورون على قضائه ، ويبادرونه بالحرب علناً ، مع أنه يقول : إن ينصركم الله فلا غالب لكم ، وإن يخذلكم فمن ذا الذى ينصركم من بعده ؟ . . . ولم يقتصر ذلك الطغيان على الرجال ، بل شمل النساء ، مع أنهن ضعيفات ذليلات من شأنهن جر الذيول ، وسفح الدموع ، وإبداء الخضوع فى مواطن الشدة والابتلاء . . ولعله قد جاءكم أن كثيراً من النساء اليوم يمددون أيديهن الآثمة المجرمة فيسقطن بها الأجنة من بطونهن ، وهن حاملات قريبات من يوم الوضع ، فيكتسبن بذلك غضب السماء ، وعقاب القانون ، ووخيم العاقبة فى النفس والبدن ، ويظهرن بمظهر شاذ لا يليق بأمة تؤمن بالرحمن ، وتعتز بشرعة القرآن .

ومن واجبنا هنا ألا نتجاهل الحقائق والوقائع ، بل يجب علينا أن نشخص العلة تشخيصاً دقيقاً ، ونتعرف أسبابها ، لنقطع جذورها من الأساس ، وبذلك يجدى الإصلاح ، فمن أسباب هذا التصرف أن الزوجين تنعدم بينهما فى الغالب الثقة ببقاء الحياة الزوجية إلى الأبد ، ويتربص كل منهما بأخيه الدوائر ، ويتوقع أن ينفصل عنه اليوم أو غداً ، والأولاد إذا جاءوا كانوا اتصال دائم من جهة ، وكانوا سبب خلاف وشقاق وشقاء من جهة أخرى ، وكل من الزوجين يريد أن ينطلق عند الفراق بعيداً عن شريكه لا يعود إليه مدى الحياة .

ومن أسباب إسقاط الحمل أن المرأة أصبحت تعتز اعتزازاً كبيراً

بشبابها وجمال جسمها ، واعتدال عودها ونضارة صباها ، وهى تعتقد أن الحمل والوضع ما يتبعهما من متاعب ومشاق سيؤثر فى هذا الجمال الريان والعود الفينان ، فلتذهب فلذات كبدها وقطع قلبها وسبب بقاء ذكرها إلى العدم ، ما دامت سترضى نفسها ، وتشبع شهواتها ، وتتمتع بشبابها ، وبعدها يكون الطوفان ! ! ويتبع هذا السبب سبب آخر ، وهو أن المرأة أصبحت غير مستقرة فى البيت ، وصارت لا تجد الوقت لإرضاع ابنها وتربيته وتقويمه وأين تجد هذا وخلفها مواعيد الهوى ورسل الغرام ؟ وأين تجد هذا ووراءها النادى والشاطىء والمسرح والسينما والملهى والمرقص وماخور الشراب ؟ ! .

ومن الأسباب أيضاً شعور الناس بانعدام العدالة الاجتماعية فى البيئة التى نعيش فيها ، فبينما يرون أناساً متخمين من كثرة المال والطعام والشراب ، يرون آخرين لا يجدون لبطونهم طعاماً ، ولا لأجسامهم ثياباً ولا لأولادهم قوتاً فينطلقون فى الشوارع يسرقون ، أو يلتقطون أعقاب اللفائف ، أو يستخدمون أنفسهم فى أقذر الأعمال ، والزوجان لا يريدان لأنفسهما أن يخرجا إلى الحياة أولاداً يكثرون حولهما ثم لا يجدان لهم ما يكفيهم أو يقضى لهم ما يريدون من مطالب وشئون ، وقد أدى الشعور بانعدام هذه العدالة الاجتماعية إلى جريمة دينية أخرى ، هى ضعف الثقة بالله العلى القدير ، فلو أن هؤلاء الناس حين فقدوا العدل بين البشر اتجهوا إلى ربهم وتوكلوا عليه ، ووثقوا بما وهبهم فى أنفسهم وعقولهم وأجسامهم من قوى وقدر ، واعتقدوا أنهم بفضل الله وعنايته سيحققون الآمال ويكسبون مكاسب الرجال ، ويزهقون ما نبت بينهم من ظلم وضلال وتذكروا قول خالقهم : « وفى أنفسكم أفلا تبصرون وفى السماء رزقكم وما توعدون ، فورب السماء والأرض إنه لحق مثل ما أنكم تنطقون » وقوله : « وما من دابة فى الأرض إلا على الله رزقها ، ويعلم مستقرها ومستودعها ، كل فى كتاب مبين » لو أن هؤلاء الناس عرفوا هذا وآمنوا به

واستجابوا له ، لكان لهم شأن غير هذا الشأن ، ولما جنوا على تلك الأجنة فى البطون دون أن ترتكب إثماً أو خطيئة . . .

هذه هى الأسباب التى دفعت الناس إلى ارتكاب تلك الجريمة ولا يستطيع القضاء على تلك الأسباب الزوجان وحدهما ، بل لا بد من تعاون الفرد والجماعة والراعى والراعية ، والحاكم والمحكومين للحيلولة دون انتشار هذه الجريمة التى لا نضمن وقوفها عند حد ، والتى تستغل أسوأ استغلال ، وذلك الإصلاح يكون بالتغلب على محرضاتها الاقتصادية والاجتماعية والنفسية ، وإذا أرادت المرأة أو أراد زوجها أن لا تكثر من النسل ، أو ألا تتعرض للحمل المتكرر ، فلهما فى غير هذا الإجرام مندوحة إذ يستطيعان أن يسلكا طريقاً غير هــذا مما لا يؤدى إلى مصيبة فى الدين والدنيا ، وذلك باتخاذ الحوائل الصناعية أو استعمال الدواء والعلاج حتى لا ينشب حمل عند الضرورة الداعية إلى ذلك ، أو الميل إلى العزل عند الوقاع ، أو ما شابه ذلك من الطرائق ، أما أن نقع فى المحذور ، وننتظر حتى تحمل المرأة ، ويتكون فى رحمها الجنين وتصبح فى عداد المنجبات اللواتى سيخرجن على المجتمع بخلق جديد ، ثم نحارب الله الجليل بهدم خلقته ، وتحطيم صناعته ، فذلك سبيل الأشرار ، ومأوى فاعله عذاب النار وبئس القرار ! . .

يا أتباع محمد عليه السلام . . .

إن الرجل منكم فى بيته راع وهو مسئول عن رعيته ، وإنكم ستحاسبون على تفريطكم فى تهذيب نسائكم ، فإذا ضلت إحداهن فإنما ضلالها عليكم لأنكم القوامون ولأنكم المرشدون ، فقولوا للمرأة الجاهلة الجريئة : إنك حين تمدين يدك الخبيثة الأثيمة لإسقاط الجنين من بطنك تهدمين ما بنى الله ، وتغترين بحلم الله ، وتجترئين على حماه ، وتمزقين صورة صورتها يداه ،

وأنت الأخرى صورة من صوره ، وإنه لقادر على أن يسلط عليك من يجعلك هباء منثوراً ، ولكنه شملك برحمته ، وخلقك فى أحسن تقويم ، وكرمك بين العالمين ، فلم تجترئين وتجرمين ؟ : « يا أيها الإنسان – كائناً من كان ، رجلا أو امرأة – ما غرك بربك الكريم الذى خلقك فسواك فعدلك ، فى أى صورة ما شاء ركبك ؟ كلا ، بل تكذبون بالدين وإن عليكم لحافظين ، كراماً كاتبين يعلمون ما تفعلون ، إن الأبرار لفى نعيم ، وإن الفجار لفى جحيم ، يصلونها يوم الدين ، وما هم عنها بغائبين ، وما أدراك ما يوم الدين ؟ ثم ما أدراك ما يوم الدين يوم لا تملك نفس لنفس شيئاً والأمر يومئذ لله » .

واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون ، إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون . . .

قال عليه الصلاة والسلام : « الكبائر سبع ، أعظمهن إشراك بالله ، وقتل النفس بغير حق » .

وقال عليه الصلاة والسلام يقول الله تعالى : « من لم يرض بقضائى ، ولم يصبر على بلائى ، فليختر له رباً سواى » .

أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم ، ادعوا الله وأنتم موقنون بالإجابة .

موقف المرأة المسلمة

لك الحمد يامن هديت الإنسان النجدين، وأضأت له السبيلين، إما شاكراً وإما كفوراً ، سبحانك سبحانك أنت العليم الحكيم ، وأنت الرءوف الرحيم ، سبقت رحمتك غضبك ، وعفوك عقابك ، وجعلت دينك سهلا ميسوراً ، فلم تكلف نفساً إلا وسعها ، ولم تطلب من امرىء إلا ما يطيقه ، ونشهد أن لا إله إلا أنت وحدك ، ونشهد أن محمداً عبدك ورسولك ، الذى جعلت أمته وسطاً ، لا إفراط فيها ولا تفريط وطالبتها بالخطة المثلى ، والطريقة العادلة (ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ، ولا تبسطها كل البسط ، فتقعد ملوماً محسوراً) فصلاتك اللهم وسلامك عليه وعلى آله السابقين إلى طاعة رب العالمين ، وصحابته المستمسكين بشرعه المبين ، وأتباعه الذين يهتدون فى كل أمورهم بهدى الدين أولئك الذين رضى الله عنهم ورضوا عنه ، وأولئك هم أولو الألباب .

أما بعد فيا أتباع محمد عليه السلام :

إن الله يحب من العبد إذا عمل عملا أن يتقنه ، وكذلك يحب منه إذا بحث فكرة أن يستقصيها ليعرف وجوه الصواب ووجوه الخطأ فيها وإذا استعرض أمراً أن يلم بجميع نواحيه حتى يكون على علم بجميع ما فيه . وقد شغلنا حديث المرأة المسلمة حيناً من الزمن ، فعرفنا كيف كانت فى الماضى ، وكيف احتفظت بعفتها وطهارتها وخدرها وحجابها ومع ذلك شاركت الرجال من وراء ستار فى إصلاح المجتمع وتطبيق الشريعة وإسعاد الحياة . ثم عرفنا كيف مرت على المرأة عصور من الضعف والانحلال ، تعرضت فيه لألوان من الجهل المطبق ، والسجن المقيت ، والانحطاط المشين ، والتأخر المزرى ،

ثم استعرضنا حاضرها اليوم ، ورأينا كيف أغراها فريق من الذين لا يتقون ربهم ، ولا يرقبون حسابه ، بالانطلاق والتحرر من كل قيود الدين والفضيلة وكيف كان هذا الفريق كبيراً فى عدده طاغياً فى دعوته ، مغرياً بأسلوبه وتزويره ، وكيف وقف على الجانب الآخر فئة قليلة تقسو فى الحكم ، وتتشدد بالخطاب ، وتحرم المرأة من كل شيء ، وتحاول أن تجعلها قطعة من الأثاث فى البيت لا ترى نور الحياة أبداً .

فما هو موقف المسلمة بين هؤلاء الذين يدعون إلى هذا التحرير المطلق وأولئك الذين يدعون إلى الجمود المطلق ؟ . . موقفها هو ما يمليه عليهاالقرآن والسنة والعقل الرشيد ، وهو أن تتخذ لها طريقاً وسطاً ، لا يميل إلى إفراط أو تفريط ، فتعرف أولا أن مكانها الطبيعى هو البيت ، وأنها لا تتركه إلا لضرورة ملحة ، ثم تحاول تهذيب نفسها وتطهير أخلاقها وتجميل ذاتها بآداب الإسلام ، ثم تطلب العلم الذى جعله الله فريضة عليها ، ولكن بطريقة سليمة عفيفة تنجيها من مزالق الهوى وتبعدها عن فتنة الشيطان ، ثم تشارك برأيها وأدبها وهديها فيما تصلح للتفكير فيه من الشئون ، وأمامها من وسائل التعبير والنصح التى لا تعرضها الاختلاط سيء أو تهتك مرذول الشيء الكثير ، ثم تفرغ همها كله بعد ذلك فى تنشئة الأطفال ومعونة الرجال واستثارة الأبطال ورعاية الأسرة ، ونشر السلام والرحمة والمحبة فى صفوف الأهل والأقارب ، وإحاطة المجتمع بسياج منيع من الطهارة والبراءة والكرامة والعفة ، وبذلك تكون المرأة مجاهدة فى سبيل الله ، عاملة بهدى الله ، فائزة برضوان الله ! .

ومن العجيب أن هذه الخطة المثلى قد اهتدى إليها شاعر بعيد عن الدراسات الدينية العميقة ، والبحوث الإسلامية الدقيقة ، ولكنه عرفها بتجاربه وخبرته ، فأدرك أن المرأة لن يصلح حالها إلا إذا اعتدلت وتوسطت ، فتعلمت وتهذبت ثم تطهرت وعفت ، فقال :

من لى بتربية النساء ، فإنها · في الشرق علة ذلك الإخفاق
الأم مدرسة إذا أعـددتها · أعددت شعباً طيب الأعراق
أنا لا أقول : دعوا النساء سوافراً · بين الرجال يجلن فى الأسواق
يدرجن حيث أردن ، لا من وازع · يحذرن رقبتـه ، ولا من واق
يفعلن أفعال الرجال لواهيـاً · عن واجبات نواعس الأحـداق
فى دورهن شئونهن كثيرة · كشئون رب السيف والمزراق
كلا ، ولا أدعوكم أن تسرفوا · فى الحجب والتضييق والإرهاق
ليست نساؤكم حلى وجواهراً · خوف الضياع تصان فى الأحقاق
ليست نساؤكم أثاثاً يقتـنى · فى الدور بين مخادع وطبـاق
فتوسطوا فى الحالتين وأنصفوا · فالشر فى التضييق والإطلاق
ربوا البنات على الفضيلة إنها · فى الموقفين لهن خير وثاق
وعليكم أن تستبين بنـاتكم · نور الهدى ، وعلى الحياء الباقى !

هكذا يا أتباع محمد عليه السلام يجب أن يكون موقف المرأة المسلمة لا تمنعها من مالها أو علمها أو أدبها ولا نحرمها من طيب إباحة الله لها ولا ننكر عليها حقاً من حقوقها ، ولكننا نريد لها أن تتسلح أولا وقبل كل شيء بسلاح الطهارة والعفة والكرامة والدين ، وأن تبتعد عن مزالق الفتنة ، وتحترس من خدع الشيطان ، فاتقوا الله فى نسائكم أيها الرجال ، وراقبوه كأنكم ترونه فإن لم تكونوا ترونه فإنه يراكم ويطلع عليكم ، واعملوا فالله يهدى العاملين ! .

أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم ، فالتائب من الذنب كمن لا ذنب له .

حول تعليم المرأة

إنه لجميل جداً أن تفكر ولاة الأمور فى هذه الأيام كما أخبرتنا الصحف والمجلات فى تعليم النساء فى المعاهد الدينية والكليات فإن المرأة كما يقول حافظ إذا أعددتها أعددت شعباً طيب الأعراق ، ولا يعنينا فى هذا المقام أن نلتمس الحوادث السابقة وأن نقول إن النساء طلبت العلم بالأزهر فى عهد فلان أو علان ، بقدر ما يعنينا أن نحرص على أن يكون هذا التعليم محققاً لما ترجوه للمرأة من تربية دينية صحيحة تهيئها لتنشئة الصغار وبعث همم الرجال وتعمير مملكة البيت ، وتفاصيل المناهج العلمية فى هذا الباب سهلة ميسورة على أهل الخبرة والاختصاص إلا أننى أتقدم ببضعة اقتراحات فى هذا الموضوع راجياً كل ذى علم به أن يدلى برأيه واقتراحاته حتى إذا ما أقبل ولاة الأمور على التنفيذ اتخذوا من هذه الآراء عصارة صالحة لتغذية هذا المشروع بالغذاء الصالح .

أولا لقد أصبح من البديهى أن الدين الإسلامى ممثلا فى تفاسير القرآن وشروح الحديث وكتب الفقه وغيرها قد دخله على مر الزمان وبفعل الأعداء اللئام والأصدقاء الجهلة كثيراً مما لا يتصل بصميم الدين أو حواشيه ولذلك يتحتم على القائمين بهذاالمشروع أن يتدبروا طويلا هذه الناحية وأن يحرصوا الحرص كله على أن يقدموا للمرأة شرابها الطهور من منبع الإسلام الصافى الذى لم يكدر بأخلاط أو أوشاب وإذا كان الرجال قد ذاقوا الأمرين من هذه الخرافات والأباطيل الإسرائيلية والأشياء الدخيلة على الدين فى الكتب والعلوم فما أجدر المرأة الضعيفة فى دينها وخلقتها والتى لا تصمد لنضال

أو كفاح والتى لا تصبر على تحقيق أو تمحيص أن تتجنب هذه السبل الملتوية الممتلئة بالأشواك والعقبات .

ثانياً : من الواجب على القائمين بهذه الفكرة أن يحسنوا اختيار الفتيات والسيدات اللواتى سيكن أساساً لهذا المعهد النسوى فقد عم البلاء وكثر الفساد وتلوثت المرأة المصرية بأوشاب وأوضار ، والفتاة الفاسدة لا تصلح أن تكون أساساً لمعهد دينى رفيع لأنها تحتاج إلى كثير من التقويم والتهذيب وقد تستطيع بمكرها ودهائها أن تهدم ما يبنيه هذا المعهد من أسس وتفوض ما يقيمه من بناء ، وظنى أنه لا تزال هناك أسر كريمة وعائلات محافظة نستطيع أن نجد فيها الخرائد التى لم تمتهن بعد ولم تتعرض لفساد أو انحلال .

ثالثاً : مما لا يحتاج إلى جدال أنه يجب أن تكون الأقسام التعليمية المخصصة للنساء مستقلة عن أقسام الطلاب الرجال فلا يكون اختلاط بين الجنسين وإلا فقل على الدين السلام فقد لقيت الأمة ما لقيت فى جراء اختلاط الفتيان بالفتيات فى الجامعة المصرية مما أدى إلى وقوع كثير من المآسى الخلقية التى اعترف بها كثيرون ، والتى دفعت أفراداً من أبناء الجامعة وبناتها إلى مهاجمة هذا الاختلاط بكتابة المقالات فى الصحف وإلقاء المحاضرات فى الأندية فلا عجب إذا طالبنا ولاة الأمور بألا يتصل تعليم البنات بتعليم البنين وخصوصاً من ناحية الاجتماع أو الاختلاط .

رابعاً : هناك مشكلة عويصة ستحتاج بذل كثير من المجهودات حتى يمكن التغلب عليها ، تلك هى مشكلة إيجاد المعلم الصالح والمدرس النافع فى هذه المعاهد النسوية إذا كان علماء الأزهر قد خبروا التدريس سنين طويلة فى معاهد الطلاب الذكور وأصبحوا يجيدون تلقينهم مختلف العلوم والمعارف فليت شعرى هل يستطيعون ذلك مع البنات هل يستطيعون تعليم النساء حسب

خطة تربوية خاصة تهدف إلى أكبر غرض تقوم عليه سلامة الأمة وعزتها ألا وهو تكوين المرأة تكويناً صالحاً يحفظها من الرياح والأعاصير ويمدها بكل ما يحتاج إليه من أسلحة ووسائل للحياة الإسلامية الراقية ؟ .

وسؤال آخر أيكون كل المدرسين فى هذه المعاهد من العلماء الرجال مع أن المرأة لها نفسيتها وغرائزها واستعداداتها التى لا تخبرها إلا امرأة مثلها ؟ وإذا كانت المرأة محتاجة إلى مرشدة لتهديها سواء السبيل فمن أين نأتى بهؤلاء المرشدات الصالحات وبناتنا كما تعلمون لم يجدن إلا وضع المساحيق ومرافقة الشبان وهندمة الثياب وتعمير حفلات الرقص والشراب ؟ .

من أين نأتى بمعلمة إسلامية صالحة والمتعلمات قد تلقين ضمن ما تلقين دروس الرقص التوقيعى فى المدارس وعلمهن النظام الفاسد أن يذهبن إلى دروسهن عاريات الرءوس حاسرات الأذرع لا تصل جلابيبهن إلى ركبهن إلى آخر هذه المخازى التى تعرفون منها الكثير .

قد نستطيع أن نتغلب على هذه المشكلة بوجه ما وهو أن ندقق فى اختيار طائفة من العلماء الذين عرفوا واشتهروا بالصلاح والتقوى والعلم والأدب والعزوف عن الحياة وحسن التصرف فى الأمور وإجادة التعليم والتهذيب كى يبدأ بتنشئة هؤلاء الفتيات على التقوى والعفة والأمانة وحسن الخلق ، فإذا ما تكونت منهن كتيبة إسلامية صالحة وكلنا إليها القيام على تهذيب الزميلات اللواتى سيلتحقن بالأقسام النسوية الدينية بعد ذلك .

وهنا تسترعى انتباهنا ناحية لابد من بها وهى ترغيب الفتيات أول الأمر فى الالتحاق بهذه الأقسام وذلك بأن تضع قانوناً يخول للمجيدات منهن أن يقمن بالتدريس فى معاهد البنات بمرتبات كافية وهنا تتسابق البنات إلى هذا الميدان التنافسى الذى سيكفل لهن المرتبة السامية والوظيفة المحترمة ولأننا

لو دعونا الفتيات إلى التعليم الديني دون أن نعدهن بنهاية طيبة مشرفة ومستقبل بسام لذلك التعليم ما استجابت منهن واحدة ولفضلت الفتاة أن تذهب إلى التعليم المدنى آملة أن تصبح فى يوم ما طبيبة أو محامية أو مدرسة .

خامساً : من الواجب علينا نحن الرعية أن نولى هذا الأمر جانباً كبيراً من اهتمامنا فنستحث ولاة الأمور على تنفيذه لإنقاذ ما يمكن إنقاذه من أعراض الأمة وكراماتها وأن نعيد بناتنا لاستقبال هذا المعهد المنتظر الذى نرجو أن أن يكون مباركاً ميموناً .

إن نكبة هذه الأمة فى أخلاقها وتقاليدها واستعبادها إنما جاءت عن جهل المرأة وتحللها وفسادها فقديماً قالوا المرأة التى تهز المهد بيمينها تهز العالم بشمالها وفى الأيام السالفة كانت المرأة المسلمة نموذجاً للعلم والأدب والكمال فقد رووا أن بنت سعيد ابن المسيب رضى الله عنه لما دخل بها زوجها وكان من تلاميذ أبيها وأصبح الصباح أخذ رداءه يريد الخروج فقالت له زوجه — إلى أين تريد ؟ فقال — إلى مجلس أبيك سعيد أتعلم العلم فقالت له — اجلس وأنا أعلمك علم سعيد كله .

وكذلك روى عن الإمام مالك رضى الله عنه أن طلبته كانوا يقرءون عليه الموطأ وكانت بنته تسمع قراءتهم وهى محتجبة وراء الباب فان لحن أحدهم فى حرف أو زاد أو نقص دقت ابنته الباب فيقول أبوها للقارىء — ارجع فقد غلطت فيرجع القارىء فيجد الغلط .

فأين نساؤنا الجاهلات الغافلات العابثات من هذا الكمال ؟ اللهم إنا نسألك أن تلحف هذه الأمة بغايتك وأن تحقق لها هذا الأمل حتى تنىء إلى هديك وتسير على صراطك المستقيم .

رفقا بالقوارير !!

يلوح لنا أننا نحن الرجال ، أو بعضنا بعبارة أدق ، قد أسرفنا إسرافاً كبيراً فى الحملة على المرأة ، فقد أثقلنا كاهلها بالمهاجمة الشديدة ، والانتقادات المرة ، والقذائف المهلكة التى أخذنا نلقيها عليها فى إصرار وتتابع ، كأننا نقاتل عدواً لئيماً خبيثاً ، تجرد من كل نزعات الخير ، واحتمل جميع بوائق الفتنة ، فاتّهمنا المرأة فى عقلها وأدبها ، وجسمها وعملها، وعرضها وأخلاقها وباطنها ومظهرها ، وثيابها وزينتها ، ورددنا مراراً وتكراراً أنها جرثومة البلاء وأس الشقاء دون سواها . . . وقل منا فى خطبنا أو مقالاتنا أو أحاديثنا أن نكون منصفين للمرأة ، فنذكر فضائلها بجوار عيوبها ، ونشير إلى حقوقها كما نستقصى واجباتها ، ونشجع رغبات الخير فى نفسها كما نجاهد مفاسد أخلاقها ، أو نأخذها بالحكمة والموعظة الحسنة ، وملاحظة ضعفها الذى يستلزم اللين والرحمة حتى تهتدى إلى الصواب ! !

ولقد كان من نتائج هذه الشدة الطاغية الظالمة الدائمة ،أن فقد أكثرنا صداقة المرأة ، وجعلوها تخاف منهم ، ولا تؤمن بهم ، ولا تستجيب لدعائهم ، ولا تصدق أحكامهم ، ولا تنزلق على مقترحاتهم . وكان من نتائجها أيضاً أن ظن بعض الناس بالمرأة الظنون ، فاعتبروها شيطاناً رجيما ومخلوقاً لئيما ، لا يستحق أن يعيش فى المجتمعات ، بل الأولى به نيران السعير . وتحت تأثير هذه العقيدة الضالة أخذ هؤلاء الرجال يعاملون نساءهم الضعيفات كمعاملاتهم للحيوانات فلا رحمة ولا شفقة ، ولا تعاطف ولا تآلف ، بل قسوة وغلظة ، وتبجح وفظاظة ، وإعراض ونفور ، وسوء ظن وعدم وتقدير .

فكان لزاماً على المؤمن المستبصر أن يذكر الجاهل الغافل ، ويرشد الحائر

الضال ، حتى ننصف هؤلاء النسوة المظلومات ، فيتقى الله فيهن ، ويعاملهن كما أمر الإسلام ، وبذلك نقوى جانب الخير المودع فى صدورهن ، ونخفف من طغيان الشر المستكن لديهن ، ورحم الله عبداً لزم سواء السبيل ، وباعد بينه وبين الإفراط والتفريط .

لقد كان من آيات الله الكبرى ، وعلامات رحمته العظمى ، أن خلق لنا من أنفسنا أزواجاً لنسكن إليها ، وجعل بيننا وبينهن مودة ورحمة ، وسبباً متيناً ، وميثاقاً غليظاً ، وكان من حكمة الله فى نظام الاجتماع أن جعل الرجال قوامين على النساء ، والقوامة تكليف يقتضى أخلاقاً تناسبها ، وواجبات لابد من القيام بها ، فهى ليست مطلق سيادة استبدادية للقوى على الضعيف ، فإن الله لا يرضيه ذلك ، بل جعل لهن مثل الذى عليهن بالمعروف ، وأمرنا أن نعاملهن بالإحسان ، وأن نخاطبهن باللين الطيب من الكلام ، وحذرنا من الاعتداء عليهن ، ولو كنا كارهين لهن ، فقال القرآن الكريم : « وعاشروهن بالمعروف ، فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً » .

وليس حسن الخلق مع المرأة أن نكف الأذى عنها فحسب ، ولكن بأن نبالغ فى ترضيتها وتطييب خاطرها ، فنحتمل أذاها ، ونغفر إساءتها ، ونعفو عن زلتها ، ونقودها نحو الصلاح برفق واصطبار . ورحم الله الحسن البصرى حينما سأله الناس قائلا : إن لى بنية فمن ترى أن أزوجها ؟ فقال : زوجها ممن يتقى الله ، فإن أحبها أكرمها ، وإن أبغضها لم يظلمها .

ولقد كانت نساء النبي صلوات الله عليه يراجعنه فى الكلام ويهجرنه ويخاصمنه ، فلا يثور ولا يغضب ، بل يحتمل ذلك منهن صابراً كريماً ، وقد حدث بينه وبين عائشة خصام ذات يوم فحكما بينهما أباها أبا بكر الصديق

رضى الله عنه . فقال لها النبى : تتكلمين أو أتكلم ؟ فقالت وهى غضبى : بل تكلم ولا تقل إلا حقاً ! فلطمها أبو بكر على وجهها فأسال الدم من فمها ، وقال يا عدوة نفسها ! وهل يقول غير الحق ! فدفعه النبى عنها وحماها وراء ظهره ، وقال لأبى بكر : ما دعوناك لهذا ، ولا أردنا منك هذا ! .

ويخطىء كثير من الرجال خطأ فاحشاً حينما يظنون أن تدليل المرأة فى البيت ، وخضوع الرجل أمامها ولو فى الأمور الهينة التى لا تمس رأياً ولا عقيدة ، يعتبر ضعفاً منه وسيطرة لها عليه ، فنراهم يصرون على أن تكون كلمتهم هى الأولى والأخيرة ، ورأيهم هو الذى لا يعارض ولا يؤخر ، ويجعلون المرأة فى كل الشئون كالخشبة المسندة أو المتاع المهمل ، لا تشترك فى مشاورة ، ولا تحكم فى أمر ، ليس هذا من القوة أو الرجولة الصحيحة فى شىء ، فالعزيمة والصرامة والقوة إنما تظهر خارج البيت فى جهاد الحياة ومقارعة الأيام .

وأما البيت فيتطلب من الرجل أن يكون فيه هيناً ليناً ، يألف ويؤلف ، والكريم من غلبه أهله داخل بيته لسماحته ومروءته ، وغلب الرجال خارج بيته لبطولته وزعامته ، فقد قال صعصعة لمعاوية : يا أمير المؤمنين ! كيف ننسبك إلى العقل وقد غلب عليك نصف إنسان ؟ (يريد غلبة امرأته فاختة عليه) . فقال معاوية : يا هذا ، إنهن يغلبن الكرام ، ويغلبهن اللئام !

ومن الواجب على الزوج أيضاً أن يقوم لزوجته بكل ما تحتاج إليه من نفقة كافية وثياب واقية ، ومأكل ومشرب ، ومسكن وفراش ، فإن الإنفاق على الزوجة مقدم على كثير من وجوه البر والإنفاق ، فقد قال صلوات الله عليه : « دينار أنفقته فى سبيل الله ، ودينار أنفقته فى رقبة ، ودينار أنفقته

على مسكين ، ودينار أنفقته على أهلك ، أعظمها أجراً الذى أنفقته على أهلك ! » .

ويجب أن يعاملها بما يليق بشريكة حياته ، ومدبرة شئونه ، وألا يسرف فى الغيرة عليها ، أو يتسقط عيوبها ، فقد نهى النبى صلى الله عليه وسلم عن تتبع عورات النساء ، وأمر الرجل ألا يطرق زوجته ليلا إذا كان غائباً يطلب بذلك عثراتها ، فإن ذلك من شيمة المستريب الخؤون .

ومن الواجب على الزوج أن يخلص زوجته من ظلمات الجهل ، فيعرفها الحلال والحرام ، ويبصرها بواجباتها نحو الله والناس ، فذلك أمر العلى القدير : « يأيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم ناراً » . والوقاية من النار لا تكون إلا بفعل الحسنات واجتناب السيئات ! !

فإذا ما شاءت المقادير أن تحين ساعة الفراق بين الزوج وزوجته ، كان واجباً على الرجل أن يظهر بمظهر النبل والكرامة ، فلا يسىء إلى زوجته ، ولا ينسى سابق عهده معها ، ولا يهضم حقاً من حقوقها باعتداء ، والله قد أمرنا فى محكم تنزيله بأن نعامل المرأة معاملة الأشراف النبلاء فى حالتى الاجتماع والافتراق : « فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان » .

ولله در الرسول الكريم حينما يقول : « استوصوا بالنساء خيراً » فلم يكتف بأن يوصى الرجل بحسن معاملة النساء وتقديم الخير والبر إليهن ، بل أمر أن يوصى كل منا أخاه فى مختلف الظروف والمناسبات بأن يحسن إلى نسائه ويحتمل أذاهن .

يا معشر الرجال ! هذا قليل من كثير يجب علينا نحو النساء ، فإذا كنا قد طالبنا المرأة مرات ومرات بأن تؤدى ما عليها من واجبات ، وأطلنا

فى الشكوى منها والتنديد بها والحملة عليها ، فما أجدرنا أن نذكر بجوار ذلك أننا أيضاً لم نؤد إليهن حقوقهن كما رسم الإسلام ، فكيف نتصح ولا ننتصح؟ وكيف نحمل المرأة وحدها التبعة فى شقائنا وبلائنا ، مع أن لنا يداً فى الخطيئة والإهمال ؟ يا قومنا : « إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى ، وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى ، يعظكم لعلكم تذكرون » .

مرحى ... النساء ملائكة

لك الحمد يا ناصر المؤمنين ، ومعز الموقنين ، ومؤيد الصادقين وخاذل الفاسقين ، وداحر المفسدين ومبطل كيد الكافرين ، سبحانك سبحانك ، حذرت وأنذرت ، وأمهلت وما أهملت ، وإن أخذك لقوى شديد ، ونشهد أن لا إله إلا أنت ، هديت الإنسان النجدين إما شاكراً وإما كفوراً ، ونشهد أن محمداً عبدك ورسولك ، الذى حذرنا من الفتن ، وحببنا فى العمل الحسن ، وأخرجنا بهديك من الظلمات إلى النور ، فعليه صلاتك وسلامك ، وتحياتك وبركاتك ، وعلى آله الغر الميامين ، وصحابته السابقين ، وأتباعه المحسنين ، أولئك حزب الله ، وحزب الله هم الغالبون .

يا أتباع محمد عليه السلام :

مشكلة المشكلات فى عالمنا اليوم هى مشكلة المرأة ، لأنها قلب المجتمع وأساسه ، وركنه وعماده ، وروحه وفؤاده ، منها يولد الطفل وعلى يديها يتعلم لأول مرة فى حياته ، وعلى غرار أخلاقها وطباعها ينشأ ، وإذا كان رسول الإسلام عليه الصلاة والسلام يقول : « ألا إن فى الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله ، وإذا فسدت فسد الجسد كله ، ألا وهى القلب » فإنه ليحق لنا تأسياً بذلك الهدى النبوى القويم أن نقول : ألا وإن فى المجتمع مضغة إذا صلحت صلح المجتمع كله ، وإذا فسدت فسد المجتمع كله ، ألا وهى المرأة ! . .

ونشهد أن المرأة كانت بالأمس أحسن حالا وأطيب أعمالا وأكرم مآلا منها اليوم ، فقد كانت بالأمس عفيفة حيية مخدرة ، تسر صاحبها إذا نظر إليها ، وتطيعه إذا أمرها . وتحفظه فى عرضها وماله إذا غاب عنها ، أما

اليوم فقد سفرت وفجرت . ثم تهتكت وتعرت ، ثم زاحمت ونافست ، ثم تاجرت بلحمها وعرضها فى الملاهى والمراقص والمواخير والشواطىء ، وغيرها من أعشاش الرذيلة وأوكار الضلال ! . .

وتلك حال تستدعى البحث والتدبير ، والعلاج والتطبيب ، والأخذ بالحسم الحازم ، والإصلاح الفاصل ، حتى تنقذ الأمة من الكارثة العظمى التى ستصيبها حتماً إذا ما ظلت المرأة على ما هى فيه من غى وطغيان ، وفساد بهتان ، وقد كنا نود من كبارنا وأدبائنا ومفكرينا والذين يدعون الإصلاح الاجتماعى فينا أن يعطوا هذه المشكلة حقها من العناية والرعاية فيصارحوا المرأة بحقيقة رسالتها فى الحياة ، ويبصروها بمغبة اندفاعها الوخيمة ويقصروها عند حدودها التى شرعتها لها الأديان وطبيعة الحياة ، ففى المرأة أمهاتنا وأخواتنا وزوجاتنا وبناتنا . وكل أولئك عزيز علينا ، ولكن الذى حدث — مع الأسف العميق والحزن البليغ — أن كثيراً من الذين لم يقيدوا أنفسهم بقيود الإسلام ، ولم يلتزموا حدود الإيمان ولم يتربوا تربية دينية ، ولم ينبتوا نباتاً حسناً ، أخذوا يزينون للمرأة التمرد والعصيان والفسوق والطغيان تارة باسم السفور ، وتارة باسم الحرية ، وتارة باسم النهضة الاجتماعية وتارة بمشاركة الرجل فى بناء الوطن الجديد ، إلى غير ذلك من الدعوات البراقة والعبارات المزورة والهتافات المدخولة التى حركت فى المرأة عواطف الغرور والتبجح ، فرأيناها فى ميادين اللهو والعبث تفعل المنكرات وتأتى السيئات ، وأدهى من ذلك وأنكى أننا نرى بعض الشباب العابثين يؤلف عن نساء اليوم كتاباً يسميه « ملائكة » ويحشو هذا الكتاب الخليع بالصور الفاحشة ومناظر النساء الداعرة ويكشف عن مفاتن للمرأة فى الشباب أحط الغرائز وأخطر العواطف الجسدية ، وأخبث النزعات الشيطانية ، ويتحدث الشاب ثم يتحدث عن المرأة ، فلا يصارحها فى وضوح وجلاء بكلمة الدين القوية الساطعة فى النساء ، بل يلف

ويدور ، ويخادع ويمالىء ، فيزيد الطين بلة ، ويضعف ضغثا إلى إبالة ، وما ذلك إلا لأننا نعيش فى وطن متحلل منحل ، انعدمت فيه الرقابة الأدبية والغيرة الأخلاقية ، فليكتب من شاء ما شاء ، وليفعل من شاء ما شاء ، فباب الحرية مفتوح للجميع ! ! .

قد يتوهم بعض الأغرار أننا نضمر عدواناً للمرأة ، أو نحمل عليها ، أو نسيء إليها بمثل هذا ، والله يشهد وهو خير الشاهدين ، أننا نضمر لهـــا الخير ، ونتمنى لها السعادة والهناء ، ولنا بين النساء أمهات وأخوات عزيزات ونحن دعاة إصلاح ، وما نريد إلا أن تكون المرأة سيدة بمعنى الكلمة تنشىء الأطفال وترعى الرجال وتحفز همم الأبطال ، وتشرف على مملكة البيت الكبرى فتديرها ببراعة وإتقان ، بعد أن تكون قد تسلحت بأسلحة العلم الصحيح ، والخلق الكريم ، والعفة الصادقة .

نحن نحترم المرأة الصالحة الكاملة لأنها عنوان على عظمة المرأة وسموها ، ونشفق على المرأة الحائرة ونخاف أن تنزلق إلى مهاو تسيء إلى كرامتها وعفتها ، ونرثى للمرأة المنحدرة التى تلوثت ، ونتمنى لها من صميم قلوبنا أن تعود إلى رحاب الإسلام لتتطهر ، والله يحب المطهرين ، والله غفور رحيم ، فما فكرنا يوماً أن نحتقر المرأة أو نحمل لها عداوة ، ولكنها نصيحة المجرب ، وكلمـــة الإسلام ، وهدى السماء ، وقول رب العالمين . فليتعاون الرجال مع النساء على إصلاح هذه الحال ، وليأخذوا بيد من حديد على أيدى أولئك المفسدين الناشرين للجرائم ، وليذكروا الله ربهم الذى يحاسبهم على الفتيل والقطمير ، والكثير والصغير ، « فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ، ومن يعمل مثقـــال ذرة شراً يره » . واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون ، إن الله مع الذين اتقوا ، والذين هم محسنون .

قال عليه الصلاة والسلام : الدنيا كلها متاع ، وخير متاعها المرأة الصالحة .

رسالة المرأة اليوم

لك الحمد يا من جعلت الحق حقاً ، مهما قل متبعوه ، وجعلت الباطل باطلا ، مهما كثر مشايعوه وهتفت بالمسلمين قائلا وقولك الحق : « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون » . سبحانك سبحانك ، كسوت الكون بجمالك ، وزينته بجلالك . وعمرته بقدرتك ، وحفظته بسلطانك ، نشهد أن لا إله إلا أنت وحدك ، نصير المؤمنين الصادقين وخاذل الفاسقين والمبطلين ، نشهد أن محمداً عبدك ورسولك الذى سلك صراطك المستقيم فلم يتركه لحظة من اللحظات ، وأوفى بعهده معك حتى الممات فعليه منك الصلاة والسلام ، وعلى آله وحزبه ، وذريته وصحبه ، أولئك الذين هدى الله ، فبهداهم اقتداه ، وأولئك هم أولوا الألباب .

يا أتباع محمد عليه السلام :

مشكلة المشكلات اليوم فى حياتنا الاجتماعية هى المرأة ، لأنها قلب هذا هذا المجتمع ، والقلب مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله ، وإذا فسدت فسد الجسد كله ، ولو أننا وفقنا إلى إصلاح المرأة ، وإعانتها على أداء رسالتها الحقة لسعدنا وسعد نساؤنا وأبناؤنا أمة القرآن حقاً ، تلك الأمة التى جعلها الله وسطاً ، وجعلها خير أمة أخرجت للناس . وكثير من المتحررين اليوم يدعون المرأة إلى السفور والاختلاط ، ومشاركة الرجال فى سائر أعمالهم ، حتى ما كان منها عنيفاً وشاقاً . ويلتمسون لذلك شواهد ودلائل قد يبالغون فى تأويلها ، أو يخطئون فى فهمها أو يذهبون بها غير مذاهبها ، ومن أمثلة ذلك أنهم يقولون للمرأة المعاصرة : يجب أن تخرجى إلى القتال والجهاد من أجل

فلسطين لأن المرأة كانت فى الصدر الأول تحارب مع السلف الصالح رضوان الله عليهم أجمعين . . .

ونحن نعرف أن المرأة حقيقة جاهدت مع الرسول فى بعض الغزوات وأدت للمجاهدين بعض الخدمات ، ونقرأ فى السيرة مثلا أن أم أيمن كانت يوم أحد تسقى الجيش ، ولما فر بعض المقاتلين جعلت تحثو فى وجهه التراب وتقول له : « هاك المغزل فاغزل به ، وهلم سيفك أعطنى إياه لأقاتل به » . ونقرأ فى مسلم عن أنس بن مالك أنه قال : « رأيت عائشة بنت أبى بكر وأم سليم لمشمرتان تنقلان القرب على ظهورهما ثم تفرغانها فى أفواه الجرجى ، ثم ترجعان فتملآنها ، ثم تجيئان تفرغانها »! . . ونقرأ أن أم عطية غزت مع الرسول سبع غزوات تحرس الخيام وتصنع الطعام ، وتداوى الجرحى وتقوم على المرضى ، وأن أم عمارة دافعت عن الرسول يوم أحد حتى قال فيها النبى : « ما التفت يميناً ولا شمالا يوم أحد إلا رأيتها تقاتل دونى » ! . . .

نحن نعرف هذا ونقرؤه فى سيرة رسولنا عليه السلام والصلاة ولكن القوم اليوم يتخذون أمثال هذه الشواهد ذريعة لفتح الباب على مصراعيه ، فيغرون المرأة بأن تسابق الرجل وتنافسه فى كل ميدان حتى ولو لم تدع ضرورة ماسة إلى ذلك ، مع أن هذه الشواهد قد كانت لها مسبباتها ومناسباتها وضروراتها ، فقد كان الإسلام فى أول أمره يجاهد جهاداً عنيفاً لتثبيت دعائمه بين الناس ، ونشر لوائه فى الوجود ، وكانت كتيبة الإسلام الأولى تتعرض دائماً للأخطار المفاجئة والزحوف العامة ، وكانت الضرورة تدعو إلى أن يقوم النساء ببعض الواجبات التى لا تتنافى مع كرامتهن وأعراضهن المستورة وعفتهن المصونة ، وكان المسلمون لا يفكرون فى الاستعانة بالنساء فى الحروب يوم يرون من الرجال كثرة تغنيهم عن الاستنجاد بالمستضعفات من النساء ، ولذلك روى أن أم سليم كانت زوجها أبى طلحة فى غزوة حنين ، وهى

حازمة وسطها ببرد لها ، وفى حزامها خنجر ، وكانت حاملا بإبنها عبد الله ، فقال لها زوجها أما هذا الخنجر معك يا أم سليم ؟ . قالت إن دنا منى أحد من المشركين بعجته به ! ! . فقال أبو طلحة — للرسول ، ألا تسمع يا رسول الله ما تقول أم سليم ؟ فأعادت عليه القول ، فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يضحك ويقول لها : « قد كفى الله يا أم سليم » . وفى هذه العبارة المحمدية الأخيرة البليغة فصل الخطاب ، فمن الواجب أن لا يفكر فى الاستعانة بالنساء فى مثل هذه الشئون العامة إلا يوم يعجز الرجال أو يتعرضون لزحف عام أو خطر داهم ! ! .

ومن الواجب أن نطبق هذه القاعدة اليوم فيما يتعلق بواجب الرجال والنساء ، فالواقع ينادى بأن الرجال لم يؤدوا واجبهم ولم يجربوا حظهم فى الدفاع عن بلاده وأوطانهم المستباحة ، ولو أنهم فعلوا وصدقوا النية فى ذلك لكان فيهم الكفاية والغناء ، فنحن لا نغلب فى رجالنا عن قلة ، ولكننا نغلب عن ذلق وضعف وهوان. . .ويوم يعجز رجالنا عن حماية أوطانهم ويتعرضون لخطر مؤكد سنفكر فى الاستعانة بالنساء فى الصفوف الخلفية من ميادين القتال ، فليربع على أنفسهم أولئك الذين يفتحون المجال واسعاً أمام المرأة بلا حدود . . .

واجب المرأة اليوم هو تنشئة الأطفال وتربية الأولاد وإدارة مملكة البيت وبث العزيمة فى نفوس الرجال والجهاد الأدبى والاجتماعى لإنشاء الجيل الجديد ، فتلك رسالة عظيمة لو نهضت بها المرأة لكانت سيدة الوجود ، واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون ، إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون . أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم فالتائب من الذنب كمن لا ذنب له ! .

الدعوة الى الاسلام

الحمد لله عز وجل ، له دعوة الحق ، وكلمة الصدق ، « ومن أصدق من الله قيلا » . أشهد أن لا إله إلا الله ، هو « عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال » . وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، أعزه ربه بالرسالة ، وشرفه بالدعوة ، فقال له : « إنما أنت منذر ، ولكل قوم هاد » . فصلوات الله وسلامه عليه ، وعلى آله السابقين إلى الهدى ، وأصحابه المتجملين بالتقى ، وأتباعه دعاة الحق بين الورى : « ومن أحسن قولا ممن دعا إلى الله وعمل صالحاً وقال : إننى من المسلمين » ؟ . .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

من عيوب المسلمين الواضحة الفاضحة أنهم فقدوا فى الفترة الأخيرة من تاريخهم روح الدعوة إلى الله ، وسنة التبشير الحكيم البصير بدينهم الذى استقام عليه أمر الدنيا ، وخرج به الناس من الظلمات إلى النور ، وبسبب ذلك التقصير جهل الكثير من المسلمين مبادىء دينهم وتعاليم شريعتهم ، وانكمش نطاق التعريف بالإسلام وتقلص ، فأصبح الكثيرون من أبناء الدنيا فى الشرق والغرب لا يعرفون شيئاً ذا بال عن عظمة الإسلام وحكمته ونعمته على الناس بل هناك ما هو أكثر من ذلك شراء ، وهو أنهم يسيئون تصور الإسلام ويجورون فى الحكم عليه ، بسبب الأضاليل المفتراة التى يختلقها ويبثها أعداء الإسلام فى كل مكان ، دون تصحيح لما أورد عليها من أهل الملة السمحة الغراء ولقد انكمشت العظة الدينية والدعوة الإسلامية بين أبناء الإسلام ، فأصبحوا لا يعنون بها ولا يفكرون فيها ، وصارت هذه الدعوة الدينية شبه مقصورة على المسجد يوم الجمعة أو فى المناسبات القليلة ، وهى تؤدى فى الغالب بروح

الوظيفة لا بروح الدعوة ، وشتان بين رجل محترف يقوم بالعمل لأنه مكلف به ، ورجل داعية تأخذه الغيرة على دين الله وتعاليمه ، فهو يحرص فى إخلاص وصدق على أن يوطد دعائم هذا الدين بكل ما استطاع من وسائل ، لأن رسوله يهتف به قائلا : « لأن يهدى الله بك رجلا واحداً خير لك من حمر النعم » ! . .

ولقد وكل الله سبحانه إلى هذه الأمة حمل أمانة كبرى هى أن تظل مثابرة على الدعوة إلى الخير والمجاهدة للشر ، وأن تظل حارسة لرسالة السماء الخالدة التى تنزلت من لدن الحق تبارك وتعالى على رسوله محمد صلى الله عليه وسلم ، وهو يشير إلى ذلك فيقول : « ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون » ويقول : « كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله » .

وبهذا التكليف شرف الله هذه الأمة ورفع مكانتها ، لأن الدعوة إليه هى وظيفة الأنبياء ، والأنبياء هم صفوة الخلق وأعلى نماذج البشر ، وهـذا يوسف عليه السلام لم تشغله آلام السجن عن الدعوة إلى ربه والتذكير بحقه ، فهو يقول لصاحبه هناك فيما يقول : « يا صاحبى السجن ، أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار » . وماذا كان عمل محمد شيخ الأنبياء وإمام المرسلين دنياه ؟ . إنما كان الداعية الأكبر بين الناس ، لأن ربه كلفه بذلك فقال له فى قرآنه أكثر من مرة : « وادع إلى ربك » وقال له : « قل هذه سبيلى أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعنى وسبحان الله وما أنا من المشركين » وقال له أيضاً : « وإنك لتدعوهم إلى صراط مستقيم » ، وأصر محمد إصراراً عجيباً على الاستمرار فى الدعوة مهما ناله بسببها من إيذاء أو ضراء ، وحسبنا أن نسمعه يعبر عن ذلك لعمه فيقول له : « والله يا عم لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الأمر ما تركته حتى يظهره الله

أو أهلك دونه » . بل لقد وصف الله تبارك وتعالى نفسه بوصف الدعوة إلى الخير فقال : « والله يدعو إلى دار السلام ويهدى من يشاء إلى صراط مستقيم »

ولقد رفع الإسلام من مكانة الدعاة إليه والمذكرين به والمنادين إلى سبيله فقال الرسول صلوات الله عليه : « كلمة من الخير يسمعها المؤمن فيعمل بها ويعلمها خير له من عبادة سنة » وقال : على خلفائى رحمة الله . قيل : ومن هم خلفاؤك يا رسول الله ؟ قال : الذين يحيون سنتى ويعلمونها عباد الله » وجعل الداعى إلى الخير كالذى يعمله ويقوم به فقال : « الدال على الخير كفاعله » ، وحينما استجاب المسلمون الأولون لهذا التحريض النبوى الكريم استطاعوا أن يفعلوا الكثير والكثير لإنقاذ البشرية وإسعادها ، فمن الذين أزالوا المآثم والمظالم من ربوع العالم ؟ . ومن الذين نشروا الإسلام فى سهوب آسيا ومجاهل أفريقيا وأرجاء أوربا ؟ ومن الذين بثوا لغة القرآن — اللغة العربية — فى المشارق والمغارب حتى نسخت لغات وأزالت لهجات ؟ . . إنهم الدعاة إلى الله وإلى الإسلام ، انتشروا فى الأرض كما ينتشر النور فى أحشاء الظلمات فيبددها ويجلوها ، وأخلصوا العمل لله ، وآثروا وأما عنده على ما عند الناس فسكبوا للإسلام جنوداً وأنصاراً ، وكان كل منهم يرى نفسه أسعد الخلق يوم يوفقه ربه لإدخال شخص فى دين الإسلام وتوثيق الروابط بينه وبين أشقائه المسلمين . . .

وبهذه الدعوة المستمرة إلى الله ، وبهذا التبشير الدائم بالإسلام ، استبانت الفروض والواجبات ، وذاع المعروف والخير ، وتضعضع جانب المنكر والشر ، وأحس كل من تحدثه نفسه بإثم أن من بين يديه ومن خلفه من يقول له حسبك ، لقد أثمت ، فتجنب إثمك ، واستقم على طريق الله . . . أما اليوم فقد أنبهت الحدود القائمة بين الحلال والحرام ، وبين الفضيلة والرذيلة ، وبين الخير والشر ، وانهدمت قاعدة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ،

وصار المنكر يرتكب فى دنيا المسلمين بمختلف ألوانه جهاراً نهاراً ، ويأتيه الآلاف والملايين ، وليس هناك من ينكره بيده أو بلسانه أو بقلبه ، مع أن الرسول يقول : « من رأى منكم منكراً فليغيره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه ، وذلك أضعف الإيمان » وصار الذى يقدم على تذكير أو استنكار يوصف بأنه جامد متخلف وبأنه ، لا يراعى قواعد الذوق ولا آداب الاجتماع بالناس . . . وأين اليوم التبشير بالإيمان عن طريق الحكمة والموعظة الحسنة وهؤلاء هم أهل الأديان الأخرى يتنافسون فى التبشير بها ، وهؤلاء هم الرهبان يتوغلون فى السهول أو الأدغال والمجاهل ، تمدهم حكوماتهم وهيئاتهم الدينية بالمال والكتب والأدوية والوسائل المغرية ، ويستغلون هذا التبشير الدينى فى تحقيق أهداف سياسية وأغراض استعمارية وكيد سافر أو مستور للعروبة والإسلام ؟ ومعاذ الله أن ننسى هنا جهود أفراد بذلوا الكثير من أموالهم وجهودهم ويجب أن يكونوا قدوة لغيرهم وليت أغنياء المسلمين يقتدون بهذا ، وينفق كل منهم بعض ما لديه فى سبيل الإسلام والمسلمين . . . ولست أدرى لماذا لا يخصص المسلم لنفسه جزءاً من جهده ووقته يحتسبه فى سبيل الدعوة إلى الله ، فيقول نصيحة ، أو يكتب مقالة ، أو ينشر كتاباً ، أو يرحل رحلة ، أو يفعل مثلما يفعله بعض أشقائنا المسلمين فى الهند وباكستان ، فما زال هناك دعاة يرحلون ويبشرون بالإسلام هنا وهناك محتسبين ذلك لوجه الله جل جلاله ، ومع حاجة هؤلاء إلى توجيه وتنسيق ، ويؤدون أعمالا وجهوداً لا بأس بها فى هذا المجال ، وما لا يدرك كله لا يترك كله ، والقليل مع القليل كثير .

يا أتباع محمد عليه السلام ....

هل لنا فى هذا اليوم المبارك ، وهذه الساعة المشهودة التى نرجو أن تكون ساعة إنابة وإجابة ، أن نتعاهد على أن يبذل كل شيئاً من وقته وجهده فى

سبيل دينه وعقيدته ، بكلمة يقولها ، أو توجيه يقوم به ، أو أية معاونة يشارك بها فى نشر الإسلام وإعزاز المسلمين ، وهل لمن أوسع الله له فى دنياه وفيما آتاه أن يبسط أياديه وجهوده فى سبيل هذا الإسلام الذى صار غريباً بين الناس وهل لكل منا أن يحاسب نفسه حين يصنع جنبه على فراشه مسائلا لها : ماذا قدمت من أجل الإسلام ؟ وكيف تتجنبين التقصير فى حقه غداً ؟ . . وبهذه المراجعة والعمل بمقتضاها يسير أخلاف على منهج أسلاف الأمس ، فيصلح أمر هذه الأمة كما أمر أولها ، وسبحان من لو شاء لهدانا جميعاً إلى سواء السبيل . . .

الاسلام وخطة العمل

الحمد لله تبارك وتعالى هو صاحب الفضل والطول ، يدبر الأمور ، ويهدى الصدور ، وهو العلى الكبير أحمده سبحانه وأشهد أن لا إله إلا الله القائل : « إنما يتذكر أولو الألباب » . وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله المأمور من ربه بقوله : « قل هذه سبيلى أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعنى وسبحان الله وما أنا من المشركين ، فصلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وصحبه ، وجنوده وحزبه ، ومن تزكى فإنما يتزكى لنفسه وإلى الله المصير »

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلا :

من عادة الأمم المناضلة والشعوب المجاهدة أن تتوقف فى مسيرتها بين الحين والحين ، تقرأ كتابها ، وتراجع حسابها ، وتقوم ماضيها ، وتتبين حاضرها ، وترسم خطة عملها فى مستقبلها ، حيث تتعاهد مع قادتها على ملامح الطرق وكيفية المسير ، ولقد جرت عادة المسلمين منذ أشرقت شمس الإسلام على أن يقدم الخليفة أو الراعى ولى الأمر إلى الأمة منهاجاً مركزاً يضمنه طريقته وخطته ، حتى تضع الأمة أيديها فى يده ، وتجعل أفئدتها وعزائمها من حوله ، ويمضى الجميع إلى الإمام فى ظل قوله تعالى : « إنما المؤمنون إخوة » وقول الرسول صلوات الله وسلامه عليه : « يد الله مع الجماعة » . ولعلنا نتذكر تلك الخطبة الجامعة الموجزة التى شرح فيها الصديق أبو بكر خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم الخطة التى سيسير عليها فى قيادته للأمة حيث قال : « أيها الناس إنى وليت عليكم ولست بخيركم ، فإن رأيتمونى على حق فعاونونى ، وإن رأيتمونى على باطل فقومونى . القوى فيكم ضعيف عندى حتى آخذ الحق منه ، والضعيف فيكم قوى عندى حتى آخذ الحق له ، أطيعونى ما أطعت الله

فيكم ، فإذا عصيته فلا طاعة لى عليكم ، أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم » .

وأساس خطة العمل الفردى أو الجماعى فى الإسلام هو أن يوازن الإنسان بين حسه ونفسه ، أو بين جسده وروحه ، أو بين أولاه وأخراه ، أو بين حاضره ومستقبله ، حتى يحس الإعداد والاستعداد ، ويمضى فى الطريق هدى وبصيرة ، متذكراً ذلك الأثر الإسلامى الحكيم : « اعمل لدنياك كأنك يعيش أبداً ، وأعمل لآخرتك كأنك تموت غداً » ، وإذا كانت شئون الدنيا تحتاج إلى طاقات وإمكانيات ، وإلى علم وعمل ، وإلى خبرة وتدريب ، وإلى استثمار وإنتاج ، فإن شئون الروح تحتاج إلى إيمان ويقين ، وتعتمد على عقيدة وهدى ، ، ولعل القرآن الكريم قد رمز إلى هذا التوازن اللازم حين قال : « وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ، ولا تنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله إليك ولا تبغ الفساد فى الأرض إن الله لا يحب المفسدين » .
وحين تتبصر الأمة فى خطة عملها هذه الحقيقة الأساسية الواجبة ، تشرع فى مسيرتها ، كل فى مكانه ، وكل فى نطاق عمله ، وكل فى مجال تخصصه وخبرته ، وكل على ثغرة من ثغرات المجتمع يحوطها ويرعاها وينهض بشئونها ولذلك قال سيد الخلق محمد عليه الصلاة والسلام : « كلكم راع ، وكل راع مسئول عن رعيته » . ولكى ينهض هذا الراعى أياً كان بواجبه النهوض المثمر لابد له من صفتين أساسيتين تنبثق منهما صفات ونضائل أخرى ، وهما القوة والأمانة ، ومن هنا جاء فى القرآن الكريم قول الحق الحكيم : « إن خير من استأجرت القوى الأمين » وكل إنسان يلى أى عمل من أعمال الأمة — كبر أو صغر — فهو خادم لأمته ، يسمع منها ويستجيب لها ويتقيد منها ويستجيب لها ويتقيد بأمرها ولا يتعدى مصالحها ، ويؤدى واجبه نحوها فى قوة وأمانة ، وحتى توافرت القوة والأمانة كان هناك ضمان أكيد لأداء

العمل – أياً كان – بإتقان وإحسان ، وبذلك تحقق محبة الله للعباد ، فيمن عليهم بنصره وتوفيقه ، والرسول يقول : « إن الله يحب من أحدكم إذا عمل عملا أن يتقنه » . وكان هناك ضمان أكيد للاستمرار فى العمل المنتج والمواصلة للجهد الكريم ، لأن الرسول يقول : « أحب الأعمال إلى الله أدومها وإن قل » .

والقرآن الكريم يرشدنا إلى أن الرابطة بين القائد المخطط ، والأمة المنفذة ، تحت لواء القرآن الهادى إلى الحق وإلى صراط مستقيم يجب أن تكون علاقة أخوية قائمة على الرحمة واللين من جهة ، وعلى المشورة وتبادل الرأى من جهة ثانية ، وعلى صدق العزيمة وقوة الإرادة من جهة أخرى ، يقول الحق جل شأنه لرسوله : « فبما رحمة من الله لنت لهم ، ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك ، فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم فى الأمر ، فإذا عزمت فتوكل على الله إن الله يحب المتوكلين » ، ومن وراء هذه الثقة المتبادلة بين القائد والرعية التى أوجب الله عليه رعايتها ، سيكون هناك وضع الرجل المناسب فى مكانه المناسب ، وكما يمكن أن كل ذى حق من حقه ، يمكن كل مختص أو خبير من مجال اختصاصه وخبرته ، وهذا يستلزم اختيار الأكفاء ، والاستعانة بالشرفاء ، ولنتذكر هنا قول سيدنا رسول الله عليه الصلاة ، والسلام : « أيما رجل استعمل رجلا على عشرة من الناس يعلم أن فى العشرة أفضل ممن استعمل فقد غش الله ورسوله ، وغش جماعة المسلمين » .

وإذا كان من واجب ولى الأمر أن يسهر ويتعب ويشقى بولايته الناس حتى يذكر مثل قول عمر : « لو عثرت دابة بشط الفرات لخشيت أن أسأل عنها يوم القيامة : لماذا لم أمهد لها الطريق » فإن من واجب الأمة أن تخلص لقائدها الأمين ، وأن تعاونه قدر طاقتها بالعمل والقول ، وأن تسمع له وتطيع فى حدود ما شرع الله ، فقد قال رسول الله : « السمع والطاعة حق ، ما لم يؤمر بمعصية ، فإذا أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة » . ومن واجب الأمة

كذلك أن تصون كرامة وليها العطوف عليها ، فقد قال الرسول كذلك : « ليس منا من لم يوقر كبيرنا ، ولم يرحم صغيرنا » ولنجعل نصب أعيننا أن التعمير هو الذى يفتح الباب للتثمير ، وأن التثمير هو الذى يجعل للمجتمع الحق فى أن يستوفى من الأفراد القادرين ما يستطيع به أن يحقق الخدمات والآمال ، ولذلك يقول الإمام على للاشتر النخعى حينما ولاه على مصر : « وليكن نظرك فى عمارة الأرض أبلغ من نظرك فى استجلاب الخراج ، لأن ذلك لا يدرك إلا بالعمارة ، ومن طلب الخراج بغير عمارة أخرب البلاد وأهلك العباد » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام : لقد وضح الطريق ، والعزم موفور فلنبدأ المسير ، ولنحذر معاطب الطريق ، ولنسأل الله التوفيق ، ولنتذكر قول الله لنبيه : « فاستقم كما أمرت ومن تاب معك ولا تطغوا إنه بما تعملون بصير . . » أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم .

الاسلام بين التربية والتعليم

الحمد لله عز وجل ، ينظر إلى الأعمال قبل الأقوال ، وإلى القلوب قبل الأشكال : « إن فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد ». أشهد أن لا إله إلا الله ، طالب بتطهير النفس قبل تطهير الحس : « ونفس وما سواها ، فألهمها فجورها وتقواها ، قد أفلح من زكاها ، وقد خاب من دساها » وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، أدبه ربه فأحسن تأديبه ، فكان متمماً لمكارم الأخلاق ، فصلوات الله وسلامه عليه ، وعلى آله وصحبه ، وجنوده وحزبه : « ومن يعتصم بالله فقد هدى إلى صراط مستقيم » .

يا أتباع محمد عليه السلام :

هناك فرق واضح بين التربية والتعليم ، فالتعليم تلقين وحشد للمعلومات فى الذهن غالباً ، وأما التربية فهى توجيه وتهذيب وتدريب ، والتعليم يتجه أول ما يتجه إلى العقل والذاكرة ، والتربية تتجه أول ما تتجه إلى النفس والروح ، بل نستطيع أن نقول إن التعليم يهدف إلى أن يخرج لنا علماء ذوى معرفة ، وأما التربية فتهدف إلى أن تخرج لنا مهذبين أصحاب أخلاق . والتربية والتعليم متلازمان ، لأن التعليم بلا تربية لا فائدة منه ولا ضمان له ، والتربية من غير علم لا تتحقق على وجهها المطلوب ، والناظر فى مناهجنا الدراسية فى بلادنا الإسلامية بصورة عامة يراها تعليمية أكثر منها تربوية ، ولا جدال فى أن العلم هو إدراك الشىء على حقيقته ، وهذه مرتبة أولى ضرورية لابد منها ، كما أنه لابد مما تليها وهى مرتبة استخدام ذلك الشىء المدرك على حقيقة فيما يرتفع به الإنسان حساً ونفساً ، ومادة وروحاً : « فأنت بالروح لا بالجسم إنسان » . وأكاد أفهم أن من أسس مهمة الإسلام فى الحياة أن يخلق من

الإنسان ذلك « الشخص الربانى » ، الذى « يرب » نفسه بالعلم والخلق ، يربيها ويصلح أمرها ويقوم عوجها ، ومن هنا نسب إلى الإمام على رضى الله عنه أنه قال : « أنا ربانى هذه الأمة » وفسروا الربانى بأنه العالم الراسخ فى العلم والدين ، الذى يطلب بعلمه وجه ربه ، وقيل إنه العالم العامل المعلم ، فهذه الكلمة لا تفيد كثرة العلم فقط ، بل تفيد معها حسن الانتفاع بذلك العلم فى تأديب النفس وتهذيبها ، ووصل أسبابها بقيوم السموات والأرض سبحانه ، ولو أن أهل الإسلام صاروا حقيقة ربانيين بالمعنى الصحيح كما يريد لهم ربهم ودينهم ورسولهم وقرآنهم ، لأصبحوا سراج الدنيا ، وصلاح العالم وقوام الحياة .

ولو أننا نظرنا نظرة الدارس الفاحص فى القرآن الكريم — دستور الإسلام العظيم — لوجدنا أن عناية بالتربية والأخلاق أكثر من اهتمامه بالعلوم والمعارف بل وأكثر من اهتمامه بالتشريعات المادية ، وذلك لأن النفوس إذا تربت وتهذبت وصلحت لم تحتج إلى كثير تشريع ، ومدار الأمر كله على استقامة تلك اللطيفة الربانية والجوهرة الإلهية التى أودعها الله تعالى صدر الإنسان ، وهى « القلب » ، وما أبلغ رسول الله عليه صلوات الله حين أشار إلى هـــذا المعنى الدقيق الجليل فقال : « ألا وإن فى الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله ، وإذا فسدت فسد الجسد كله ، ألا وهى القلب » » . ولقد ذكرت مادة « الرب » فى القرآن الكريم ما يقرب من ألف مرة ، ونلمح من ذلك رمزاً عميقاً يرمز إلى قيمة التربية وجلالها ، لأن كلمة « الرب » فى أصلها تفيد معنى التربية — كما يقول أهل اللغة — هى إنشاء الشىء حالا فحالا إلى حد الكمال ، وقد أطلقت كلمة « الرب » على الله جل علاه لأنه متولى

شئون عباده ، وكافل مصالحهم ، ومربيهم طوراً بعد طور ، وموجههم إلى سبل الخير والسعادة .

ونحن لا ننسى أن مادة « العلم » الرامزة إلى جلال التعليم قد كثر ورودها فى القرآن كذلك ، ولكن شأن التربية أهم من شأن العلم إذا تناظرا ، وبخاصة إذا لاحظنا أن التربية تستلزم العلم ، على حين قد يوجد العلم بدونها ولننظر على المثال إلى الآيات الأولى نزولا من كتاب الله ، فسنجد فيها إشارات لطيفة إلى قيمة التربية وخطرها ، فالله تعالى يقول فيها : « اقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الإنسان من علق . اقرأ وربك الأكرم ، الذى علم بالقلم ، علم الإنسان ما لم يعلم ، كلا إن الإنسان ليطغى ، أن رآه استغنى ، إن إلى ربك الرجعى » . فقد بدأ الله تعالى تنزيله المجيد بقوله : « اقرأ » ، والقراءة كما تكون وسيلة للتعليم قد تكون وسيلة للتربية ، فإذا كان المقروء يزيد المدركات فهذا نوع من التعليم ، وإذا كان المقروء واعظاً زاجراً فهذا نوع من التربية . ثم قال : « باسم ربك » وهنا توجيه إلى التربية ، أى اقرأ مستعيناً باسم ربك ، ومفتتحاً به ، ولاشك أن استحضار جلال الله ، والاستعانة به ، والتذكير لبركته ، ألوان من التربية والتهذيب ، وكلمة « ربك » هذه فيها تذكير بالمربى الأعظم لعباده ، والموجه الحكيم لهم إلى مقاصد الخير والبر . ثم قال تعالى : « الذى خلق » ، وتذكر الخلق الإلهى ، وما فيه من عجيب الصنع وبديع التكوين ، لون من ألوان العظة والتربية والتوجيه . ثم قال : « خلق الإنسان من علق » . وخلق الإنسان المبصر العاقل من هذه المادة الضئيلة القليلة فيه ما فيه من الدلالة على قدرة الخالق وكمال عظمته ، واستحضار هذه المعانى فى نفس التالى أو السامع يوجه من غير شك إلى التربية والتقويم .

ثم قال : « اقرأ وربك الأكرم » أى الزائد فى الكرم على كل كريم ، فإنه ينعم بلا غرض ، ويعطى بلا طلب ، ويحلم من غير عجز . وهو الكريم

وحده فى الحقيقة والواقع ، وإذا تذكر المرء هذا كان عاملا من عوامل التربية لنفسه ، والتهذيب لخلقه ، لأن تقواه لذلك الخالق العظيم ستزداد ، ومتى زادت التقوى كملت التربية وتم التهذيب . ثم أراد الله سبحانه — وهو أعلم بمراده — أن يعطى العلم والتعليم نصيبها ، بعد هذه الإشارات إلى جلال التربية ، فقال : « الذى علم بالقلم » . وما كاد ينوه بشأن العلم هذا التنويه حتى وصل به تنويهاً لطيفاً بشأن التربية حين قال : « علم الإنسان ما لم يعلم » بأن نصب له الدلائل ، وبسط أمامه الآيات ، وأمده بما يعجز عن الوصول إليه ، وفى هذا تذكير بفضل الله عليه ، وحين يتذكر المرء فضل الله عليه حق التذكر يتعظ ويعتبر ، وهذا نوع من التربية والتهذيب . ثم يقول الله تعالى بعد ذلك : « كلا ، إن الإنسان ليطغى ، أن رآه استغنى ، إن إلى ربك الرجعى » . وهذه عودة ظاهرة إلى التنبيه على شأن التربية ، فإن من تدبر فى طغيان الإنسان عند استغنائه ، وفى ذلة واستخذائه حين افتقاره ، ومن تذكر أن الرجوع إلى الله وحده ، وأن الملك يومئذ له ظاهراً وباطناً « وعرضوا على ربك صفا لقد جئتمونا كما خلقناكم أول مرة . بل زعمتم أن لن نجعل لكم موعداً » . من تذكر هذا خاف وارتدع وتورع ،والخوف والارتداع والورع من أقوى عوامل التربية والتهذيب .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام :

إننا بحاجة إلى مزيد من التربية والأخلاق قبل حاجتنا إلى مزيد من العلم والمعرفة ، فما أشد خطر العلم بلا أخلاق ، فاطلبوا من العلم ما شئتم ، وابلغوا فيه ما استطعتم ، ولكن تذكروا دائماً وأبداً أنه لا قيمة لهذا العلم إذا لم يكن ضابط من الأخلاق ، بل إن هذا العلم وحده ينقلب إلى عوامل تخريب وأسباب تدمير ، فتعلموا وتقدموا : « واتقوا الله ويعلمكم الله ، والله بكل شىء عليم » أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم ، سلوا ربكم التوفيق يستجب لكم .

صدق الايمان

الحمد كل الحمد لله تبارك وتعالى ، وأشهد أن لا إله إلا الله ، هو ولى النعمة ومصدر الرحمة : « إن رحمة الله قريب من المحسنين » . وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، نبي الرحمة ، وقائد الملحمة : « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين » . وأصلى وأسلم على جميع أنبياء الله ورسله ، وعلى خاتمهم سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه ، وأتباعه وأحبابه ، ومن دعا بدعوته بإحسان إلى يوم الدين ، وأستفتح بالذى هو خير : « ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا ، وإليك المصير » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام :

إن أقوى درع يتحصن به الإنسان فى هذا الوجود هو حصن الإيمان الصادق الراسخ ، لأن الإنسان بلا إيمان لا يعلوا كثيراً عن مستوى الأنعام والدواب ، فكل همه أن يأكل ويشرب ، وأن يلهو ويلعب ، وأن يرضى غرائزه ويستديم لذائذه ، ولو كان فيها الإفساد لحسه ونفسه ، أو لروحه وعقله ، بلا إيمان لا تعتقد فى بداية كريمة له ، ولا يؤمن برسالة قدسية يلتزمها فى مسيرته ، ولا يؤمن بحياة أخرى فيها خالد الثواب لمن أحسن ، وأليم العقاب لمن أساء . وأما صاحب الإيمان الوطيد فإنه يوقن بأن بدايته كانت من نور الرحمن الذى خلق أباه الأول بيديه ، ونفخ فيه من روحه ، وأن له رسالة علوية تقوم بها فى حياته ، ويبذل من أجلها كل ما يستطيع : « وأحسن كما أحسن الله إليك ، ولا تبغ الفساد فى الأرض ، إن الله لا يحب المفسدين » . وأن له لقاء مع ربه ، يحاسبه فيه على ما قدمت يداه : « فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره » ، « أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وأنكم إلينا ترجعون » .

وليس الإيمان مجرد استسلام ظاهرى ، أو مجرد اتباع صورى ، أو ترديداً لألفاظ وكلمات ، بل الإيمان اعتقاد وتصديق فى العقل والجنان ، يترجم عنه اللسان بصادق البيان ، ثم يحول الإنسان هذا الاعتقاد إلى جهاد يصبر عليه صاحبه حتى النصر أو الاستشهاد ، ثم يظل الإنسان لقيمه ومبادئه صادق الوفاء والفداء ، ولذلك يقول الحق جل جلاله : « إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ، ثم لم يرتابوا ، وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله ، أولئك هم الصادقون » وكأن القرآن المجيد يريد أن يقول لنا إن المؤمنين الصادقين فى إيمانهم لا يكونون إلا بهذه الصفات ، فهم يعتقدون فى الله خالقاً ورازقاً ، ويطيعونه ويعبدونه رباً ومالكاً ، وهم يصدقون رسوله محمداً صلى الله عليه وسلم فى كل ما جاء به وبلغه عن ربه ، وهم يوقنون بدين الله عز وجل ، ويرون فيه الدواء والشفاء والغذاء والضياء ، ولذلك يقول المصطفى صلوات الله وسلامه عليه ، « ذاق طعم الإيمان من رضى بالله رباً ، وبالإسلام ديناً ، وبمحمد رسولا » .

وهؤلاء المؤمنون المصدقون ثابتون على إيمانهم . مستقرون على يقينهم : « ثم لم يرتابوا » أى لم يشكو ولم يترددوا ولم يتلونوا ، بل وفوا وثبتوا وقد عرفوا منهجهم ، وحددوا خطتهم ، وسلكوا طريقهم ، وتمسكوا على الدوام بمبادئهم ، ولم يتنكروا لها ولم يبعدوا عنها ، لأنهم مؤمنون بأنها الحق : « فماذا بعد الحق إلا الضلال » ؟ . ولقد تتقلب على المؤمن الأحوال ، وقد تصيبه المكاره ، أو يتعرض لألوان من الاختبار والابتلاء ، مما يدعوا الضعفاء إلى التلون أو التغير أو الفرار من تبعات الإيمان ، ولكن أهل اليقين يظلون على طريق الوفاء والفداء سائرون ثابتين ، حتى يلقوا ربهم وهم على الحق المبين ، وبذلك يستحقون الثواب الجليل : « إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التى كنتم

توعدون » . ومتى ذاق القلب حلاوة الإيمان ، وملأ الصدر نور اليقين ، اندفع الإنسان بكل ما يستطيع ليحقق هذا الإيمان الداخلى فى عمل طيب صالح خارجى ، بالكلمة واليد والمال والروح : « وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله » فهم يبذلون أموالهم وأرواحهم فى طاعة الله ومرضاته ، ووجوه الطاعات كثيرة منها طاعات بدنية ، ومنها طاعات مالية ، ومنها طاعات نضالية ، « وسبيل الله » هى سبيل الحق والحرية والعدل والعزة ، فمقاومة الباطل وتأييد الحق جزء من الجهاد فى سبيل الله ، ومقاومة الاعتداء والاحتلال والبغى جزء من الجهاد فى سبيل الله ، وتحقيق الحرية للنفس والأهل والوطن جزء من الجهاد فى سبيل الله ، ونشر العدالة الاجتماعية وبث روح التعاون والأخوة والمحبة فى المجتمع جزء من الجهاد فى سبيل الله ، وحسن السعى للتعمير والتثمير فى مجالات الزراعة والصناعة والتجارة والبناء جزء من الجهاد فى سبيل الله ، ورفع لواء العزة والكرامة جزء من الجهاد فى سبيل الله ، والحق جل جلاله يقول لعباده : « ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين » .

ثم يقول أخيراً فى آية أخرى عن هؤلاء المؤمنين : « أولئك هم الصادقون» أى هؤلاء الذين وصفناهم بما سبق من صفات جميلة ، هم وحدهم الذين صدقوا فى قولهم إننا مؤمنون ، فهم الصادقون فى عقيدتهم لأنهم يعتقدون الحق ، وهم الصادقون فى قولهم لأنهم ينطقون بكلمة الصدق ، وهم الصادقون فى أعمالهم لأنهم مخلصون لا ينافقون الخلق ، وهذا عمر بن الخطاب رضى الله عنه يبدو لنا أحد الأمثلة على صدق الإيمان ، فقد دخل فى الإسلام والمسلمون قلة مستضعفة تكتم إيمانها أمام كثرة الطغيان والكفران ، ومع ذلك قال للنبى : يا رسول الله ألسنا على الحق إن متنا أو حيينا ؟ فأجابه : نعم ، والذى نفسى بيده إنكم على الحق إن متم وإن حييتم . فقال عمر : ففيم الاختفاء ؟ والذى

بعثك بالحق لنخرجن . وخرج المسلمون لأول مرة فى تاريخ الدعوة ، يعلنون ثورتهم على البغي والظلم ، ويقفون صراحة فى وجه الطغيان والكفران ، ويعلنون مبادىء الحق والعدل، وقيم الحرية والعزة والكرامة واحتمل المؤمنون الأوائل ما احتملوا من متاعب ومصاعب ، حتى قضوا على الباطل ، ونصروا الحق ، ودخل الناس فى دين الله أفواجاً ، وجاء نصر الله والفتح ، ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام : إن لصدق الإيمان حقوقاً وتبعات ، منها أن يكون الإنسان على علم وبصيرة ، لأن الإيمان نور وضياء : « قد جاءكم من الله نور كتاب مبين » وأن يكون شاعراً دائماً بأنه جزء من كل ، فينصف من نفسه ، ويتعاون مع غيره ، ويذكر حق غيره كما يذكر حق ذاته ، والرسول يقول : « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه » . ويقول : « المؤمن من أمنه الناس على دمائهم وأموالهم » ، ويقول : « ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان : أن يكون الله ورسوله أحب إليه مماسواهما وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله ، وأن يكره أن يعود إلى الكفر كما يكره أن يقذف فى النار » . واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون ، إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون .

المؤمن ابن وقته

الحمد لله عز وجل ، أظهر آثار قدرته فى كل مكان ، وأبدى أنوار هدايته فى كل أوان : « وهو الذى جعل الليل والنهار خلفة لمن أراد أن يذكر أو أراد شكوراً » . أشهد أن لا إله إلا الله ، « رب المشرق والمغرب لا إله إلا هو فاتخذه وكيلا » ، وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، أخلص لربه قلبه ، فمنحه رضاه وحبه ، فصلوات الله وسلامه عليه ، وعلى آله وأصحابه ، وأتباعه وأحبابه ، « وإن الله لهادى الذين آمنوا إلى صراط مستقيم » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام :

سألنى سائل فقال : سمعتك منذ حين تقول : المؤمن ابن وقته ، فما معنى هذا القول ؟ . ولكى نفهم معناه ينبغى أن نعرف أن الوقت هو الزمن المفروض للعمل ، والشيء الموقوت هو المحدد المربوط بزمن مقدر ، ومن هنا جاء قوله تعالى : « إن الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً » أى فريضة مكتوبة لازمة محددة المواعيد والمواقيت ، فإذا قيل إن المؤمن ابن وقته ، فمعنى هذا أنه يسير فى حياته على خطة ونظام ، فهو يستغل كل مقدار من وقته ، ويؤدى كل عمل فى زمنه ، دون إبطاء أو تسويف ، دون اضطراب أو تخليط ومن هنا قال الصوفى الجليل أبو حفص النيسابورى : « لكل وقت أدب ، فمن لزم آداب الأوقات بلغ مبلغ الرجال » وقال الصوفى الجليل الحارث المحاسبى : « أكثر شغل الحكيم فيما يوجبه عليه الوقت الذى هو أولى به فيه » .

ولو نظرنا لوجدنا أن الحياة أنفاس تتردد وتتعدد ، وآمال تضيع إن لم تتحدد ، ودقات قلب المرء فى صدره تشعره فى كل لحظة من لحظاته بأن

هو هذه الدقائق والثواني التي تمر به متوالية متتابعة ، وهي إذ تحاذيه تتعرض له متزينة متهيئة قائلة له : هيت لك ، هأنذا بين يديك ، ، فإن أقبل إليها وحرص عليها انتفع بها واستفاد منها ، وإن غفل عنها حتى تمر فإنها تفر ولا تعود ، وتخلف له من ورائها الحسرة عليها والندامة من أجلها ، ولات حين مندم ، ومن هنا قال الأولون : الوقت كالسيف إن لم تقطعه قطعك .

وأكرم من هذا وأعظم وأقوم قول سيد الإنسانية محمد صلى الله عليه وسلم : « نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس الصحة والفراغ » . والغبن هنا هو الخسران والهوان ، لأن الناس إذا توافرت لهم الصحة ، وامتد أمامهم حبل الفراغ ، ولم يحسنوا استخدام صحتهم في العمل المبرور والسعي المشكور ، ولم يستغلوا فراغهم في الصالحات والطيبات ، فقد باءوا بالفشل الذريع والخسران المبين ، ولذلك حث النبي صلوات الله وسلامه عليه كل مسلم على أن يبادر إلى استغلال وقته وصحته فيما يفيد ، ويدخر له عند ربه فينفعه يوم لا ينفع فيه مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم ، فقال رسول الله : « اغتنم خمسا قبل خمس : حياتك قبل موتك ، وصحتك قبل سقمك ، وفراغك قبل شغلك ، وشبابك قبل هرمك ، وغناك قبل فقرك » . وتظهر قيمة هذه النصيحة النبوية الغالية كل الظهور حين يتذكر الإنسان أن الحبل الممدود أمامه الذي يمثل أيامه ، ولا يدري متى ينقطع ، ولا يدري إلى أين يمتد ويتسع ، فهو عرضة في كل لحظة وأوان للانقطاع والضياع ، فلابد إذن من انتهاز الفرصة قبل أن تنقلب غصة ، والله جل جلاله يقرع الأسماع بقوله : « وما تدري نفس ماذا تكسب غداً ، وما تدري نفس بأي أرض تموت ، إن الله عليم خبير » .

ولذلك نجد عبد الله بن عمر حينما سمع النبي يقول له : كن في الدنيا كأنك غريب ، أو عابر سبيل ، وعد نفسك من أهل القبور ، نجد أن عمر يهضم هذه العظة ، وينتفع بها ويريد أن ينفع منها سواه ، فقال للمسلم : إذا أمسيت

فلا تنتظر الصباح ، وإذا أصبحت فلا تنتظر المساء ، وقد يزكى كلام ابن عمر هنا أن الإسلام علمنا أن نفهم أن النوم موتة أولى مؤقتة قد تتصل بالموتة الأخرى الممتدة ، ولذلك أرشدنا أدب النبوة إلى أن يقول الإنسان عند استيقاظه من نومه : « الحمد لله الذى أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور » .

والعجيب هنا أن أشياء كثيرة قد تتفلت من يد الإنسان ثم تعود إليه بعد قليل من الزمن أو طويل ، فالمال يغدو ويروح ، والصحة تعتل ثم تقوى ، والمتاع نيد ثم يسترد ، ولكن الوقت هو الشيء الوحيد الذى لا يمكن استرجاعه ولا استرداده بأى حال من الأحوال ، فمتى مر فقد ضاع وضاع وضاع ، وشبع ضياعاً إلى أبد الآبدين ودهر الداهرين ، فليس إلى عودته من سبيل ، ولذلك قال الحسن البصرى : ما من يوم ينشق فجره وتشرق شمسه إلا وينادى يا ابن آدم ، خلق جديد ، وعلى عملك شهيد ، فاغتنمنى ، وتزود منى ، فإنى لا أعود إلى يوم القيامة . وقال الإمام الجنيد : « الوقت إذا فات لا يستدرك ، وليس شىء أعز من الوقت » ، وأشار أحمد شوقى إلى أن أمس الذى يسبق يومك الحاضرة مباشرة ، تساوى فى قدمه مع أيام « عاد » التى مضت منذ آلاف السنين ، فالماضى كله واحد فى أنه ذهب ولن يعود ، يقول شوقى :

وأمس كعاد ، وإن كان منك قريب الخيـــال لطيف الصور

وإذا عاش المؤمن فى وقته ، فشغله بالطيب ، وعمره بالخير ، واستوعب الانتفاع به ، لم يلتفت إلى الماضى ليتفجع عليه أو يحزن ، ولم يتلهف على المستقبل يريد أن يعرفه قبل أوانه ، وهو يرضى بحاضره ، ويراه فرصة سانحة قائمة ينتهزها وستنجزها ، ومتى سيطرت هذه النزعة الراضية المتفتحة على الإنسان جعلته سلطاناً ولو كان فى زى المملوكين ، وهذا هو أبو حازم الصوفى يشير إلى مثل هذا المعنى حين يقول : بينى وبين الملوك يوم واحد ،

أما أمس فلا يجدون لذته ولا أجد شدته، وأما الغد فإنى وإياهم منه على خطر، فما هو إلا اليوم، فما عسى أن يكون؟. ولعل هذا هو المعنى الذى قصده من قال :

ما مضى فات، والمؤمل غيب ولك الساعة التى أنت فيها

وما أسرع مرور هذه الساعة، وما أشد الحسرة عليها غداً إذا لم ننتفع بها، وما الحياة إلا ساعة تتكرر فى المجىء والرحيل، ولذلك ورد فى الأثر «الدنيا ساعة فاجعلوها طاعة» وإذا لم يستجب المرء لهذا التوجيه فإن بين يديه عقبة كؤود استشعره بهذا حين لا ينفع الشعور : «ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون ما لبثوا غير ساعة كذلك كانوا يؤفكون»، «كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها».

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام : المؤمن ابن وقته، يجب أن يحسن الشعور به والسعى فيه، وأن يأخذ منه كل ما يستطيع من فائدة، ولو عاش كل مؤمن فى وقته حقاً، فعمره كله بالتفكير السليم، والقول الكريم، والعمل العظيم، والتصرف القويم، لصار إنتاجنا المادى والفكرى والروحى أضعافاً مضاعفة. ولرأى الإنسان عمره طويلا ممدوداً، وإن كان فى حساب السنوات قليلا محدوداً، وعلى الله قصد السبيل ومنها جائر، ولو شاء لهداكم أجمعين. واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون، إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون.

الاسلام والطغيان

الحمد لله عز وجل ، يحب العدل وشيعته : « إن الله يحب المقسطين » ، ويمقت الطغيان وأهله : « ويوم القيامة ترى الذين كذبوا على الله وجوههم مسودة ، أليس فى جهنم مثوى للمتكبرين » . وأشهد أن لا إله إلا الله ، هو ولى المؤمنين وقاهر المجرمين : « أفمن كان مؤمناً كمن كان فاسقاً ؟ لايستوون» وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، كان نبي الرحمة مع المستضعفين ، وكان نبي الملحمة مع الجبارين ، فصلوات الله وسلامه عليه ، وعلى آله وصحبه ، وجنوده وحزبه : « الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام :

إن وظيفة الأمة المؤمنة هى أن تعرف الحق وتؤمن به وتعمل بمقتضاه ، وتحمل غيرها عليه وتوطد دعائمه فى هذه الحياة ، والحق لابد له من قوة تحرسه وتصونه ، وحصانة تؤيده وتذود عنه ، لأن الحق الضعيف الأعزل لا يستطيع أن يقود أو يسود أمام باطل يتجبر أو بهتان يتنمر ، ولذلك كان من واجب الأمة المؤمنة أن تؤيد الحق أينما كان ، وأن تجاهد الباطل كيفما كان ، وأن تمجد المعروف وتمهد له سبله ، وأن تقاوم المنكر وتثور عليه فى مخابئه أو معاقله ، ومن هنا قال القرآن الكريم : « ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ، ويأمرون بالمعروف ، وينهون عن المنكر ، وأولئك هم المفلحون» وقال الرسول عليه الصلاة والسلام : « من رأى منكم منكراً فليغيره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه ، وذلك أضعف الإيمان » .

وإذا استضاءت الأمة بنور ربها وهدى كتابها وسنة رسولها ، فنصرت الحق ، وأيدت المعروف ، وقاومت المنكر ، تحققت الحياة الفاضلة السعيدة ، بما يعمرها ويزينها من إيمان وتقوى وعمل صالح ، ومساواة بين العباد ، وتحرر من الخوف والعوز والاستبداد واعتصام بحبل الله وهدى رسوله .

وإن من أكبر الكبائر أن ترضى الأمة المؤمنة فيما بينها بظلم للناس ، أو هضم للحقوق ، أو استبداد بعباد الله ، لأن ربها هو أوعدل العادلين ، وكتابها هو الذى رسم الصراط المستقيم ، ودعوتها هى الدعوة التى تقوم على القسطاس ، ولا ترضى بالظلم ، ولا تسكت على الإذلال فى أية صورة من صوره : « ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين » . فإذا تعرض فريق من أبناء الأمة لبغى بغاة ، أو طغيان طغاة أو تحكم مستبدين ، أو إسراف مستغلين ، كان من واجب الأمة المؤمنة أن تهرع إلى نصرتهم ، والدفاع عنهم ، وتأديب الظالم لهم ، وقمع المتطاول عليهم ، لأن الرسول عليه الصلاة والسلام يقول : « الله فى عون العبد ما كان العبد فى عون أخيه » . ويقول : « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً » . ولو فرض وحدث ما لا يصح أن يكون ، ولا يجوز أن يحدث ، وهو تقاتل طائفتين من أبناء الأمة بتحريض من المفسدين ، أو تأليب من الخونة الماكرين ، أو تأكيد من الطغاة المجرمين فإن القرآن يهدينا السبيل فى هذا المجال حيث يقول : « وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما ، فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التى تبغى حتى تفيء إلى أمر الله ، فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل ، وأقسطوا إن الله يحب المقسطين » . فواجب الأمة المؤمنة إذن أن تبدأ فتتلمس أسباب الصلح المفضى إلى الإصلاح والعدل ، دون أن يكون هذا الصلح متضمناً الرضا بظلم للناس ، أو هضم لحقوق الأمة ، أو تضييع لمصالح العباد ، أو إفساد فى البلاد ، فإن لم يجد الصلح ، وركب المجرمون والمفسدون رءوسهم ، وأصروا

على جبروتهم وإسراف شهواتهم ، وبغت إحدى الطائفتين على الأخرى فالواجب مقاتلة الفئة الباغية ، حتى ترتدع عن بغيها ، وتقلع عن ظلمها ، وتعود إلى صراط الحق والعدل ، وتأتمر حقاً وصدقاً بأمر الله ورسوله ، وهنا ينتصر الحق ، وتعلو كلمة العدل ، وتصان حرمة الأمة ، ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم : « انصرأخاك ظالماً أو مظلوماً » . فقال رجل : يا رسول الله ، أنصره إذا كان مظلوماً ، أفرأيت إن كان ظالماً كيف نصره ؟ فقال النبي : « تمنعه من الظلم ، فإن ذلك نصره » ! .

وإن من كبريات الجرائم وفظائع المآثم أن يستعين بعض أبناء الأمة على بعضها فى الصراع والنزاع بغير مسلم ، فإذا جاز مثلا لمسلم أن يستنصر بمسلم أخ له فى دفع أذى الأعداء أو الدخلاء أو المفسدين فى الأرض وإن انتسبوا إلى الإسلام ، فكيف يتصور عاقل فى دنيا الإسلام أن يستعين مسلم بغير مسلم على مقاتلة فريق من أبناء الإسلام لا ذنب لهم ولا جريرة سوى أنهم يأتون الضيم ، ويريدون حياة العزة والحرية والكرامة ، مع أن الله تبارك وتعالى يقول : « ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا » ويقول قبيل ذلك : « بشر المنافقين بأن لهم عذاباً أليماً ، الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ، أيبتغون عندهم العزة ؟ فإن العزة لله جميعاً » . وقال الرسول : « لن أستعين بمشرك » وهذا فى الاستعانة بمشرك ضد مشرك ، فكيف لو كانت الاستعانة بمشرك ضد مؤمن ؟ . لقد أسرفوا إذن « ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالا بعيداً » .

ولعل سائلا يسأل عن سر ما يثور من فتن كقطع الليل المظلم بين أبناء الأمة المؤمنة ، ولو دققنا النظر لوجدنا أن معظم السبب فى ذلك هو الطغيان والاستبداد ، وبخاصة إذا كان فى مجال الولاية والحكم ، لأن الوالى الطاغى المستبد تعميه الأنانية ويسيطر عليه حسب الذات ، فيخيل إليه أن الناس أمامه

غنم أو دواب قد ورثهم عن آبائه وأجداده، فهو يريهم ألوان العنف ويذيقهم أنواع العذاب، وقد أبان لنا الإسلام أن الفرد الحاكم أو الملك الغاشم إذا طغى وبغى، ولم يجد من يقمعه أو يردعه، فسدت الأمور واضطربت الأحوال وذل الرجال وضاعت كرامات الناس ومن هنا جعل الإسلام السلطة للأمة لا للفرد، منها يكون أهل الحل والعقد، ومنها تكون البيعة والمؤازرة، ومنها تكون الشورى والرأى: «أمرهم شورى بينهم»، «وشاورهم فى الأمر» والحديث يقول: «يد الله مع الجماعة». والحاكم ليس إلا فرداً جعلته الأمة فى خدمتها، فإن رعى الأمانة وأدى الواجب وحفظ الحقوق كان له على الأمة السمع والطاعة، وإن أراد أن يستبد فتجبى له الأموال، وتقطع أمامه الرقاب، ويستغل فيجمع ولا يفرق، كان على الأمة أن تخلعه وتستبدل به غيره ممن يكون صالحاً فيها مصلحاً لها، يحقق فى جنباتها الحياة الفاضلة، والعدالة الاجتماعية، والأخوة الإسلامية، والمساواة الكريمة بين الناس، وهكذا نرى أن الولاية على الناس فى نظر الإسلام ليست غنماً أو ظلماً أو هضماً، وإنما هى تعب وسهر، وصلاح وإصلاح لمن يصلح لها، أو ينهض بتبعاتها، ويكسب رضا الناس عنه، وينال مبايعتهم الحرة له:

والدين يسر، والخلافة بيعة   والأمر شورى، والحقوق قضاء

ولقد شدد الإسلام فى تحذيره لمن يلى أمور الناس أن يبغى أو يطغى، فعن أبى ذر قال: يا رسول الله، ما كانت صحف إبراهيم؟ قال: «كانت أمثالا كلها: أيها الملك المسلط المبتلى المغرور، إنى لم أبعثك لتجمع الدنيا بعضها على بعض، ولكنى بعثتك لترد عنى دعوة المظلوم، فإنى لا أردها ولو كانت من كافر». وقال الرسول: «ما من أمير عشرة إلا يؤتى به مغلولا يوم القيامة، حتى يفكه العدل، أو يوبقه الجور، وإن كان مسيئاً

زيد غلا فى غله » وقال : « أحب الخلق إلى الله إمام عادل ، وأبغضهم إليه إمام جائر » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام : إن واجبنا متى أتانا الله القوة والقدرة أن نبذل طاقتنا فى توحيد كلمتنا وإعزاز أمتنا ، ودفع الظلم والظالمين عنها ، ومقاومة الفساد والمفسدين فيها ، وأن نعمل كل ما نستطيع لإشاعة العدالة فى كل صقع من أصقاعها ، وبقعة من بقاعها ، ملتزمين أولا وقبل كل شىء هدى الله ورسوله ، مخلصين النية والقصد ، عاقدين الهمة والعزيمة على أن ننصر الحق أينما كان ، وأن نخذل الباطل مهما كان ، « وعلى الله قصد السبيل ومنها جائر لو شاء لهداكم أجمعين » . واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون ، إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون ، أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم ، سلوا ربكم التوفيق يستجب لكم .

ماذا يقرأ المسلم ؟!

الحمد لله عز وجل ، يهب المنح والملكات ثم يحاسب على استعمالها ، ويعطى النفوس القدرة ثم يسألها عن أعمالها : « من عمل صالحاً فلنفسه ، ومن أساء فعليها ، وما ربك بظلام للعبيد » . نشهد أن لا إله إلا الله ، يصنع الموازين القسط ليوم القيامة فيثبت بالكرامة وتعاقب بالندامة ، وهو خير الحاسبين ، ونشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، صان نفسه فزكاها ، وطهر روحه فأعلاها فكان من زين المتقين وشمس المهتدين ، فصلوات الله وسلامه عليه ، وعلى آله الغر الميامين ، وأصحابه الأئمة الغالبين ، وأتباعه الصابرين المحتسبين : « أولئك يسارعون فى الخيرات ، وهم لها سابقون » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام :

جلست إلى ناشر كتب ، وأخذت أسأله عن حالة الكتب والقراءة فى العالمين العربى والإسلامى ، فكان مما ذكره أن أروج الكتب الآن وأكثرها شيوعاً وانتشاراً صنفان من الكتب هما الكتب الإسلامية الجديدة المتحررة الثائرة ، وكتب الغرام الخليع والحب المكشوف . . . ومعنى هذا أيها الإخوة أن هناك الآن معسكرين ، كل معسكر منهما يبتلع صنفاً من هذين اللونين المتناقضين ، فمعسكر الرحمن يطلب غذاءه فى كتب قوية حية تتحدث عن ملة الله تعالى كأنها لا تزال قريبة عهد بنزولها من السماء ، فالحديث عنها غض نابض بالقوة والنشاط ، منزه عن التحريف والتبديل بعيد عن سوء الاستغلال والتعليل ، وعلى الجانب الآخر يقف معسكر الشيطان يتلقف بأيديه الأثيمة الملوثة ما تخرجه المطابع العابثة من قصص النساء الفاجرة وروايات الفحش السافرة ، فهل سأل كل منا نفسه عن موقفه من هذين المعسكرين : أو فقه الله

تعالى فكان فى معسكر الرحمن الذى زكى نفسه ، وطهر ساحته ، ونزه خلقه عن الخنا والضلال ، فيحمد الله تعالى على ذلك ، ويزداد من الخير أضعافاً ما استطاع ، أم كتبت عليه الشقوة فكان من معسكر الشيطان يحطم معانى ونوازع الفضيلة بمعاول الإثم والمنكر ، فيسأل الله تعالى أن ينقذه من وهدة الوبال ، ويبذل وسعه ليستقيم على سبيل الأخيار من الرجال ؟ . .

إن القراءة هى الباب الأول للعلم والمعرفة ، ولذلك كانت أول كلمة نزلت من القرآن المجيد كلمة « اقرأ » لأن من قرأ مستقيماً علم الحق ، ومن علم الحق عرف ربه ، ومن عرف ربه فقد اهتدى ، ولقد كان أسلافكم الأماجد يسامرون الكتب القيمة ليلا ونهاراً ، فتشغلهم عن طعامهم وشرابهم وتستغرق أغلب أعمارهم ، وتنسيهم كل لهو ولذة ، ونسيطر عليهم حتى فى سكرة الموت وساعة الرحيل ، فقد قيل للإمام الخوارزمى عند موته : ما تشتهى ؟ . . فأجاب : النظر فى حواشى الكتب . . . وكانوا يحسنون اختيار ما يقرءون حتى يستفيدوا نفعاً فى أخلاقهم أو معارفهم أو تجاربهم فى الحياة ، وكان القرآن هو الكتاب الأول الذى يحتل الصدارة عند المطالعة ، ففيه الملة والأخلاق والأدب والتاريخ ، وفيه التذكرة العازلة عن رحاب الشر ومباداءات الفساد ، ولذلك قال الله تعالى : « وإذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجاباً مستوراً » وقال : « فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم » ووصف الذين لا يتدبرون الآيات بموت القلوب وانغلاقها فقال : « أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها » . . .

وكذلك حرص الأوائل على حسن الاختيار فيما يقرءون من صحف وكتب ، لأنهم سمعوا ربهم يحذرهم من سواء استعمال الأعضاء فى غير ما شرعت له من حق وصدق ، فيقول : « إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا » ولأنهم رأوا ربهم حينما أمر بالقراءة فى قوله : « اقرأ » قد قرن هذا

الأمر بما يذكر القارىء بربه الذى أبدعه وصوره ، والذى أنشأه من دم غليظ متجمد ، وبما يذكره بكرم ربه الوافى الذى يجب أن يقابل بحسن الاستعمال وجميل الشكران ، وبأنه أنعم عليه بنعمة القلم الكبرى ليعلمه من أسراره وأخباره ما لم يكن يعلم ، فقال فى أسلوب كله تمجيد للقراءة السامية الطاهرة : « اقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الإنسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم ، الذى علم بالقلم ، علم الإنسان ما لم يعلم » . . ثم حذر المولى سبحانه فى الموقف نفسه ، من الطغيان والاغترار ، أو الانحراف فى التسيار ، فإن إلى ربك القرار ، فقال : « كلا إن الإنسان ليطغى ، أن رآه استغنى ، إن إلى ربك الرجعى » .

ومن هنا استجاب الأوائل لهذا التوجيه الإلهى الحميد ، فجعلوا المطالعة لوناً من ألوان العبادة ، تعرفهم بربهم ، وتقربهم من رضوانه ، وتزيدهم إيماناً بجلاله وسلطانه ، فليت شعرى هل بقى الأخلاف على سنة الأسلاف ، أم أصابهم الضلال والانحراف ، فاتخذوا قرآن ربهم مهجوراً ، وهدى نبيهم أمراً قديماً مقبوراً ، وكتب حكمائهم شيئاً ثقيلا عسيراً ، ثم أقبلوا يعبون من منبع ملوث ويطالعون سخافات وضلالات تزيدهم إباحية وتحللا ، وإعراضاً عن رحمن الدنيا والآخرة ؟ ! . .

ومن عجب أيها الإخوة أننا نشكر فساد الأسرة ، وتهتك النساء ، وسفه البنات ، وشذوذ الأبناء ، ونجهل أو نتجاهل أننا نحن الذين حملنا إليهم طوعاً واختياراً جراثيم هذه العلل وأسباب هذه النكبات . . . نحن الذين حملنا إلى دورنا ومخادع نسائنا وبناتنا ومكاتب أبنائنا تلك المجلات التى تنشر الصور المثيرة الخليعة وأخبار الفضائح العائلية والأسرار المنزلية ، وتلك الروايات الخبيثة التى تعلم الشبيبة منذ الصغر الخروج على الآداب ، والاستخفاف بالعفاف ، وهتك الأعراض ، والتخلص من الجرائم ، والاستهزاء بالفضائل

والمكارم . . . نحن الذين سخرنا بالمجلات الدينية والكتب الأخلاقية الرقيقة فأعرضنا عنها وأهملناها وشجعنا سواها ، حتى بارت وكسدت أسواقها، ولف التجار فى أوراقها الفول والشعير « والطعمية » ، بينما راجت كتب الخلاعة وصحف المجانة ، حتى صارت تتباهى بأنها توزع من كل عدد مئات الألوف نحن الذين صنعنا الداء فكيف نشكو منه أو نطيل البكاء ؟ ! . .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

إن المعركة تدور رحاها بين الكتب الإسلامية والكتب الخليعة فلينظر كل منا أين يكون ؟ . . سائل نفسك يا منتسبا إلى محمد صلى الله عليه وسلم عن الصحيفة التى تقرؤها ما لونها ، وعن المجلة التى تطالعها ما نصيب الدين والفضيلة فيها ، وعن الكتاب الذى تدفع فيه قروشك ، ما صلته بعقيدتك ووطنيتك وثقافتك السليمة ، فإنه ملعون كل من أضاع ماله أو وقته فى سموم يسمونها كتباً أو قصصاً ، وهى فى الواقع معاول تهدم الأخلاق وتضلل العقول . . . وسائلوا أنفسكم يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام عن سيد الكتب ومنبع الهداية ومرجع الثقافة كلها ، سائلوا أنفسكم عن القرآن الغريب فى دياره ، المضيع بين ورثته . . أين مصاحفه من دوركم ؟ وأين أجزاؤه من أبنائكم ، وأين حفاظه فيكم ، وما هو مستقبله على أيديكم ، فالمدافعون عن حفظ القرآن وتثبيت ثقافته قليلون ، وجنود الإفساد كثيرون ، فستذكرون ما أقول لكم ، وأفوض أمرى إلى الله ، إن الله بصير بالعباد . . واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون ، إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون . . .

كيف نتعامل مع الاسلام ؟!

لله الحمد ، هو خالقنا وبارئنا ، ومولانا ومنتهانا ، سبحانه يحق الحق بكلماته ، ويؤيد جنده بآياته : « فاصدع بما تؤمر ، وأعرض عن المشركين ، إنا كفيناك المستهزئين ، الذين يجعلون مع الله إلهاً آخر ، فسوف يعلمون » . نشهد أن لا إله إلا أنت ، أتممت لعبادك النعمة ، وحذرتهم من موجبات النقمة : « ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه ، وهو فى الآخرة من الخاسرين » . ونشهد أن سيدنا ومولانا محمداً عبدك ورسولك ، كان مثال الحكمة والفطانة ، وعنوان التعقل والرزانة ، وهو القائل : « لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين » . فصلواتك اللهم وسلامك عليه وعلى آله البررة الأتقياء ، وأصحابه الخيرة الأذكياء ، وأتباعه المهتدين بأنوار السماء ، « ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا فإن حزب الله هم الغالبون » .

يا أتباع محمد عليه السلام . . .

مسكين والله بيننا هذا الإسلام الأصيل النبيل ! . . ما أشد غربته وأقسى محنته ، وأثقل كربته بين أبنائه المعاصرين الذين يسمون أنفسهم بالمسلمين ! . . وما أشبه الإسلام الغريب بيننا بالرجل الكريم الحر العظيم الذى ضيعه قومه ، وجهله أهله ، واستخف به من حوله ، لأنه من أولى الفضل ، وأولو الفضل دائماً فى أوطانهم غرباء ، ويظل هذا النبيل مضيع الحق مهدور الكرامة ، حتى يحتاج إليه الناس وعندئذ يقبلون عليه ويحتفلون به ، ويتزلفون إليه ويتغزلون ، ويطالبونه بأن يسعى لهم ، ويتعب من أجلهم ، ويضحى فى سبيلهم ، فلا يتأخر ولا يدحر وسعاً ، بل يسارع فى الخيرات يصطنعها ، ويقدمها إليهم بلا من أو استعلاء ، فإذا ما قضوا منه وطرا أرادوه ، عادوا

إلى الأعراض عنه والاستخفاف به ، حتى يحتاجوا إليه مرة أخرى ، فيعود إلى رحابه منافقين متملقين ، فكأنه القائل :

وإن الذى بينى وبين بنى أبى ... وبين بنى عمى لمختلف جـــدا
أراهم إلى نصرى بطاء ، وإن همو ... دعونى إلى نصر أتيتهم شــــدا
فإن يأكلوا لحمى وفرت لحومهم ... وإن يهدموا مجدى بنيت لهم مجدا
وإن زجروا طيراً بنحس تمر بى ... زجرت لهم طيراً تمر بهم ســـعدا
وإن ضيعوا غيبى حفظت غيوبهم ... وإن هم هووا غيي هويت لهم رشدا
ولا أحمل الحقــــد الدفين عليهم ... فليس رئيس القوم من يحمل الحقدا
لهم جل ما لى إن تتابع لى غنى ... وإن قل ما لى لم أكلفهم رفدا !

نعم أيها الناس . . نحن نحتاج إلى الإسلام وهو مصدر كل خير ومنبع كل بر ، نحتاج إليه لنستغله لهوى من أهواء أنفسنا ، أو أمل من آمال مطامعنا ، أو لندفع بسلطانه منيراً يحيق بنا ، أو نتجنب بحمايته كارثة تسعى إلينا ، فترانا وقد لبسنا مسوح الرهبان وعمائم الشيوخ ، ونتخذ مظهر الإسلام فى أمورنا ، ونسعى إلى رحابه مبدين الخشوع والخضوع ، ونتملق رجاله فى حبكة يعجز عنها أبرع الممثلين ، ونتخذ منهم مصانع للفتوى تنتج لنا ما نريد، فبيان يناهض هذا المبدأ ، وبيان يحرم ذلك التصرف ، وفتوى تسد ذلك الباب ، وتأويل يمنع ذلك الخطر المرتقب ، وهكذا نجند فى ركابنا ـــ ونحن قادرون مقتدرون ـــ نصوص الدين ورجاله وقواه لتثبيت الهوى ، أو تسويغ التصرف ، أو حراسة ما يخشى عليه الضياع ، أو الاستكثار عن عريض المتاع ، فإذا انتهينا من رغبتنا . ووصلنا إلى شهوتنا ، واطمأننا على منفعتنا ، استغنينا عن الإسلام ورجال الإسلام وصراط الإسلام ، فترانا حينئذ ننساه ، أو فى الأصح نتناساه ، وتهمل فروضه ونضيع أصوله . ونتألب على دعاته

ونستهزىء بحماته ، ونحاول أن نهدم ما استقام من بنيانه ، وأن نقوض ما سما من هيكله وإيوانه . . . وفى سرعة عجيبة ينقلب فى نظرنا الإسلام الذى كنا نتغنى بجماله وجلاله وكماله ، وحلاوته وعذوبته ورقته ، حينما احتجناه لمصالحنا ومنافعنا ودرء الخطر عنا ، إلى دين عتيق قديم ، وشرعة صحراوية قاسية ، ونظام عنيف خطير ، حينما يطالبنا بواجباته وتبعاته ، وبذلك نكون مسلمين متحمسين عندما يكون الإسلام وسيلة فعالة لوصولنا إلى حقوقنا أو مطامعنا ، ونكون غير مسلمين حينما يكون الإسلام غرما علينا لا غنماً لنا : « وإذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم إذا فريق منهم معرضون ، وإن يكن لهم الحق يأتوا إليه مذعنين » ! .

وها هو الإسلام مثلا يصرخ كل يوم فى آذان الذين استغلوه أسوأ استغلال ، وأخذوا باسمه ما أخذوه ، وأكلوا من مائدته ما أكلوا ، بأن هناك إلحاداً وفسوقاً وربا وقماراً وخمراً وتهتكاً وظلماً وهضما واستبداداً ، وهذه مآثم لا أرضاها فارعوا حرمتى بالقضاء عليها ، ولكن هذه الصرخات المقدسة لا تستجاب من أصحاب القبور ، لأن الاستجابة لها تؤدى إلى تعب ونصب ، وهم غواة لهو ولعب ! . .

وهل سمعتم بآخر « تقليعة » وأحدث وقيعة تحاك خيوطها للإسلام والمسلمين ؟ . .هل سمعتم أن المسيحية الأوربية ممثلة فى زعامتها الروحية والمادية تخطب ود الإسلام لتتعاون معه على إقرار السلام المزعوم فى الأرض وتريد من رجال الإسلام هنا وهناك أن يجندوا أنفسهم وقواهم معها لذلك الهدف الأوربى ، الذى لا ناقة لنا فيه ولا جمل ؟ . . وهل سمعتم أن الغرب الخبيث الخداع بدأ يتحبب إلى الإسلام ، ويطلب نجدته ، ويطيل الحديث عن سلطانه وتأثيره فى العالمين ؟ . . ولماذا يتذأب الغرب ويتثعلب بهذا الأسلوب اللئيم ؟ . إنما يفعل ذلك لأنه يحس الخطر المحدق والهول المقبل والطامة

الكبرى . . . يحس بخطر الشيوعية المجرمة والزحف الأصفر والنزال الأكبر ، فهو يريد من الإسلام والمسلمين أن يتعاونوا معه على درء هذه المخاطر ، والنجاة من تلك المآزق ، ومعنى ذلك بصريح العبارة يا من تعقلون ،أن الإسلام يراد اليوم ليكون مطية ذلولا يعبر عليها طواغيت الغرب اللئام إلى ما يريدون ، وبعد أن يصلوا يلفظون المسلمين كما تلفظ النواة إلى الأرض بعد أن يؤكل ما عليها من فاكهة ، وهناك يعود حضرات المسلمين المحترمين المبجلين ، وإن شئت فقل « المغفلين » إلى قواعدهم خائبين منكوبين ، وسيتلفت حضراتهم بعد أن يسخروا ويركبوا وينكبوا ، عن إيمانهم وشمائلهم ليروا تحقيق وعود أعطيت لهم ، أو يقطفوا ثمرات جهود قدمت منهم ، فلا يجدوا إلا خفى المرحوم حنين ، ولا يشاهدوا أمامهم إلا سراباً يظنه الظمآن ماء ، حتى إذا جاءه لم يجد شيئاً ، ووجد الله عنده فوفاه حسابه الشديد العسير ، على ما كان منه من غفلة وسوء استسلام ، وكم مرت علينا أيها الناس فى الماضى القريب والبعيد عبر وأحداث فيها بلاغ لقوم يفقهون ، فأولئك المتناطحون الذين يخدعوننا اليوم ليعتلوا ظهورنا فى سبيل مطامعهم كانوا بالأمس أصدقاء ، ولقد قال قائلهم إنه على استعداد لأن يضع يده فى يد الشيطان ما دام فى ذلك طريق الوصول إلى ما يريد ، فكيف بنا نساق لنكون وقوداً لما بينهم من سعير ! ؟ . .

يا أتباع محمد عليه السلام . . .

المؤمن كيس فطن ، وهو لا يلدغ من جحر مرتين ، والإسلام لا يعطى الدنية فى أمره أبداً ، وهو يحذر أهله من موالاة الذين يخالفونهم فى دينهم من هؤلاء وهؤلاء . ولا يرضى لهم أن يكونوا ذيلا أو مؤخرة ، بل هم يد على من سواهم ، ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون ،

فليحذر أحباؤنا وأشقاؤنا أبناء الإسلام فى كل مكان ، سواء أكانوا رعاة رعايا ، فليحذروا والفخ المنصوب والشرك المحكم ، فقد ذقنا المر والعلقم ، ولنعتصم بحبل الله جميعاً ، ولنتجه بأكملنا فى صفاء ووفاء إلى حقوقنا نحن نبحث عنها ونسترجعها ونعتز بها ، فذلك خير وأبقى ، وذلك أهدى لنا وأجدى : وأقسم ببارىء النسم وخالق الأمم ما يتردد هذا الصوت عن غرض أو مرض ، ولكنها النصيحة الخالصة والتحذير الرفيق ، فستذكرون ما أقول لكم ، وأفوض أمرى إلى الله ، إن الله بصير بالعباد ، واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون .

أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم ، سلوا ربكم التوفيق يستجب لكم :

محتويات الكتاب

